رواية
د.خولة حمدي
غربة الياسمين

قبل شهر واحد

البدايات

"منذ صغرها، توصيها أمّها بألا تتحدّث إلى الغرباء أو تأخذ منهم شيئًا..
لكنها حين التقت ذلك الغريب، رمت بكل وصاياها عرض الحائط"

(2)

رنيم

فتحت رنيم شاكر عينيها بجهد. رفرفت أهدابها في توتر قبل أن تتذكر أين هي. لم يكن تأثير المخدّر قد تبخّر بالكامل، لا تشعر بساقيها بعد. إنّها العملية الجراحية الثانية التي تتعرّض لها خلال هذا الشّهر.. حالتها تدهورت بعد العمليّة الأولى. أمضت بضعة أيام في العناية المركزة قبل أن يقرّر الأطباء تعريضها للجراحة من جديد. حرّكت أصابعها بصعوبة. ما تزال ذراعها ثقيلة. لكنّها جاهدت لتضغط على زرّ نداء المرّضة. مضت لحظات قصيرة من الانتظار قبل أن تدخل هذه الأخيرة مبتسمة:

- هل تحتاجين شيئًا؟
- ألم يتّصل ميشال؟

هزّت المرّضة رأسها علامة النّفي ثمّ قالت مطمئنة:

- ربّما رفض الاستقبال تمرير المكالمة لأنّ حالتك ما تزال غير مستقرّة.

ردّ المرّضات لم يتغيّر في كلّ مرّة سألت فيها عنه، لكنّها لم تكن مطمئنّة. لم تره كثيرًا بعد العمليّة الأولى. اتّصل ليشكرها، مرّة واحدة ثمّ اختفت أخباره. كان كلاهما قد أخذ إجازة مطوّلة، لذلك رجّحت خلوده إلى الرّاحة، وربّما يكون بعض أفراد العائلة إلى جواره. الأمر مختلف بالنّسبة إليها. لا عائلة لديها في فرنسا. لذلك كانت المرّضة تأتي لزيارتها كلّ يوم في شقّتها، حتّى أظهرت الفحوصات حاجتها إلى الإقامة في المستشفى تحت المراقبة، ثمّ إلى جراحة جديدة.

- هل يمكنني استعمال الهاتف؟
- بالتّأكيد.

قرّبت منها المرّضة الجهاز وتشاغلت بترتيب الأغراض لتمنحها بعض الخصوصيّة. استمعت رنيم إلى الرّنين على الطرف الآخر من الخط لثوانٍ طويلة، ثمّ وضعت السّماعة في يأس. لا ردّ. قالت بعد تفكير قصير:

- متى يمكنني المغادرة؟
- لا زلتِ ضعيفة آنستي.. والعملية كانت جدّ دقيقة. لن تغادري السرير قبل أن يفحصك الطبيب المختصّ.
- ومتى يأتي الطبيب المختصّ؟
- ربّما اليوم.. أو غدًا..

زمّت رنيم شفتيها في استياء ثمّ تنهدت في استسلام وأغمضت عينيها. يمكنها أن تنتظر، ميشال سيأتي حتمًا. تريد أن تصدّق ذلك. عرّضت نفسها للخطر لتنقذ حياته. أهدته قطعة من جسدها ليعيش، فهل يطلب يدها حين تغادر المستشفى؟ لا شك لديه الآن في حقيقة مشاعرها تجاهه، وهو سيكون ممتنًا إليها لا ريب. لا تريد أن يرتبط بها من باب الاعتراف بالجميل،

لا.. لكن هذه العملية ستكون سببًا في تمتين علاقتهما، لا شك.
دخلت ممرضة ثانية لتغيير اللحاف وتزويد الأدراج بكميات من القطن واللفافات. اقتربت منها الممرّضة الأولى وبعد أن ألقت نظرة على رنيم التي أغمضت جفنيها وبدا أنها قد استغرقت في النعاس، همست:

- أشفق عليها حقًّا.. تبرّعت له بكليتها، فتحسّنت صحّته وتعكّرت صحّتها.
- هذا ما يسمى الحبّ!
- لكنه لم يسأل عنها منذ ذلك الحين.
- أشفق عليها!
- مسكينة!

هزّت الثانية رأسها في أسف، ثم غادرت الممرّضتان الغرفة. لم يخطر ببال أيٍّ منهما أن همسهما قد وصل إلى مسامع رنيم التي تتظاهر بالنوم وحواسها متيقظة. الممرّضات يشفقن عليها! وهي تهدهد أملًا وهميًّا برؤيته عند بابها في كلّ لحظة! هل يمكن أن يكون قد تخلى عنها؟ لا، لن يفعلها. لقد أهدته كُلْيَةً! سيعود من أجلها، هذا مؤكد! لا شك أنه يرتب أمورًا ما إلى حين تعافيها.
تحاول طمأنة نفسها والتماس الأعذار لغيابه، لكنها لم تستطع السّيطرة على غددها الدّمعيّة المتمرّدة. تسارعت العبرات لتسيل على وجنتيها في صمت. لا يمكنها أن تستسلم للهواجس. يجب أن تتأكد بنفسها وبأسرع وقت. كل دقيقة تمضي هي ستون ثانية إضافية من العذاب النفسي والشكوك. أعصابها متعَبَة من تأثير الجراحة والتخدير، لذلك فإن ردود أفعالها مضاعفة. أخذت نفسًا عميقًا وهي تحاول الاسترخاء.. زفرت بقوّة وسكنت حركتها.
لا تدري كم مضى من الوقت وهي مستلقية في تلك الوضعية. حرّكت أصابعها لتقبض على ملاءة السرير، فاستجابت أطرافها لأمرها هذه المرّة. تنهّدت في رضا. ذهب أثر التخدير وأصبح بإمكانها التحكم في جسدها. أزاحت ساقها اليسرى حتى وصلت إلى حافة السرير وانزلقت برفق في اتجاه الأرضيّة المبلّطة. حين لامست قدماها الحافيتان الأرض، سرت في جسدها قشعريرة باردة. عاد إليها إحساسها.
وقفت بصعوبة واتجهت إلى خزانة الملابس. ارتدت سروالًا وسترة فوق مريلة المستشفى، تناولت حقيبة يدها ثم أطلّت برأسها من باب الغرفة. كانت الحركة هادئة في الممرّ. تسللت في هدوء ومشت بأسرع ما تقدر حتى وصلت إلى بوابة المستشفى الخارجيّة. وقفت تلتقط أنفاسها. المسافة التي قطعتها لم تكن كبيرة، لكنّها تشعر بإرهاق شديد من الجهد المبذول. تنتظر يومًا إضافيًا حتى يعاينها الطبيب المختصّ؟ ستموت من الشك والقهر قبل ذلك!
أشارت إلى أول سيّارة أجرة، وأعطت السائق عنوان شقة ميشال، ثم سرحت بنظراتها عبر النّافذة الزّجاجيّة. حين جاءت إلى مدينة مرسيليا الفرنسيّة منذ سنتين، كانت مخيّلتها مليئة بالأحلام، المهنيّة والشخصيّة. بعد دراستها الجامعيّة القاهريّة، توصّلت إلى استنتاج مفاده أنّ الشّباب المصريّ قاطبة على قدر وافر من التّفاهة والسّطحيّة! عمّمت دون تردّد وقرّرت أنّها لن ترتبط بعربيّ أبدًا. سافرت إلى فرنسا وهي تمنّي النفس بلُقيا فارسها الأشقر، الذي سيأخذ بيدها إلى عالم من الرّومانسيّة الغربيّة. كانت ذاكرتها مترعة بمخزون سخيّ من الأفلام الأجنبيّة، وفكّرت أنّه سيكون من الرّائع أن تعيش أحداث أحدها على

لا.. لكن هذه العملية ستكون سببًا في تمتين علاقتهما، لا شك.
دخلت ممرضة ثانية لتغيير اللحاف وتزويد الأدراج بكميات من القطن واللفافات. اقتربت منها الممرّضة الأولى وبعد أن ألقت نظرة على رنيم التي أغمضت جفنيها وبدا أنها قد استغرقت في النعاس، همست:
- أشفق عليها حقًّا.. تبرّعت له بكليتها، فتحسّنت صحّته وتعكّرت صحّتها.
- هذا ما يسمى الحبّ!
- لكنه لم يسأل عنها منذ ذلك الحين.
- أشفق عليها!
- مسكينة!
هزّت الثانية رأسها في أسف، ثم غادرت الممرّضتان الغرفة. لم يخطر ببال أيٍّ منهما أن همسهما قد وصل إلى مسامع رنيم التي تتظاهر بالنوم وحواسها متيقظة. الممرّضات يشفقن عليها! وهي تهدهد أملًا وهميًّا برؤيته عند بابها في كلّ لحظة! هل يمكن أن يكون قد تخلى عنها؟ لا، لن يفعلها. لقد أهدته كُلْيَةً! سيعود من أجلها، هذا مؤكد! لا شك أنه يرتب أمورًا ما إلى حين تعافيها.
تحاول طمأنة نفسها والتماس الأعذار لغيابه، لكنها لم تستطع السّيطرة على غددها الدّمعيّة المتمرّدة. تسارعت العبرات لتسيل على وجنتيها في صمت. لا يمكنها أن تستسلم للهواجس. يجب أن تتأكد بنفسها وبأسرع وقت. كل دقيقة تمضي هي ستون ثانية إضافية من العذاب النفسي والشكوك. أعصابها متعَبَة من تأثير الجراحة والتخدير، لذلك فإن ردود أفعالها مضاعفة. أخذت نفسًا عميقًا وهي تحاول الاسترخاء.. زفرت بقوّة وسكنت حركتها.
لا تدري كم مضى من الوقت وهي مستلقية في تلك الوضعية. حرّكت أصابعها لتقبض على ملاءة السرير، فاستجابت أطرافها لأمرها هذه المرّة. تنهّدت في رضا. ذهب أثر التخدير وأصبح بإمكانها التحكم في جسدها. أزاحت ساقها اليسرى حتى وصلت إلى حافة السرير وانزلقت برفق في اتجاه الأرضيّة المبلّطة. حين لامست قدماها الحافيتان الأرض، سرت في جسدها قشعريرة باردة. عاد إليها إحساسها.
وقفت بصعوبة واتجهت إلى خزانة الملابس. ارتدت سروالًا وسترة فوق مريلة المستشفى، تناولت حقيبة يدها ثم أطلّت برأسها من باب الغرفة. كانت الحركة هادئة في الممرّ. تسللت في هدوء ومشت بأسرع ما تقدر حتى وصلت إلى بوابة المستشفى الخارجيّة. وقفت تلتقط أنفاسها. المسافة التي قطعتها لم تكن كبيرة، لكنّها تشعر بإرهاق شديد من الجهد المبذول. تنتظر يومًا إضافيًا حتى يعاينها الطبيب المختصّ؟ ستموت من الشك والقهر قبل ذلك!
أشارت إلى أول سيّارة أجرة، وأعطت السائق عنوان شقة ميشال، ثم سرحت بنظراتها عبر النّافذة الزّجاجيّة. حين جاءت إلى مدينة مرسيليا الفرنسيّة منذ سنتين، كانت مخيّلتها مليئة بالأحلام، المهنيّة والشخصيّة. بعد دراستها الجامعيّة القاهريّة، توصّلت إلى استنتاج مفاده أنّ الشّباب المصريّ قاطبة على قدر وافر من التّفاهة والسّطحيّة! عمّمت دون تردّد وقرّرت أنّها لن ترتبط بعربيّ أبدًا. سافرت إلى فرنسا وهي تمنّي النفس بلُقيا فارسها الأشقر، الذي سيأخذ بيدها إلى عالم من الرّومانسيّة الغربيّة. كانت ذاكرتها مترعة بمخزون سخيّ من الأفلام الأجنبيّة، وفكّرت أنّه سيكون من الرّائع أن تعيش أحداث أحدها على

وجه الحقيقة.
ظنّت أنّها أصابت عصفورين بحجر واحد حين تحصّلت على عقد تربّص في مكتب ميشال روسو. في البداية كانت محامية مساعدة بعقد سنة واحدة. لكنّه سرعان ما قرّبها منه وجعلها ساعده الأيمن في القضايا الهامّة التي يتولاها، وأيضًا في السّهرات الخاصة التي يقيمها في شقته. لم تكن تضع حدودًا معينة تقف عندها طموحاتها، فهي نشأت في عائلة جدّ متفتحة. لم يحاسبها والداها يومًا على تصرّفاتها، ولم يعاتباها على إسرافها في أمر ما، أيًّا كان. كانت دومًا سيّدة نفسها، وكان يحلو لها أن تلمح ذلك البريق الذي يلمع في أعين الرجال أمام غموض المرأة الشرقية التي تمثلها. نوعًا ما كانت التقاليد الدينية جزءًا من ذلك الغموض. هي نفسها لا يمكنها أن تفسّر تعلقها ببعض الأمور دون غيرها. رغم حضورها المجالس الخمرية، لكن يدها لم تمتدّ إليها يومًا. ورغم أنها لم تكن تصوم رمضان لكنها كانت تمتنع عن الأكل أمام الآخرين أثناء نهاره، وتحدّثهم بكثير من الحماس عن الأجواء الرّمضانية في مصر. ورغم التحرّر الشديد في طريقة لباسها، إلا أنها لم تسمح يومًا لأيّ رجل بلمسها أو تجاوز حدود الأدب معها. كانت حياتها مزيجًا من التضارب والتناقض، لكنها نجحت بشخصيتها الفريدة تلك في شق طريقها وسط المجتمع الفرنسي.. وها هي تجدّد عقدها للمرة الثالثة في انتظار الترسيم الفعلي، وها هي علاقتها بميشال تتخذ منحى جديًّا لا بدّ أن يسفر عن تغيير ملموس في حياتها.
كانت الشمس قد اقتربت من المغيب واصطبغت السماء بلون الشفق حين وصلت إلى المبنى المطلوب. لفّت السُّترة على جسدها النحيل حين أحسّت بنسيم المساء يدغدغ أطرافها. سرت في بدنها قشعريرة باردة. هل تكون محمومة؟ ستنظر في ذلك لاحقًا بعد أن ترى ميشال. ضغطت بعصبية على زرّ استدعاء المصعد. انتظرت لبضع ثوانٍ قبل أن تضغط مجدّدًا تستعجله. ما أن وصلت أمام الشقة المقصودة، حتى أخذت تقرع الباب بقبضتها، بما تبقى في جسدها من طاقة. كانت تكيل إلى الخشب الضربة تلو الأخرى في نفاد صبر، كأنّها تعاقبه على كل ثانية من انتظارها. وما أن فُتِح الباب أمامها، حتى تهاوت على الأرض.
- رنيم؟ ماذا تفعلين هنا؟
كان ميشال من فتح الباب. ساعدها على الوقوف وتقدّم بها بضع خطوات حتّى أجلسها على أريكة قريبة. أسندت رأسها على الوسادة التي قربها وتنهّدت. ميشال في شقته كما توقعت. لم يكن هناك من داعٍ للشك. لا يمكن أن يكون قد تخلى عنها، إنّما هو في حاجة إلى فترة نقاهة مثلها حتى يستعيد صحّته. ثم ذلك الجزع في صوته وهو يستقبلها، أليس دليلًا على قلقه من أجلها؟ كم أساءت الظنّ به حين تخيّلت شقراء مليحة تفتح لها الباب في ملابس خفيفة!
في تلك اللحظة دار مفتاح في قفل باب الشّقة وظهرت شابّة شقراء عند المدخل وهي تحمل أكياس مشتروات شتّى. ألقت تحيّة فاترة ومضت باتّجاه المطبخ. كتمت رنيم أنفاسها وهي ترى أسوأ كوابيسها يتجسّد حيًّا أمام عينيها. تابعتها بتقطيبة حتّى اختفت ثمّ التفتت إلى ميشال في تحفّز وانتظرت منه توضيحًا.
- هذه كلوديا، تساعدني بشأن المشاوير الخارجيّة.
توقعت رنيم أن تراها تخرج مغادرة، لكنّ غيابها طال بالدّاخل. سألها ميشال مرّة أخرى:
- رنيم.. ما الأمر؟

- ما الأمر؟! هل تعلم أنني أرقد في المستشفى أعاني الألم والوحدة؟ ألم تفكّر في أنّني قد أحتاجك في هذه الفترة.. أحتاج دعمك وحضورك، ولو على الهاتف؟

كان صوتها قد تهدّج ومال إلى البكاء، لكنّها بقيت متماسكة. تحين منها التفاتة إلى المطبخ كلّ فترة، حيث اختفت الشقراء ولم تعد. جلس ميشال حذوها في صمت وقال في هدوء:

- رنيم.. ما فعلته من أجلي لن أنساه ما حييت. أنتِ أنقذتِ حياتي، وهذا لا ثمن له.. لكن إن شئت، دفعت لك الثمن الذي تطلبينه...

قاطعته في ذهول:

- تريد أن تدفع ثمنًا لماذا؟! لقطعة من جسدي وهبتها لك بحبّ؟!

أخذ نفسًا طويلًا، متمهّلًا. يستعدّ لطرح كلام صعب يعلم مسبقًا أنّها لن تفهمه ولن تتقبّله.

- رنيم.. تعلمين جيّدًا أنّ علاقتنا لا يمكن أن تنجح. أقدّرك وأحترمك كصديقة عزيزة، وسأظل.. مشاعرك الجميلة غالية عليّ، وكنت أتمنى أن نستمرّ معًا.. لكن، أنتِ تريدين الزواج.. وأنا لست مستعدًا له بعد. لا أريد علاقة تقيّدني. الزواج ليس إلا عقدًا مكبّلًا.. وأنا أريد أن أحتفظ بحريتي، حتّى.. حتّى لا نُعقّد الأمور حين يملّ أحدنا الآخر.. أو حين تنتهي المشاعر. أريد أن أعيش اللحظة كما هي، بدون تعقيد.. وأتشاركها مع من يتفهم وجهة نظري، ولا يطلب مني أكثر مما أستطيع أن أعطي.

تردّدت نظراتها في صدمة بين ملامحه الباردة وباب المطبخ الموارب، حيث اختفت الشقراء منذ قليل. إذن كان ذلك كل ما يريد؟ لم يكن ينوي الارتباط بها منذ البداية. استغلها. استغلّ سذاجتها ليحصل على الكلية التي يحتاجها. تركها تحلم بالزواج والارتباط وتخطط لأحلامها بمفردها، ثم سحب البساط من تحت قدميها ليتركها تسبح في الهواء. قالت في سخرية لاذعة:

- إذن كلوديا قدّمت لك ما تريد وفهمت شروطك؟

- لا تقحمي كلوديا في موضوعنا، إنّها مجرّد صديقة! رنيم، أنا لم أعدك بشيء.. عرضي كان واضحًا، وردّك كان واضحًا أيضًا.. لا يمكنني أن أظل مع امرأة لا تقدّم لي ما أحتاجه منها. تمنيّت أن تغيّري رأيك، لأنّني فعلًا كنت أميل إليك.. لكنّك -مع الأسف- أعند مما كنت أتوقع.

كانت تستمع إليه في شبه شرود، كأنّه يخاطب شخصًا غيرها. هل يلومها لأنها حافظت على عفّتها واشترطت الزواج لاستمرار العلاقة بينهما؟ هل يتخلى عنها ببساطة لأنها ليست مثل غيرها من الفتيات اللواتي يخالطهن؟ ليست رخيصة ولا بضاعة؟ لماذا تراه الآن على حقيقته للمرّة الأولى؟ لماذا اعتقدت أنها قادرة على التأثير عليه باسم الحبّ والتضحية والجميل؟ زفرت بقوّة، كأنها تلفظ أنفاسها الأخيرة. لماذا يحصل معها كل هذا؟ لم تطلب الكثير.. بل آمنت بصدق العواطف وأعطت بقدر عمق إيمانها.

- رنيم.. أنتِ تنزفين!

كانت بقعة دم قد ظهرت على سترتها في موضع الجرح وأخذت تتسع.

- يجب أن تعودي إلى المستشفى.

وقفت بصعوبة وتقدّمت نحو باب الشقة بخطوات متعثرة. تشعر بإرهاق شديد، وأنفاسها المتلاحقة تكاد تنقطع. تخشى أن

تخذلها قدماها، لكنّها تكابر. لن تريه المزيد من ضعفها. يكفيها العرض الذي قدّمته للتوّ مجانًا.

- انتظري.. سأرافقك.

استدارت في حركة حادّة لترميه بنظرة صارمة أوقفته مكانه.

- لا أريد أن أراك مجدّدًا.. غدًا تجد استقالتي على مكتبك.

نزلت درجات السّلم واحدة واحدة. لم تكن تريد الإسراع، ولم تكن تقدر عليه بأي حال. لم يتبعها، ولم يحاول استيقافها. اكتفى بمحاولة يتيمة. هل كانت تنتظر منه استماتة في استرضائها؟ لم يعد أمامها سوى أن تطوي الصّفحة وتنسى.. نظرية عقلية منطقية، لكن أنّى لها التطبيق؟ وضعت كفها على موضع الجرح تتحسّسه ثم رفعتها أمام وجهها.. كانت مصطبغة بالدماء. في اللحظة التالية، كان جسدها الهزيل ممدّدًا أمام مدخل المبنى.. بلا حراك.

حين حكّمت القلب في أمور العقل، سقط الجسد ضحية بينهما.

****

خرجت من العملية الثالثة وقد فقدت أكثر من كلية، أكثر من قطرات دم، أكثر من دمعات عين. فقدت حبّ الحياة. استلقت على سرير المستشفى في استسلام. لم يكن يقيّد حركتها مخدّر أو إرهاق عضلي، لكنها فقدت الرّغبة في كل شيء. عافت نفسها الكلام والطعام. لم تلمس الطبق الذي أحضرته الممرضة ذلك المساء، مثل المساء الذي سبقه. لولا أنبوب السائل المغذي المتصل بوريدها لكانت فقدت الوعي أكثر من مرّة.

- آنسة رنيم، يجب أن تأكلي.. لن تغادري المستشفى قبل أن تستعيدي صحتك.

أشاحت رنيم برأسها ولم تجبها. تنهدت الممرضة وهي تقترب منها أكثر. رفعت خصلات شعرها ووضعت المحرار في أذنها. انتظرت لبضع ثوانٍ قبل أن تسمع صفير الآلة الإلكتروني. سحبت المحرار ورفعته أمام عينيها. قرأت درجة الحرارة على الشاشة الصغيرة، ثم قالت بصوت عالٍ:

- حرارتك مستقرة.

واصلت وهي تلبس قفازات بلاستيكية وترفع قميص رنيم لتعاين الجرح:

- جيد.. يبدو بحالة جيّدة اليوم. عليك هذه المرة أن تلتزمي بالراحة حتى يلتئم جرحك نهائيًا.

لم تحرك رنيم ساكنًا ولم يبد على ملامحها التأثر بكلمات الممرضة، كأنّ جسدها لا يعنيها. لم تعد تهمّها صحتها من مرضها. تريد فقط أن تنعم بلحظات من الوحدة. لحظات من السكينة. انتظرت في ملل أن تنصرف الممرّضة التي أقلقت راحتها وتنهدت حين لمحتها بطرف عينها تنزع القفازات وتسجل تطور حالتها على الدّفتر المعلق على جانب السرير. تلك الحركة الروتينية تعني انتهاء الزيارة واستعدادها للمغادرة. لكن أملها تبخّر فجأة حين فُتِح الباب مجدّدًا ودخلت ممرضة أخرى. تجاهلتها في تأفّف، حتى سمعتها تهتف في مرح:

- هناك باقة من أجلك.

استدارت إليها وقد استيقظت حواسها دفعة واحدة. سبقها عقلها في التحليل والاستنتاج. لا أحد يعلم أنها في المستشفى غير ميشال. كان هو من استدعى سيارة الإسعاف بعد أن غادرت شقته.. لا شك لديها في ذلك. لا بدّ أنه قد ندم على ما بدر

منه في حقها. يريد الاعتذار ولكنه لا يملك الشجاعة لمواجهتها! يعلم أنها غاضبة منه. لا، الغضب لا يكفي لوصف ما يعتمل في صدرها تجاهه. لذلك أرسل إليها هذه الباقة.

- ممّن هي؟

هتفت في لهفة وهي تتطلع إلى باقة الورود البيضاء. اللون الأبيض، أليس لون الاعتذار؟ نظرت إليها الممرّضتان في دهشة. كانت تتكلم للمرة الأولى بعد خروجها من غرفة العمليات. سارعت الممرضة التي أحضرت الباقة بإخراج البطاقة التي تصاحبها وقرأت التوقيع بصوت عالٍ:

- ميشال روسو.

تسارعت دقات قلبها وهي تمد يدها في اتجاهها:

- هاتِها.

لا تدري كيف تحوّل الغضب الهادر الذي كان يسيطر على كيانها منذ لحظات إلى نشوة غريبة. لم تكن تدرك أنّ تعلقها به قد بلغ هذه الدّرجة من العمق. مجرد ذكر اسمه كان كافيًا لتعود الحياة إليها. ماذا دهاكِ يا رنيم؟! تزاحمت الأفكار في رأسها في تداخل وهمجية. لم تسامحه بعد.. لن تسامحه بهذه السهولة. استجمعت شتاتها بسرعة واستعادت حزمها. حين استقرّت قصاصة الورق في كفها، كانت أكثر ثباتًا.

"اتصلي على هذا الرقم ********06" ميشال روسو.

كانت تلك الكلمات الوحيدة التي خُطَّت على البطاقة. رقم هاتف محمول فرنسي. عقدت حاجبيها في شك. يريدها أن تتصل به؟ لم يكن ذلك الرقم الذي تعرفه. هل هو رقم جديد؟ ربما حاول الاتصال بها ووجد هاتفها مغلقًا. كانت قد أغلقته منذ فترة طويلة، حين تعرّضت للجراحة الأولى. لم تكن تريد أن تتلقى اتصالات من عائلتها، وهم على أي حال لا يتصلون كثيرًا.

- أين هاتفي؟

تلفتت حولها في ارتباك بحثًا عن هاتفها المحمول. كان بإمكانها استعمال هاتف المستشفى، لكنّها فكّرت أنّه قد لا يردّ على رقم غريب. ألم تذهب محاولاتها السّالفة كلها هباء؟ انضمّت إليها المرضتان في البحث وقد سرّهما اهتمامها بالباقة التي وصلتها. كان ذلك تحوّلًا حقيقيًا في تصرفاتها، ربما يعطيها هذا الحدث رغبة في الشفاء والعودة إلى الحياة.

- وجدته.

هتفت إحداهما وهي تُخرج الهاتف من أحد الأدراج. سلّمته إلى رنيم التي سارعت بتشغيله، في حين انسحبت المرّضتان وهما تتغامزان. ستتركان لها الفرصة للقيام باتصالها الخاصّ، لقد انتظرته طويلًا وتستحق أن تعيش هذه اللحظة بمفردها دون أن يشاركها فيها أو يعكر صفوها أحد. أمسكت رنيم الهاتف بين يديها في توتر. هل عليها أن تتصل؟ وماذا ستقول حين تسمع صوته؟ ليس عليها أن تقول شيئًا.. ستتركه يتكلم. هو طلب منها الاتصال، أليس كذلك؟ هو الذي سيعتذر ويشرح موقفه. هي ستكتفي بالاستماع، ثم تقرر ما ستفعله بشأنه/ بشأن علاقتهما.

أخذت نفسًا عميقًا وهي تتناول القصاصة من جديد. ازدردت ريقها ثم أخذت تنقر الأرقام على لوحة المفاتيح في ثبات. انتظرت في توجس وهي تستمع إلى الرنين في الطرف الآخر للخط. أخيرًا، جاءها الردّ:

- آلو؟
مهلًا، لم يكن ذلك صوت ميشال. ارتبكت. هل تغلق الخط؟
- آلو من على الخط؟
- أنا.. رنيم.. رنيم شاكر.
عضّت على شفتها من الندم. لماذا عرّفت بنفسها؟ كان عليها أن تطلب ميشال أو تغلق الخط. هل تضطر إلى ترك رسالة لميشال الآن بما أنها هي المتصلة؟ لم تكن قد حسمت أمرها بعد حين هتف مخاطبها وقد بدا عليه أنه تعرّف عليها:
- آه أستاذة رنيم شاكر! شكرًا لاتصالك. ميشال روسو حدّثني كثيرًا عنك وشكر خصالك المهنية كثيرًا.
خصالي المهنية؟! ماذا يقصد؟ ما الذي يحصل هنا؟
جاءها الصوت مجدّدًا:
- أعلم أن ميشال يجد صعوبة في التخلي عنك وهو يعتمد عليكِ كثيرًا، لكن بما أنك تنتقلين إلى باريس، يسرّني كثيرًا أن نعمل معًا. ستجدين في مكتبي كل الشروط التي ترضيكِ وأكثر. ميشال أوصاني بك خيرًا وأنا ممتن له لأن الكفاءات الشابة في مجال عملنا قليلة هذه الأيام.
استمعت إليه في ذهول. هكذا إذن.. ميشال يريد التخلص منها نهائيًا بإرسالها إلى باريس. حرص بنفسه على إيجاد عمل لها ليبعدها. لا يريد أن يتكرّر العرض الذي قدّمته في شقته منذ يومين مرّة أخرى. لا يمكنه أن يعيش هانئ البال وهي في الجوار، تذكّره بجميلها تجاهه وتُشعره بالذنب لنكرانه السافر. وضعت كفها على فمها لتحبس شهقة كادت تفلت منها، وتركت دمعة حارة تنساب على وجنتها في صمت.
- سأرسل إليكِ نسخة من شروط العقد التي أقترحها عليكِ. لا أنتظر منك جوابًا فوريًا. خذي كامل وقتك للتفكير.. وأنا متأكد من أنك لن تضيّعي الفرصة.
- شكرًا.
تمتمت بصوت مخنوق، ثم أغلقت الخط. استلقت على سريرها واستسلمت للبكاء. كيف خامرها الأمل للحظة واحدة؟ ألقت الهاتف على الحائط بعصبية ثم انقضّت على البطاقة التي حملت الرسالة وأخذت تمزقها في جنون لتحوّلها إلى فُتات. أخفت وجهها بين كفيها في انهيار.. هذه المرّة انتهى كل شيء. انتهى حتمًا. لن تقبل صدقة منه.
مهما كانت خسارتها بفقدانه كبيرة، فالبكاء من أجله خسارة أكبر. إن كانت تعدّه اليوم على هامش مستقبلها، فهي كانت طيلة الوقت على هامش حياته.

(3)

ياسمين

حطت الطائرة القادمة من تونس في مطار ليون "سانت أكزوبيري" * الدّولي في ذاك اليوم الممطر من صيف 2004. نزل المسافرون واحدًا تلو الآخر وتوجهوا إلى مكاتب الجمارك لمراقبة وثائق سفرهم، ثم انسابوا في صخب إلى قاعة الأمتعة لتسلم حقائبهم. وسط جلبة المطار تلفتت ياسمين عبد القادر حولها في توهان. أجالت بصرها في مزيج من الارتباك والضياع والدّهشة. ارتباك لانشغال عقلها بما ينتظرها، وبما تركته وراءها. ضياع في تجربتها الأولى في مواجهة العالم وحيدة. دهشة للأمطار الغزيرة التي تهطل خارج مبنى المطار وهي قد غادرت الضفة الأخرى للمتوسط على حرارة وقيظ شديدين!

كانت تجرّ حقيبة رياضية من الحجم الصغير بصعوبة واضحة، وتتوقف كل بضعة أمتار لتلتقط أنفاسها. حجم الحقيبة بالغ الصغر يخفي حقيقة وزنها، فقد تراصت في فضائها المختزل ألوان من الأطعمة المنزلية التي أصرّت أمّها على أن تأخذها معها. ابتسمت وهي تذكر ملامح وجهها القلق وهي تودّعها في مطار تونس قرطاج، وتعيد على مسامعها توصياتها ثانية وخامسة وعاشرة.. إنّهما تفترقان للمرة الأولى في سنواتها الأربع والعشرين. تحسّ بالدوار في هذا الفضاء الفسيح كثير المداخل والاتجاهات. إنه أول عهدها بالمطارات والرّحلات الجوية. تضع قدميها على الأراضي الفرنسية للمرّة الأولى.. خطأ، ليست المرّة الأولى! كان ذلك منذ زمن بعيد. زمن منكمش في لا وعيها، ولا تحمل في ذاكرتها الواعية أدنى صورة عنه.

حين غادرت قاعة الأمتعة كانت قد تجاوزت مغامرتها الأولى. كادت تنسى حقيبة يدها على حافة المغسلة وهي تترك الحمّام، ثم أوشك رجل عجوز يعاني قصرا في النظر أن يرحل بحقيبة ملابسها، وحين استلمت أخيرًا كل متاعها وهمّت بالعبور إلى الباحة، أوقفها مراقبان عند المخرج ليخضعا حقائبها لتفتيش دقيق.

---

* Antoine de Saint-Exupery: كاتب وطيار فرنسي. مات في مهمة من أجل فرنسا عام 1944 حيث لاقى حتفه في أعقاب إحدى المهمات الاستطلاعية. تعتبر قصته التعبيرية المشهورة» الأمير الصغير «من أشهر قصص أدب الأطفال في العالم. أطلق اسمه على مطار ليون الدولي سنة 2000.

تنفست الصعداء وهي تدلف الرّواق المفضي إلى بهو الاستقبال. ليس هناك من داعٍ للقلق، ليس هناك من داعٍ للخوف. سيكون كل شيء على ما يرام. ما أن انفتح الباب الآلي على مصراعيه حتى اصطدمت أنظارها بالجماهير التي وقفت تنتظر الوافدين. تنقّلت نظراتها بينهم في سرعة بحثًا عمّن جاء لاستقبالها، وما هي إلا لحظات حتى لمحت كف إيلين تلوّح لها من بعيد. إيلين وحدها كانت تنتظرها. اختفت الابتسامة من عينيها. دفعت العربة في إحباط كأنها تدفع خيبتها حتى وصلت عند مضيفتها. عانقتها في ودّ، في حين سارعت إيلين لتوضح:

- والدك سافر البارحة بصفة مفاجئة لضرورة في العمل.. سيكون هنا في نهاية الأسبوع.

ابتسمت في امتنان وتركتها تقودها عبر ممرّات المطار حتى وصلتا إلى موقف السيارات. وما أن استقرّ بهما المقام في سيارة إيلين حتى سرحت نظراتها عبر النافذة، تتظاهر باكتشاف المحيط الجديد وتلوك أفكارًا قاتمة جاهدت لتبعدها عنها. كانت

الأمطار قد توقفت في الخارج بعد أن غسلت الشوارع المعبّدة ومسحت الغبار عن زجاج السيّارات، فبدت المدينة أنيقة ونظيفة، على أهبة الاستعداد لاستقبال الوافدة التونسيّة الحالمة.

لم تكن إيلين بالشخص الغريب عن ياسمين. قدّمها والدها للعائلة منذ ثمانية عشر سنة. زوجته الجديدة. تعوّدت على رؤيتها كل صيف حين تأتي لقضاء بضعة أسابيع في شقة والدها الساحلية.. الشقة التي تقول والدتها إنها شاركت بالنّصف في كل المدخرات التي سمحت لوالدها بشرائها. ثم انضاف إلى العائلة وجهان صغيران جديدان، بفارق سنتين، ريان وسارة.. أخواها. غريبة هي تلك العلاقة التي تربطها بأخويها. تراهما كالدّمى الصغيرة ذات الجمال الأوروبي، يتحدّثان الفرنسية بطلاقة وبالكاد يردّدان بعض الكلمات العربية ذات الاستعمال المتداول.

- وصلنا.

قاطعها صوت إيلين وهي تشير إلى بناء شاهق تحيط به حديقة صغيرة. رفعت رأسها ببطء لتطالع واجهة البيت للحظات بنظرات خالية من التعبير. يبدو أجمل من الصور وأكبر. عند المدخل لفتت انتباهها لوحة خزفية لامعة مثبّتة قرب البوابة، كتب عليها بخط أنيق "إقامة عائلة كلود". كلود؟ ربما كان المالك السّابق للمنزل. عليهم أن يهتموا بتغييرها. نسيت أمرها بسرعة وأخذت تساعد إيلين على إخراج الحقائب من الصندوق.

لم تحقد يومًا على والدها ولم تعاتبه لأنه ميّز أخويها على حسابها. لم تحسدهما على هذا البيت الفاخر الذي رأته سابقًا في ألبومات الصور، ولم تقارن بينه وبين منزلها الصغير المتواضع. لكن وقوفها الآن هنا جعل كلمات جدّتها الحازمة ترنّ في أذنيها كأنّها تسمعها للمرّة الأولى: "أنتِ ابنته مثلما هما ابناه، ولديك حقوقك مثلما لديهما حقوقهما. اذهبي إليهم وطالبي بحقك! لن أسامحه ما حييت ما لم يعد حقك وحق أمك المسكينة".

أمها مسكينة فعلًا. نذرت حياتها للاهتمام بها وبتربيتها ولم ترغب في الزواج مرة أخرى. والدها كان الرّجل الوحيد في حياتها، وبانفصالها عنه أوصدت أبواب قلبها أمام كل الرجال. أما والدها فقد تزوّج مجدّدًا بأسرع ممّا تصوّرت.. لا يمكنها أن تلومه في نهاية الأمر، فذلك حقه. وهي تعوّدت أن تعيش دون أب، لم تشعر بحاجة إلى وجوده لسنوات طويلة. وهو كان بعيدًا معظم الوقت، وحتى زياراته القليلة لا يمكن وصفها بالممتدة. هل يلومها أحد على تجمّد عواطفها تجاهه؟

لكنها أحبّت الطفلين ريان وسارة. أحبّتهما كدميتين جميلتين تتمرّن معهما على التحدّث بالفرنسية. حين عادت بها والدتها إلى تونس لم تكن قد تجاوزت الرابعة من عمرها. كانت تتكلم الفرنسية بطلاقة، لكنها سرعان ما نسيتها وأهملتها لتندمج في مجتمعها الجديد. حين تعلمت الفرنسية في المدرسة، هنأتها مدرّستها على لهجتها الجميلة. كانت تتكلم مثل الفرنسيين، هكذا قالوا لها، وهي كانت سعيدة، خصوصًا حين جاء ريان ذو السنوات الثلاث ليشاركها تمارينها اللغوية. كانت في العاشرة من عمرها حينها، وكان معجمها أثرى بكثير من معجمه. لكن في السنوات التي تلت لاحظت أنه يتقن اللغة بسرعة أكبر منها، حينها أدركت الفرق بين العيش في تونس والعيش في فرنسا.

- هذه ستكون غرفتك.

انتبهت من أفكارها حين فتحت إيلين باب غرفة في الطابق الأول وسبقتها إلى داخلها. وجدت نفسها في قاعة امتدت رفوف الكتب لتحجب معظم جدرانها وترتفع حتى تصل إلى السقف. على الأرضية أيضًا تكدّست كتب أخرى لم تجد لها مكانًا على

الرّفوف. مكتب صغير وكرسي كانا يحتلان مركز الغرفة، وبدا أن زائرًا جديدًا انضاف إلى أثاثها منذ زمن قريب: السرير المخصص لها.

ركنت حقيبتيها إلى جانب السّرير وفتحت النافذة. أطلت على الحديقة الأمامية واستنشقت هواء الحديقة المعطّر، تأخذ كامل وقتها قبل اللقاء المرتقب مع أخويها. لم ترهما منذ سنتين. العائلة فضّلت استثمار عطلتها للانطلاق في وجهات جديدة. يعرفون تونس وفنادقها الشاطئية جيّدًا الآن. يعرفون المتاحف والمطاعم والملاهي أكثر ممّا يمكنها تخيّله، هي التي تسكنها منذ عشرين عامًا. لم تكن لديها الكثير من الفرص للسّياحة، لكنها تعرف حقيقة الحياة اليومية، تعرف الناس وحكاياتهم، تعرف كيف تكون المواصلات مزدحمة في الصّباح، والشوارع موحلة في الشتاء، والشمس حارقة في عزّ الظهيرة، وصعوبة المعاملات الإدارية في كلّ وقت. تعرف لبّ الحياة، لا القشور.

كبرت في منزل جدّتها، في حيّ "باب سويقة" قلب المدينة العتيقة، حيث البيوت المنخفضة المتلاصقة والأزقّة الضيّقة المتعرّجة، والنوافذ ذات الشباك المعدنيّة تطلّ على الشّارع مباشرة. لم تكن تلهو في حديقة يانعة، بل في فناء مبلّط، تتألق في وسطه نافورة تصبّ الماء في حوض فسيفسائي ضئيل، مكسور في أحد حوائطه الجانبيّة. لم يتمّ إصلاح شضاياه أبدًا. لعبت الكرة مع الصّبيان بين "زاوية سيدي محرز" * و"جامع باي محمد" ** ، وحصدت قطع الحلوى من روّاد المعلمين. وكانت الزّاوية بالذات تثير جدلًا أزليًا بين أمّها وجدّتها، فتأخذها الثانية في المواسم الدّينية لتلقي السّلام على الوليّ الصّالح وتشترك مع الأهالي في إعداد الذّبائح وطهيها، في حين تنهرها الأولى، وتختلي بها لدقائق طويلة تلقّنها مفاهيم "الشرك" الذي تتجاوز مفرداته فهمها الطفولي. أحبّت حيّها الشّعبيّ بجدرانه المتهالكة المتساقط طلاؤها، وأسفلته المغطى في غير تناسق بقطع الحجارة متفاوتة الأحجام، وروائح "الجاوي" والبخور التي يعبق بها الجوّ في كلّ حين، مختلطًا بنفحات من ذكر الله الحكيم تعطّر النّفوس، وحفلات مشجّعي فريق "الترجّي الرّياضي" التي تجتاح شوارعه مثل مدّ جارف، يحصد الأخضر ويخلّف اليابس من قوارير المشروبات وعلب ورقيّة وأعقاب سجائر، ليجمعها الصّبيان ويدّخرونها لألعابهم الارتجاليّة. عاشت طفولة خصبة جامحة.. لكنّها بدون أب.

- قهوة أم شاي؟
- شاي من فضلك.

---

* زاوية سيدي محرز: مقام للوليّ الصالح "سيدي محرز" الذي يعتبر من أشهر الأولياء في تونس، يقع في وسط العاصمة قرب باب سويقة وشرقي حي الحفصيّة.

** مسجد محمد باي: يعرف أيضا باسم جامع سيدي محرز. يقع بحي تجاري، قرب باب سويقة وقبالة زاوية سيدي محرز. شرع في بنائه سنة 1692 من طرف محمد باي واستكمل بناءه بعد وفاته أخوه رمضان باي سنة 1696. بني المسجد على مسطبة وهو يرتفع بأزيد من أربعة أمتار عن الطريق المجاور.

نزلت درجات السّلم إثر مضيفتها ودخلت المطبخ. جلست إلى الطاولة في إحراج. صحيح أنها تعرف إيلين، لكنها لم يسبق أن جمعها بها لقاء حميميّ دون طرف ثالث. تتابع عينيها الزرقاوين وتموّجات شعرها الأشقر بانتباه غريب، كأنها تراها للمرة الأولى. تبدو مختلفة تحت السّماء الفرنسية.منذ متى تلبسين الحجاب؟

- منذ سنتين.

منذ انقطعتم عن زيارتنا. لم تكمل الجملة بصوت مسموع، احتفظت بعتابها لنفسها.

وضعت إيلين أمامها كوب الشاي. تأملت في دهشة الماء الدافئ الذي تسبح عبره قطعة ورق صغيرة مربعة شفافة، محشوة ببعض الحشائش، تتدلى من خيط رقيق يمنعها من الانحدار إلى قعر الكوب. حركت طرف الخيط فرأت موجات رقيقة ملونة تنساب من قطعة الورق خلال الماء الدافئ. هل هذا هو شايهم؟ وضعت قطعتين من السكر وحركت الملعقة ببطء، ثم رشفت منه في توجس. آه، تمامًا مثلما توقعت. نكهة شاي خفيفة، لا صلة لها بشاي جدتها الأخضر بالنعناع. عالم آخر من النكهات.

- ريان وسارة في النادي. أترافقينني لإحضارهما؟

ركبتا السيارة مرّة أخرى، واستمعت هذه المرة إلى إيلين وهي تعرفها على المباني المجاورة والمعالم التي تحفّ الطريق بين البيت والنادي. حاولت أن تركز وتهتم بكلامها رغم الأفكار التي تملأ رأسها.

- يجب أن تتعلمي كيف تركبين المترو وكيف تذهبين إلى وسط المدينة، سآخذك غدًا في جولة.

هزّت رأسها موافقة. لم تأتِ لزيارة العائلة والسياحة فقط. بعد يومين تبدأ مرحلة جديدة في حياتها الدّراسية. سجّلت في مدرسة خاصّة لعلوم الحاسب لتدارك تأخرها في هذا المجال، وفي نفس الوقت ستبدأ رحلة البحث عن شركة تحتضن مشروعها لرسالة الدكتوراه. كانت قد راسلت بعض الشركات من تونس وحصلت على مواعيد لتقديم ملفها.

توقفت السيّارة أمام النادي الرياضي. رأت شابًا وشابة في مقتبل العمر ينتظران أمام الباب، وما أن اقتربا حتى ميزت فيهما أخويها. أخويها؟ الدّميتان الصغيرتان كبرتا. لاحظت ذلك خلال السّنوات الماضية، لكن سنتين من الغياب جعلتا الفرق يبدو شاسعًا. ريان الآن يبلغ سبعة عشر ربيعًا وسارة خمسة عشر. نزلت لتعانقهما في اشتياق. كم بديا طويلي القامة! لم يخف عليها برودهما الغريب وابتسامتهما المُحرَجة. هل هو تأثير الحجاب؟ نعم، هي أيضًا تغيّرت في السنتين الماضيتين. ازدادت تمسكًا بهويتها المسلمة.. وازدادا غوصًا في الثقافة الفرنسية. تلمح ذلك في تنورة سارة القصيرة وفي قصة شعر ريان الغريبة. لكن لا داعي للقلق؛ ما يزالان صغيرين، أليس كذلك؟

حال عودتهم إلى البيت، أخذتها سارة لزيارة غرفتها. أرتها حاسوبها الخاص، ولعب الفيديو الخاصة، وملابس السهرة الخاصة بها. ثم جلست على طرف سريرها وهي تسألها في فضول جاهدت حتى تكتمه منذ رأتها:

- لماذا تغطين شعرك؟
- إنه الحجاب الذي يأمرنا به الإسلام.
- لكنك لم تكوني تلبسينه من قبل.
- نعم، لأنني لم أكن مستعدّة. ليس قرارًا سهلًا، والظروف ليست مناسبة في تونس. لكنني منذ سنتين حسمت أمري ولبسته.
- حسن. هذا شأن يخصّك.. مع أنّ شكلك أصبح مملًا، مثل جدّتي.

في جملة واحدة سخرت من جدّتها و استهزأت بتعاليم الإسلام دون أن يهتزّ لها جفن. كتمت ياسمين ضيقها وقالت في هدوء:

- سارة عزيزتي، هذا كلام غير مؤدّب.

بينما ضحكت سارة دون أن تعتذر، تابعت ياسمين في لهجة جادّة:

- أنت لم تعودي صغيرة. في سنك تصبح الفتاة مكلفة في الإسلام ومسؤولة عن أفعالها.
- الحمد لله! لا علاقة لي بالإسلام!

صعقت ياسمين وهي تسمع الكلمات التي ألقتها سارة في لا مبالاة. لمَ يبدو لها الأمر غريبًا؟ إذا كانت الأم التي تربيها ملحدة، فكيف ستنشأ؟ حاولت في إصرار:

- ربما لأنك لم تتعرّفي على الإسلام جيدًا.

- لقد رأيت كيف يعيش المسلمون في تونس.. وأنا حقيقة أفضّل حياتي هنا.

أطرقت ياسمين في ألم. معها حق. لا علاقة لها بالإسلام. حتى اسمها، أليس اسمًا عالميًا متداولًا في كل الثقافات؟ والدها فكر جيدًا في المستقبل حين اختار اسمي ابنيه. أراد لهما أسماء سهلة النطق بالفرنسية، ليسهل عليهما الاندماج في المجتمع حتى يذوبا فيه ولا يرى أحد وجه اختلافهما. ريان، مثل الممثل الكندي "ريان رينولدز"، وسارة، مثل الممثلة الأمريكية "سارا جيسيكا باركر". مع أشكالهما الأوروبية، شعور ملساء كستنائية وبشرة بيضاء مشربة بحمرة، هل يمكن لأحد أن يشك في أصولهما العربيّة؟

- حان موعد العشاء.

سمعت نداء إيلين وهي تطل من باب المطبخ أسفل الدرج، فنزلت رفقة سارة للجلوس إلى المائدة. استمرّ انتظارهم لدقائق إضافية قبل أن ينزل ريان من غرفته. غمزت سارة ياسمين وهي تهمس في أذنها في خبث:

- كان يهاتف صديقته.

ابتسمت ياسمين مجاملة. لم يكن الأمر مثيرًا للمرح بالنسبة إليها. لكن صفتها كأخت كبرى لا تخوّل لها الكثير من الصلاحيات حتى تتدخل. رفعت نظراتها إلى إيلين التي انغمست في توزيع قطع السجق على الأطباق. هل تدرك ما يعيشه ابناها المراهقان من تحوّلات؟ أم أن الأمر بالنسبة إليها سيان؟ حين عاشت هي أولى تجارب الإعجاب بالجنس الآخر، كانت أمها كاتمة سرّها. كانت تستمع إليها وتوجهها حتى لا تنساق وراء مشاعرها. علّمتها أن فترة المراهقة هي فترة اكتشاف وتقلب، وأنّ مشاعرها حينها قليلًا ما تكون متينة وثابتة. علمتها أيضًا الحفاظ على نفسها من فخاخ الهوى، فلم تصاحب يومًا. لكن الوضع بالنسبة إلى أخويها يبدو مختلفًا. هل عليها أن تقلق من أجلهما؟

أنهت إيلين ملء طبقها وطبق ريان وسارة، ثم تناولت وعاءً آخر ووضعت قطعًا من اللحم في طبق ياسمين، وهي تقول مبتسمة:

- اشتريت لحمًا حلالًا من أجلك.

رفعت ياسمين عينيها في دهشة. من أجلي؟ ثم خفضت رأسها وتمتمت بكلمات شكر مبعثرة بلسان متلعثم، وأخذت تأكل في صمت. تحسّ بغصّة في حلقها مع كل لقمة تبتلعها. تحين منها نظرات منكسرة تجاه أخويها من حين إلى آخر. يأكلان لحمًا ليس بحلال.. يأكلان لحمًا ليس بحلال!

لا داعي للقلق، أليس كذلك؟

****

تنظمت حياتها في الأيام التالية على وقع الأنشطة التي حدّدت من أجلها سلفًا. كانت تبدأ نهارها بدروس الحاسب التي تملأ ساعات الصباح، ثمّ ترجع عند الظهر لتناول الغداء رفقة إيلين، ما لم تكن لديها مقابلة عمل. أما أوقات فراغها التي تمتدّ على باقي ساعات اليوم، فقد ملأتها بهوايتها الأثيرة في نفسها، القراءة.

أخذت الإذن من إيلين حتى تطّلع على الكتب التي تملأ غرفة نومها. معظمها كان علميًا ويهمّ اختصاص والدها: الفيزياء. وهي لم تكن تنوي التعمق في الأمور العلمية الدقيقة التي فرّت منها فرارًا حين اختارت تخصّصها الجامعي. كانت مولعة بدراسة حقيقة النفس البشرية، لذلك اختارت علم الاجتماع. لم تكن تشبه والدها في هذه النقطة.
بإزاحتها الكتب العلمية من حسابها، كانت قد تركت خلفها معظم الرفوف. بقي قسم واحد من المكتبة اجتمعت فيه كتب الثقافة العامة. وقفت في ذلك الصباح تمرّر سبابتها على الكتب في بطء وهي تقرأ العناوين. كانت كلها باللغة الفرنسية، فيها الروايات والمقالات الفلسفية وحتى كتب التاريخ.. توقفت فجأة حين التقط عقلها كلمات بدت غريبة: "القرآن باللغة الفرنسية".
تناولت الكتاب في فضول وجلست على طرف السرير. كانت هناك علامة على إحدى الصفحات تشير إلى موضع وصول القارئ. هل يقرأ والدها القرآن بالفرنسية؟ أم تراها إيلين هي التي تقرأ فيه؟
- ياسمين.. الفطور جاهز.
جاءها صوت إيلين وهي تستدعيها لتناول الوجبة الصّباحية. عليها أن تختار كتابًا بسرعة وتنزل للانضمام إلى مائدة الطعام. إيلين ستوصلها في طريقها إلى العمل إلى محطة المترو، ثم عليها أن تذهب بمفردها إلى درسها، مثل كل فتاة كبيرة. أعادت الكتاب إلى مكانه وألقت نظرة سريعة على بقية الرّف. دون تفكير كثير، التقطت كتاب "الهويّات القاتلة"، دسّته في حقيبتها وغادرت الغرفة على عجل.
حين ركبت المترو كانت الحركة في أوجّها مثلما هي العادة في أوقات الذروة. في يومها الأول أحسّت بكل الأعين تتّجه نحوها، تتفحّصها بصفاقة من أعلى رأسها إلى أخمص قدميها. لا تدري إن كانت هيئتها ما يجلب إليها الأنظار، أم أن خيالها المتآمر مع حساسيّتها المفرطة هيّأ لها أنها مراقبة من طرف جمع من المخبرين السّريين عديمي الخبرة! كان الانشغال بكتاب هو الحل الأمثل لتبديد الهواجس وشغل فراغها. لم تجد مكانًا شاغرًا، فأمسكت بأحد الأعمدة المعدنية وأخرجت كتابها.
"الهويات القاتلة" لأمين معلوف الكاتب الفرنسي لبناني الأصل. قرأت الفقرة المعرّفة بالكاتب على الغلاف ثم فتحت الكتاب على المقدّمة. كان النصّ يطرح مثال رجل ولد في ألمانيا ووالداه من الأتراك. بالنسبة إلى مجتمعه الألماني الذي كبر وترعرع فيه فهو نوعًا ما أجنبي أو على الأقل ألماني من الدرجة الثانية لأصوله الأجنبيّة. أما بالنسبة إلى أبناء بلده الأصلي، فهو لم يعد تركيًّا بالكامل نظرًا إلى ظروف نشأته.. فيجد هذا الشخص نفسه في أزمة هوية، لا يدري إلى أي البلدين ينتمي. هل يعرّف نفسه على أنه ألماني من أصل تركي، أم تركي مولود في ألمانيا؟ يجد نفسه باستمرار أمام مواقف تدفعه إلى تقديم انتماء على الثاني، كأنه لا يمكن أن يكون ذا انتماء مزدوج بقدر متساوٍ، ألماني وتركي في وقت واحد.
لم تستطع ياسمين أن تمنع نفسها من إسقاط الفكرة على وضعية أخويها. ريان وسارة ولدا في فرنسا ونشآ فيها، لكن والدتهما فرنسية، بمعنى أن كفة الانتماء راجحة منذ البداية. تابعت استنتاجاتها في مرارة وهي تسترجع كلمات سارة حين حدثتها عن الحجاب.. ليست هناك ازدواجية في الهوية لديهما، فتونس لم تكن يومًا بالنسبة إليهما سوى وجهة سياحية مثل غيرها. ماذا عن الأصول؟ ماذا عن التاريخ؟ تراث حضاري يثري الاجتماعات الثقافية والسهرات الاجتماعية.. لا أكثر.
فجأة تأرجحت عربة المترو بشدّة مع فرملة السائق. كادت ياسمين تفقد توازنها، لولا أنها تشبثت في الوقت المناسب بالعمود المعدني، حتى لا تصطدم بالمسافر الذي يقف بمحاذاتها. لكن الكتاب أفلت من يدها ووقع على الأرضية. همّت بالانحناء

لالتقاطه، لكن كفًّا ما سبقتها وامتدّت لتتناوله. رفعت رأسها لتلمح شابًا ذا ملامح عربية كان يقف قبالتها. كانت قد لاحظت انزواءه حال صعودها ليبتعد عن الأجساد البشرية التي تتلامس أحيانًا وتتعانق مع شطحات المترو ورقصاته الارتجالية. كان بودّها لو تحذو حذوه لولا ضيق المجال. ناولها الكتاب فأخذته منه شاكرة. قلبت الورقات في شيء من الارتباك بحثًا عن الصفحة التي كانت بصدد مطالعتها. لكن قبل أن تنغمس في القراءة من جديد، جاءها صوته هادئًا بالفرنسية:

- "الهويات القاتلة".. كتاب يدعو إلى التفكير، خصوصًا لمن يعيش غربة الوطن.

لم يستقرّ الكتاب في كفه إلا للحظات، لكنها كانت كافية ليطلع على العنوان. رفعت ياسمين رأسها مجددًا لتلتقي نظراتهما لثانيتين اثنتين، أطرقت بعدها وهي تعلق في حياء:

- لا زلت في المقدمة، وأجدني أفكر بالفعل.

- آه.. لن أفسد عليك متعة الاكتشاف إذن.

ساد الصّمت للحظات. فكّرت في كلمات تردّ بها، لكن لسانها لم يسعفها. غلبها حياؤها.. فانتهت المحادثة عند ذلك الحدّ. هل كان ينتظر منها تعليقًا؟ عاد الشاب ليستند إلى باب المترو ويطرق مركزًا مع تسجيل تبثه سماعات صغيرة تختفي داخل أذنيه. وعادت ياسمين إلى كتابها تقرأ كلماته في غير انتباه، وتساؤل بليد يلح على ذهنها: هل كان عليها أن تردّ؟

****

داعبت حادثة المترو الصّباحيّة خيالها بشكل متفرّق طيلة الدّرس. كان في طبعها شيء من بطء ردّ الفعل، وغالبًا ما تنقضي الفرصة بينما هي تفكر في الرّدّ المناسب. ربّما هو الخجل يعقد لسانها، أو اهتزاز في ثقتها بنفسها. حاولت أن تطرد عنها تلك الوساوس المزعجة، وهي تجلس في قاعة الانتظار الخاصة بالشركة التي تحدّدت لها فيها مقابلة عمل. لم تكن تحتاج إلى مزيد من التشكيك في جاهزيّتها لهذا الاختبار الجديد.

ضمّت كفيها فوق ركبتيها وأخذت تحرك أصابعها في توتر بعد أن تمّ استدعاؤها إلى الدّاخل. أمامها، انكبت سيّدة أربعينيّة على تصفح ملفها باهتمام ظاهر. رفعت عينيها أخيرًا ونزعت نظاراتها قبل أن تقول وعلى شفتيها ابتسامة ودودة:

- آنسة ياسمين.. ملفك ممتاز ويتماشى تمامًا مع المواصفات التي تلزمنا.. بالإضافة إلى نقطة قوّة أراها حاسمة، هي طلاقة لسانك وسلاسة فرنسيتك، فلا أخفي عليك أن معظم الإشكالات التي لدينا مع الطلبة الأجانب تتمثل في صعوبات التواصل.. والبحوث التي سيعنى المترشح بإجرائها ترتكز بالأساس على التبادل.

ابتسمت ياسمين في سرور وهي تستمع إلى محدثتها التي واصلت:

- لذلك سأجعل منك مرشحتي الأساسية أمام اللجنة التي ستبتّ في الملف. كما تعلمين، رأيي وحدي ليس كافيًا. هناك مجموعة من الإداريين والمسؤولين من الشركة، ستقوم بمعاينة ملفات جميع المرشحين، ثم توافق على تمكيننا من التمويل المطلوب لإجراء الأبحاث.

- حسن، وهل سيأخذ ذلك وقتًا؟

شبكت الباحثة أصابعها على المكتب وهي تقول في جدّية:

- ذلك يعتمد على مدى تعاونك. فهناك نقطة واحدة قد لا تكون في صالحنا أمام اللجنة.. الأمر يتعلق.. بغطاء الرأس.

اختفت الدّماء من وجه ياسمين وغاضت ابتسامتها. اجتهدت حتى لا تبتل رموشها بعبراتها المختنقة. ازدردت ريقها وقالت بلهجة جافة وهي تسترجع ذكريات قديمة:

- آسفة. لباسي ليس قابلًا للنقاش.

- لا أعلم بالضبط ما هي القناعات التي تملي عليك هذا اللباس بالذات، لكن في إطار العمل من الممكن أن يطلب منك المدير الالتزام بزي رسميّ في المكتب. أمام قانون داخلي للشركة يرفض غطاء الرأس وقناعات شخصية تملي عليك ارتداءه، أيّهما سترجحين؟

- كنت سألتزم بلباس رسميّ لائق يحترم بما أمكن قوانين الشركة، لكن دون التنازل عن الحجاب.

- لو وضعتك اللجنة أمام خيارين: الحجاب أو تمويل بحثك، هل تضحين بمستقبلك المهني وترفضين فرصة نادرة من أجل قطعة قماش؟

حسمت الأمر نظرة ياسمين المصمّمة وإيماءتها الصامتة، رغم العبرات المنذرة بهطول قريب. قالت الباحثة في ضيق وهي تجمع الملف وتضعه جانبًا كأنّها تجمع أمنيات ياسمين كلها وتنحّيها:

- سنفعل ما بوسعنا.. لكن لا تندمي إذا كان موقفك هذا حجر عثرة في طريق مستقبلك.

حين وقفت ياسمين لتصافح المرأة وتغادر المكتب، كانت تحس بمرارة مألوفة. مرارة عرفتها كثيرًا في تونس طيلة السنتين الماضيتين، منذ اتخذت قرارها بارتداء الحجاب. التضييق على المحجبات كان وما يزال رياضة وطنية يمارسها رجال الشرطة بكثير من المتعة في الشوارع والمؤسسات العامة والتعليمية، ويطبقها أصحاب المؤسّسات الخاصّة عن خوف أو تخاذل أو شماتة. كل شيء بدأ في عهد الرئيس السابق الحبيب بورقيبة، حين صدر المنشور 108 سيئ الذكر سنة 1981، والذي وصف فيه الحجاب بـ"اللباس الطائفي" غير المتناسب مع عادات البلاد وتراثها. توالت منذ ذلك الحين حملات التنكيل بالمحجبات، فتشتدّ عليهن القبضة الأمنية حينًا وترتخي حينًا آخر، لتعاود الضغط مرّة أخرى كلما جدّ جديد في السّاحة السّياسية.

اختارت الحجاب وهي على دراية بكل ما ينتظرها من معوّقات. مثل أغلب بنات جيلها ممّن أقدمن على الخطوة في أتون سنوات الجمر، لم يكن الحجاب أكسسوارًا تنسّقه ليلائم سروال الجينز الضيّق والسترة القصيرة فاقعة اللون، تضعه حين يعنّ لها وتتركه لحضور حفل أو مناسبة تستوجب أناقة لا يضمنها الحجاب! جيلها عرف من المثبّطات ما يكفي لتدرك أيّ حرب شعواء تنتظرها حين تختار لباسًا ساترًا، في بلد يعلي من حريّة المرأة في التّجرّد من ثيابها. كان عليها أن تقاتل كلّ يوم من أجل حقّها في درء شعرها عن الأعين! وتلعب دور التّحرّي لتحدّد مواقع دوريّات الشرطة وأوقات مرورها، وتراوغ وتتحايل على الحرس الجامعيّ لتحضر ما تحتاجه من الحصص حتّى لا يتمّ طردها أو تحرم من اجتياز الاختبارات، وتضع أحذية رياضيّة تمكّنها من الانطلاق بالسرعة القصوى حين تصلها إشارة الخطر، وتتزوّد بأوشحة إضافية لحالات الطّوارئ حين تضطر إلى ترك وشاحها على مكتب رئيس مركز شرطة أو عميد جامعة. لا، لم يكن الحجاب بالنسبة إليها وأخواتها اللواتي اخترن طريقها مجرّد قطعة قماش تغطي ما تغطي، وقد تكشف عن مقدّمة الشعر أو الأذنين أو النّحر! كان خيارًا مسؤولًا، قناعة ومنهاج حياة. ولم تثنها المعرقلات، بل زادتها إيمانًا.

ظنت أنها لن تعرف المشكلات ذاتها في فرنسا، المعروفة بـ"بلد الحريات وحقوق الإنسان". لكنّ أملها خاب في بداية تجربتها. لم تكن تعلم أن السّياسة التونسية ضدّ الحجاب استهوت الرئيس الفرنسي جاك شيراك. وفي زيارة له لتونس أواخر سنة 2003 اغتنم الفرصة للاستفادة من تجربة نظيره التونسي زين العابدين بن علي في ممارسة القمع الممنهج. وما أن عاد إلى قصر الإيليزيه في باريس حتى سارع بتشكيل لجنة مهمتها صياغة اقتراح لقانون جديد يمنع ارتداء كل العلامات التي تشير إلى الانتماء الدّيني. فتحوّل مبدأ اللائكية، الذي جاء في الأصل لتحرير الدولة من سلطة الكنيسة والمساواة بين الأفراد بغض النظر عن انتماءاتهم الدّينية، إلى أداة مسخ لهوية الأفراد هدفها طمس اختلافاتهم خصوصًا الدّينية منها. وفي فبراير 2004، صوّت البرلمان الفرنسي لصالح هذا القانون بأغلبية ساحقة، معلنًا الحرب على الحجاب. ومع أن القانون كان يخصّ كل العلامات الدّينية البارزة مثل "الكيبا" اليهودية والصّليب النصراني ذي الحجم الكبير و"التربان" السّيخي.. لكن المتضرّرات الحقيقيات منه هن المحجبات، اللواتي استهدفت بعضهن تحركات عنصريّة وبشكل متكرّر. ومع أن القانون يخصّ المدارس العمومية وحسب، فإنه أعطى ذريعة إضافية إلى كل من كان يستحي من كشف وجهه العنصري.

حين وصلت ياسمين إلى البيت، كانت تشعر بكثير من الضيق. كانت قد فوّضت أمرها إلى الله، لكن القلق طبع بشري لم تتخلص منه بعد. تناولت العشاء بعقل غائب ثم صعدت إلى غرفتها. أخرجت هاتفها وكونت بسرعة رقمًا تحفظه عن ظهر قلب. بعد رنة واحدة جاءها صوت والدتها المتلهف:

- أنتِ بخير؟

تمنّت أن تفضفض إليها وتبثها شكواها كما تعوّدت، لكنها لا تريد أن تشغلها وهي بعيدة عنها بلا فائدة. حبست دموعها وقالت مطمئنة:

- لا تقلقي؛ كل شيء على ما يرام. دورة الحاسب ممتازة، تعلمت الكثير في اليومين الماضيين.

- هل أعجبتك فرنسا؟

فاجأها السؤال. أحسّت بالانكسار في صوتها. هل تحنّ إلى السّنوات الخوالي؟ تهرّبت:

- لم أر منها الشيء الكثير بعد.

- هل تمنيت أنك عشت هناك مثل أخويك؟

لماذا تصرّين على تعذيب نفسك؟ فرنسا كلها لا تساوي شيئًا أمام كل لحظة في حضنك. أجابتها في ثقة:

- لا يا أمي، تعلمين أنني راضية عن حياتنا.. لا، لست راضية. أنا سعيدة بحياتي معك.

تنهدت والدتها في ارتياح وهي تستطرد:

- تعلمين أنني هربت بديني منهم.. هربت بك لأُحسن تربيتك. ولم أرسلك هناك إلا بعد أن تيقنت من متانة تكوينك وقدرتك على المقاومة.. أثق فيك اليوم أكثر من ثقتي في نفسي حين كنت في مثل سنك.

ابتسمت وهي تستمع إلى هذا الاعتراف.

- لن أخيّب ثقتك إن شاء الله.

أغلقت الخط ولبثت متفكرة للحظات. إن كانت عاشت في فرنسا، هل تراها تكون مثل سارة وريان؟ أمّها ليست مثل إيلين. ربما

كانت قادرة على تربيتها على تعاليم الإسلام، في منزل كبير مثل هذا، وفي مدينة جميلة مثل هذه.. ربما تسرّعت بقرار العودة إلى تونس، ربما. بين حياة مرفّهة في فرنسا وعيشتها القنوعة مع أمّها، هل يمكنها أن تفاضل أو تختار؟

نفضت عنها تلك الأفكار وقامت من مرقدها. كانت السّاعة قد اقتربت من التاسعة. في مثل هذا الوقت يصعد كل من ريان وسارة إلى غرفته، وتجلس إيلين أمام التلفاز. فكّرت في الانضمام إليها. خرجت من الغرفة ونزلت الدّرجات الخشبية ببطء حتى لا تَصرّ تحت قدميها. حين وصلت في مستوى البهو، لفت انتباهها ضوء خافت منبعث من المطبخ. غيّرت وجهتها وقطعت الخطوات القليلة التي تفصلها عنه، ثم دفعت الباب نصف المفتوح. كانت إيلين تجلس وحيدة إلى المائدة، تحتسي قهوتها في صمت وتنفث دخان سيجارتها. ابتسمت في شرود وأشارت إلى المقعد المقابل:

- تريدين بعض القهوة؟

أومأت في صمت و جلست متململة. قالت بعد صمت قصير:

- لم أكن أعلم أنك تدخنين.

- السيجارة تشغل عن الهموم وتلهي عن الوحدة.

انقبض قلب ياسمين، لكنها لم تعلق. استمعت إلى إيلين وهي تواصل:

- والدك غائب عنّا معظم الوقت. ربما كانت أطول فترات مكوثه معنا هي تلك التي نقضيها في تونس. عمله مقدّم على كل شيء وطموحه أكبر من أن يقاس.. أتركه يسافر مثلما يشاء وحين يشاء. المهم هو أن يعود إليّ في نهاية الرّحلة. لن أتركه يرحل مثلما فعلت أمك. لا أريد أن أنتهي وحيدة مثلها.

تذكرت صوت والدتها المرتجف منذ قليل على الهاتف وتخيلتها وحيدة في بيتهم الصغير. نعم وحيدة.. إنها أكثر وحدة الآن من أي وقت مضى بعد أن أرسلتها إلى فرنسا. لاحظت إيلين إطراقها فغيّرت الموضوع:

- كيف كانت مقابلتك اليوم؟

هزّت كتفيها متظاهرة بعدم الاهتمام ورشفت من فنجان القهوة.

- لا أعوّل كثيرًا على مقابلة اليوم.. سأجرّب حظي مع شركات أخرى.

- بالتأكيد.. لا يضرّ أبدًا أن تتحصلي على عروض عدّة، ومن ثمّ يمكنك الاختيار.

يمكنها الاختيار؟ هل هي في وضع يسمح لها بذلك؟ كان بودّها أن تشاركها تفاؤلها، لكنّ محرار الأمل كان يسجل مستوى منخفضًا تلك الليلة. أطرقت لتستنشق القهوة بعمق. تهرب من دخان السجائر الذي بات يغمر المكان. تذكرت جولتها بين رفوف المكتبة ذاك الصباح، فقالت في فضول:

- وجدت كتاب قرآن مترجم إلى الفرنسية في المكتبة اليوم.. فكرت أنه قد يكون لك.

- آه.. كتاب قديم. أهداه إليّ صديق منذ عشرين سنة أو أكثر.

- هل قرأته؟

- بدأت في قراءته.. لكنني لم أكمله أبدًا.

أحسّت ياسمين بالخيبة. إذن الكتاب مركون على الرف منذ عشرين سنة. خسارة.

- هل.. فكرت يومًا في الإسلام؟

التفتت إليها إيلين في حدّة وقالت في لهجة قاطعة فاجأت ياسمين:

- طوال هذه السنوات لم يحاول والدك التأثير عليّ أو إقناعي بالإسلام، وأنا أشكر له ذلك. لست في حاجة إلى دين ما لأميز الخير من الشر. ولا أظن أن اعتناق الإسلام أو غيره من الدّيانات قد يُحدث أدنى تغيير في طبعي وتصرّفاتي. وأنا راضية عن أخلاقي ومعاملتي.. لست في حاجة إلى أوامر ونواهٍ تسيّر حياتي. لذلك رجاء.. لا تحاولي إثارة هذا الموضوع مجدّدًا.

ارتبكت ياسمين وقد باغتتها إيلين بردّة فعلها العنيفة. هي أيضًا لا تريد أن تختار. تحتمي من دواعي التغيير وتتمسّك بواقع لا يهمّها إن كان أفضل ما يمكنها الحصول عليه. كل ما يعنيها هو الاستقرار الرّاهن، رغم كل السّيئات التي قد تختفي وراء وجهه المطمئن. أطرقت ياسمين في ضيق وقد أصبحت رائحة الدخان لا تطاق. تمنّت أن تقدر على الاختفاء من الغرفة دون أن تحسّ لها إيلين صوتًا.

التفتتا بحركة واحدة حين تناهى إلى مسامعهما صوت مفتاح يدور في قفل الباب الخلفي المتصل بالمطبخ، وما لبث الباب أن فتح وظهر رجل متشح بالسواد يحمل حقيبة سفر. طالعتاه في دهشة لم تدم سوى بضع ثوانٍ.

- ماذا هناك؟ ألا يرحب بي أحد؟

وقفت ياسمين وعانقت والدها في حرارة. في حين امتدت ذراعه لتربت على ظهرها في حركة روتينية باردة، هكذا عوّدها. قامت بعدها إيلين في تثاقل وأطفأت سيجارتها قبل أن تنضمّ إليهما. عاجلها زوجها في شيء من الحدّة:

- كم مرّة طلبت منك ألا تدخني في البيت؟

- عزيزي.. لم أكن أظنك ترجع اليوم من السّفر. وسارة وريان في غرفتيهما.

كانت لهجتها تنمّ عن لا مبالاة غلبت التبرير أو الاعتذار. تزايد ارتباك ياسمين وهي تراقب المشهد الغريب الذي لم تتوقعه بين والدها وزوجته. فكرت في الانسحاب، لكن والدها بادرها قائلًا:

- سأصعد إلى الغرفة لأرتاح.. ياسمين، نتحدّث غدًا إن شاء الله.

هزت رأسها موافقة وسبقته في الصعود إلى الغرفة. ربما يحتاج إلى الانفراد بإيلين لبعض الوقت لتوضيح بعض الأمور المرتبكة بينهما. رافقها إحساس بالمرارة تلك الليلة.

لم يكن يومًا موفقًا.

(4)

عمر

انكبّ عمر الرشيدي على مجهره الإلكتروني يدقّق في ذرّات تركيبته المبتكرة. عقد حاجبيه في تركيز وهو يلاحظ تأثير المحلول الكيميائي الذي أضافه للتوّ على المادّة التي تشغل تفكيره منذ أسابيع. تناول مشرطًا معدنيًا حادًّا وقرّبه بيد ثابتة تنتعل قفازًا بلاستيكيًا أبيض من الصّفيحة الماثلة أمام عدسة المجهر. بحركة دقيقة قام بتقسيم المادّة إلى جزأين، سحب أحدهما ليضعه على صفيحة جديدة.

- ما زلت هنا؟ الساعة تجاوزت السّابعة.

لم يردّ على الصوت الأنثوي الذي جاء من ورائه، وتحرّك في حرص في اتجاه الجانب الآخر من طاولة الاختبارات. وضع الصّفيحة التي أعدّها للتوّ في وعاء جديد وأحكم إغلاقه.

- عمر.. متى تنتهي؟

تأفف في داخله من إصرارها. نزع القفازات في هدوء وانهمك في كتابة ملاحظاته على قصاصة لاصقة، ثم ثبتها على الوعاء حتى يتذكر تفاصيل كل تجربة يقوم بها. رفع رأسه حين أحسّ بحركة قريبة منه. انتفض فزعًا حين ألفى كارولين تنحني فوق كتفه لتطالع ما يعمله، فأفلت الوعاء ليسقط على الأرض ويتحوّل إلى شظايا متناثرة. التفت إليها وهو يكظم غضبه:

- لا تقتربي.. المادّة مجهولة التأثير وقد تضرّ البشرة.

ترك القلم ولبس قفازات جديدة، في حين كانت كارولين تتابعه وهي تلهج بعبارات الأسف:

- كم أنا خرقاء! لم أرد أن أفسد عملك.. أنا آسفة حقًّا.

استمع إليها دون تركيز وهو يتلفت باحثًا عن أدوات التنظيف.

- المكنسة في الاستراحة، سأحضرها.

هرعت إلى الخارج على الفور رغم الصّمت المطبق الذي قابل به عمر اقتراحها للمساعدة. حين رجعت كان ينحني ليعاين القطع الزجاجية التي تبعثرت تحت الطاولة والمقاعد، والمحلول اللزج الذي ترك آثارًا على الأرضية المجلزة.

- سأقوم بجمع الزجاج.. لا تلمس بيديك حتى لا تجرح نفسك.

أفسح لها المجال دون كلمة واحدة. وجد مبررًا ليشاجرها، أو على الأقل ليتجاهلها. في الفترة الأخيرة صارت تتعبه محاولاتها المستمرّة للتقرّب منه والحديث إليه. حاول أن يصدّها بشتى السبل، بالإعراض، بالتجاهل، بالصّمت الرّهيب.. لكنها كانت تلاحقه برقتها وأنوثتها.. وفتنتها. يعلم أن ليس هناك على الأرض فتنة للرجال أقوى من النساء، وهي كانت من النّوع الجذاب.. وهو كان يعيش وحيدًا.

يشعر بالحنق تجاهها وهو يرى لطف معاملتها رغم جفائه المستمرّ. كيف يبعدها عنه؟ لا يدري كيف يمكنه أن يطردها من

مخبره، وهي لا تمل المحاولة. كانت الأضواء قد بدأت تنطفئ في مختلف المكاتب، وشرع الموظفون يغادرون المبنى. وهو وحده في المختبر.. معها. قال في صرامة وهو يأخذ المكنسة منها:

- شكرًا لك.. يمكنك المغادرة الآن.. لديّ عمل يجب أن أنهيه.

سلّمته المكنسة وجلست على الكرسي القريب، تتابع حركاته وتتجاهل أوامره. انغمس عمر في التنظيف متجنبًا أن تلتقي عيناه بعينيها. حين وصل إلى فرنسا منذ سنوات اصطدم بالفرق الشاسع بين المجتمع المتفسخ أخلاقيًا في مدينتي "غرونوبل" التي درس فيها، و"ليون" التي يعمل بها منذ سنة، والمجتمع المحافظ الذي خلّفه وراءه في مدينة مراكش المغربية. فوجئ حال خروجه للشارع لأول مرّة بما تلبسه الفتيات من خِرَق شفافة وملابس مسرفة في القِصَر، تكشف أكثر مما تستر. رغم أن بوادر الانفلات بدأت تظهر على بنات مدينته المبهورات بالمجتمعات الغربيّة المتقدّمة، لكن البون ما يزال شاسعًا بينهن وبين القنابل البشرية التي تتجول في شوارع "ليون". صدمته مشاهدة العشاق في كل الزوايا، يجاهرون بالفجور، ومرأى السكارى يترنّحون آناء الليل وأطراف النهار كما يترنح الكحول في زجاجاتهم.

لم يعد يدري أين يوجّه بصره، تحاصره الفتن من كل جهة. اللافتات الإشهارية، واجهات المحلات وحتى المعلّقات في وسائل النقل والصور في المجلات وفي الجرائد اليومية.. كلها تنضح فتنة وتنطق بما وصل إليه ابتذال الجسد البشري في المجتمع الغربي، الأنثوي والذكري على حدّ السواء. رغم مرور السنوات واحدة إثر الأخرى، فإنّ حواسّه ترفض أن تتعوّد على تلك المشاهد وتأبى أن تتقبلها كجزء من الحياة اليومية. فحكم على نفسه بالعزلة في سجنه الاختياريّ وولى العالم الخارجيّ ظهره، إلا عن اضطرار.

- اعتذار على ما سببته لك من متاعب، أدعوك إلى العشاء الليلة.. ما رأيك؟

كانت تبتسم في إغراء وهي تقدّم اقتراحها. لم يلتفت إليها وهو يقول في لا مبالاة:

- شكرًا على الدّعوة، لكنني لم أكمل ما يجب عليّ عمله.

كان قد انتهى من التنظيف الذي حاول إطالة أمده قدر الإمكان. تنهد وهو يعود إلى معدّاته. سيقوم بإعادة التجربة. ما زالت لديه كمية من المادّة الخام التي يدرس خاصيّاتها. يتعمّد أن يبقى في المختبر إلى وقت متأخر كل يوم. في معظم الأحيان، حين يغادر الشركة يكون الظلام قد حل في الخارج.. يخفف عليه ذلك مهمّة غض البصر المرهقة، ويكفيه شرّ الوحدة والوساوس حين يكون بمفرده في شقته. لكن النهار في الصيف يزداد طولًا، والمساحة المكشوفة في الأجساد البشرية تزداد امتدادًا أيضًا.

جاءه صوت كارولين من جديد وهي تقترب من مجلسه وتتنحنح لتلفت انتباهه:

- احممم.. يمكنك مواصلة العمل غدًا.. ما رأيك في بعض الترفيه؟

لم يلتفت إليها. انغمس في عمله مأخوذ اللبّ كالمعتاد، يغالب نفسه حتى ينسى وجودها معه في نفس القاعة. سمع تنهيدتها اليائسة، ثم صوت حذائها ذي الكعب العالي وهي تبتعد. ابتسم في ارتياح وهو ينهمك في التجربة.

****

دخل كافتيريا الشركة ذلك الصباح، طلب قهوة ووقف عند المنضدة ينتظرها. لم يكن يترك مختبره إلا نادرًا. حين يستبدّ به

التعب ويحتاج إلى شحذ ذهنه يلجأ إلى وقوده المفضل، القهوة. يقولها ساخرًا: "نوع من الطاقة النظيفة"، مثل تلك التي يعمل على استنباطها.

حانت منه التفاتة إلى الطاولات القريبة. كان بعض زملائه الباحثين يجلسون غير بعيد عنه. لم يفكر في الانضمام إليهم. علاقته بهم لا تتعدّى التّحيّة العابرة والابتسامة المجاملة. منذ أيام عمله الأولى في الشركة بنى حول نفسه سورًا لم يسمح لأحدهم بتجاوزه. استمرّ على نفس النسق الذي وضع أسسه أيّام الدّراسة. لكنّ تغيير المكان كان يعني أيضًا جهدًا جديدًا حتى يألف زملاؤه الجدد طبعه ويعرفوا حدودهم.

نظرة واحدة من مكانه عند المنضدة إلى المائدة التي يتحلقون حولها كانت كافية لتمييز زجاجات الجعة الخضراء التي يشربها بعضهم في كل أوقات اليوم. لا تخلو منها وجبة طعام أو أمسية أو سهرة، وهو يواصل فراره المحموم من حكم "جليسهم". بعد أن امتنع عن الانضمام إليهم في المرّة الأولى ثم الثانية، لم تعد تصله دعوات من طرفهم. حتى الموظفون حديثو العهد، يحاولون الاحتكاك به في البداية، ثم يتعلمون طبعه وينصرفون عنه مثل غيرهم. فيسترخي مرتاحًا داخل قوقعته الافتراضية. وحدها كارولين كانت تصرّ على اقتحام عالمه.

- عمر.. كيف حالك؟

التفت إلى الصوت الذي ميّزه.

- آه.. السلام عليكم. لم أنتبه إليك.

كان وليد الراجحي زميلًا من أصل جزائري يعمل في قسم المحاسبات. انضمّ إلى الشركة قبله بسنوات عدّة، وطاب له المقام بها. تناول عمر فنجانه وجلس قبالته. ربما لم يكن وليد من أفضل أصحابه، لكن مجالسته لا تضرّ. بعد أن تبادلا التحيات والسؤال عن الأخبار، قرّب وليد رأسه من أذنه وهمس بصوت خفيض:

- اسمع.. جلست هنا صدفة منذ قليل، فوصلني بعض الكلام الذي يهمّك.

- كلام يهمني؟

- اششش.. أخفض صوتك حتى لا ينتبهوا.

نظر عمر في الاتجاه الذي أشار إليه وليد برأسه. كانت شلة الباحثين ما تزال هناك.

- ما الأمر؟ ماذا هناك؟

واصل وليد في صوت أشبه بالوشوشة:

- صامويل وكريستوف.. كانا يتحدّثان عن اختباراتك. لم أفهم الشيء الكثير، لكن يبدو أنهما مهتمّان جدًّا بما تفعل.

هزّ عمر كتفيه في استهانة:

- اختباراتي؟ كان الأجدر بهما أن يسألاني عنها.

- أنت لا تفهم. هناك أمور كثيرة تحاك في الظلام. القدامى غالبًا حين يبدون اهتمامًا كبيرًا بعمل ما، فهذه ليست بُشرى خير. إمّا أن يشاركوا فيه وإما يعملون على إفشاله.. لذلك انتظر اتصالًا من أحدهما عن قريب. كان الله في عونك!

لم يرد عمر أن يصدّق تلك الشائعات السّخيفة. لكن نظرات وليد الجادّة ولهجته الحذرة أسلمته إلى عدوى الريبة. لم يكن قد

استوعب الأمر بالكامل، حين قال وليد مغيّرًا الموضوع:

- هل ستذهب إلى حفل الشركة السنوي؟

هكذا هو وليد يقفز من موضوع إلى آخر بدون تمهيد. يمارس رياضة ذهنية حين يتحدّث إليه، فيحاول تعقّب أثر أفكاره المرنة دون جدوى. حفل الشركة السّنوي؟ كان قد نسي أمره بالكامل. ذلك الحفل الذي تقدّمه الإدارة لموظفيها في شهر أكتوبر من كل سنة احتفالًا بذكرى تأسيسها. ينفقون أموالًا طائلة، ابتداءً من الموقع الذي عادة ما يكون فندقًا راقيًا في وسط المدينة، مرورًا بالأطعمة والشراب، وصولًا إلى الفرقة الموسيقية ومنشّطي السهرة. لينتهي الحفل في الساعات الأولى من الصباح، بأجساد مترنحة ثملة وعقول غائبة استباحها اللهو. ابتسم عمر وهو يقول:

- لا أعتقد.

- لن يكون البروفيسور دانيال مسرورًا.

اتسعت ابتسامة عمر:

- وهل يهتمّ البروفيسور دانيال لأمري إلى هذه الدّرجة؟

- اسمع، في المرّة الماضية سمعت الكثير من التعليقات. بعضهم يقول إنك إنسان معقد ومنغلق لا يعرف معنى المرح.

- حقًّا يقولون ذلك؟

هتف وليد مستدركًا:

- هذا ليس رأيي.. لكن إن شئت الصّراحة، معهم حق. فهم لا يرونك إلا في المختبر، وما أن يتعلق الأمر بفسحة أو نزهة إلا امتنعت.

- لا عليك. رأيهم فيّ لا يهمني بأي حال.

- لا يهمّك؟ حقًّا؟

أخذ عمر رشفة من فنجانه وهو يهز رأسه مؤكدًا.

- لقد تعوّدت أن أكون مختلفًا في هذا المجتمع، ولم يعد يعنيني رأيهم في اختلافي. لست ساعيًا لإرضائهم أو نيل مباركتهم، ولن أغيّر مساري لأنه لا يعجبهم.. لذلك من العبث الاهتمام بما يقولون.

جاء دور وليد كي يطالع صاحبه في دهشة:

- أغبطك على برودة دمك هذه. لست أدري لو وصلني منهم كلام مثل الذي يقولونه عنك كيف كنت لأتصرّف! حين أنسحب من مجالسهم أتخيّلهم يشتمونني في غيابي كما يشتمونك. مجرّد التفكير في هذا يشعرني بغضب جارف. مجتمع منافق.

- هنا الجميع يبتسم في وجهك ويجاملك. لا أحد يتجرأ على إطلاق كلمات وقحة أو منافية للأخلاق وجهًا لوجه. لكن الألسنة تنفلت حين يطلق الكحول لها العنان.

- لكنك تحتاج إلى التعامل مع هذا المجتمع وتندمج فيه، حتى لا تعيش على هامشه.

- ستظل على هامشه يا صديقي طالما لم تتنازل عن كل مبادئك. ما دمت لا تحترم "قواعد اللعبة"، لا تدخن، لا تشرب الكحول، لا تصاحب النساء ولا تلعب القمار، فلن تندمج في نظرهم أبدًا.

ابتسم وليد في حرج وفرّ بنظراته بعيدًا عن عيني عمر، حتّى لا تنفضح اختلاجته العابرة. كثيرون مثله كانوا يعتبرون أنفسهم مجبرين على احترام قواعد اللعبة حتى يقبلهم المجتمع الفرنسيّ. قال وهو يشير إلى مدخل الكافيتيريا:

- على ذكر النساء، صديقتك وصلت.

رفع عمر رأسه ليلمح كارولين التي سبقتها رائحة عطرها النفاذة، لتدير رؤوسًا كثيرة في الكافتيريا. كانت قد انهمكت في دفع ثمن مشروبها ولم تنتبه إلى وجوده هناك بعد.

- يجب أن أذهب الآن. أراك لاحقًا.

انسحب خارجًا من الباب الخلفي، قبل أن تلمحه كارولين، كالفارّ من الطاعون. إلى متى ستظل تهرب منها يا عمر؟ سيأتي وقت المواجهة عاجلًا أم آجلًا. فأنت رجل على هامش مجتمعها، وهي امرأة على هامش مبادئك. لا مجال لتقاطع طريقيكما.

لا يدري لماذا وكيف قفزت إلى ذهنه صورة فتاة المترو التي رآها صبيحة الأمس. خرجت من لا وعيه لبضع ثوانٍ من حيث لا يشعر، وجد نفسه يقارنها بكارولين.. الحياء وحشمة اللباس صفات يفتقدها. تنهّد وهو يمحو الصورة من ذهنه.. "حفظ الله بنات المسلمين!".

(5)

الشقة الباريسيّة

وقفت رنيم على رصيف محطة القطارات وهي تهزّ ساقها في توتر. طالعت هاتفها للمرّة الألف، تتثبت من السّاعة ومن الاتصالات الواردة. لا شيء. بقيت أمامها دقائق قليلة قبل انطلاق القطار المتّجه إلى باريس. لم تكن تحمل سوى حقيبة صغيرة تحوي حاجياتها الضرورية. منذ يومين قامت بإرسال القسم الأكبر من حقائبها عبر خدمة نقل البضائع، وحال وصولها يمكنها استلامها من المصلحة المختصّة في محطة باريس.

غادرت المستشفى منذ أسبوع. بعد مقاومة طويلة لتعليمات الأطباء ورفض صبياني للشفاء، انتهت بالتسليم لقدَرها. لم تكن يومًا ضعيفة ولا عديمة الإرادة. لكنها كانت أولى تجاربها مع الخيبة والخذلان. تطلبت بعض الوقت حتى تستعيد توازنها وتقيّم وضعها بواقعية. ليست نهاية العالم. فقدت قطعة من جسدها، وحبيبًا، وعملًا. لكنها ليست نهاية العالم؟ ضربة للصّحة والعاطفة ومورد الرزق في نفس الوقت. لكنها رنيم. كان يمكن أن تكون نهاية العالم بالفعل، بالنسبة إلى أي شخص آخر، لكن ليس بالنسبة إليها هي.

كانت مقاتلة منذ البداية. قاتلت في رحم أمّها وتشبّثت بالحياة، فجاءت إلى الدّنيا بعد إجهاضين. ثمّ كانت لها رحلة مضنية في حضّانة المستشفى الخاصّة، لتنهي شهور الحمل صناعيًا، بعد أن لفظها الرّحم وهي جنين غير مكتمل النّموّ. لا تذكر علاقتها الوطيدة تلك بالمستشفيات والأسلاك والآلات، لكنّها أدركت في وقت مبكّر أنّها مختلفة عن بقيّة الأطفال.

في طفولتها، عانت من مشكلات في النطق أثّرت على قدرتها على التواصل، وتسبّبت في الكثير من السّخرية من قِبل الأطفال في سنّها. استمرّ والداها في عرضها على الأخصائيين النفسيّين ومدرّبي النطق وأطباء الأعصاب حتّى سنتها السادسة عشرة، حين أعلنت أنّها لن تدخل عيادة بعد ذلك. كانت تتلعثم وتعضّ لسانها حين تتعرّض إلى موقف مربك، وأحيانًا ينقطع تنفّسها وتعجز لبرهة عن النطق بكلمة واحدة. وحين تنفرد بنفسها في غرفتها مساء، تغرق وسادتها بدموع القهر.

لكنّها بمرور الوقت، صمّمت طريقتها الخاصّة لتجاوز مشكلتها. حين تطلب منها المدرّسة أن تقرأ نصًّا أمام طلاب الفصل وتستعصي عليها البداية، كانت تضيف حرفًا وهميًّا يسبق الكلمة المقيتة التي تشلّ لسانها. واستمرّت بتلك الطريقة، تشتّت انتباهها عن الحرف الأوّل الذي يسدّ حلقها وتفاجئه بحرف جديد يستهلّ الجملة بشكل مضحك أحيانًا.. وسرّها أن تلحظ أنّ إعاقتها كانت آخذة في التّراجع مع الزّمن.

والمدهش في الأمر هو أنّها لم تكن تلقى إشكالًا بتاتًا مع نصوص الأغاني التي تحفظها عن ظهر قلب وتستظهرها دون تركيز، فأيقنت بأنّ الحفظ هو المفتاح. حين ركّزت على الحفظ، أصبح بإمكانها تجاوز كلّ الصعوبات التي ظنّتها لا تقهر في وقت سابق. شاركت في العروض المسرحيّة في المدرسة، وقدّمت خطابات في حفل نهاية السّنة، وتعلّمت لغات جديدة في وقت وجيز. كانت ملكة الحفظ لديها قويّة، وكلّما تفانت في شحذها جاءت النتائج مبهرة. لذلك فقد فاجأت عائلتها يومًا حين أعلنت أنّها

تنوي دراسة المحاماة. لم يكن أحدهم يتخيّل أن تقف تلك الطفلة المتردّدة ذات اللسان المعوجّ يومًا في قاعة المحكمة وتترافع أمام حشود غفيرة جاءت لتستمع إليها.

لكنّ رنيم فعلت. وهي تثبت لنفسها كلّ يوم بأنّها قادرة على تذليل كل الصعوبات التي تواجهها. وما تلك التجربة إلا محنة جديدة لن تخرج منها إلا وهي تحمل كأس البطولة، لتضيفها إلى قائمة بطولاتها الشخصيّة التي لا يعلم أحد غيرها عنها شيئًا.

لم تستطع منع نفسها من التفكير في اقتراح ميشال.. بعقلانية أكبر هذه المرّة. لا أمل لها في استرجاعه أو في نسيان هزيمتها أمامه. ولا شيء أمامها تفعله في مرسيليا، سوى اجترار الألم. إن كانت قد فقدت عملها فإن حياتها هنا لم يعد لها معنى. لا قوّة لديها لاستئناف عملية البحث، والبحث يعني مقابلات عمل، وتلك الأخيرة تتطلب توصية من مستخدمها السابق.. ميشال روسو. ولم يكن من الوارد أن تتواصل معه بعد الآن مهما كان الدّافع.

بقاؤها في مرسيليا يعني هواجس مستمرّة. ستلمح خياله في كل شارع وتنتظر ظهوره عند كل منعطف. لن تشفى من تعلقها به بسهولة وهو قريب منها. باريس وجهة ممتازة.. تفصلها عنه نحو سبعمائة كيلومتر. ستمنح نفسها فرصة بداية جديدة بعيدًا عنه. خصوصًا أن هناك عملًا ينتظرها. لذلك لم يكن قبول العرض هزيمة لكبريائها بقدر ما هو انتصار لتفكيرها العقلاني.

ميشال كان واسطتها للحصول على هذه الوظيفة.. لكن لا أهمية لهذا. لو لم تكن محامية ذات كفاءة لما تورّط في التوصية. لقد استحقت هذا العمل ولم يكن عليها إلا أن تتحرّك وتُعجِّل بإمضاء العقد قبل أن تضيع الفرصة. كانت قد مزّقت القصاصة التي وصلتها مع باقة الورود، لكن الرقم محفوظ في ذاكرة هاتفها ضمن الأرقام التي اتصلت بها مؤخرًا. تذكرت محتوى تلك المكالمة القصيرة التي أجرتها منذ أيام قليلة. كان عليها أن تقول جملة واحدة ليتغيّر مسار حياتها:

- موافقة على عرضكم.

حين أنهت الاتصال كان ارتياح غريب قد سرى في أوصالها. ستطوي الصفحة أخيرًا وتبدأ مرحلة جديدة في حياتها. بعد سنتين من إقامتها في فرنسا ستحلّق إلى باريس، مدينة الأنوار. سبق لها أن زارتها مرّات في إجازاتها، لكنها تحسّ بإثارة خاصة للإقامة فيها. بعض الحماس يا رنيم، هذا كل ما يلزمها لتستعيد حياتها. سلمت مفتاح شقتها منذ قليل لتسدل الستار على فصل من مغامرتها الفرنسيّة، تريد تجاوزه بأسرع ما يمكن. اضطرت إلى دفع ثمن شهر إضافي من الإيجار لأنها لم تُعلم الوكالة برحيلها في الآجال المحددة. لا يهمّ. حين يتعلق الأمر بالمادّة، فوالدها موجود.

- آه ها هو أخيرًا.

كان هاتفها يرنّ. أجابت على الفور وهتفت بصوت امتزج فيه الدلال بالاستياء:

- أين كنت؟ أحاول الاتصال بك منذ الصباح.

جاءها صوت والدها من الجهة الأخرى في رصانة واقتضاب:

- كنت في اجتماع مغلق مع مجموعة من الموظفين السّامين. ما الأمر؟
- أحتاج إلى بعض السيولة؛ سأنتقل إلى العيش في باريس.
- باريس؟ مشكلات في العمل؟

- لا أبدًا.. وجدت وظيفة أفضل براتب أوفر وامتيازات.
- لماذا السّيولة إذن؟
عضّت على شفتها في انزعاج. كان بإمكانها التوفير من راتبها السابق لحماية نفسها من الطوارئ الممكنة، لكنها فضّلت تبديد كل مدخراتها على المشتروات التي يرسم ملامحها نمط حياتها الممعنة في البذخ.
- أرجوك.. لا تحاسبني على ما مضى. أحتاج إلى بعض النقود لبدء حياتي الباريسية.
- حسن. أي طلبات أخرى؟
- نعم، أحتاج إلى من يكفلني لأستأجر الشقة.
- لماذا الكفيل؟ ألم تقولي إن الراتب أوفر؟
تنهدت في تململ:
- أنت تعلم، في باريس الشقق الواسعة إيجارها مرتفع جدًا! لذلك أحتاج كفيلًا من معارفك الأثرياء.
لم تكن في حاجة إلى شرح غلاء الأسعار الباريسيّة لوالدها، الذي طوّف بالدّنيا من شرقها إلى غربها في شبابه، وما يزال يفعل كلّما سنحت الفرصة. يعرف جيّدًا تلك الصناديق المعلّقة المتراصّة عموديًا، والتي تسمّى شققًا في باريس. ولم يكن لمحامية مبتدئة مثل رنيم أن تطمع في أكثر من ثلاثين مترًا مربعًا. لكنّها تريد أكثر! والحصول على ذلك الأكثر له شروطه وتكاليفه.
حين يتعلّق الأمر باستئجار شقّة، يعاملك الباريسيّون كما يُعامل الخاطب المتقدّم بطلب زواج. بالإضافة إلى كشوف الحساب المتعلقة بالأشهر الثلاث الأخيرة -التي يجب أن تتضمّن دخلًا يتجاوز ثلاثة أضعاف الإيجار المطلوب- تطلب الوكالات العقارية شهادة عمل، ووصل سداد من المؤجّر السّابق، ومبلغًا محترمًا للتأمين على الشقة من تلف تجهيزاتها.. ثمّ تعرض ملفات المتقدّمين إلى المؤجّر الذي يتخيّر من بينها -مثل العروس- ما يناسبه، دون مراعاة الأولويّة أو الأحقّية، ودون تقديم توضيح لأيّ كان. لذلك، نعم، بدون الكفيل قد تمضي رنيم شهورًا في ضيافة الفنادق حتى تعثر على شقة أحلامها، ممّا سيقضي حتمًا على مدّخراتها الضئيلة المتبقية.
- طيب، سأقوم ببعض الاتصالات.
هتفت في ظفر:
- شكـــــــــــــرًا.. أنت أفضل أب في الدنيا. والآن عليّ أن أغلق الخط، القطار وصل.
أغلقت الخط بسرعة قبل أن تسمع ردّه، بينما ارتفع صوت هدير القطار وهو يدخل المحطة، وأعلنت المضيفة عبر مكبرات الصّوت عن انطلاقته القريبة نحو باريس. توجّهت رنيم نحو عربة الدّرجة الأولى في خطى ثابتة.
مثل كلّ ابنة وحيدة لعائلة مرفهة، قبل أن تأتي شقيقتها رانية إلى الدّنيا، بعد محاولات يائسة للإنجاب من جديد دامت زهاء السنوات العشر، عاشت على نمط يرتكز على الترف والإنفاق. كان والداها يعوّضان غيابهما المتواصل عن الفيلا العائليّة الشبيهة بالقصور في جاردن سيتي بإدخالها أرقى المدارس وإلباسها أغلى الثياب ووضعها بين يدي أفضل المربّيات. دخلت المدرسة الفرنسيّة لا لشيء إلا لأنّ والدها سطر خطوات حياتها بدلًا عنها، أو هكذا ظن أنه فاعل قبل أن تتمرّد على إرادته.

حين أنهت دراستها الثانوية، أراد أن يدخلها تخصّصًا علميًا أو اقتصاديًا. لكنها اختارت المحاماة وأصرّت عليها. فعلت ما أرادت هذه المرّة، ووجدت لذلك حلاوة فأعادت الكرّة. منذ ذلك الحين، أصبح والدها مزوّدها الرسمي بالاحتياجات المادّية فقط لا غير. في تلك الصفقة، خسر دورًا وحيدًا، هو دور المخطط لمسار حياتها. بقية الأدوار المفترضة لكل أب جدير بهذا اللقب، لم يكن قد امتلكها يومًا حتى يفقدها. أو لعله سها عنها في وقت مبكر من طفولتها.. في وقت لا تذكر هي عنه شيئًا.

استقرّت في مقعدها واسترخت. تحتاج بعض الهدوء والتركيز. في ساعات الرحلة الثلاث عليها أن تفكر فيما ستفعله في الفترة المقبلة. ستكون أيامها القادمة محمّلة بالأحداث. البحث عن شقة، ثم تسلّم عملها الجديد، وأيضًا الكثير من التسوّق. ابتسمت عند هذه الفكرة. التسوّق هو نشاطها المفضل بامتياز. تحتاج إلى أثاث جديد، أوانٍ جديدة، ستائر، سجاد، لوحات.

****

أجالت بصرها عبر الشقة الخالية في نظرة متفحصة. من الواضح أن المكان يحتاج إلى بعض الطلاء ليستعيد رونقه. تقدّمت في خطوات متأنّية وهي تواصل تخطيطها. هذه النافذة الكبيرة تلزمها ستارة سميكة وأخرى شفافة حتى تتحكم في كمية الضوء التي تتسرّب إلى القاعة. في ذلك الركن ستضع مصباحًا عموديًا يعكس الضوء على السّقف لإضفاء جوّ أنثويّ ناعم. الأريكة العريضة مكانها تجاه النافذة وجهاز التليفزيون في الركن المقابل.. انتهت من تخيّل فضاء الجلوس وتوجهت إلى المطبخ المفتوح عليه. كان شكله العصري أكثر ما شدّها في زيارتها السّابقة، وهو ما جعلها تتمسك بهذه الشقة في الحال. لم تكن تحتاج إلى مستلزمات كثيرة لملء الأدراج والرّفوف، فهي لا تطبخ على الإطلاق. لكنه فضاء ضروري لتسخين البيتزا والأطباق المجمّدة التي تقتات عليها حين لا تأكل في المطاعم، وخصوصًا للسّهرات رفقة الأصدقاء. تخيّلت نفسها وراء المنضدة تسكب العصائر وترصف قطع الحلوى في الأطباق وتبتسم لضيوفها المنسجمين في أحاديث حلوة على أرائك صالتها المريحة.

كانت هناك غرفتان أخريان. الغرفة الأكبر بينهما ستكون غرفة نومها، أما الغرفة الثانية فستنظر في أمرها لاحقًا. من الأفضل أن تكون هناك غرفة إضافية تضع فيها كل الحقائب والعلب الفارغة والأدوات التي لا تجد لها مكانًا في الخزانات والرفوف.. وربما تجعل منها غرفة لملابسها. أحسّت بحماس أكبر لهذه الفكرة. إنها في باريس، عاصمة الموضة. ومع هوسها بالتّسوّق، ستقضي أوقاتًا ممتعة حتمًا.

ارتفع رنين الهاتف ليقاطع أفكارها.

- مرحبًا بابا، كيف حالك؟ احزر أين أنا الآن؟ لقد تسلمت مفتاح شقتي الجديدة.. إنها ممتازة حقًّا.

تحركت باتجاه النافذة وهي تسترسل في الكلام. فتحتها على مصراعيها، فطالعها الجزء العلويّ من برج إيفل، يطلّ على استحياء من وراء البنايات التي تفصلها عنه. كانت شقّتها على بعد شوارع قليلة من نهر السّين و المنطقة الخضراء التي ينتصب البرج في نهايتها.

- أشكرك على الكفيل الذي أرسلته. صحيح أنه متقدّم في السن وسمج الحديث، لكن دخله السنوي يتكون من أرقام كثيرة، وهذا يكفيني!

قالت ذلك وهي تضحك في مرح، ثم أضافت وقد تذكرت شيئًا هامًّا:

- هل أرسلت إليّ المبلغ الذي طلبته منك؟

- للأسف سيحصل تأخير في التحويل.. يبدو أنني قد تجاوزت المبلغ السنوي الذي يمكنني تحويله إلى خارج البلاد، لذلك يجب أن ننتظر بعض الوقت ريثما أجد حلًا بديلًا.

هتفت رنيم في فزع:

- لاااا.. تأخير؟! وماذا سأفعل في الانتظار؟ لقد دفعت كل ما بقي من مدّخراتي للوكالة العقارية حين وقّعت عقد الشقة، والآن لديّ الكثير من المصاريف لتهيئتها وتأثيثها. كما أنني لم أعمل هذا الشهر.. وبقي أمامي بضعة أيام لتسلم الوظيفة الجديدة.. ماذا أفعل الآن؟

- اصبري فقط.. هذا كل ما لديّ. كان عليك أن توفري القليل قبل تقديم استقالتك.

كان في صوته نوع من اللوم، وهي لم تكن في حاجة إلى ذلك. قالت في لهجة جافة:

- مع الأسف، الأمور سارت هكذا.

أنهت الاتصال وسرحت للحظات. ما الذي ستفعله الآن؟ والدها تركها لأوّل مرّة تعيش أزمة ماليّة دون أن يسعى إلى إنقاذها! فليكن. إن كان يريد اختبار جدارتها فستثبت له أنّها قادرة على إيجاد حلول عمليّة بمفردها. يبدو أنها ستؤجل مشاريعها الشرائية لبعض الوقت، لكنها أبدًا لن تتنازل عن شقتها الباريسية الواسعة التي طالما حلمت بها. تحتاج إلى سيولة بشكل سريع حتى تدفع الإيجار قبل نهاية الشهر. أتطلب سلفة من مستخدمها؟ عبست عند هذه الفكرة. ستترك لديه انطباعًا سيئًا وهي لم تبدأ العمل بعد. تقدّم دروسًا خصوصيّة؟ سيتطلب الأمر الكثير من الوقت، ريثما تضع الإعلان وتتلقى الطلبات وتحضر الدروس.. ثم، المبلغ كبير وبعض الدروس لن تكون كافية. زفرت بقوة وقد تزايد قلقها. أنتِ في ورطة يا رنيم. رصيدها البنكي يقترب من الصفر، ولا يمكنها الحصول على تغطية بمبلغ كافٍ لتأثيث الشقة. تحولت نظراتها إلى الغرفة الإضافية، فلمعت فجأة فكرة جديدة في رأسها. ربما أمكنها أن تستغلها بشكل مختلف مؤقتًا. ربما يمكنها أن.. تؤجرها مثلًا؟

(6)

لقاء آخر

ركض عمر بسرعة باتجاه محطة المترو، وكفّه تقبض على حقيبة أوراقه. قفز على عجل بعد أن تجاوز حاجز التثبت من التذاكر وارتمى عبر باب المترو الواقف في المحطة. في الثانية التالية كانت الأبواب الآلية تغلق كلها دفعة واحدة قبل أن ينطلق المترو نحو المحطة التالية. أخذ يلهث بقوّة ثم ألقى نظرة على ساعته وارتسمت على شفتيه ابتسامة ظفر. نجح اليوم في تحطيم رقمه القياسي السّابق. ثلاث دقائق وثلاثون ثانية هو الوقت الذي قطع خلاله المسافة الفاصلة بين شقته ومحطة المترو. لم يكن يريد أن يفوّت هذه العربة، وإلا اضطر إلى الانتظار ربع ساعة إضافية قبل أن تأتي العربة الموالية.

تسلل بهدوء بين المسافرين حتى وصل إلى مكانه المعتاد الملتصق بالأبواب المغلقة. في ذلك الركن يضمن ألا يزعجه أحد وألا يطلب منه أحد أن ينزاح جانبًا، طالما الأبواب تفتح من الجهة المقابلة. وضع سمّاعاته في أذنيه وشغل جهاز التسجيل. انطلق صوت ترتيل العفاسي في انسياب ليملأ أذنيه ورأسه. يمكنه الآن أن يغمض عينيه وينفرد في عالمه مع ورده اليومي من القرآن الكريم. قبل أن يحكم إغلاق أسوار عزلته، حانت منه التفاتة إلى جانبه الأيمن. فالتقطت عيناه وجهًا مألوفًا. كانت هي، تلك الفتاة التي تقرأ كتابًا.

هناك، على بُعد بضعة أمتار من موقفه، كانت ياسمين قد انكبت على مطالعة كتاب جديد. كانت قد مرّت أيام قليلة على لقائهما الأول ويبدو أنها انتهت بسرعة من كتاب "الهويات القاتلة". تطاول بعنقه وانحنى برفق على جانبه، يحاول قراءة عنوان الكتاب. لم يكن واضحًا من موقعه وكان فضوله قويًا ذلك الصباح. بهدوء، تحرّك من مكانه بخطوات بطيئة ليقترب أكثر دون أن يثير انتباهها. حين أصبح على قيد خطوات منها، أصبحت الكتابة جلية أمام عينيه. قرأ العنوان وما لبث أن عقد حاجبيه في شك: "سيرة الإمام الخميني".

- شيعية؟

كان يفكر بصوت عالٍ، لم يشعر كيف أفلتت الكلمات من بين شفتيه بالعربية. حاول أن يتدارك خطأه، لكن بدا أن الأوان قد فات ووصلت عبارته إلى مسامعها. احمرّ وجهه حين رفعت رأسها مستغربة، ثم ما لبثت أن تعرّفت عليه. قالت في فرنسيّة مرتبكة:

- لا أبدًا.

كان بإمكانها أن تردّ بالعربية، لكنها لم تفعل. شيء ما جعلها تحافظ على المسافة بينهما. أن تتكلم معه بالعربية في محيط لا يفهم لغة تحاورهما يوحي إليها بنوع من الخلوة، كأنهما في حديث خاصّ بلا رقيب.. وهي لم تكن لتسمح لنفسها بذلك.

تمالك عمر نفسه وتابع الكلام بالفرنسية، كما أرادت هي. لم يعد بإمكانه التراجع وقد جاءت منه المبادرة:

- أنا آسف. لكن الكتاب...

- آه الكتاب، نعم.. أقرؤه لمجرّد الثقافة العامّة. وجدته في مكتبة والدي.

ساد بينهما الصّمت للحظات. كانت ياسمين غارقة في حرجها، في حين كان عمر يلوم نفسه على تسرّعه. لكن بساطة ردّها خففت ضيقه وجعلته يتجرأ ويسألها:

- أرى أنك أنهيت "الهويات القاتلة".. كيف وجدتِه؟

هزت رأسها بعلامة الإيجاب ثم قالت محاولة السيطرة على حرجها:

- الأفكار مقبولة إجمالًا.. لكنني لم أحبّ طريقة الكاتب في تبرير التصرّفات الإرهابية.

كان الكلام ينساب بهدوء، وبهدوء أيضًا أخذ الحرج يتبخر. ربّما لأن النقاش كان يتخذ منحى جديًّا. أجاب عمر في لهجة دفاعية:

- الكاتب لم يبرّر الإرهاب، لكنه فسّر دوافعه. والفرق شاسع.

قالت ببساطة:

- ربما، لكن تفسيره لم يعجبني..

- هلا وضّحتِ؟

لم يرقه كثيرًا أن تقدح في كتابه المفضل. لكنه لم يكن يمانع في الاستماع إلى رأي مخالف.

- الكاتب يقول إن الغرب يغذي في مجتمعات العالم الثالث عقدة نقص من حيث تخلفها الحضاري.. ثم يزرع الشك في الموروثات العقدية والدينية، وهذا ما يدفع بعض الأفراد إلى الانتقام لدينهم ومعتقداتهم. لكنني أعتقد أنها عقدة فوقيّة وليست عقدة نقص أبدًا. فالإرهابيون في الغالب لديهم إحساس عميق بأنهم فهموا أسرار الكون وعليهم أن يمسكوا بزمامه. بل أنّ منهم من يدرس في الجامعات الغربية ويختلط بالمجتمع الغربي، لكنه ينغمس فيما يعتقده جوهر الرّوحانيات. ينسبون تصرّفاتهم إلى الدين.. والدين منهم بريء.

استمع إليها عمر في انتباه محاولًا استيعاب وجهة نظرها. سألها فجأة:

- هل سبق لك أن التقيت إرهابيًا؟

رفعت حاجبيها في دهشة وهتفت مستنكرة:

- أبدًا..

- عفوًا.. لكنك تبدين واثقة من نظريتك.

ابتسمت ياسمين ثم أطرقت في إحراج وأخذت تقلب صفحات كتابها في توتر. انتبه عمر إلى حركتها وأدرك أن الحديث قد طال أكثر مما ينبغي. قال في اعتذار وهو يتراجع خطوة:

- حسن، أتركك الآن مع كتابك.. وآسف على الإزعاج.

هذه المرّة، لم تتردّد ياسمين وهتفت بسرعة متجاوزة خجل المرّة السابقة:

- ليس هناك إزعاج أبدًا.. كل ما في الأمر هو أنني سأنزل في المحطة القادمة.

- آه.. يومًا سعيدًا إذن.

حين رفع عمر عينيه، رآها تبتعد وتختفي وسط زحام المسافرين على الرّصيف. لم تلتفت، وبشكل غريب أعجبه ذلك. سرح بنظراته عبر زجاج النافذة، وبشكل غير إرادي أخذ يسترجع كل كلمة قيلت في حوارهما منذ قليل. كان مندهشًا من نفسه. لم يكن من عادته التبسّط في الحديث مع الفتيات. بل أن محاولات كارولين لاسترعاء انتباهه كانت تثير غضبه واحتقاره. لكن يبدو أن هذه الفتاة، بشكل ما.. تعجبه.

****

في بداية الظهيرة، كانت ياسمين تجلس على مقعد منفرد في عربة المترو، الذي أخذ ينساب مثلي دودة عملاقة في الأخاديد تحت الأرضية التي أنشأها البشر تحت شوارع ليون النابضة بالحياة. لم تكن العربة مزدحمة في ذلك الوقت من النهار ولم يكن هناك ما يمنعها من التركيز، فغاصت في كتاب جديد تشغل نفسها بالقراءة. لكنّ مزاجها لم يكن طيبًا. مقابلة جديدة وخيبة أخرى تنضاف إلى خيباتها التي لم تعد تريد أن تحصيها. كانت تتمكن من الحصول على مواعيد بسهولة. تلقى سيرتها الذاتية ترحيبًا من طرف معظم الشركات التي تتصل بها، وتنجح عبر المكالمات الهاتفية في تحديد موعد المقابلة. لكن ما أن تقف بحجابها أمام مسؤولي التوظيف، حتى تنقلب الموازين.

تعوّدت أن تواجَه بالرفض. أحيانًا يكون رفضًا مباشرًا مصحوبًا بإشارات صريحة إلى شكلها ولباسها، وأحيانًا يكون مورابًا خلف تعليلات سخيفة تدرك ما وراءها، وفي أحيان أخرى يكون رفضًا يحمل قناع قبول مشروط.. هو رفض في نهاية الأمر، لأن الشروط التي تتعدّى على حريتها الشخصية هي إهانة في حدّ ذاتها. تعوّدت على الرفض، لكنها قطعًا لم تتقبله. ما زالت تأمل فرجًا قريبًا. فرجًا مُلحًّا. فرجًا عاجلًا يهبط مثل قدَر لا تدري كيف ولا متى حلّ. تتمسّك بحبل أمل خفي تخشى أن يتبخر مع مرور الوقت. ولم يكن لديها حلّ آخر.

في البيت، كانت تعمل على تحسين العلاقة مع أفراد العائلة. فكرت أنها وإيلين يمكنهما أن تكونا صديقتين. أصبحت مرافقتها الرّسمية في مهمّة شراء حاجيات المنزل، مهمة يترفّع عنها أخواها لأنها لم تعد تليق بشابين في سنّهما، وتقوم بها ياسمين عن طيب خاطر. والحقيقة أن إيلين كانت تعاملها بشكل جيّد. تشتري لها الهدايا بمناسبة أو بدونها، وتفتح عينيها على الكثير من تفاصيل الحياة اليومية الغريبة عنها، وتتحدّثان في أمور شتى خلال نزهاتهما الثنائية. ويكفي أن إيلين تكلّف نفسها عناء الطبخ من أجلها. ريّان أشار مرّة إلى أن الوقت الذي تقضيه في المطبخ تضاعف منذ مجيئها. فبعد أن اعتادوا لسنوات أن يقتصر العشاء على شرائح اللحم المدخّن والسجق، أو الجبنة والسلطة، أو البيتزا ورقائق البطاطا، أو أطباق الأطعمة المجمّدة في أحسن الأحوال، شرعت إيلين في تحضير أطباق متقنة وبعناية ملحوظة. وفي حين كانت تتطلع كل مرّة إلى زوجها منتظرة عبارة شكر أو مديح تشيد بالتغيير الإيجابي، كان كمال يكتفي بإيماءة باردة، هذا إن لم ينتقد بأسلوب لاذع نقص الملح أو وفرة الدّهون أو قسوة اللحم المطهو. كان بارعًا في إيجاد الخلل وتصيّد الأخطاء.

أصبحت الجلسات العائلية ثقيلة مع التوتر المكشوف الذي تلمحه بين والدها وزوجته. حتى عندما يتعلق الأمر برحلة عائلية لتغيير الجوّ والنزهة، كان والدها يفسد كل شيء ببراعته المعهودة. عنّف إيلين بفظاظة لأنها أخطأت في قراءة الخارطة ووجّهته نحو المدخل الخطأ حين كانوا يقصدون "حديقة الرأس الذهبية"، وأمضى بقية اليوم في عبوس مزمن معكرًا على الجميع متعة تنفس الهواء النقي بسلام. ثم امتنع عن مشاركتهم ركوب الدّراجة الهوائية الجماعيّة التي أقبل عليها الأولاد في حماس، وحين

وقفت إيلين بعفوية لتشارك في لعبة مرتجلة مع البنتين، سخر منها ووصفها بالمراهقة.. لم تكن ياسمين تدرك أنّ والدها سيئ الطّباع إلى تلك الدّرجة. لم يكن ذلك عهدها به منذ سنتين على الأقل. وظهرت تداعيات تصرفات كمال في فتور إيلين تجاه ياسمين، كأنها تعاقبها على ذنب والدها.

لذلك حاولت أن تتقرّب من سارة. حين تنتهي من دروس الحاسب ومقابلات العمل، كانت تجد الوقت أحيانًا للمرور إلى مدرسة أختها ومرافقتها إلى البيت. لم تكن تفصلها عن نهاية الإجازة الصيفية سوى أسابيع قليلة، لكن كانت هناك تمارين كرة السّلة وحصص الرّقص التي تقام في فضاء الرياضة التابع للمدرسة والتي تشغل جزءًا من فراغ سارة. وجدت ياسمين في مرافقتها فسحة مسلية تمكنها من ممارسة رياضة المشي والتفرّج على المدينة، لكنها اضطرّت إلى التخلي عنها سريعًا.

في البداية كانت تدخل إلى ساحة المدرسة مثلما يفعل الأولياء الذين يأتون لاصطحاب أبنائهم، وتنتظرها قرب ملعب الكرة. ضحكت كثيرًا حين قدّمتها سارة مرّة إلى رفيقة صهباء لها، كمن يقدّم تحفة فنية نادرة، فتسألها رفيقتها في فضول صبياني:

- هل هي تونسية حقيقية؟ تتكلم اللغة "التونسية"؟

أضحكها أن تظن الفتاة اللهجة التونسية لغة قائمة بذاتها، وأضحكها الفضول الذي أثاره وجودها في ذلك المكان لدى فتاة لم تتعوّد التقاء الغرباء. في حين كانت الجامعة المرحلة المثالية للتعرّف على أجانب من أصول عرقية مختلفة، فإن اختلاط طلاب المدرسة الثانوية بالأجانب يكاد

---

* Parc de la tête d'or: من أكبر الحدائق العامة الفرنسية. دشنت سنة 1857 وتضمّ بحيرة صناعيّة وحديقة حيوان.

يكون منعدمًا. لكنها أدركت أيضًا أنّ سارة لم تكن تونسية حقيقية، فهي لا تتكلم اللهجة "التونسية" فضلًا عن العربية الفصحى. وأدركت أيضًا أنها لولا تردّدها على تونس لسنوات بمناسبة الإجازات لكانت نظرت إليها بنفس فضول رفيقتها. إنها تنتمي حتمًا إلى الجهة الأخرى من المتوسّط.

وفي إحدى المرّات، بينما كانت تنتظر سارة في السّاحة، اقتربت منها الناظرة وأفهمتها بلطف أن وجودها في المدرسة غير مرغوب فيه، لأنّ قانون حظر الرّموز الدّينية يطال السّاحة والرصيف الملتصق بالمدرسة وينطبق على الطلبة وذويهم، حتى في وقت الإجازات. إن كان عليها أن تنتظر سارة من جديد، فعليها أن تقف في رأس الشارع! منذ ذلك الحين، توقفت عن الذهاب إلى مدرسة سارة.

لم يكن أمامها إلا أن تنغمس في القراءة. كانت هوايتها المفضلة، ونما ولعها بها في الفترة الأخيرة، حتى صار الكتاب صديقها الرّسمي والوحيد. لا يرفضها ولا يطلق عليها أحكامًا، وفي حضرته يتسع مجال حريّتها ليتجاوز الحدود الجغرافيّة. تلجأ إليه لتنفس عن ضيقها فيلاقيها بترحاب. تسرح فيه ومعه وعبره. تقرأ في المترو وفي غرفة المكتب حين تعود إلى المنزل، وبعد العشاء أيضًا حين تنطلق الشرارة الأولى بين والدها وإيلين، فتتركهما وتنزوي في عالمها. وحين تسكن الدنيا من حولها، تطلق العنان لأفكارها. أفكار مربكة تتأرجح بشكل خطر بين التفاؤل والتشاؤم. نوع من الحوار الحضاري في رأسها. نوع من الحياة في داخلها، لا قدرة لها على إسكاتها.. ربّما لأن في استمرارها توازنها. إن لم يمكنها الفضفضة لأحد، فلتفضفض لكتبها.

وسط الضغوطات الكثيرة التي تحيط بها، كانت هناك فسحة يوميّة قصيرة تخرجها من الرّتابة المعتادة. حين تكون صباحًا في

عربة قطار الأنفاق، تنتظر بفارغ الصبر ما تسميه "لقاؤها الثقافي اليومي". ذلك الشاب الغريب كان يركب معها المترو كل يوم وفي نفس الموعد.

منذ صغرها توصيها والدتها بألا تتحدّث إلى الغرباء أو تأخذ منهم شيئًا. لكنها حين التقت ذلك الغريب، رمت بكل وصاياها عرض الحائط. لم يكن يفصل صعوده عن نزولها سوى دقائق معدودة. لكنها كانت كافية لتأخذ رأيه في كتاب ما، أو تناقش رأيه في فكرة أخرى. كان يثير إعجابها بثقافته الواسعة ومطالعاته متعدّدة الآفاق. ثم فلتعترف بأنها كانت في حاجة إلى نفس مسلمة تبدّد الوحشة التي تحيط بها. كانت بحاجة إلى شخص تشعر تجاهه بالألفة ويقلص إحساسها بالغربة والوحدة. كانت هناك دقائق الحوار القليلة.. ثم ساعات القراءة التي تمتدّ على مساحات من نهارها وليلها، ثم ساعات أخرى تسترجع فيها ما قيل في الصباح، وتتخيل ما سيقال صباح الغد.

كانت تفكر فيه ذلك المساء وهي تسير على مهل في اتجاه منزل والدها، بعد أن غادرت المترو.كانت فترة تدريبها على الحاسب قد قاربت على الانتهاء، ولا تعلم إن كانت ستراه بعد ذلك. توقفت حين لمحت سيارة إيلين تقترب من الجهة المقابلة. لبثت قرب البوابة تنتظر نزولها وعلى شفتيها ابتسامة. لوّحت لها إيلين عبر زجاج نافذتها قبل أن تظهر عبر البوابة محمّلة بالأكياس.

- أدوات مدرسيّة للأولاد!
- هل أساعدك؟
- بل أحضري الرسائل من صندوق البريد، لو سمحتِ.

امتثلت ياسمين لطلبها ثم تبعتها عبر الممرّ الحجري المؤدي إلى باب المطبخ الخلفي.

- هلا نظرت إن كانت هناك رسالة من البنك؟
- بالتأكيد.

طالعت ياسمين الرسائل ثم رفعت رأسها في استغراب. كانت هناك خمس رسائل، اثنتان منها مجرّد إعلانات تجارية، واثنتان تبدوان مثل الفواتير، في حين كانت الأخيرة تحمل علامة بنك معروف. لكنّ الغريب في الأمر هو أنها جميعها كانت تحمل اسم "سامي كلود". تذكرت اللافتة الخزفية عند المدخل التي تحمل اسم "عائلة كلود". هل ما زال المالك السّابق للمنزل يتلقى مراسلاته على هذا العنوان؟

- إيلين.. جميع الرسائل تحمل اسم "سامي كلود".
- نعم، هل بينها رسالة من البنك؟
- آه، نعم.

قالت ذلك وهي تقدّم إليها الرسالة. كانت إيلين قد تخلصت من حملها على طاولة المطبخ، فأخذت منها المظروف وفضته على الفور. ألقت نظرة متفحّصة على محتوى كشف الحساب البنكي، قبل أن تطلق زفرة لم تدرك ياسمين لها معنى. أعادت الورقة إلى المظروف ثم وضعته على رف قريب وانصرفت لترتيب حاجياتها. لكنّ ياسمين التي انتابها الفضول لبثت تتابع تنقلاتها وعلى شفتيها سؤال متردّد.

- امممم.. إيلين.. من هو سامي كلود؟

رفعت إيلين رأسها وحدّقت فيها في دهشة حقيقية.

- ياسمين، ما هذا السّؤال الغريب؟

- أنا آسفة.. لم أقصد التدخل فيما لا يعنيني.. لكن اللوحة على الباب...

قاطعتها إيلين في دهشة أكبر:

- لم أقصد ذلك. أعني.. ألا تعرفين من هو حقًا؟

هزت ياسمين كتفيها في حذر. هل من المفترض بها أن تعرف؟

- ياسمين، ما اسم والدك؟

- كمال عبد القادر!

- طبعًا.. لكنني لم أقصد ذلك الاسم. أعني اسمه على بطاقة الهوية الفرنسية.. الاسم الذي يحمله منذ خمسة عشر عامًا.. منذ حصوله على الجنسية الفرنسية!

- لديه اسم جديد؟!

أومأت إيلين برأسها موجبة:

- نعم، سامي كلود! نحن عائلة كلود. إيلين كلود. ريان كلود. سارة كلود. كلود هو اسم عائلتي قبل الزواج، ووالدك اختار الانضمام إلينا وغيّر اسمه حين تسنّت له الفرصة.

حان وقت ياسمين لتتسمّر مكانها دهشة. كانت تسمع للمرّة الأولى عن حكاية تغيير الاسم هذه. ريان وسارة كانا يناديانه "بابا" وإيلين تكتفي بـ"عزيزي"، أحيانًا تكون جافة وباردة وقد تحمل بعض المرارة في أحيان أخرى، لكنها الكلمة الوحيدة التي تناديه بها. لو أن أحدهم ذكر اسم "سامي" أمامها لكانت انتبهت أو استغربت. لكن لماذا سامي؟ أليس اسمًا عربيًا مثل كمال؟ آه نعم، هو اسم عالمي الاستعمال، مثل سارة وريان. لم يكن ذا عينين ملونتين أو بشرة فاتحة، لكن سمرته المحببة وعيناه السوداوين تجعله شبيهًا بمواطني جنوب إيطاليا. رغم ذلك والدها بقي كمال عبد القادر في أعين كل من يعرفه في تونس. تتساءل كيف ستكون ردّة فعل جدتها لو بلغها الخبر؟

قاطعت إيلين أفكارها وهي تقول:

- قد يبدو لك الأمر غريبًا في البداية، لكن إذا فكرتِ جيّدًا لوجدته قرارًا صائبًا.. يحتاج المرء الاسم المناسب في المكان المناسب. لا أريد الإهانة، لكن اسمًا فرنسيًا يسهل الاندماج ويساعد على شق الطريق.. خصوصًا في مجال البحث العلمي الذي يخوضه والدك.

فكرت ياسمين في ارتياع. هل تحتاج هي أن تكون "جاسمين كلود" حتى تجد تمويلًا لبحثها؟

(7)

غربة الياسمين

حين تحدّثتا عن موضوع السّفر لأوّل مرّة، تكلّمت أمّها فاطمة بشيء من الفلسفة. حدّثتها عن نبات الياسمين الذي أعطتها اسمه. مثل الياسمين، ربّتها على القناعة والاكتفاء بالقليل. فهو نبات لا يحتاج إلى الكثير من العناية. تكفيه دفعة واحدة من السّماد في ربيع كلّ عام، وتربة رطبة دون فيض من السقيا.

جميع أنواع الياسمين تفضل النّموّ في مكان مشمس، لكنّها تتحمّل وجود شيء من الظلّ. وشمس تونس كانت مواتية لنضجها وتكوين شخصيّتها، وقد أصبحت جاهزة لتحمّل شيء من ظلال أوروبا ذات المناخ البارد. مثل الياسمين الأبيض المتوسّطي، كانت رقيقة في مظهرها، لكنّ شخصيّتها قويّة وثابتة، مثل رائحة الياسمين النفّاذة والفريدة التي تبثّ إحساسا بالدّفء لا تملكه الورود الأخرى.

لم تتكلّم عن دلالة الياسمين العاطفيّة التي بحثت ياسمين عنها مذ اهتمّت بمدلولات الزهور في بداية مراهقتها. عرفت أنّ إهداء زهر الياسمين لامرأة يعني "لماذا لا تحبّين أبدًا؟". والدها أهداها هي، ياسمين، إلى والدتها. كانت آخر عطاياه لها حين تخلّى عن حضانتها إثر الطّلاق. وهي "لم تحبّ بعده أبدًا". كانت جديرة بتقبّل زهرة الياسمين.

تفتقد أمها كل يوم أكثر من اليوم الماضي. مع مرور الوقت تزداد يقينًا من ضياعها بدونها. كانت تعلم أن الغربة ليست تجربة سهلة، ومع ذلك وافقت على سفرها. علّمتها كيف تكون ياسمينة حقيقيّة. لكن لعلّها غفلت عن حقيقة مرّة. زهرة الياسمين تذبل بسرعة حين تغادر تربتها وتنسّق في شكل "مشموم" جميل.

نزلت الدّرج مسرعة. مرّت على المطبخ وتناولت فنجان القهوة وازدردته دفعة واحدة، ثم هتفت وهي ترتدي سترتها وتتجه ناحية الباب:

- أنا ذاهبة.
- انتظري، سأوصلك.

كان والدها ينهي تناول قهوته ويطالع جريدة في الصّالة. فوجئت به وهو يقف بدوره ليضع حذاءه. تمتمت في ارتباك:

- لا داعي لذلك.. سأركب المترو كالعادة.

ركوب عربة المترو أصبح مغامرة يوميّة. لم تعد تفوّت مترو الساعة الثامنة، كأنها على موعد. وذلك اليوم أيضًا، لم ترد أن تضيّع الموعد. لم يكن موعدًا متفقًا عليه، بل موعدًا ضمنيًا، بدون وعود. يركبان نفس المترو كل يوم ويترقب كل منهما ظهور الآخر. كانت تجلس في نفس الموقع من العربة وتنتظر أن يصل المترو إلى محطته. وهو أيضًا كان يصعد من نفس الباب. ويتجه إلى موقعها. أصبحت عادة لكليهما. عادة بريئة ولذيذة في آن. لم يكن بينهما أكثر من الأحاديث العامّة حول الكتب.. نادرًا ما كانت حواراتهما تخرج عن ذلك السّياق. وفي المرات القليلة التي ينزلق فيها الحديث إلى مواضيع شخصية، كان يتدارك الأمر

بسرعة. كأن بينهما اتفاقًا غير معلنٍ. كل منهما كان يقنع نفسه بأن تلك الفسحة اليومية جائزة طالما توقفت عند النقاشات الفكرية. يدركان بلا شك أن تكرّر الانزلاق يعني حتمًا نهاية المغامرة.

في ذلك اليوم، أصرّ والدها على اصطحابها. كان يقصد الجامعة لتحضير جدول أعمال السنة الدراسية الجديدة، وبدا أنه يريد أن يبادلها الحديث على الطريق. أذعنت في شيء من الامتعاض. هل كان يجب أن يمثل دور الأب المثالي اليوم بالذات؟ كانت قد أنهت كتاب طارق رمضان حديث الصّدور "مسلمو الغرب ومستقبل الإسلام" الذي اتّفقا على قراءته، وكانت في شوق لمناقشة بعض الأفكار معه. تذكره بـ"هو" حين تفكر فيه في سرّها. لم تكن تعرف له اسمًا، ولعلها لم تحاول أن تعرف.

صعدت إلى جانب والدها وعقلها غائب في عوالم أخرى. أيقظها من أفكارها حين بادرها:

- هل من جديد بخصوص الدكتوراه؟

- ليس بعد.

- ربما لن أدهشك إذا قلت إن الحجاب سبب رئيسي في تقليص فرصك.

رمشت في توتر ولم تعلق. للمرّة الأولى يتحدّث معها بشأن حجابها. لم يكن له يومًا دخل بشيء يخصّها. اكتفى بدور المتفرّج. وكانت تغلي من الداخل مذ عرفت أنه غيّر اسمه من أجل النجاح المهني. لذلك لم تكن لتقبل منه أدنى نصيحة، تعلم تمامًا في أي اتجاه تصبّ أفكاره.

فاجأها حين تابع:

- لكنني لن أطلب منك التخلي عنه أو أنصحك بذلك حتّى.. أعلم أنك عنيدة مثلما كانت والدتك حين كانت في سنك.

التفتت إليه في انتباه. للمرّة الأولى يأتي على ذكر الخلاف الذي كان بينه وبين والدتها في السنوات الخوالي. غيّر الموضوع بسرعة:

- لكنني سأحاول المساعدة. سأتصل ببعض معارفي.

كانت الكلمات تتدافع على طرف لسانها، حادّة ولاذعة. لا تريد مساعدة منه وهو الذي لم يهتمّ بأمرها يومًا. ربما لو عرض التدخل منذ أسبوع واحد، لقبلت ذلك من كمال عبد القادر. لكنها تجد صعوبة في تقبله من "سامي كلود". لو لم يكن موضوع البحث يؤرقها، وقد أصبح أمر التمويل ملحًّا أكثر من أي وقت مضى، لكانت تركت العنان لاستيائها حتى يعبّر عن نفسه. لكنها كبحت اندفاعها بصعوبة، فهو يبقى والدها. وموروثاته الجينية تسكن كل خلايا جسدها، حتى وقد تغيّر اسمه.. وقد تكون في حاجة إلى دعمه أيضًا. دعمٌ مشروعٌ لن يفي بقدر يسير من حقوقها لديه.

- لديّ صديق قديم يترأس فريق أبحاث في شركة كيميائيات في المنطقة.. سأتصل به، فربما يجد مكانًا لك في فريق عمله.

- شكرًا لك.. ما زالت لديّ مقابلة أخيرة اليوم. إن لم تسفر عن نتيجة مرضية، سأخبرك.

رسمت ابتسامة صغيرة قبل أن تشيح بوجهها عنه. لا يمكنها أن تنكر أنها لفتة طيبة منه في نهاية الأمر، أن يفكر في دراستها ومستقبلها. ربما يحاول أن يلعب دور الوالد معها، حتى إن كان قد وصل متأخرًا. حتى وهو يحمل اسمًا مختلفًا. سألته بغتة مستغلة بوادر التواصل التي ظهرت بينهما ذلك الصباح:

- هل أنت سعيد في فرنسا؟

ابتسم بدوره دون أن يلتفت إليها:

- إن كنت تقصدين الإنجازات المهنية، المحاضرات الدولية، المرتب والعلاوات، تحصيل العلم وتكوين الذات.. نعم أنا سعيد.

- قصدت العائلة، الاستقرار، الراحة، الرضا عن النفس...

اختفت ابتسامته وغزت سمرته سحابة قاتمة، وهو يعقد حاجبيه في شيء من الانزعاج:

- لا يمكن أن نحقق السّعادة في كل المجالات. يجب أن نضحي بأشياء لننجح في أشياء أخرى. كلها مسألة اختيارات وأولويات. والرضا المطلق عن النفس ليس واردًا.

نعم الأولويات. العائلة لم تكن يومًا من أولوياتك سيّد كمال. ولعلها لن تكون من أولويات سامي أيضًا! تمتمت بصوت خفيض:

- إيلين لا تبدو سعيدة.

حاول الحفاظ على هدوئه:

- ماذا قالت لك؟

هزت كتفيها وهي ترد في بساطة:

- لم تقل شيئًا.. لكنني قرأت في ملامحها.

استمر الصّمت بينهما لثوانٍ عدّة، قبل أن يقرّر الكلام:

- هناك خلافات بيننا حول تربية الأولاد. ريان مدلل جدًا. إيلين أصرّت على إدخاله إلى نادي الكرة وجعلته يغرم بالمباريات واللقاءات، حتى صارت الدّراسة مسألة ثانوية.. وسارة لا تصغي إلى أحد. دللتهما كثيرًا ولم تستمع إليّ يومًا بشأن توجيههما. والآن فات الأوان ولم يعد بإمكاني الإصلاح.

- كنت تريدهما أن يتعلما العربية ويتعرفا على الإسلام؟

- كنت أريد لهما ثقافة عالية وسلوكًا مستقيمًا. حذق اللغات الأجنبية جزء منها، وأصلهما العربي كان ينبغي أن يكون ميزة.

ميزة؟ من أجل ذلك سعيت إلى تغيير اسمك يا بروفيسور سامي؟ فاجأها وهو يقول بلهجة جادّة:

- أمك على الأقل أحسنت تربيتك.

تطلعت إليه، تحاول قراءة أفكاره. هل يظنّ ذلك حقًا؟ واصل كأنه يخاطب نفسه:

- أنا وفاطمة كان يمكن أن نتفق.. بل كنا متفقين كثيرًا، قبل أن تتغيّر هي. كانت بيننا مشاعر حقيقية.. وكان يمكنني أن أتعايش مع التغيير الذي طرأ عليها.. لكن هي أرادت أن تغيّرني معها، وذلك ما لم أقبله. علاقتي بفاطمة لم تصمد طويلًا.. لكن زواجي من إيلين كان خطأ منذ البداية.. ربما أكون قد تسرّعت في إنهاء زواجي الأول، لذلك لم أتحمل إعلان فشل زواجي الثاني.

تنهد وهو يستطرد:

- حين تزوجت فاطمة كنا منسجمين وكان يمكن أن نستمرّ. لكن مخاوف بشأن دراستك وتربيتك بدأت تراودها وأرادت العودة إلى تونس.. حاولت إقناعها بالانتظار، لكنّ شكواها كانت تتزايد. لم تعد تريد استقبال أصحابنا الذين عرفناهم منذ أيام الجامعة. ساءت علاقتنا بهم لأنها امتنعت عن السهرات والزيارات.. ثم لبست الحجاب. وفي مرحلة أخرى أصبحت تنشط في

الدعوة إلى الإسلام. توزع نسخ قرآن مترجم إلى الفرنسية، وبعض الكتيبات الدينية على الأصدقاء وحتى على المارة في الشوارع.

ابتسمت ياسمين وهي تستمع إليه يتحدّث عن والدتها وفي صوته شيء غريب. ربما حنين، وربما عتاب. كانت فخورة بوالدتها، وحزينة من أجلها. تساءلت هل يمكن أن يكون والدها قد ندم على تفريطه فيها؟ عشرون سنة من الفراق، أليست كافية لمراجعة النفس؟ غيّر اسمه منذ خمسة عشر عامًا واختار أن يحمل اسم زوجته الفرنسية. لكنه اليوم لم يعد سعيدًا معها. قد يرغب سرًّا في العودة إلى الوراء وشطب كل تلك الأخطاء من حياته.

قد يفعل. لكنه لن يفصح عن ذلك أمامها. هذا مؤكّد.

****

أخذت نفسًا عميقًا قبل أن تطرق باب المكتب. فتح الباب وظهرت من ورائه المسؤولة التي اتصلت بها منذ يومين لمعاينة ملفها. لوهلة، بدا أنها ستهتمّ أولًا بمعاينة شكلها، فقد توقف الزمن لثانيتين حين أخذت تحملق فيها بعينين فاحصتين. أخيرًا تكلمت وهي تدعوها إلى الدخول:

- خذي راحتك.. يمكنك أن تنزعي معطفك.

معطفي؟ تساءلت ياسمين وهي تتثبت ممّا تلبسه. كانت ترتدي سترة صيفية خفيفة.. ذات أكمام طويلة. آه، نعم ربما كان ذلك هو السّبب. الأكمام الطويلة. إذن تبدو سترتها مثل المعطف مقارنة بـ... رفعت بصرها لتتثبّت من هندام مخاطبتها. نعم، مقارنة بقميص النوم الذي تلبسه هي. ابتلعت الإهانة وتجاهلتها وهي ترسم ابتسامة هادئة. فلتحافظ على برود أعصابها.

جلست دون أن تعلّق، لكن يبدو أن مخاطبتها لم تكتف بعد. أضافت وهي تضع الملف أمامها:

- يمكنك أن تنزعي غطاء رأسك.. أشعة الشمس لا تصل إلى هنا.

أشعة الشمس؟ هل تعتقد فعلًا أنها تغطي رأسها للحماية من الشمس؟ أم أنها تتعمّد استفزازها؟ للمرّة الثانية، حاولت أن تتجاهل وقاحتها، لكن دون أن تشعر كانت حماستها للمقابلة آخذة في الفتور. قالت في برود:

- أنا مرتاحة هكذا.. لا تقلقي بشأني.

رمقتها المرأة بنظرة طويلة كأنها تسبر أغوارها، ثم قالت مغيّرة الموضوع:

- حسن، حدّثيني عن خبراتك؟

أخذت ياسمين تتكلم بلهجة واثقة يشوبها الكثير من اللا مبالاة. كأنها لم تعد تريد إقناع مخاطبتها بكفاءتها.. أو كأنّ المقابلة كلها لم تعد تهمّها. كانت تعلم في قرارة نفسها أنها مجرّد مضيعة للوقت. كانت تريد الانتهاء بسرعة والعودة إلى البيت. حين تنتهي من كل هذا يمكنها أن تترك العنان لدموعها وتنفّس عن غضبها. ليتها تقوى على إنهاء تلك المهزلة والخروج من المكان على الفور. لماذا الاستمرار في لعب هذا الدّور وكلتاهما تدرك مسبقًا نتيجة المسرحية؟ قاطعت أفكارها مضيفتها وهي تسألها:

- كل هذا ممتاز.. لكنك تبدين غير مهتمّة بالعمل معنا. لماذا جئت اليوم؟

ابتسمت ياسمين في مرارة وهي تقول:

- في الحقيقة، كنت مهتمّة حين وصلت.. لكنني رأيت أن اهتمامكم بلباسي كان أكبر من اهتمامكم بكفاءتي.

سارعت مخاطبتها تقول في تبرير:

- نحن يهمّنا بالتأكيد أن تكون ظروف عمل موظفينا ملائمة للعطاء، لأن المردودية تعتمد على ذلك. واللباس المريح جزء من ظروف العمل التي يجب أن تتوفر.

خرجت ياسمين من المقابلة وهي تشعر بالانكسار. كانت قد استنفدت كل فرصها ولم تجد بابًا واحدًا مفتوحًا أمامها. لم تعد لديها خيارات كثيرة. أخرجت هاتفها واتصلت بوالدها:

- ماذا بشأن صديقك؟ متى يمكنك الاتصال به؟

(8)

اللصّ والبروفيسور

وصل عمر إلى مكتبه ذلك الصباح في شرود غير معهود. تجربته أصبحت على وشك الانتهاء ونتائجها المتوقعة ستكون مبهرة حتمًا. يقينه بذلك كبير. "الاندماج البارد"، أسطورة علميّة توشك أن تغدو حقيقة على يديه! وكانت الفكرة تغمره بالنشوة وترفع مستوى الأدرينالين في دمه. لكنه في ذلك الصباح بدا ساهما وفارغا من كل حماس. كان عمله يملأ كل وقته وينسيه وحدته وغربته. لكن في الأيام الأخيرة، أصبح هناك نشاط جديد يعطي لصباحه دفعة من التفاؤل ويمنح رحلته الروتينية في المترو طعمًا مختلفًا في كل مرّة، هو ذاته طعم النقاشات الثرية التي يتبادلها مع تلك الفتاة الغريبة.

كان يحاول التركيز على عمله ذلك الصباح، لكن بلا شعور منه كانت أفكاره تحمله إليها. ربّما بسبب غيابها غير المتوقع. وربما كان لكلمات شقيقته البارحة على الهاتف دور في ذلك أيضًا. نعم، لقد بلغ مستوى من النضج والرّخاء المادّي الذي يدعوه إلى التفكير في الاستقرار. إلى متى الشقة الكئيبة والقلب الخالي؟ حين ذكرت عائشة موضوع الزواج، ظهر وجهها دون غيرها بين عينيه. ألم يكن ذلك غريبًا؟ لم يفكر في بنات خالاته أو بنات عمّاته، مع أنه يعرفهن ويعرف أخلاقهن. ربما كان ذلك هو عين السبب. يعرفهن، لكن لم يسبق له أن خاطب عقولهن. لم يعرف هذه الحرفية في نقاشه واستفزاز أفكاره في إحداهن.

- عمر، هل تريد كوبًا من القهوة؟

التفت في ذعر حين وصله صوتها. ليس مجدّدًا. ليس كارولين. كانت ترسم ابتسامة واسعة على شفتيها وتحمل كوبين من الورق المقوى يحملان شعار ماركة معروفة لصنع القهوة، ويتصاعد منهما بخار لذيذ محمّل بنكهة مغرية أخذت تداعب أنف عمر. تركها تتخذ مقعدًا قبالته دون أن يعترض. دفعت إليه الكوب وقد اتسعت ابتسامتها حتى باتت تملأ وجهها. ربما تمنّي نفسها بانتصار جزئي. بادرته على الفور وكأنها قد وجدت فرصتها أخيرًا:

- متى كانت آخر مرّة ذهبت فيها إلى السينما؟

تعلّقت نظراته بكوب القهوة أمامه. السّينما؟ لم يضع قدميه يومًا في إحدى قاعاتها. ربّما راودته الرّغبة في أوقات متفرّقة، لكنّ غياب الرّفقة المناسبة وندرة الأشرطة المحترمة في الدّور الفرنسيّة جعل الأمر مستعصيًا. لم يكن قد فكّر في ردّ بعد حين أردفت كارولين في حماس:

- هل تودّ أن ترافقني الليلة؟ هناك شريط خيال علميّ يعرض في قاعة قريبة.. سيعجبك، أنا متأكّدة!

أخذ رشفة من القهوة وهو يقلب بعض الأوراق أمامه متمهلا. يفكّر، كيف يصدّ عرضها.

- لا شك أنّك ترهق نفسك بالعمل ولا تحظى بالكثير من فرص التسلية!

كانت تلحّ في حيويّة معدية، لكنّ عمر ظلّ منيعًا أمام محاولاتها الجاهدة لاختراق حصانته. أخيرًا، تكلم في اقتضاب:

- لا أحبّ السّينما.

- ماذا تحبّ إذن؟ اختر النشاط الذي يناسبك ودعنا نستمتع قليلًا.

كانت تضع ساقا على أخرى وترنو إليه في دلال لا يقاوم. حزّ في نفسه أن يكسر خاطرها وهي تبدي تجاهه كلّ هذا الاهتمام. لكنّه مضطرّ؛ إلى متى يستمرّ في المراوغة والمماطلة؟ تنهّد في ضيق ثم أخذ نفسا عميقا قبل أن يقول في هدوء:

- كارولين.. أظن أنك لم تفهميني جيّدًا. لم أرد أن أكون فظًا، لكنني مضطر إلى توضيح هذا الأمر مرّة واحدة وإلى الأبد. لست من النّوع الذي تعتقدين.. أو تريدين. لا أؤمن بالصداقة بين الشاب والفتاة، ولست مهتمًا لا بعلاقة جادّة أو عابرة ولا غير ذلك. لست مهتمًا، فقط. هل تفهمين؟

طالعته بعينين زائغتين من الصّدمة. لم تكن تتوقع منه تلك الصّراحة؟ رآها تقف فجأة دون أن تتفوّه بكلمة واحدة وتهرول باتجاه الباب لا تلوي على شيء. هل كان قاسيًا عليها؟ كان يجب أن يكون. لم يكن هناك حل آخر.

زفر في استياء وهو يعود إلى أوراقه. استياء من نفسه ومنها، ومن الموقف السّخيف كله. أغمض عينيه، يحاول طرد الضيق المفاجئ الذي سيطر عليه. كان يتوقع أن يشعر بالارتياح بعد أن يصدّها. لكنّ ذلك لم يحصل. ربّما لأنّه وضع نفسه مكانها للحظات. تخيّل نفسه يُردّ خائبًا. تساءل، ماذا لو صارحها؟ وماذا لو قابلته بالإعراض؟ فتاة المترو تلك.كلّ الحديث بينهما يدور في فلك الأفكار والكتب والنّظريات، لم يتطرق يومًا إلى الأشخاص. يجهل كل شيء عن شخصها: اسمها، سنّها، دراستها أو عملها، حتى جنسيتها وأصلها.. فرنسيتها ممتازة ولا تفضح أي انتماء جغرافي أو عرقي. هيئتها فقط تدلّ على أنها مسلمة، وذلك كان يكفيه إلى حدٍّ ما. لكن مع مرور الوقت أصبح يطمح إلى أكثر من الصّداقة الأدبية. وطموحه ذلك أصبح يهدّد العلاقة البريئة المجرّدة من كل النيات والمخططات التي تصنع متعة يومه. ماذا لو صارحها برغبته في علاقة إنسانية جادّة بين شخصين، لا بين عقلين كما كانت إلى تلك الآونة؟

- دكتور عمر.. هل يمكنني أن آخذ دقيقة من وقتك؟

رفع رأسه ليجد البروفيسور كريستوف نوارو عند الباب.

- مرحبًا.. تفضل.

تقدّم كريستوف واتخذ مجلسه على المقعد المقابل، حيث كانت تجلس كارولين منذ دقيقتين.

- كيف تسير الأمور هذه الأيام؟

- بخير.. كل شيء على ما يرام.

- سمعت أنك تعمل على مشروع جديد.. لتوليد الطاقة المتجدّدة؟

أجاب بحذر وقد عادت إلى ذاكرته كلمات وليد الراجحي منذ بضعة أسابيع:

- نعم، هذا صحيح.

- شخصيًا، أؤمن كثيرًا بالقدرات الشابة وأشجعها على العطاء والتقدّم.. لكن هذا ليس بالضرورة شأن المدير. كما تعلم، لا يمكنه المجازفة بتمويل كل المشاريع التي يقترحها الباحثون.. بل يجب أن ينتقي منها تلك التي يضمن أن تكون ذات مردودية سريعة وعلى المدى الطويل أيضًا.

سكت للحظات ليتأكد من متابعة عمر لحديثه ثم أردف مواصلًا:

- لذلك أهتم شخصيًا بمتابعة الأبحاث الجديدة. إن وجدت عملك في المستوى المطلوب، فيمكنني دعم ملفك أمام المدير.
- شكرًا.. هذا من لطفك.
- طبعا إن أردت رأيي لتقييم العمل والقيام بالتجارب النهائية، فأنا في الخدمة.

صافحه عمر شاكرًا وتابعه بنظرات مليئة بالشك وهو ينصرف. حاول العودة إلى الأفكار التي كانت تشغله، لكن زيارة كريستوف نوارو كانت قد عكّرت مزاجه بلا رجعة. عاد بحثه ليحتل المساحة الأوفر من تفكيره. انتهت الفسحة إذن. إلى العمل. ازدرد ما تبقى من كوب القهوة دفعة واحدة ثم خرج مسرعًا باتجاه المختبر.

****

لم يرها ذلك الصباح. تفقّد المكان حوله للحظات، يبحث عنها بعينيه. أطال النظر على غير العادة وجاب العربة مرّات عدّة في تفتيش دقيق. لم تكن هناك. أحسّ ببعض الضيق، أو ربما غلبه القلق! حين ركب المترو في المساء في طريق العودة، عادت إليه أفكار الصباح. تخطر على باله فجأة كلما انجرف في زحام المترو. منذ اقتحمت عالمه في ذلك اليوم العادي، أصبحت الدقائق اليسيرة التي يقضيها برفقتها محطة يومية مميزة تعطي يومه شحنة من الطاقة الإيجابية. واليوم لم تكن هناك. لا عجب أن نهار عمله لم ينقض بصفة عاديّة.

لازمه ضيق غريب طيلة رحلة العودة. لماذا اختفت هكذا وبدون سابق إنذار؟ هل تكون مريضة؟ أم تراها غيّرت عاداتها أو انتقلت إلى مكان آخر؟ هل يكون قد تجاوز الحدّ أو ضايقها فقرّرت تجاهله؟ أم تكون قد تنبأت بما سيقوله، أو لمست تغييرًا في تصرفاته فقرّرت الانقطاع مرّة واحدة؟ تنهد في وجوم وشغّل المسجل. أغمض عينيه وانسجم مع الصّوت الشجيّ. لا فائدة من الاستسلام للهواجس.. ليست هناك، ولكل غائب حجة.

فجأة سمع صرخة عالية طغت على أزيز المترو وضوضاء مسافريه. التفت في فزع فلمح امرأة متقدّمة في السّن تتمسّك بحقيبة يدها في استماتة، في حين كان شاب سيّئ الهيئة تبدو عليه الفاقة يحاول سحبها منها بالقوّة. كان صراخ المرأة يملأ العربة في حين كان المسافرون الذين يحيطون بهما يتراجعون في حذر لحماية حاجياتهم. تلفت عمر حوله في دهشة، كان المترو قد توقف في المحطة، واللص يحاول الوصول إلى الباب دون أن يُقدم أحد على التدخل وسدّ الطريق أمامه. هتف مخاطبًا رجلًا كهلًا يقف قريبًا من زرّ طلب النجدة:

- اضغط على الزرّ.. يجب إيقاف المترو!

تلكأ الرجل وتحرّك بتردّد واضح، وقبل أن تصل يده إلى الزرّ الأحمر المقصود ارتفع صوت سيدة أنيقة كانت تتابع المشهد في عدم رضا:

- نريد أن نصل إلى بيوتنا. فكّوا النزاع خارج المترو!

لم تكن السيدة العجوز قد توقفت عن الصّراخ، لكن مقاومتها كان قد انهارت وأفلتت الحقيبة من يدها. قفز اللصّ المختلس وهو يضمّ غنيمته تحت ذراعه وتجاوز باب المترو الذي كان مفتوحًا على مصراعيه وقد تدافع المسافرون للنزول بعد أن تملك الفزع معظمهم. لم يفكر عمر كثيرًا، بل اندفع وراء اللصّ. كان الزحام شديدًا على الرّصيف مما عطل حركة الشاب الهارب ومكّن عمر من اللحاق به سريعًا. بدون تردّد، قفز في الهواء وانقض عليه ليطيح به أرضًا ويسقط فوقه. استعاد توازنه على الفور وانحنى

على ركبتيه مكبلًا يدي السّارق وراء ظهره مثبّتًا إياه على الرّصيف ووجهه إلى الأرض. جلس فوق ظهره وهو يلهث ليشل حركته ويمنعه من المقاومة، ثم انتزع من قبضته الحقيبة المسروقة. اقتربت صاحبتها -التي كانت قد نزلت من المترو- بأوصال مرتجفة. بادرها عمر وهو يقدّم إليها حاجتها:

- سيدتي، خذي حذرك في المرّة القادمة.

أخذتها منه ولسانها يلهج بكلمات شكر فيّاضة. فأضاف قائلًا:

- سأسلمه بنفسي إلى الشرطة.

وقف وأجبر اللصّ على الوقوف بدوره. أمسكه من ياقة قميصه وسحبه إلى خارج المحطة.

كان عمر يجرّه بقسوة وحزم بيده اليمنى، في حين أحكمت قبضته اليسرى شد معصميه. كانا قد ابتعدا عن الزحام سيرًا على الأقدام، صعدا الدرجات المؤدية إلى الشارع وأخذا يعبران الطريق.

فوجئ حين كلّمه الشّاب بالعربية في توسّل:

- أنت عربي أليس كذلك؟

توقّف عمر والتفت إليه بكلّيته وهتف في حميّة:

- أنا عربي، ولا أتشرّف بالعرب أمثالك! مرّغتم رؤوسنا في الوحل بتصرّفاتكم غير المسؤولة! بعضنا يجاهد ليشق طريقه بشرف وكرامة، في حين أنّ البعض من أمثالك يسيؤون إلى سمعتنا كل يوم.. يعطون فرصة إلى كل من يريد الطعن في عزّتنا وفي ديننا ويغذون الكراهية والاحتقار تجاه المهاجرين العرب! لذلك لا تخاطبني باسم عروبتك المزعومة!

لم يكن قد أنهى تعنيفه حين فوجئ باللصّ ينفجر باكيًا دون استئذان. شعر بالرّجفة التي سرت في أوصاله وهزّت جسده الهزيل كله. وكأنّ قدميه لم تعودا قادرتين على حمله، أقعى على الرّصيف وقد ازداد نحيبه قوّة. لم يكن تمثيلًا. لم تكن مراوغة للفرار. هل كانت كلماته بتلك القسوة؟ أفلت عمر معصميه وتركه يمسح عبراته السّاخنة بكفّيه. جلس إلى جانبه في إطراق وقد غلب عليه الرثاء لحاله. كان يتأمل هيأته للمرّة الأولى.. انتبه إلى الكدمات الكثيرة على ركبتيه، وإلى الخدوش التي تملأ ذراعين وساقين كشفت عنها ثيابه الممزقة. تكلم الشاب أخيرًا في أسى بعد أن استفرغ دموعه:

- لم أرد أن أكون كذلك. لم أرد أن أسيء إلى أحد.

لم يكن قد سيطر على شهقاته المتقطعة. استطرد بعد برهة:

- لم آكل شيئًا منذ يومين. أعيش على الفضلات وبقايا المطاعم منذ أكثر من أسبوعين.. أنام في العراء، بدون لحاف أو فراش. أشرب من المياه الآسنة ومن النافورات العمومية..

أضاف بصوت يميل إلى الصراخ:

- لا أحد يريد مساعدتي.. كيف يمكنني أن أعيش دون أن أسرق أو أخطف؟ هل أنتظر الموت على قارعة الطريق؟

ثم انهار باكيًا من جديد. شلّت الصّدمة عمر فلم يستطع أن ينطق بكلمة واحدة. فكر بالنّهوض والانصراف دون أن يشعر به الرجل، لكنّ شيئًا ما كان يشدّه في موقعه. انتظر أن ينتهي الشّاب من الصراخ والبكاء، ثم قال بصوت هادئ:

- حسن.. لن آخذك إلى الشرطة. لكن عدني بألا تعاود الكرّة.

التفت إليه الشاب في دهشة وهو لا يصدّق أذنيه، وهمس بصوت مخنوق من التأثر:

- أعدك.

وقف عمر ونفض كفيه ثم وضعهما عند خصره. جال ببصره في المكان وهو يزمّ شفتيه. ما الذي سيفعله بشأنه الآن؟ لم تبدُ على الشابّ الرغبة في الهروب أو الذهاب إلى أي مكان. نظر إليه عمر مطوّلًا، ثم قال بلهجة آمرة:

- حسن.. اتبعني.

رفع الشاب رأسه إليه في دهشة ولم يتحرّك. أحسّ عمر بحيرته فقال مطمئنًا:

- أنا ذاهب إلى المسجد.. تعالَ معي.

وقف على الفور وقد راوده شيء من الأمل. أخذ يمشي وراء عمر خطوة بخطوة دون أن يحاول اللحاق به. يعلم أن شكله الرث وهيئته البالية يحرجان كل من يقترب منه، فضلًا عن مرافقته جنبًا إلى جنب. التفت إليه عمر فجأة وسأله:

- ما اسمك؟

- آآ.. نادر.

- من أيّ بلد أنت؟

- الجزائر.

- اقترب يا نادر.. لماذا تمشي خلفي؟ تعالَ، لن أؤذيك.

تقدّم نادر في حرج ومشى مطرقًا. بعد برهة قصيرة، رفع رأسه وقال في حياء:

- هل يقدّمون طعامًا في المسجد؟

ابتسم عمر في ارتباك. كان يجب أن يفكر في ذلك منذ البداية.

- انتظرني هنا.

كان هناك مطعم عربيّ صغير في أوّل الشارع. غاب عمر داخله لدقائق قليلة ثم ظهر وهو يحمل كيسًا ورقيًا، سلّمه إلى نادر وعلى شفتيه ابتسامة واسعة. أخذه منه هذا الأخير في لهفة لم ينجح في إخفائها. رائحة البطاطس المقلية المقرمشة والدّجاج المشوي الشهي كانت تدغدغ أنفه بقوّة وإلحاح. تلك الرائحة كانت تختزل كل شهوات الحاضر والماضي التي قاومها في أيام الحرمان. لم يكن يومًا منها بهذا القرب، وبات الكيس الذي يستقر في يده بمثابة العطيّة الغالية. لم يكن بإمكانه الانتظار أكثر، بل انقض على الوجبة يبتلعها لقمة وراء اللقمة في نهم كبير. أشاح عمر بوجهه وانشغل بهاتفه لبضع دقائق حتى لا يحرجه. حمد الله في سره لأنه لم يجرب الحرمان يومًا.. لا يمكنه أن يقدّر ما يعيشه الفقراء طالما لم يجرّب بنفسه ولم يرَ بأم عينه. ربما كان قاسيًا على الرجل. حين أنهى وجبته، بادره مستفسرًا:

- حدّثني يا نادر، كيف وصلت إلى هنا؟

ظهرت ابتسامة صفراء ساخرة على شفتي الرّجل.

- بماذا أحدّثك يا سيّدي؟ عن حياة البطالة المدمّرة على قارعة المقاهي؟ أم عن رحلة الموت في قارب يعبر المتوسّط؟ أم عن التشرّد والفاقة في شوارع مارسيليا؟ عن الفرار المستمرّ من دوريّات الشّرطة أم عن عصابات السّرقة والتّسوّل في ليون، أم...

أم... أم...؟

للحظة أحسّ عمر بالعجز يجتاحه. شعر بالصّغر أمام مخاطبه، كأنّه لم يعرف شيئًا عن مصائب الدّنيا. في اللحظة الموالية، كان قد غدا طواعيّة مسؤولًا عن الرّجل.

****

- إنها ليلة واحدة.. سأجد له مكانًا آخر في الغد.

بعد الصّلاة، فكّر عمر في حلّ منطقيّ لإيواء نادر وإعالته. لم يكن هناك من سبيل إلا بقاؤه في المسجد تلك الليلة. حاول إقناع رئيس الجمعيّة المسؤولة عن تسيير أمور المسجد بذلك التدبير المؤقت. لكنّه اصطدم بنفي قاطع. كانت لهجة الشيخ حازمة وهو يقول:

- يا ولدي، هذا مكان يخضع لإشراف الدّولة، وليس من وظائفه استقبال فاقدي المأوى.. لو تركته يبيت هنا الليلة، فستطالبني السلطات غدًا باستقبال المشرّدين من جميع الفئات!

- ربما يمكنك أن تجد له عملًا مؤقتًا في الجمعية.. في تنظيف الأرضية مثلًا؟

تبادل الشيخ مع إمام المسجد نظرات صامتة ثم تكلم الإمام:

- لا نحتاج أحدًا في الوقت الحالي. سأُعلمك إن تغير الوضع.

أصرّ عمر في محاولة أخيرة:

- إنّه أخ لنا في الله! من له إن لم نقف إلى جانبه؟

أشاح الرّجلان بوجهيهما في إعراض، فتنهد عمر في إحباط. عليه أن يتصرّف بنفسه. قام من مجلسه ومضى في اتّجاه نادر بخطوات متثاقلة، كأنه يأخذ وقته ليجهز الكلمات المناسبة. أحسّ بعيني الشابّ تتعلقان بشفتيه في لهفة وترقب. لم يستطع أن يردّه خائبًا. قال في هدوء:

- قم بنا.. ستبات عندي الليلة.

****

طرق باب المكتب برفق ثم قال مخاطبًا السّكرتيرة:

- هل المدير موجود؟

أشارت الفتاة الصّهباء إلى مقاعد الانتظار وهي تقول:

- نعم موجود، لكن سيكون عليك الانتظار.. لديه ضيف بالداخل.

تنهد عمر وهو يتوجه إلى المقاعد المتفرقة التي تشغل المدخل الفاصل بين مكتب السكرتيرة ومكتب مديرها، والذي تطلق عليه عادة اسم "قاعة الانتظار".

الانتظار.. لم يحبّ هذه الكلمة يومًا. توحي إليه بالفراغ والملل وتضييع الوقت. تملؤه إحساسًا بالعجز وقلة الحيلة أمام فاصل زمني مفروض. لذلك لم ينتظر حركة الطرف الآخر وأمسك بزمام المبادرة. قرّر أن يتخذ خطوة جادّة بنفسه. لن يترك الفرصة لكريستوف وصامويل وأمثالهما لابتزازه واستغلاله. عليه أن يوصل عمله إلى المدير شخصيًا. قام بطبع ملف كامل يحمل تقديمًا

لمشروعه وعرضًا شاملًا للجانب العلمي والتطبيقات الممكنة، إضافة إلى تقييم مالي لتكلفة المشروع.. عمل ليلًا ونهارًا مستنفدًا ساعات اليوم الماضي إلى حدّ التخمة، ليسبقهم بخطوة.

- السيد دانيال بروكس موجود؟

رفع عمر رأسه حين تناهى إلى مسامعه صوت قادم جديد، ما لبث أن انضمّ إليه في قاعة الانتظار. يبدو أن دانيال مشغول اليوم. فكر عمر في ضيق. لم يُرِد أن يتصل على الهاتف، بل فضّل أن يسلمه الملف يدًا بيد حتى يعطيه الوقت الكافي لشرح فكرته. أمله أن يطلب المدير اجتماع لجنة تقييم في أقرب الآجال. نظر إلى ساعته في نفاد صبر، كان ينتظر منذ عشر دقائق والزائر الذي دخل قبل وصوله لم يغادر بعد. ثم هناك القادم الجديد الذي قد يكون على موعد مع المدير، ممّا قد يعني مزيدًا من الانتظار. كان عليه أن يطلب موعدًا.

نظر إلى الرّجل الذي جلس على بُعد بضعة مقاعد. بدا له شكله مألوفًا. تفرّس فيه للحظات.

- بروفيسور سامي كلود؟

كان يفكر بصوت عالٍ مرّة أخرى. رفع الرّجل رأسه والتفت إليه وقد بدت على وجهه المفاجأة:

- نعم؟

وقف عمر في حرج واقترب منه:

- معذرة بروفيسور، كنت قد حضرت محاضرتك السنة الماضية عن الطاقة البديلة في النرويج، وقد أعجبت بأفكارك كثيرًا. سعيد للقائك هنا مجدّدًا.

صافحه سامي كلود (أو كمال عبد القادر) وهو يبتسم في شيء من الزهو. ذلك الاعتراف بتفوقه العلمي كان يروق له، ووجوده أمام بعض المعجبين بأفكاره المستنيرة كان يمثل تسلية مجانية تبدّد ملل الانتظار في تلك القاعة الباردة.

- إذن دانيال أرسلك إلى النرويج لتتجسّس على أعمالي وتكتب عنها تقريرًا؟

احمرّ وجه عمر في ارتباك، لكن كمال ما لبث أن أطلق ضحكة عالية جعلته يتفطن إلى المزحة.

- لديّ اهتمام شخصي بالطاقات البديلة التي أظنها ستغيّر خريطة العالم من حيث الثروات. وقد جئت اليوم خصوصًا لأقدم للسيد بروكس رؤيتي للموضوع. لديّ مشروع جديد أظنه سيصنع فرقًا في المستقبل.

استمع إليه كمال في اهتمام وقد أعجبته نبرة الثقة والحماس في صوته:

- هذا جيّد. سأكون سعيدًا بالتواصل معك بخصوص مشروعك.

أخرج بطاقته الشخصية وسلمها إلى عمر وهو يضيف:

- اتصل بي لنتحدث أكثر في الموضوع، وسأكون سعيدًا بتقديم أي نصيحة أو مساعدة.

أخذها عمر في سرور وهو يقول ممتنًا:

- شكرًا جزيلًا لك. سأتصل بك حتمًا.

في تلك اللحظة، فتح باب مكتب المدير وظهر دانيال وهو يودّع زائره. ما أن ألقى نظرة على مقاعد الانتظار حتى هتف مرحبًا:

- بروفيسور كلود. مرّ زمن يا رجل!

صافحه كمال في حرارة، ثم قال مشيرًا إلى عمر:

- هذا الشاب وصل قبلي. سأنتظر قليلًا ريثما تنتهي من أمره.

وقف عمر على الفور وهو يقول:

- لا بأس.. يمكنني الانتظار. تفضل أنت. لا نريد إضاعة المزيد من وقتك سيدي.

شكره كمال وهو يبتعد باتجاه المكتب رفقة دانيال. وصلت كلماته إلى عمر وهو يقول قبل أن يختفي في الداخل:

- أوصيك بهذا الشاب خيرًا. يبدو على قدر عالٍ من الذكاء والجدية.

جلس عمر مجدّدًا وعلى شفتيه ابتسامة راضية. نظر إلى البطاقة الثمينة التي بين يديه في سرور. جاءت إليه بسهولة ويسر، بل دون أن يسعى إليها. يبدو أن مشروعه يسير في الاتجاه الصحيح. ربما يحتاج خبرة السيد كلود، لكنه بالتأكيد يحتاج إلى دعمه لمشروعه أمام دانيال. بما أنه خبير في الميدان، ربما يجعله ضمن لجنة التقييم. إلى أن يتمّ ذلك، عليه أن ينتظر مجدّدًا.

****

خرج عمر من مكتب المدير وابتسامة جذلة تعلو شفتيه. لم يذهب انتظاره عبثًا. توجّه رأسًا إلى مكتبه وقام بطباعة نسخة جديدة من ملف أبحاثه. وضع الأوراق في حرص في حافظة أوراقه وتنهّد. سيحتفظ بهذه النسخة في شقته. تعلم من تجاربه السابقة أن يحتفظ بأكثر من نسخة وفي أماكن مختلفة تحسبًا لكل الظروف والكوارث الممكنة، الطبيعية منها والبشرية أيضًا. لا يدري بعد ما الذي يدبّر له في الخفاء من قِبَل زملائه. لذلك يجب أن يكون متيقظًا وحذرًا. نعم، سيرسل أيضًا نسخة إلكترونية إلى البروفيسور كلود حتى يحيطه علمًا بتقدّم الأبحاث.

شغله التفكير في العمل طوال النهار. وما إن غادر مكتبه حتى عادت إليه ذكريات الأمس. لقد ترك شخصًا غريبًا في شقته ذلك الصباح. لم يتردّد كثيرًا ليلة البارحة. دموع الرجل، صلاته الخاشعة وعلامات الندم على وجهه.. كل ذلك جعله يرؤُف بحاله ويحنو عليه. لم يستطع أن يتركه في الشارع وهو يعلم حقيقة ظروفه. ربما لو كان متسوّلًا عاديًا لكان اكتفى بمدّه ببعض القطع النقدية. ربما لو كان مجرّد مشرّد لكان اكتفى بإهدائه وجبة عشاء ساخنة. لكنه كان مسلمًا.. مسلمًا غريبًا وفاقدًا لكل سند. لم يستطع أن يرجع إلى شقته الدّافئة وينام في اطمئنان وهو يعلم أنه سيبيت في العراء.. ويعود إلى السّرقة.

لكن على طريق العودة، أخذت الهواجس تراوده. لقد ترك شخصًا غريبًا في شقته ذلك الصباح. شخص غريب ومُعدم. أوقفه البارحة وهو بصدد الاختلاس. ماذا لو أعاد الكرة اليوم؟ ماذا لو عض اليد التي أطعمته وأكرمته؟ لم يكن لديه الكثير من الممتلكات غالية الثمن في الشقة.. حاسوب محمول، جهاز تليفزيون، فرن كهربائي، أدوات المطبخ وملابس رجالية. حاجيات عادية، لكنها قد تسيل لعاب أيّ لصّ محترف. إضافة إلى ذلك، لن يكون عليه أن يخلع أو يكسر. يمكنه أن يأخذ ما خفّ وزنه وغلا ثمنه ويخرج من الباب بكل يسر. ازدرد عمر ريقه بصعوبة. ماذا لو تحقّق هذا السيناريو؟ ماذا لو يدخل الشقة ليجدها خالية؟ تركه كامل النهار بمفرده.. ثماني ساعات كافية جدًا لينقل كل محتويات الشقة. زفر بقوة وهو يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم. حاول أن يطرد عنه تلك الوساوس. كان استقباله لذلك الشخص الغريب مخاطرة حقيقية. لكنه لم يفكر كثيرًا، تصرّف باندفاع في موجة كرم عارمة. هل كان ساذجًا؟ هل يكون جزاء معروفه مثل جزاء سنمار؟

نزل من المترو وحث الخطى في اتجاه مبنى إقامته. كان وجيب قلبه يرتفع أكثر مع كل خطوة. سيكون كل شيء على ما يرام.

لا يمكن للرّجل أن يخونه. لم يعطه ثقته إلا لأنه توسّم فيه الخير والشهامة. سأل الله أن لا يكون حدسه قد أخطأ. حين وصل إلى باب الشقة، أخذ نفسًا عميقًا قبل أن يدخل المفتاح في القفل. كان الباب مغلقًا.. مثلما تركه ذلك الصباح. دفع الدّفة ببطء وتسللت نظراته لتتفقد المكان. قبل أن يجرُد محتويات شقته، فوجئ بعبير زكي يغمر حواسّه. عقد حاجبيه في شك. كانت رائحة طعام شهي تأتي من مطبخه. تقدّم في ذهول وسط البخار الذي ملأ الغرفة وفتح النافذة حتى تتنفس الشقة. جاءه صوت نادر من المطبخ وقد أحسّ بوجوده:

- مرحبًا.. الطعام على وشك أن يجهز.

اقترب عمر ليلقي نظرة على الوعاء الذي يغلي فوق النار، في حين توجّه نادر إلى الفرن ليخرج صينية البطاطس التي نضجت للتوّ. تابعه عمر بنظرات مندهشة:

- أنت تجيد الطبخ؟

ضحك نادر في فخر وهو يقول:

- تعلمت أيام الجامعة. كنت أقيم مع عدد من الشباب في شقة عزوبيّة، وكنت طباخ الفريق.

رمقه عمر في إعجاب وهو يأخذ قطعة من البطاطس الحارّة بأطراف أصابعه ويتذوقها في حذر.

- ما تزال ساخنة. استرح قليلًا ريثما أضع الأطباق على المائدة.

انصاع عمر دون اعتراض، وقصد الحمام ليغسل أطرافه ويغيّر ملابسه. ابتسم في ارتياح وهو يطالع وجهه في المرآة ثم تنهّد بقوة. الحمد لله. لم تكن سوى هواجس.

(9)

باريس.. مرّة أخرى

ما أن سمعت ياسمين صوت بوق السّيارة حتى هبّت إلى النافذة مستطلعة. ألقت نظرة خاطفة ثم هرولت باتجاه الدّرج والتهمت بخطوات واسعة المسافة التي تفصلها عن المدخل في بضع ثوانٍ. استرجعت أنفاسها ثم فتحت الباب لتستقبل والدها. للحظات أحسّت بحرج موقفها، لم تكن قد رحّبت به أو ترقبت وصوله من قبل. وها هي الآن تتشوق لرؤيته، لا لشيء إلا لأنها تنتظر منه البشرى لشأن يخصّها. أنانية؟ ربّما، لكن لم يعد بإمكانها أن تعود أدراجها وتنتظر في وداعة أن يناديها.

- أنت هنا؟

ابتسم وهو يعبر العتبة ويضع حقيبة أوراقه على الأرض. تبعته إلى الصالة حيث استلقى على الأريكة ونزع حذاءه. التفت إليها كأنه يستغل الموقف:

- هلا أحضرت الشبشب؟

انصاعت ياسمين وعادت وهي تحمل إليه ما طلب. وقفت غير بعيد عنه في انتظار. ولّما طال صمته وشروده، بادرته في صوت هادئ:

- هل من جديد؟

- آه.. نعم. لديك موعد، يوم الإثنين.. شركة اتصالات.. في باريس.

أفرغ جعبته دفعة واحدة، ففغرت ياسمين فاها قبل أن تهتف في دهشة:

- باريس!

قال في لا مبالاة وهو يتصفّح جريدة المساء:

- دانيال لا يمكنه استقبالك في فريق عمله في الوقت الحاضر، لنقص في التمويل في القسم الذي يعمل به. لذلك فقد اتصل بأحد معارفه في باريس وطلب لك موعدًا، مع توصية جيّدة.

تابع في ثقة وهو يضع ساقًا فوق أخرى:

- خدمته كثيرًا في السّابق، لذلك كان عليه أن يؤدي إليّ هذه الخدمة. تعلمين في مجتمعنا اليوم.. واحدة بواحدة.

كرّرت في دهشة وهي تصعد درجات السّلم في بطء. باريس! تذهب وحدها إلى باريس! حين جاءت إلى فرنسا، كانت تريد أن تتقرب من أخويها، أن تتعرف أكثر على والدها، وأن تشاركهم حياتهم اليوميّة.. لكن هذه السّفرية المفاجئة لم تكن في حسابها. مهلًا، رويدك ياسمين.. لم يتقرّر سفرها بعد. ما هي إلا مقابلة أخرى. زفرت في ضيق. تمنّت من كل قلبها أن تنتهي دوامة المقابلات الفاشلة. حتى لو كان الثمن سفرها إلى باريس.

- سأذهب إلى باريس.

جاءها صوت والدتها الهادئ عبر سماعة الهاتف:

- هذا جيّد.

ابتسمت وهي تصغي إلى كلمات والدتها المفعمة بالحماس.

- جاءت الفرصة أخيرًا.. ستذهبين إذن لزيارة خالتك زهور.

خالتها زهور، ليست شقيقة والدتها، لكنها أقرب إليها من كل من يصلها بهم رابط الدم. كانت الوحيدة التي ساندتها حين اختارت طريقها الجديد. بل لعلها كانت السبب في ذلك التغيير الذي طرأ عليها.

- ستكون سعيدة جدًا برؤيتك. ميساء وهيثم وعمك عبد الحميد، كلهم ينتظرون زيارتك.

هي أيضًا مشتاقة لرؤيتهم. كانت تسمع عنهم الكثير من أمها في سنيها الأولى، ثم كانت زيارتهم التاريخية لتونس في صيف سنواتها التسع.. سنة 1989. زيارة لم تتكرر لأسباب أمنية كما تقول فاطمة. حينها لم تدرك ماهية تلك الأسباب، لكن مع مرور الوقت اتضحت الرؤية في ذهنها. كان لعمّها عبد الحميد زوج خالتها نشاط سياسيّ مع بعض جماعات المعارضة، وبعد الانتخابات التشريعية لسنة 1991 عمّت البلبلة البلاد، مع شنّ القوّة الحاكمة حملة واسعة للقبض على المعارضين وإيداعهم السجون لتكميم أفواههم مرّة واحدة. والرّاجح أن أحد المطاردين الفارين ممّن وصلوا إلى باريس طالبين اللجوء السياسي أفضى إلى عبد الحميد بأن اسمه قد ورد في بعض التحقيقات على لسان أحد المستجوبين. لذلك بات من غير الآمن له ولعائلته أن يزوروا تونس في الوقت الرّاهن. لكن "الوقت الراهن" امتدّ لسنوات طويلة تجاوزت الثلاثة عشرة سنة. لكن الرسائل والمكالمات الهاتفية لم تنقطع بين المرأتين. كانت تتباعد وتشح في بعض الأونات، لكنها لم تنقطع. حتمًا لم تنقطع.

استلقت ياسمين على سريرها وسرحت في ذكريات الماضي. حين كانت في العاشرة من عمرها، اختارت مدرستها عددًا من الطلبة لمراسلة آخرين في فرنسا. وكانت الشروط الأساسية للاختيار اتقان اللغة الفرنسيّة والإمكانيات المادية.. لتبادل الهدايا مع المراسل، ثم للتمكن من السفر إلى فرنسا في ضيافته ولاستقباله أيضًا في فترة الإجازات. لم تكن هذه الشروط متوفرة في ياسمين. كانت متميزة في اللغة، نعم، لكن عائلتها لم تكن مترفة ولم تكن ظروفها المادية تسمح بالرّحلات خارج البلاد.. لذلك لم يتمّ اختيارها. لتعوّض عنها والدتها ذلك الحرمان، جعلتها تراسل ميساء ابنة الخالة زهور التي كانت تصغرها بعامين. لسنوات، استمرّت بالكتابة إليها مرّة كل بضعة أسابيع. كانت تجفّف زهور الحديقة وتلصق بتلاتها على ورق الرّسائل وتصنع لها حليًا يدوية من الخرز وبطاقات معايدة تزيّنها بالورق الملوّن. وكانت تستقبل أيضًا رسائلها المليئة بالرّسوم الزاهية وتنتظرها بفارغ الصبر، الرّسوم التي كان يبدع في إنجازها هيثم شقيق ميساء الأكبر. وحين تصلها منها صور لأفراد العائلة، كانت تجلس طويلًا مع والدتها لتعلقا عليها وتتندرا بها في مرح طفولي. مرّت سنوات على آخر رسالة وصلتها منها. كان ذلك في المدرسة الثانوية. لم تعودا طفلتين.

قامت من مرقدها وانحنت إلى الأرض لتخرج صندوقًا صغيرًا مغلفًا بورق الهدايا من تحت السرير.. صندوق كنوزها الذي يرافقها أينما حلت. أزاحت الغطاء وأخذت تخرج القطع التي تراصت فيه جنبًا إلى جنب.. رسائل، رسومات، صور، بطاقات، حاملات مفاتيح متنوعة الأشكال. سرحت مع كل واحدة منها وهي تسترجع ذكريات الطفولة التي مضت. الآن جاءت الفرصة لتراهم جميعًا من جديد، الخالة زهور، العم عبد الحميد، ميساء وهيثم.. ثم هناك وائل، آخر العنقود. هذا الأخير لم تره إلا في

الصّور. حين جاؤوا لزيارتهم لم يكن قد أتى إلى الدّنيا بعد.

ابتسمت وهي تتخيل اللقاء المرتقب مع زوار صيفها الذي تعتبره الأكثر متعة على الإطلاق ضمن سنوات طفولتها.. ذلك الصّيف الأخير الذي سبق سنوات الجمر القاسية وعهد الظلمات المستمرّ.

****

حين تجاوزت بوابة الشركة، سرت في أوصالها رجفة غريبة. كانت الأنظار تتجه إليها بشكل لافت، لم يكن ذلك من وحي خيالها. كثيرًا ما أحسّت بالنظرات المستغربة، المحتقرة أو المستفزة.. لكن قطعًا ليس بهذا الشكل. ربما لأنّها تعطي اهتمامًا أكبر من العادة لمقابلتها هذه، مقابلة الوقت بدل الضائع؟ ربّما.

قطعت ياسمين الخطوات التي تفصلها عن مكتب الاستقبال على عجل، ووقفت أمام الموظفة. ابتسمت وهي تقول:

- لديّ موعد مع السيد دافيد كيلير.

حين عرفت أنّ مقابلتها مع شخص يدعى "دافيد"، انتابها فتور مفاجئ. لا يمكنها أن تتوقّع انطباعه عن شكلها. الاسم يوحي بنوع من التعلّق الدّيني. قد يكون تعلّقًا إيجابيًا، يقدّر لدى الآخرين انتماءاتهم، وقد يكون تعلّقًا متطرّفًا يرفض الاختلاف.

نظرت الموظفة في الجهاز أمامها ثم رفعت رأسها لتقول بلهجة شبه آلية:

- الطابق الثامن، المكتب الثاني. المصعد على اليمين.

بداية مشجعة. خمّنت ياسمين في سرّها في شيء من السّخرية. شكرتها ثم توجّهت نحو المصعد. كان هناك رجلان وامرأة في الانتظار. وقفت مُطرقة على مقربة، تتنفس بعمق تهيّؤًا للمقابلة. حين وصل المصعد وأصبح الجميع بالدّاخل، بادرها الرّجل الأقرب إلى لوحة المفاتيح:

- أيّ طابق؟

- الثامن.. شكرًا.

توقف المصعد في الطابق الخامس ونزلت المرأة والرجل الآخر. ما يزال أمامها ثلاثة طوابق. شبكت أصابعها في توتر وحاولت شغل نفسها عن نظرات مرافقها المتبقي الفضولية.

- تعملين هنا؟

أجابت بعد تردد قصير:

- جئت من أجل مقابلة.

- لكنّ إدارة شؤون الموظفين في الطابق الأرضي.

- موظفة الاستقبال أخبرتني أن مكتب السيد دافيد كيلير في الطابق الثامن.

- دافيد؟! منذ متى يهتم دافيد بتوظيف عاملات التنظيف؟

أحسّت بوجهها يشتعل. عاملات التنظيف؟ هل يسخر منها؟ كان باب المصعد قد فتح مع وصوله إلى الطابق الثامن. رمته بنظرة حادّة وهي تقول في برود:

- مقابلتي تخصّ رسالة دكتوراه في العلوم الاجتماعية.

ثم غادرت المصعد دون أن تنتظر ردّه. مشت بعصبية في اتجاه المكاتب. كان تعليقه السّخيف قد أثار حنقها وأفسد كل عمليات التركيز والاسترخاء التي عملت على ممارستها في طريقها لإفراغ ذهنها من كل طاقة سلبية. هل كان هندامها مهملًا إلى هذا الحدّ؟ أم أنه يفترض بكل من تلبس حجابًا أن تكون عاملة تنظيف؟ لم تكن ردّة فعلها احتقارًا لعاملات التنظيف أو استهزاء بهن، لكنها لا تصدّق أن يتمّ الربط المباشر والتلقائي بينها وبين تلك المهنة بدون أي أدلة أو علامات.

كانت قد وصلت أمام المكتب الثاني. أخذت نفسًا عميقًا وحاولت أن تمسح كل التوتر المجاني الذي سببه لها ذلك الرجل الغريب. كادت تلعنه في سرّها، لكنها أحجمت ودعت له بالهداية. فليكن، لن تُضيّع وقتها بالتفكير في كلامه أكثر مما فعلت. الآن أمامها أمور أهمّ.

طرقت الباب بلطف وانتظرت. مرّت بضع ثوانٍ قبل أن يُفتح. كان السيد دافيد رجلًا كهلًا ممتلئ الجسم، بدا عليه المرح والبساطة. دعاها إلى الدخول ثم اتخذ مكانه خلف المكتب.

- آنسة ياسمين، حدّثيني عن نفسك.

خلال الدقائق التي تلت، أمسكت ياسمين بدفة الحوار. تحدّثت عن مسارها الدّراسي وعن التجارب المهنية القصيرة التي مرّت بها. ناقشها السيد دافيد في المشاريع التي قدّمتها لبضع دقائق إضافية ثم تنحنح ليقول معلنا:

- والآن دوري لأحدثك عن مشروع البحث. أخبريني أولًا، هل لديك روح المغامرة؟

ابتسمت ياسمين رغم استغرابها وقالت:

- أظن أنني أمتلك بعضًا منها.

- الفكرة جاءتني بعد أن تزايدت في السنوات الأخيرة محاولات الانتحار في محيطنا المهنيّ. ليس في شركتنا بالذات، بل في الشركات المشابهة بصفة عامّة.. هذه المحاولات المتكرّرة لا شك أن وراءها سلسلة من الأسباب والعوامل التي تشترك في تفعيل تلك الرّغبة المفاجئة في القطع الكامل مع الحياة. العمل من المفترض أن يكون مصدر العيش الكريم، بل هو غالبًا مجال تحقيق الذات والإبداع. قد ينطوي على بعض المشكلات، نعم. قد يشعرنا ببعض الضغط من حين إلى آخر، بالتأكيد. وإن زاد الأمر عن الحدّ أمكننا تركه والبحث عن غيره؛ ليس زواجًا كاثوليكيًا لا طلاق فيه مثلًا! لذلك فإنه من المدهش أن يكون العمل سببًا في التفكير في الموت. أعني.. قد يصاب عاطل عن العمل باليأس، هذا مقبول. لكن ماذا بشأن من يزاول مهنة لائقة ومحترمة؟ ألا توافقينني؟

هزت ياسمين رأسها علامة التأييد وواصلت الاستماع في انتباه.

- يبدو لي أن الأمر يستحق دراسة معمّقة، من حيث الأسباب المباشرة في محيط العمل، ثم الحلول الممكنة من وجهة نظر الدراسة الاجتماعية.. أقصد ما يجب على الشركة أن توفّره، عن ثقافة التواصل في إطار الشركة وما إلى ذلك.

نقر بأصابعه على المكتب وهو يتابع:

- اختلفت مع المدير حول الموضوع، فهو يرى أن البحث لن يفرز جديدًا نجهله.. في حين أعتقد أنه قد يقدّم إجابات مدهشة وغير متوقعة. هل ترين نفسك أهلًا لهذا المشروع؟

أجابت ياسمين في حماس:

- نعم، أعتقد أنني قادرة على خوض هذه المغامرة.

ضحك دافيد في سرور وهو يسألها:

- أرسلك السيد دانيال، أليس كذلك؟

هزّت رأسها موافقة، فأضاف:

- لم أحبّ يومًا العمل بالوساطة، لكنني محظوظ اليوم لأنهم أرسلوكِ إليّ.

ثم عاجلها بلهجة جادّة هذه المرة:

- إذن.. متى تبدئين؟

همست في غير تصديق:

- إذن فقد قبلتني؟!

- تريدين التراجع؟

- لا أبدًا. لكن يلزمني بعض الوقت حتى أجد شقة في باريس و...

قاطعها في حزم:

- إذن نبدأ الشهر القادم. سأطلب تحضير مكتبك. في الأثناء رتبي أمورك كلها. اتفقنا؟

خرجت من المكتب وهي لا تصدّق ما حصل للتوّ. لقد تمّ قبولها، ومن قبل شخص اسمه "دافيد"! لقد وجدت تمويلًا لرسالة الدكتوراه! و"حبّة الكرز على الكعكة" * (كما تقول العبارة الفرنسيّة) هي موضوع البحث ذاته. لم تتوقّع أن يستأثر القدر من أجلها بهذه الفرصة المميّزة، وهي التي تعوّدت على الرّفض والمنافذ المسدودة. كانت ابتسامة عريضة تزيّن شفتيها وهي تتوجّه إلى المصعد. نعم، ستقيم في باريس للسنوات الثلاث القادمة على الأقل.

فجأة تقلصت ابتسامتها حين لمحت بطرف عينها الشاب الذي عكّر صفو صباحها بتعليقه السّمج. لكن فرحتها كانت أكبر من أن تمحوها حادثة عديمة القيمة. كان مزاجها في تلك اللحظة يسمح بفائض من الصفح والتّجاوز. تابعت سيرها دون أن تلقي إليه بالًا، لكنّه بادرها على الفور:

- آنسة.. آآ.. أنا آسف حقًّا بشأن ما قلته سابقًا، لم أقصد الإهانة.

- لا بأس؛ نسيت الأمر.

- أرجو أن مقابلتك كانت موفقة.

- نعم، كانت موفقة.

هل كانت تريد إغاظته؟ أم أن صدرها ضاق بالفرحة فأرادت أن تشاركها شخصًا ما؟ أضافت في جذل:

- لقد قُبلت.

---

* La cerise sur le gâteau

هل كانت الدّهشة هي ما قرأتها في وجهه مع كلماتها الأخيرة؟ من الواضح أنه لم يتوقّع تلك الإجابة، لكنه أردف بسرعة مداريًا ارتباكه:

- تهانينا إذن. يبدو أننا سنصبح زملاء.

كان المصعد قد وصل. حيّته ياسمين بكلمات مختصرة وابتعدت في اتجاه المصعد. ما أن انفردت بنفسها حتى تنهدت بقوّة وتركت العنان لدموع الفرح.

في الأثناء، عاد الشاب أدراجه في اتجاه المكتب الثاني من الطابق الثامن. قرع الباب بسرعة ثم فتحه دون أن ينتظر الإذن. جلس قبالة دافيد وهو يهتف في غير تصديق:

- هل صحيح أنك قبلتها؟

رفع دافيد عينيه وعلى شفتيه ابتسامة غامضة، ثم قال في هدوء مستفز:

- مرحبا باتريك.. عمّ تتحدث؟

- تلك الفتاة التي تلبس غطاء رأس. رأيتها تخرج من مكتبك وقالت بأنك وافقت على عملها هنا.

- آه، الآنسة ياسمين؟ إنها شخصية نادرة، وآمل أن تنجز بحثًا مميزاً.

هتف باتريك في انفعال:

- أنت جادّ؟ هل نظرت إليها جيّدًا قبل أن تتخذ قرارك؟

حدجه دافيد بنظرة طويلة، ثم قال في تأنٍّ:

- لم أنظر فقط إلى شكلها.. بل إلى سيرتها الذاتية، إنجازاتها، تجاربها.. وتحدّثت إليها أيضًا، وأظنها الكفاءة اللازمة لإنجاز البحث المطلوب.

- لكن.. كيف تكون كفاءة وهي تخضع لقوانين عرفية تجبرها على أن تغطي جسدها؟

- تريد رأيي؟ لا يهمني بماذا تؤمن وما هي معتقداتها. من الناحية العلمية، هي مناسبة للعمل الذي انتدبتها من أجله. طالما تقوم بدورها كما يجب، فشكلها لا يقلقني.

- أشك في أن هذا سيكون رأي المدير وبقية فريق العمل.

عقد دافيد ذراعيه أمام صدره في ثقة وهو يقول:

- دعني أرد عليهم إذن.

تابع بعد صمت قصير:

- صدّقني، اختلافها سيمكنها من تقديم رؤية جديدة ومختلفة. لن يكون اندماجها سهلًا، لكنها إن نجحت فإن نجاحها سيكون باهرًا.. ونجاحها هو نجاح للشركة كلها.

****

نظرت ياسمين مرة أخرى إلى قصاصة الورق التي كتبت عليها عنوان الخالة زهور وهي تسير عبر الشارع الهادئ في ضاحية "مونتروْيْ" * الباريسية. ما أن علمت زهور بمجيئها إلى باريس حتى أصرّت على قضائها الليلة عندها. زيارتها كانت من ضمن المهام القليلة التي أوصتها بها والدتها. ليست مهمّة بأتم معنى الكلمة، فهي رغبتها أيضًا.. أن ترى كيف صارت تلك العائلة التي تخزن في ذاكرتها صورًا مشرقة عنها. بنت بريئة وولد شقي وأقلام تلوين. بقايا ذكريات عذبة تسافر إليها الذاكرة

كلما انتباها الحنين إلى وداعة الماضي.
لكن فاطمة كانت ترى الأمر بشكل مغاير. إقامتها في ليون كانت مع عائلتها، والدها وأخويها، لكنها عائلة لا تمتّ إلى الإسلام بصلة. لم تكن في حاجة إلى أن ترى بعينيها ما عاينته ياسمين منذ وصولها لتدرك ذلك. فهي لم تنس -وأنّى لها أن تنسى- أن تلك النقطة الخلافية كانت السبب المباشر لانفصالها عن كمال. لذلك فإنها حرصت على أن تجعلها تلتقي زهور وذويها، ربما لتذكرها أنّ إلى جوارها من يمكنها أن تثق فيهم وتعتمد عليهم في وقت الحاجة، مثلما اعتمدت هي عليهم في السّابق، في بداية مشوارها. وربما لتطمئنها إلى أنها ليست المسلمة الوحيدة على الأراضي الفرنسية.
ابتسمت ياسمين عند ذلك الخاطر. يمكن لوالدتها أن تطمئن، ليست المسلمة الوحيدة في ليون. خطر على بالها شاب المترو فجأة. لم تكن قد رأته منذ أيام. منذ أن تحوّلت وجهة أفكارها إلى باريس. شعرت بالانقباض وهي تفكر في رحيلها القريب عن ليون.. قد لا تراه بعد ذلك.
- ياسمين؟

* Montreuil: تقع في الضاحية الشرقية لباريس. تتميّز بتنوّعها الإثني، حيث يقيم بها أفراد من 90 جنسية مختلفة.

كانت تقف أسفل الشارع وهي تبحث عن البناية المقصودة، حين قاطعتها فتاة شابة تصغرها بسنتين اثنتين. طالعتها بابتسامة ثم سألتها بدورها:
- ميساء؟
تعانقتا في ودّ ثم سارتا يدًا بيد حتى منزل العائلة. يا الله! كم تغيّرت ميساء! كبرت كثيرًا وأصبحت أكثر جمالًا وإشراقًا من الطفلة التي يظهر وجهها على معظم الصور التي تملأ صندوق كنوزها. كانت كل منهما تتأمل الأخرى كأنها تبحث في تقاسيمها عن ملامح الطفولة الغابرة.. ثم استرسلت الألسن في الحديث كأنهما تواصلان حوارًا قديمًا لم يكتمل أبدًا.
حين تجاوزتا سور الحديقة، لمحت ياسمين الخالة زهور تقف عند رأس السّلم الحجري، تترقّب وصولها في لهفة واضحة. ما أن وصلت إلى مستواها حتى عانقتها بحرارة وحفاوة. أخذت بيدها وقادتها إلى الدّاخل. أجلستها إلى جانبها على الأريكة وراحت تتأمل وجهها في حنين وشوق، كأنها تسترجع عبر ملامحها ذكريات قديمة. تكلمت أخيرًا وفي صوتها كثير من اليقين:
- تشبهين والدتك تمامًا حين كانت في مثل سنك.
خلال ساعات طويلة استمرّت زهور تحدّثها عن مواقف شتى جمعتها بوالدتها في سنوات الشباب. استمعت إليها ياسمين في متعة وامتنان. تحاول استشفاف المسكوت عنه في حكايات أمّها عن التاريخ الذي مضى عبر نوادر خالتها زهور المتفرّقة. ترقع الثقوب وتسدّ الفراغات وتكمل ما نقص بتوقعاتها. رغم لقائها الوحيد بهما في الماضي، ورغم الزمن الذي باعد بين سبلهما، لم تحس بالغربة وهي بينهما أبدًا. كأنها تلتقي صديقتين حميمتين وتتبارى كل منهنّ على إفراغ جعبتها من الحكايا المضحكات والمبكيات عن زمن الفراق.. لعلهنّ تتداركن ما فات.
حين فتح الباب الخارجي،كانت الجلسة قد انتقلت إلى المطبخ، فانهمكت زهور في إعداد طعام العشاء دون أن تفوّت كلمة ممّا تقوله البنتان. كان عبد الحميد وولداه هيثم ووائل قادمين من المسجد. هيثم الذي كان يكبرها بثلاث سنوات كان قد أنهى دراسته الجامعية في كلية الهندسة ويعمل منذ سنتين في شركة متخصّصة في علوم الحاسب. شعرت بالرّهبة وهي ترى رجلًا

يحاكي في طوله العمالقة يقف أمامها. وجدت صعوبة كبيرة في الرّبط بينه وبين الطفل الذي كان يرسل إليها رسومًا بقلمه يذيّلها بنكات مضحكة وخربشات شقية. دون أن تشعر تسللت بسمة خفيفة إلى شفتيها وهي تطالعه في ارتباك. أما هو فقد لبث يقف بعيدًا وهو يخفي كفيه في جيوبه وشكله يوحي بمعاناته من ارتباك مماثل. حيّاها وسأل عن أحوالها باقتضاب ثم انصرف إلى غرفته بعد أن أدّى الواجب.كان النضوج قد محا شقاوة الصبا، لا شك.

أما وائل الذي كان في العاشرة من عمره فقد جلس إلى المائدة في بساطة وأخذ يستمع إلى أحاديثهن وهو يؤرجح ساقيه بشكل متواتر. في حين انسحب عبد الحميد إلى غرفة الجلوس وشغل التليفزيون على مباراة رياضية، ثم انهمك في مطالعة جريدة قديمة في انتظار أن يجهز طعام العشاء.

استطردت زهور التي كانت مسترسلة في حديثها:

- لست أدري إن كان بإمكاني أن ألوم فاطمة لأنها رحلت بك عنا. في ذلك الحين ظننتها قد تسرّعت.. لكنني أعلم في نفس الوقت أن تربية طفلة صغيرة بمفردها لم يكن سهلًا. لو لم يكن عمّك عبد الحميد هنا يباشر توجيه الأولاد أولًا بأول لما نجحت تربيتهم. ومع ذلك.. انظري إلى وائل، لم يفلت من جرعة دلال زائدة. آخر العنقود!

قالت ذلك وهي تضحك في حين أطرق المعني بالأمر وقد احمرّت وجنتاه وعلى وجهه علامات احتجاج مكتومة. شاركتها ياسمين الضحك، ثم سألتها في شك:

- ربما لو لم تكن والدتي قد سافرت.. ربما لم تكن لتنفصل عن والدي؟

نظرت إليها زهور نظرة مطوّلة وكأنّ في خاطرها كلامًا تشفق عليها منه، ثم قالت في لهجة حانية:

- العلاقة بين والديك كانت منتهية قبل أن يحصل الطلاق وقبل أن تسافر فاطمة. لم يكن هناك حل آخر.

سرحت ياسمين بنظراتها ولم تعلق. هل كانت تريد أن توقع اللوم على والدتها لأنها حرمتها من وجود أب في حياتها؟ أو ربما كانت تحاول إيجاد مبررات لوالدها الذي يبدو تعيسًا هذه الأيام؟ في نهاية الأمر، كلاهما تعيس هذه الأيام.. وإن اختلفت الأسباب.

سألتها ميساء لتغير الموضوع:

- متى تبدئين العمل؟

- الشهر القادم إن شاء الله.

هتفت ميساء في حماس:

- ممتاز.. إذن ستأتين للإقامة بيننا؟

ثم التفتت إلى والدتها تطلب تأييدها:

- أليس كذلك يا أمي؟ هناك مساحة كافية في غرفتي لوضع سرير إضافي.

هزت زهور رأسها موافقة فابتسمت ياسمين في امتنان:

- أشكركم كثيرًا على هذا الكرم.. لكنني أفضّل البحث عن غرفة في سكن طلابي حتى لا أضيّق عليكم.

كانت تعلم أنه لا مجال للتضييق على أحد في منزل واسع ذي طابقين، لكن زهور استوعبت حرجها من نظرة واحدة، لذلك لم

تلحّ عليها. وجود ثلاثة رجال أجانب عنها –إذا ما تمّ احتساب وائل المعتدّ برجولته على صغر سنّه- في البيت عامل لا يمكن الاستهانة به. استطردت ميساء في أسف:

- كان بودّي أن أتقاسم معك الغرفة، لكن لا بأس.. سأنط إلى مسكنك كل يوم إن استوجب الأمر.

اتسعت ابتسامة ياسمين وهي تقول:

- على الرّحب والسعة. يجب أن أسافر غدًا إلى ليون، ثم أعود في نهاية الأسبوع للبحث عن شقة.
- ممتاز.. وتظلين معنا حتى تجدي شقة، أليس كذلك؟

لم تستطع أن تمتنع هذه المرّة، فأومأت في تسليم.

- أين تقع الشركة التي ستعملين بها؟
- في ناطحة سحاب ذات ثلاثين طابقًا، في منطقة "لاديفونس" * التجارية.
- ممتاز، أذهب كثيرًا إلى المركز التجاري هناك للتسوّق في أوقات التخفيضات. ثم هيثم يعمل في شركة في نفس المنطقة.. لن يكون من الصّعب إيجادك!

قاطعهن صوت باب غرفة داخلية وهو يفتح في حركة قوية، ظهر على إثرها هيثم وهو يهتف

---

* La Défense: أول منطقة تجارية أوروبية باعتبار المساحة. و تقع في نهاية المحور التاريخي لباريس، والذي يبدأ من متحف اللوفر مرورا بالشانزلزيه وقوس النصر، ثم إلى جسر نويي، ثم أخيرا إلى قوس لاديفونس.

في انفعال قبل أن يتوجه إلى غرفة الجلوس:

- أمر لا يصدّق.. انفجار فظيع في ليون!

تحرّك الجميع في اندفاع غريزي نحو غرفة الجلوس، حيث كان التليفزيون مفتوحًا على مباراة رياضية. اعتذر هيثم من والده وحوّل الإرسال إلى محطة إخبارية. وما لبثت النظرات أن توقّفت مذهولة أمام الشاشة التي تنقل صورًا مروّعة. اتسعت الأعين عن آخرها وهي تتابع الخبر العاجل الذي تنقله جميع المحطات التليفزيونية الفرنسيّة مباشرة من قلب مدينة ليون.

ظهر المراسل وهو يضع كمامة بيضاء على وجهه أمام المبنى الذي انهار قسم منه بالكامل واشتعلت النيران الحارقة في بقاياه، بينما انهمك رجال الإطفاء في محاولات السّيطرة على الحريق. صفارات سيارات الإسعاف كانت تتردّد بصوت حادّ مع تواصل عمليات إجلاء المصابين من مكان الحادث.

- الانفجار الذي دوّى منذ نصف ساعة في قلب مدينة ليون شعر به كل سكان المدينة بدرجات متفاوتة، فالهزة الأرضية التي تلته كانت بقوة 2.5 على مقياس رختر وكان لها تأثير ملموس على المباني المجاورة التي تحطمت واجهاتها الزجاجية وظهرت بعض علامات التصدّع في أماكن متفرقة من الجدران والأسقف. عدد الضحايا يرتفع إلى ثمانية أشخاص حتى الآن، كلّهم من موظفي شركة الكيميائيات، مصدر الانفجار.. بالإضافة إلى بضع إصابات حرجة. معظم الإصابات خارج المبنى خفيفة ومتوسطة وناتجة في أغلبها عن تناثر الشظايا إثر الانفجار، ويتجاوز عددها الثلاثين حالة. لا نعلم بعد ما هو مصدر الحادثة وكيف يمكن أن يتطوّر الوضع.

التفت المراسل إلى رجل كان يقف إلى جانبه ويضع بدوره كمامة وخوذة حماية:

- معنا على عين المكان الأستاذ برنار الخبير في حوادث التفجير.. سيدي، هذه الحادثة تذكرنا بحادثة أخرى لم يمض عليها زمن طويل، أليس كذلك؟

- بالفعل، الانفجار في شكله يذكرنا بما حدث في مدينة تولوز في المصنع التابع لشركة طوطال في الـ21 من سبتمبر سنة 2001. مع الفارق من حيث عدد الضحايا وقيمة الخسائر. فحادثة تولوز ذهب ضحيتها ما يفوق ثلاثين شخصًا.. لا ننسى أنها وقعت في نحو العاشرة صباحًا، أي في ذروة نشاط المصنع.

- هل تتوقعون سيدي أن تكون العملية اعتداء إرهابيًا مثلما حصل في تولوز؟

- في الوقت الحالي، جميع المؤشرات تدفعنا إلى الاعتقاد بحصول حادثة، وإن كنا لا نملك لها تفسيرًا واضحًا. حتّى حادثة تولوز التي مرّت عليها سنوات ثلاث لم يقع البتّ في أمرها بعد. لكن الاعتقاد بوقوع اعتداء إرهابي أتى في الأساس من التقارب الزمني بينها وبين اعتداءات الحادي عشر من سبتمبر على البرجين التوأمين بنيويورك.

- شكرًا لك سيدي. أعزائي المشاهدين، نعود إليكم بعد قليل حين تردنا معلومات إضافية.

تحركت ياسمين من أمام الشاشة في توتر وتناولت هاتفها. انتظرت للحظات في لهفة وقلق قبل أن يأتيها صوت سارة المنفعلة من الإثارة:

- لقد سمعت الانفجار من غرفتي، والبيت كله أخذ في التأرجح لعدّة ثوانٍ.. لقد أصبت برعب حقيقي.

- هل الجميع بخير؟

- كلنا بخير لا تقلقي.

تنهدت في ارتياح ثم هزّت رأسها مطمئنة، إجابة على التساؤل القلق في الأعين المحدقة بها. في نفس الوقت أخذ كمال السماعة من سارة وسألها في اهتمام:

- ياسمين، متى تعودين؟

- أركب القطار غدًا صباحًا.

قال في صوت أراده هادئًا لكنّها لمست فيه شيئًا الاضطراب:

- من الأفضل أن تبقي هناك لبعض الوقت. الحركة معطلة في وسط المدينة.. لم يتمّ التعرّف على نوعيّة المخلفات التي أفرزها الانفجار.. ربما تكون خطرة. رجال الحماية يحاصرون المكان والمطلوب من الجميع البقاء في منازلهم حتى إشعار آخر.

أجابت في ضيق:

- حسن.. سأبقى هنا يومين إضافيين إلى أن تستقر الأمور.

قالت ذلك وهي تنظر إلى الخالة زهور تطلب إذنها. ابتسمت المرأة في حنوّ وهي تهز رأسها علامة التأييد. شكرتها ياسمين بنظرات صامتة وعادت إلى اتصالها:

- طمئنّي أولًا، جميعكم بخير؟

- الجميع بخير. حيّنا بعيد عن مكان الانفجار، لكنّ الوضع مضطرب وسط المدينة. يجب أن أذهب الآن.. تلقيت دعوة للانضمام إلى فريق الخبراء. سنعمل على تحديد نوعية المخلفات بأسرع ما يمكن.

أضاف فجأة بلهجة ذات معنى:

- هل تعلمين؟ الانفجار حصل في شركة دانيال.. الصديق الذي أعطاك التوصية.

فتحت ياسمين عينيها عن آخرها في ذهول ولم تنبس ببنت شفة.كانت مجريات ذلك اليوم العجيب منذ بدايته تلجمها وتستفزّ أفكارًا في أعماقها.. عن عجائب القدر.

(10)

الانفجار

كان ينبغي أن تسير التجربة على ما يرام. لم يكن الانفجار متوقعًا أو ممكنًا.

ما حصل يتجاوز قدرة استيعابه.

يتجاوز إدراكه.

يتجاوز إحساسه الملتهب بحرارة المكان من حوله.

لكنّ قدره كان مختلفًا عن كلّ التوقعات.

ما بعد الانفجار

التداعيات

"ربّما كانت اللحظة التي أدركت فيها تغيّر نظرتها إلى الأمور هي اللحظة الفاصلة في مسيرتها الشخصيّة. تكّة موسيقيّة، تسمعها وحدها، ترنّ في وعيها فجأة لتعلن مرورها إلى مرحلة أخرى".

(11)

مشتبه به

داخل قسم الطوارئ في المستشفى المدنيّ بليون، انتشر الجرحى الذين بلغ عددهم بضع عشرات برفقة ذويهم على مقاعد قاعة الانتظار، وتهاوى آخرون على الأرضيّة المبلطة بعد حصولهم على الكشف المبدئيّ، بينما توالى نقل الجثث إلى غرف المشرحة. استمرّت عمليّة الإنقاذ لساعات عدّة، وكانت الحالات الحرجة ومتوسطة الخطورة تنقل إبّان ورودها إلى غرف العمليات التي غصّت بفرق جراحة تمّ استدعاؤها على وجه السرعة لاستيعاب الأزمة.

كان أخصائيّ نفسيّ يجوب أنحاء المكان لطمأنة المصابين والتأكد من تجاوزهم الصّدمة، يتبعه محققان من الشرطة بلباس مدنيّ. راحا يجولان بالقاعة ويستجوبان شهود العيان الذين بدا عليهم الوعي الكامل. استمرّ عملهما لساعات طويلة بحثًا عن كلّ الأدلة الممكنة، مؤشرات أو حتى تفاصيل إضافية عن توقيت الحادث وملابساته. لكن لم يكن لأحدهم أن يدرك كنه شلالات النيران الحارقة التي تدفّقت على حين غرّة لتغرق الشارع بمن فيه. "شلالات"، هكذا وصفها الشهود، في حين استعمل آخرون لفظ "بركان". غُدر به المارّون عبر الشارع الذي تطلّ عليه نوافذ مبنى شركة الكيميائيات، وراَه بوضوح أكبر الجلوس في المطاعم الصغيرة المتاخمة له، والتي لم يكن غيرها من المحلات يفتح في تلك الساعة من الليل. أمّا من شاهد الحادث من نوافذ المباني البعيدة فقد وصف الانفجار بفقاعة ضخمة ارتفعت في السّماء قبل أن تنفجر وتفيض حممها.

بعد تدقيق مطوّل عبر القاعات الخارجيّة، تحرّك الرّجلان باتجاه غرف العناية التي يرقد فيها أصحاب الإصابات العميقة. لم تكن حال أغلبهم تسمح بالاستجواب الفوريّ. توالى النقر على الأبواب المغلقة وتكرّرت إشارات الممرّضات السلبيّة. ليس الآن. أخيرًا توقّفا عند غرفة أرشدتهما إليها إحدى الممرضات ورفع أحدهما شارته الخاصّة أمام الطبيب، الذي كان ينهي تدوين ملاحظاته عن الحالة. سأل المحقق وهو يلقي نظرة على الرجل المسجي على السرير وعيناه تحدقان في سقف الغرفة:

- هل يمكن استجوابه؟

أومأ الطبيب برأسه علامة الإيجاب ثم اتجه إلى المريض الرّاقد وخاطبه برفق:

- سيدي، الشرطة تريد شهادتك في شأن الحادثة. هذا الرجل سيطرح عليك بعض الأسئلة. هل تحسّ في نفسك القدرة على الإجابة؟

التفت إليه الرجل في رعب وهتف على الفور:

- لقد كان الأمر فظيعًا.. فظيعًا للغاية.. هؤلاء الشبان المساكين.. لن ينجو أحدهم!

جذب المحقق كرسيًا واستوى قرب رأسه مترقّبًا كل كلمة:

- نريد منك أن تحدّثنا بما حصل مساء اليوم بالتفصيل.

تنهد حارس الشركة الليلي في إعياء ثم أخذ نفسًا عميقًا وراح يسرد تفاصيل الأمسية المأساوية:

- وصلت على السّاعة الثامنة كعادتي، توجّهت إلى الاستقبال حيث كان موظف النّهار ينهي مهامّه.. سلمني المفاتيح وانصرف. بدأت دوامي مثل كل مساء بجولة عامّة عبر مباني الشركة، لأتثبت من مغادرة الجميع.. أطفئ الأنوار وأغلق الأبواب التي نُسيت مفتوحة وأتفقد غرف الاستراحة متصيّدًا أعقاب السجائر المشتعلة.. أطمئن إلى توفّر كل ظروف السلامة.

- أعقاب سجائر مشتعلة؟!

- لا، ليس هذه الليلة. أنا أعمل في الشركة منذ ثماني سنوات، ولم تحصل أبدًا أي حرائق أو انفجارات طوال هذه الفترة. في الأصل، المختبرات لا تحتوي إلا على كميات بسيطة من المواد القابلة للاحتراق.. والمعمل الذي تخزّن فيه هذه المواد يبعد عن الشركة نحو ستة كيلومترات خارج المدينة. لذلك فإن احتمال حصول حادثة من هذا النوع ضئيل جدًا.

- هل كان هناك أحد غيرك في المبنى حين وصلت؟

- كان هناك عدد قليل.. في مبنى الأبحاث، في الطابق الرابع، كان هناك احتفال بترقية أحد الباحثين الشبان استمر إلى وقت متأخر. حين مررت قرب غرفة الاستراحة، سمعت صوت ضحك وصخب. طلبت منهم الانصراف، فدعوني إلى مشاركتهم الكعكة.. لكنني اعتذرت وحثثتهم على إكمال احتفالهم بسرعة حتى أغلق الأبواب، وعوّلت على المرور بعد عشر دقائق لتفقد الأمر.. لكن الانفجار فاجأنا جميعًا! لا شك أنّه قد أودى بحياتهم، هؤلاء المساكين في ريعان الشباب!

- هل كان هناك غيرهم؟

- نعم، كان هناك دكتور يتابع عمله في المختبر. تعوّدت أن أراه يعمل إلى ساعة متأخرة طيلة الأسبوع الماضي. إنسان جديّ ويستحق الاحترام.

- في المختبر؟ هل كان موقعه قريبًا من مكان الانفجار؟

- نعم، المختبر يقع في الطابق الرابع أيضًا.. غير بعيد عن غرفة الاستراحة.

التفت المحقق الأول إلى زميله الذي وقف عند رأسه يدوّن كل ما يقوله الشاهد وقال:

- هل تعتقد أنها تجربة ما في المختبر تحوّلت إلى كارثة؟

هز الآخر رأسه مؤيدًا وهو يقول في تجهّم:

- احتمال وارد جدًا.

- واصل من فضلك.

- طلبت من الدكتور أن يغلق المختبر حين ينتهي من عمله وواصلت جولتي. لم يكن هناك أحد في بقية الأقسام.

استدرك فجأة:

- كانت هناك سيدة شابة رأيتها تعدو على السلالم نازلة من الطابق الرابع.. كنت حينها قد أنهيت تفتيش مكاتب الطابق الثالث. وبعد أن سمعت الانفجار الأول، رأيتها تركض إلى الخارج. لا شك أنها قد فزعت وخافت على حياتها فنجت بجلدها.

- قلت الانفجار الأول؟

أجاب وهو يحاول استرجاع التسلسل الزمني لأحداث تلك الليلة:

- نعم، أذكر جيّدًا ما حصل.. بعد أن مررت بالمختبر نزلت إلى الطابق الثالث، وبعد أن سمعت الدكتور يصلي بدقيقتين تقريبًا

دوّى الانفجار الأوّل. بعد ثوانٍ قليلة، مرّت السيدة راكضة أمام بوابة الطابق الثالث نازلة السلالم.. كانت قادمة من الطابق الرابع لا شك.. ثمّ...

قاطعه المحقق في تحفّز وكأنه قد أمسك بخيط ما:

- قلت إنك سمعت الدكتور يصلي؟

- نعم، أعتقد أنه كان يصلي.. سمعته يقول كلمات يردّدها المسلمون في صلاتهم.

أثارت تلك النقطة انتباه المحققين. إذن الدكتور الذي كان في المختبر مسلم. هذا يغير الكثير.

- ماذا كان يقول بالضبط؟

- لا أذكر الكلمات بدقّة.. لكنني أقطن في حيّ شعبيّ ولديّ جيران مسلمون منذ سنوات طويلة، وقد رأيتهم يصلون مرات كثيرة في الشوارع.. يوم الجمعة غالبًا. والنداء الذي يردّدونه في الصّلاة يشبه الكلمات التي سمعتها هذا المساء.. "الله أكبر".. نعم تلك هي "الله أكبر".

- كيف سمعتها بمثل هذا الوضوح وأنت في الطابق الثالث والمختبر في الطابق الرابع؟

- لأنه كان يصرخ بصوت عالٍ.

- يصرخ بصوت عالٍ "الله أكبر"؟

هزّ الحارس رأسه موافقًا في شيء من الارتباك. ربما كان ذلك غريبًا فعلًا. لم ير الدكتور عمر يصلي في المختبر من قبل، فضلًا على أن يسمعه يصرخ في الليل والشركة شبه خالية. هل كان يجدر به أن يشك في الأمر؟ يبدو أن الأمر يثير شكوك المحققين بشكل ما.

في تلك اللحظة، علت جلبة شديدة في الممرّ وكثر الركض واللغط. وقف رجلا الشرطة على الفور وخرجا من الغرفة للتحقّق من الأمر. كانت سرير نقال يدخل المستشفى في تلك اللحظة وقد تجمّع حوله عدد كبير من الأطباء والممرّضين، وقد انشغل كل منهم بتقديم نوع من الإسعافات الأوّلية، في حين كان أحدهم يجثم على صدر المريض محاولًا إقحام أنبوب التنفس في حنجرته. رفع المحقق شارته للتعريف بنفسه أمام أحد الممرّضين، كان يركض خلف السرير الذي اختفى داخل إحدى غرف العمليات. هتف المحقق في لهجة حازمة:

- ما الذي يحصل؟

- حالة خطيرة.. شاب ثلاثيني من أصل عربيّ تمّ العثور عليه تحت الأنقاض، وقد أصيب صدره وأطرافه بكسور عديدة وحروق من الدّرجة الثالثة تغمر نصفه الأسفل.

- هل هو على قيد الحياة؟

- لا ندري إن كان سيعيش، حنجرته متورّمة وعملية إدخال أنبوب التنفس تبدو عسيرة. حين وجدناه كان قلبه متوقفًا. قمنا بتدليك الصدر للحصول على نبض ضئيل.. الصعقات الكهربائية لم تكن ممكنة مع انتشار الحروق على صدره وفي كل أرجاء جسمه.. الأطباء يقومون بكل المستطاع لإنقاذ حياته.. لكن فرص النجاة ليست كبيرة، خصوصًا أنه كان قريبًا جدًا من مصدر الانفجار.

ابتعد الممرّض في خطوات واسعة ليلحق بالركب، في حين تسمّر المحققان في مكانيهما. تبادلا نظرة طويلة لا تحتمل إلا معنى واحدًا وعبارة "من أصل عربي" تتردّد في ذهنيهما.

لدينا مشتبه به.

(12)

تقاطع

الجامعات في باريس نوعان، النوع الأول حديث التّشييد، تجده غالبًا في الضواحي القصيّة، يتّسم بالواجهات البلّورية اللامعة والتقليعات العصرية في الشكل والهندسة. أما النوع الثاني فيتربّع في قلب المدينة القديمة، لولا اللافتات التي ترشد إليه لأخطأته العين بسهولة. بناءات شامخة، حجارة ملساء ضخمة وأعمدة رخامية تحمل تاريخًا وتحكي قصة عن حياة الترف والبذخ التي كانت تتهادى في أنحائها، بعد أن كانت قصورًا ملكيّة في حياة سابقة. في عصر لم يكن للعلم فيه قيمة ومقام، كانت الفخامة حكرًا على الملوك وحاشياتهم. حين سقطت الملكيّة تحوّلت القصور والملكيات الخاصّة إلى متاحف أو مبانٍ حكومية أو مدارس وجامعات.

ولم تكن "جامعة باريس ديدرو"، نسبة إلى الفيلسوف الفرنسي "ديدرو" *، متعدّدة التخصّصات التي ترتادها ميساء لتشذّ عن القاعدة. بالإضافة إلى بنائها العتيق الهائل وموقعها المهيب على ضفاف نهر السين، كانت تحيط بها حديقة مترامية الأطراف يكسوها عشب نضر تناثر فوقه عدد من الطلاب جلوسًا ورقودًا، يتسوّلون أشعة الشمس لتكسو جلودهم الباهتة حمرة وسمرة. تخطت ياسمين بوابة الجامعة رفقة ميساء وهي تتطلع حولها في فضول. كانت تدخل جامعة فرنسيّة للمرّة الأولى وكان المشهد كله يوحي بنوع من الهيبة. ليست هيبة العلم بقدر ما هي تطاول للبنيان.

- انتظريني هنا، سأطلع على جدول الدّروس وأعود إليك.

ابتعدت ميساء بخطوات واسعة في اتجاه بهو الاستقبال، في حين أخذت ياسمين تتمشى وسط الساحة في تأنٍّ وسرحان. لم تنم كثيرًا ليلة البارحة. الأحداث تسارعت حولها بطريقة غير متوقعة. قبولها في الشركة الباريسية، لقاؤها مع ميساء وعائلتها، وأخيرًا الانفجار الذي حدث في شركة الكيمائيات في ليون.. كل ذلك يوحي إليها بأن مرحلة جديدة من حياتها ستبدأ أخيرًا في باريس. سيكون عليها أن تستقرّ هنا، وأن تشرع على الفور في البحث عن سكن. وحدها. في غربة حقيقية.

* Denis Diderot : كاتب و فيلسوف فرنسي من المشاركين في الحركة الإصلاحية الفكرية و الثقافية في القرن الثامن العشر و التي عرفت بحركة الأنوار.

الأسابيع الماضية لم تكن سوى تدريب على الاستقلالية، والدها وإيلين كانا إلى جانبها، يعوّضان قدرًا من دور والدتها الذي انفردت به لسنوات. الآن ستقطع الحبل السُّري مرة واحدة وتتوقف عن التصرف كطفلة مدللة. الآن فقط ستعرف معنى الحريّة المسؤولة.

اتجهت نظراتها نحو فضاء مفتوح في جانب من الساحة علقت عليه لافتة كبيرة كتبت بالفرنسية "تبحث عن سكن مشترك؟ انضم إلينا". تقدّمت في اهتمام وهي تعاين المكان بنظراتها. كانت هناك لوحة بيضاء في أحد الأركان علقت عليها عروض السكن، كل قصاصة تحمل رقمًا مرفقًا بوصفٍ مختصرٍ للشقة وتعريفٍ موجزٍ بساكنيها. بادرتها الشابة التي وقفت في الاستقبال وهي تمدّ إليها ببطاقة فارغة:

- تبحثين عن سكن؟ اكتبي سنك، جنسك، وثلاث صفات تميّزك، وعلقي البطاقة على اللوحة.
ثم ناولتها بطاقة أخرى تحمل نفس الرّقم وأضافت موضّحة:
- علقي هذه على صدرك حتى يتعرّف عليك أصحاب العروض. هذه اللوحة تمكنك أيضًا من اختيار العروض التي تناسبك ثم التعرّف على أصحابها من خلال الأرقام التي يحملونها.
بدا الأمر في غاية البساطة. كانت قد انبرت تملأ البطاقة حين فاجأتها ميساء:
- أخيرًا وجدتك.. ماذا تفعلين؟
- أبحث عن سكن.. يبدو أن المهمّة أسهل مما توقعت!
- تبحثين عن سكن؟!
لم يكن صوت ميساء هو الذي جاء من ورائها. استدارت البنتان لتجدا أمامهما فتاة ذات ملامح عربية ترسم ابتسامة ودودة وهي تطالعهما. كانت تقارب ياسمين في السنّ ذات خصلات كستنائية ناعمة وقصيرة، تتهادى على كتفيها برشاقة كلّما أمالت رأسها أو دفعت أصابعها لتتخلّل شعرها في حركة لا شعوريّة تداري بها ارتباكها. مدّت كفها لتصافح ياسمين وهي تقول في ودّ تسلل من عينيها العسليّتين ليأسر مخاطبتها على الفور:
- مرحبا أنا رنيم، أقيم بمفردي في شقة متكوّنة من ثلاث غرف: غرفة معيشة إلى جوار مطبخ مفتوح، وغرفتا نوم أستعمل إحداهما. هل تريدين استئجار الثانية؟
طالعتها ياسمين لثوانٍ قليلة، ثم هتفت دون تردّد:
- نعم أريد!
- ممتاز. متى تريدين الانتقال؟
- بعد أسبوعين. عليّ أن أسافر إلى ليون لإنهاء بعض الترتيبات وإحضار أمتعتي و...
قاطعتها رنيم وهي تقول في حماس:
- جيّد. تريدين رؤية الشقة؟
همست ميساء بالقرب من أذنها بلهجة محذرة:
- لن نذهب بمفردنا.. مع هذه الغريبة.
قالت رنيم على الفور وقد تناهت إليها همسات ميساء:
- إن شئت نذهب إلى الوكالة العقارية أولًا، تتفرجين على صور الشقة وتطلعين على العقد.. ثم ترافقنا موظفة من الوكالة لزيارة المبنى. هل يناسبك هذا؟
لم تكن كل منهما تتخيّل أن البحث عن شريك سكن سيكون بتلك البساطة. حين خرجت رنيم ذلك الصباح من شقتها، كانت تفكر في الحلول الممكنة للخروج من أزمتها المالية. تأجير الغرفة الإضافية كان القرار الذي استقرّ عليه رأيها، لكنّه لم يكن خاليًا من الخطورة. أن تُدخل شخصًا غريبًا إلى شقتها وهي فتاة وحيدة لم يكن رأيًا حكيمًا. لم تفكر في نشر إعلان في الجرائد أو على المواقع المخصّصة على الإنترنت، فكلها وسائل معتمدة من قبل المجرمين والسفاحين لتصيّد النساء الوحيدات

واقتناص الضحايا.
اتجهت إلى الجامعة القريبة من مسكنها وفي رأسها فكرة واضحة. ستجد هناك الكثير من الطالبات صغيرات السنّ اللواتي يبحثن عن مسكن لبضعة أشهر، أو ربّما إلى نهاية السّنة الدراسيّة. فهي لا تريد أن يحتلّ المستأجر الغرفة لوقت طويل، إنّما بما يكفي لتغطية عجزها المالي للفترة المقبلة. ثمّ إنّ الطالبات يعدن إلى ديارهن في الإجازات وأحيانًا في نهاية كل أسبوع، ممّا يترك لها الحرية الكاملة في شقتها معظم الوقت.
كانت واثقة من أنها ستجد زبونة جيّدة، فموقع الشقة مناسب جدًّا وعلى مسافة سير لا تتجاوز الدّقائق العشر من الجامعة. كتبت إعلانها وطبعته وقامت بتعليقه منذ الصباح على اللوحة في المدخل، وسرعان ما أقبل عليها الطلبة المهتمون بالشقة. أخذت الكثير من أرقام الهواتف وتحدّثت إلى الكثيرين. وعدتهم بالنّظر في ملفاتهم في نهاية النهار على أن تتّصل بمن يقع عليه الاختيار. لكن حين وقعت عيناها على ياسمين، عرفت أنها قد وجدت ضالتها. فتاة عربية مسلمة؟ ممتاز. يعني أقل ما يمكن من الشغب والتّهريج والأصحاب والسّهرات. كان ذلك انطباعها الأول، أو الحكم الذي أطلقته عليها حين رأت حجابها. في عرفها، الفتاة التي تلبس الحجاب هي فتاة محافظة أكثر من غيرها. وذلك يناسبها.
- تدرسين هنا؟
- لا، أبدًا.. سأبدأ الإعداد لرسالة الدكتوراه الشّهر القادم.. في شركة اتصالات.
- آه.. فهمت.
- ميساء تدرس هنا.. جئت لمرافقتها. وأنت تدرسين هنا؟
- لا، أنا أعمل محامية.
ضحكتا في مرح، ثم قالت رنيم وهي تغمزها:
- يا للصّدفة الغريبة!
بادلتها ياسمين الابتسامة وهي تقول في لهجة جادّة:
- لا أسميها صدفة.. بل قدرًا.

(13)

الفراق

- معنا الخبير في الطاقة البروفيسور سامي كلود. سيّدي هل يمكنك أن تخبرنا عن نتائج التحاليل التي أجريتموها في مكان الحادثة؟

- قمنا بتحليل شامل للغازات المتسرّبة من الانفجار والترسّبات الكربونيّة التي تكوّنت على الشظايا، للتعرف على نوعيّة المواد المتفجّرة ومدى خطورتها على صحّة الإنسان.. وقد تبيّن لنا أنّها من نوعية غير سامّة على الإطلاق ولا تمثل تهديدًا للمحيط الطبيعي أو البشري.

- إذن فقد تمّ تفنيد الشكوك القائمة حول الطابع النووي للانفجار؟

- مواصفات انفجار الأمس كانت شبيهة جدًا بما نعرفه عن الانفجارات النوويّة، مع الاختلاف الشديد في الحجم طبعًا. لكن بما أنّه لم يتمّ العثور على مواد مشعّة في مكان الحادثة، يمكنني القول دون تأكيد بأنّه نوع من التجارب النوويّة محدودة الحجم والأثر، بحيث تتبخّر المواد المشعّة في وقت وجيز إثر الانفجار ويكون الأثر التدميريّ بسيطًا. إذا قارنناها بقنبلة هيروشيما مثلًا، تكون نسبة قوّتها واحدًا إلى مائة ألف. والأمر الثاني الذي تتمّ دراسته حاليًا هو أن تكون مواد مختلفة عن اليورانيوم أو البلوتونيوم -وهي المواد المستعملة عادة في توليد الطلقة النوويّة- قد استخدمت في التجربة.

- يعني أن تلك المواد تمثل نوعًا من الطاقة النظيفة؟!

- ذلك ما ترجّح لدينا وإن كنّا لم نتعرّف بعد على الماهية الدقيقة لتلك المواد. الأبحاث ما زالت متواصلة.

- شكرًا لك سيدي. بناء على هذه النتائج، من المتوقع أن يتمّ رفع حظر التّجول في وسط مدينة ليون ابتداءً من هذا المساء.

لم تحتج ياسمين إلى الاتصال بوالدها لتستعلم عن جديد الوضع في ليون، فقد ظهر ذلك اليوم في كل النشرات الإخبارية يُطمْئن سكان المدينة وزوّارها إلى زوال الخطر. ركبت القطار في اتّجاه العودة بعد أن زارت شقّتها الجديدة ووقّعت عقد الإيجار. تعلم أن كراء شقة باريسية يفوق بمراحل ميزانيتها المتواضعة، لذلك بدا عرض رنيم المحامية مغريًا. ويكفي أنّها ارتاحت لتلك البنت منذ اللحظة الأولى. شيء ما فيها، في نظراتها وروحها، جعلها تشعر بأنها تعرفها منذ زمن بعيد. ذلك الشيء المجهول الذي يجعل غريبين يتآلفان فوريًا دون حاجة إلى معرفة الكثير عن الطرف الآخر.

- كيف كانت الزيارة؟

سألتها والدتها على الهاتف في لهفة.كانت مستلقية على سريرها في غرفة المكتب في منزل والدها في ليون. أمسكت الهاتف كعادتها كل ليلة لتحدّثها عن أحداث يومها. لم تسمع صوتها منذ يومين، منذ بشرتها بشكل سريع بقبولها في الشركة، وقد حان موعد التفاصيل.

- رائعة.. أمضيت وقتًا ممتعًا مع ميساء والخالة زهور.كانتا متشوقتين جدًا لمعرفة جميع الأخبار.

- و... هيثم؟
تعجبت ياسمين من لهجة والدتها الغامضة وسألتها في شك:
- ماذا عن هيثم؟
- هل رأيته؟ كيف بدا لك؟
- لم أره كثيرًا، كان في عمله طيلة النهار وفي غرفته طيلة المساء.
- طيّب.. هذا كل شيء؟
- ما الأمر؟ ماذا قالت لك خالتي زهور؟
ضحكت فاطمة وقد أدركت أنّ أمرها قد كشف. لم تكن تتقن المواربة:
- لم أرد أن أفاتحك في الموضوع قبل أن تستقري في عملك وتنهي ترتيبات الانتقال.
- أيّ موضوع؟
تسرّب الفضول إلى ياسمين وقد اشتمّت رائحة مؤامرة تحاك بين أمّها وخالتها زهور.
- زهور اتصلت بي هذا الصباح وحدّثتني بشأنك.
بشأني؟! كتمت ياسمين أنفاسها وانتظرت تتمّة الجملة التي سمّرتها مكانها:
- تريد أن تخطبك لهيثم.
سكتت فاطمة لعلها تستشفّ ردّة فعل في صوت ياسمين، لكنّ هذه الأخيرة لم تعلق. هل كان صمتها حياء أم دهشة أم صدمة؟ لم تكن تسمع سوى صدى أنفاسها المضطربة. واصلت فاطمة:
- طلبت منها أن تنتظر قليلا ريثما تنتقلين إلى باريس وتشرعين في العمل.. ثم أجسّ نبضك.
ابتسمت ياسمين وهمست:
- لكنك لم تنتظري.
ضحكت فاطمة وهي تقول:
- لم أستطع الانتظار.
قالت بعد لحظات بلهجة جادّة:
- تعلمين، حين تركتك تسافرين إلى ليون كنت مطمئنة إلى وجودك مع والدك وعائلته. لم أحسب حسابًا لإقامتك وحدك في باريس.. لذلك أريد أن أطمئن إلى راحتك وحمايتك.
- لست بحاجة إلى خطبة وزواج لأشعر بالأمان. المبنى الذي سأقيم فيه يقع في حيّ راقٍ وآمن. جميع المداخل مزوّدة بكاميرا مراقبة. المدخل الأول يفتح برقم سريّ والمدخل الثاني يحتاج إلى بطاقة ممغنطة.. كما أنني لا أقيم وحيدة في الشقة. يعني اطمئني يا أمي، سأكون بخير إن شاء الله.
- طيّب. لكن هذا لا ينفي أنّ هيثم شاب ممتاز ومناسب لك.
سكتت ياسمين ولم تعلق، فواصلت فاطمة في هدوء ورقة:

- خذي وقتك وتعرّفي عليه. إلا إذا..كان هناك شخص آخر يشغل تفكيرك؟
ارتبكت ياسمين وتلعثمت وهي تقول بسرعة:
- لا.. أبدًا.. ليس الأمر كذلك.
لا يمكنها أن تدّعي وجود شخص آخر في حياتها. ذلك الغريب، ماذا يكون بالنسبة إليها؟ وماذا تمثل هي بالنّسبة إليه؟ أصبحت تلك التساؤلات ملحّة أكثر من أيّ وقت مضى وأصبح عليها أن تجد لها إجابات سريعة. لم تتعوّد أن تخفي شيئًا عن والدتها التي كانت على الدّوام أقرب صديقاتها، وإخفاؤها لتلك القصة بالذات كان دليلًا على وجود لبس ما، أغمضت عينيها عنه طويلًا. أصبحت وخزات ضميرها المتكرّرة تدعوها إلى توضيح الشكّ الذي يحوم حول تلك العلاقة حتى تكون صادقة مع نفسها قبل كل شيء.
- إذن تتعرفين عليه؟
تنهّدت في تسليم وهي تهمس:
- دعيني أفكر.

****

فتح عمر عينيه ببطء وراح يستعيد وعيه تدريجيًا. قبل أن يبصر شيئًا من حوله عاد ليغمض جفنيه بقوّة مع موجة الألم العنيفة التي اجتاحت جسده وغطّت على كل حواسّه. تصلبت عضلاته وهو يحاول أن يصرخ بكل قوّته، لكنّ الصّوت لم يخرج من حلقه. كان شخير مرعب يتسرّب من ثقب في وسط عنقه. راح جسده ينتفض من الفزع والعذاب، كأنّ عددًا هائلًا من المسامير المنتشرة على جسمه تدقّ عظامه بقوّة وعمق حتّى النّخاع. حاول أن يحرّك أطرافه ليقاوم الألم لكنّها لم تستجب، بل أخذ جسده يتخبط كالذبيحة مشدودة الوثاق.
وسط عاصفة الألم الجارفة أخذ عقله يسترجع دون وعي اللحظات الأخيرة العالقة بذاكرته. كانت الدنيا تشتعل من حوله والنار تلتهم كلّ شيء. حمم حارقة أحاطت به من كل جانب، التهمت ثيابه وغزت جلده فالتهب دفعة واحدة. ردّد الشهادتين مرّات عدّة في داخله، حتى تكون آخر ما يرد على لسانه قبل أن يصير من أهل العالم الآخر، فقد أدرك أنها النهاية لا محالة. ثم اختفى إحساسه بما حوله كليًّا.
لم يكن يدرك أين يكون. هل هو حيّ أم ميت. لكن الألم هو الشيء الوحيد الطاغي على كلّ ما عداه. ربما يكون عذاب القبر.. لتقصير في عباداته، ولخطايا ارتكبها في وقت غفلة حسبها هيّنة وشأنها عند الله عظيم. سالت العبرات حارة على وجنتيه، فلسعته ملوحتها في منطقة بين الجلد والعظم. ربما كان ليتمنّى الموت والراحة الأبدية في حال كان على قيد الحياة. لكن أين المفرّ من عذاب الخلود؟ سأل الرّحمة من رب العالمين بلسان ثقيل مرهق. طلبها بكل جوارحه التي فاق عذابها قدرة تحمّله، وبكل ما يحمله قلبه من إيمان.
فجأة، أحسّ بتيار بارد يتسلل إلى خلاياه ويتدفّق خلالها بقوّة حتى غطّى على احتراقها وجعل الألم يتلاشى ويتبخر بشكل لا يُصدّق. حين استكانت أطرافه لذلك الخدر اللذيذ الذي لفّ جهازه العصبي ونشر في جسده راحة غريبة ظنّها أملًا بعيد المنال، حينها فقط فتح عينيه من جديد. للحظات ظل يحدّق في الأشياء التي تحيط به في دهشة ممزوجة بالفرح. لم يكن في قبره أو

في غرفة تعذيب ما. كان في فضاء يشبه غرف المستشفيات، بأجهزتها الدّقيقة والبياض الذي يلفها.
- تهانينا على سلامتك.
التفت إلى مصدر الصّوت الذي باغته. كانت ممرّضة تقف إلى جواره بمعطفها وقبعتها الأبيضين، وابتسامة مطمئنة على شفتيها. كانت تمسك إبرة في يدها وهي تقول:
- لقد أعطيتك حقنة مخدّرة ليهدأ الألم. سأقوم بتجديدها كل اثنتي عشرة ساعة حتى موعد العملية الجديدة.
كانت تلك يد الرحمة التي امتدّت من العدم لتوقف عذابه الجارف. حاول أن يتكلم. أن يستفسر عن حالته. أين يكون وكيف وصل إلى هناك. لكنه فوجئ بالصّفير المزعج الذي خرج من الثقب.. الثقب الذي في عنقه. لم يكن كابوسًا. لم يكن خيالًا. الثقب موجود. كان ينتبه للتوّ إلى الأنبوب الممتدّ الذي يخرج من عنقه ويصدر فحيحًا خافتًا مع كل نفس يدخل صدره أو يفلت منه.
- لا يمكنك الكلام الآن. هذا الأنبوب يمّكنك من التنفس في الوقت الحالي.
كان يكتشف ما حلّ بجسده بعينين زائغتين. اللفافات البيضاء كانت تغطي جذعه وذراعيه وساقيه وقد ربط من أربع إلى هيكل معدني يعلو السرير الذي يتمدّد فوقه، بشكل يشلّ حركة أطرافه تمامًا. أنبوب السائل المغذي الذي يصبّ في وريده، وبقية الأجهزة المعقّدة التي تراقب نبضات قلبه وضغطه ونسبة الأكسجين في دمه.. واصلت الممرضة شرحها:
- أربعة ضلوع مكسورة وحروق من الدرجة الثالثة والرابعة تنتشر في أماكن مختلفة على جسدك. علاجها سيكون طويلًا ومرهقًا. من حسن حظك أنك حميت وجهك من الانفجار فأنقذته من التّشويه.
أضافت وهي تنهي تدوين جرعات الدواء التي حقنته إياها للتوّ على الملف المعلق في طرف سريره:
- سأكون هنا، عند الطرف الآخر من الغرفة.
تحرّك رأسه في بطء وحذر متابعًا حركة ذراعها. هناك حيث أشارت، رأى الفاصل الزجاجيّ الذي يقسم الغرفة إلى مساحتين غير متساوية الأبعاد. على الجانب الآخر، كانت أسرّة متجاورة لمرضى العناية المركّزة الآخرين، في حين انزوى سريره وحيدًا في ذلك القسم الانفراديّ.
حين أصبح وحده في الغرفة الهادئة، استسلم لبكاء صامت. أخذ صدره يعلو ويهبط بشكل مضطرب مع انهمار دموعه التي لم يعد يشعر بحرارتها بفعل المخدّر. حمد الله في نفسه على نجاته. كانت تجربة الموت امتحانًا عسيرًا. ارتجف قلبه بين ضلوعه مع ذكر تلك الآلام المبرحة التي أنهكته منذ بضعة دقائق، وخطرت بباله الآية:
{قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَراًّ لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُوْنَ}.
تعالت شهقاته المكبوتة في لوعة. نار جنّهم أشدّ حرًا من كل ما أصابه. كيف لبشر أن يتحمّلها؟ يا ربّ رحمتك. مرّت بذاكرته صورة المحتفلين في غرفة الاستراحة، فارتعدت أوصاله من جديد. هل حالفهم الحظ بالنجاة أيضًا؟ أم كانوا حطبًا لنار الدّنيا قبل جهنّم؟

****

زرعتْ حلمًا وتعهدته بالرّعاية. نما بين جنبيها حتى صار جزءًا منها، ومن قلبها. تركته يكبر وتمتدّ جذوره في كيانها حتى

أنساها طبع الأحلام المتمرّد. نسيت أنها تضيع وتتبخر حالما تتسرّب خيوط الصّبح الأولى. نسيت أنها تذهب مع نسمات الفجر حالما يغادر النّعاس أجفانها.

جلست ياسمين في عربة المترو وفي عينيها استسلام حزين. كانت حقائبها جاهزة في غرفتها. أنهت جميع استعداداتها وهي متأهّبة للسّفر بعد الظهر. لكنّها استيقظت باكرًا ذلك الصباح، اختارت كتابًا على الرّف وضعته في حقيبتها وخرجت. أخبرت إيلين التي استوقفتها عند الباب أنّها ذاهبة إلى مدرسة الحاسب لتتسلم شهادتها. لم يكن إلا عذرًا واهيًا. كان بإمكانها أن تتسلمها عبر البريد، لكنها أصرّت على الخروج ذلك الصباح. لتركب مترو ليون، ربما للمرّة الأخيرة.

كانت تجلس في نفس المكان منذ زمن. لم تغادر العربة حين وصل المترو المحطة النّهائية. انتظرت أن تخلو العربات من الركاب، ثم يغيّر المترو اتجاهه ويمتلئ من جديد. مرّت أمام محطتها مرّات عديدة ذهابًا وإيابًا لكنّها لم تنزل. لم تكن تقرأ كتابًا مثل عادتها. لم تكن تطالع وجوه المسافرين. لم تكن تبحث عن شخص ما. كانت تجلس في استرخاء وخواء داخليّ يغمرها.

حين صعدت في البداية، أخذت تترّقب وصولها للمحطة الّتي يركب منها ذلك الغريب. انتظرت في شوق ونفاد صبر. لكنّ أبواب المترو أغلقت وابتعد المترو عن المحطة دون أن ترى ملامحه بين الوجوه. لم تر خياله يتقدّم، ثم يقترب منها كالعادة وفي عينيه نفس الابتسامة الغامضة. لم يكن هناك. بحثت عنه بنظراتها في العربة كلها، لعله صعد من باب آخر. ثم غيّرت العربة مرّة إثر المرّة لتبحث عنه في كل المترو. لكنه لم يكن هناك. لم يكن بينهما غير ذلك الموعد الضمنيّ كل صباح على الساعة الثامنة، الموعد الذي تخلفت هي عنه لعدّة أيام مضت. حتى أنه لم يعد ينتظر ظهورها؟

قد يكون ركب المترو السابق أو التالي، أو لم يركب المترو ذلك اليوم. لم يعد ذلك مهمًّا بعد الآن. كانت تلك فرصتها الوحيدة والأخيرة لتراه، لتعتذر عن غيابها، لتسأله عن اسمه وسنّه وعمله و... لماذا لم تطرح كل تلك الأسئلة البسيطة من قبل؟ تساءلت في حسرة وألم. كان بإمكانها أن تحصل على كل المعلومات التي تخصّه بعفويّة وسهولة. وأن تحدّثه عن نفسها أيضًا. لكنهما اختارا أن تكونا لقاءاتهما على تكرارها للفكر والعقل وحسب. وكتب لها أن تضل كذلك، إلى الأبد.

(14)

لا تختبر صبري!

وقفت فوق الكرسيّ على أطراف أصابعها ومدّت ذراعيها لتقوم بتثبيت ورق الجدران على الجانب العلويّ من الجدار، في حين جلست ميساء على الأرض وراحت تقصّ قطع الورق حسب الأبعاد المطلوبة. هتفت وهي تقف وتقترب من ياسمين:

- القطعة الأخيرة.

بعد لحظات، كانت ياسمين تنزل من موقعها الشاهق وهي تنفض كفيها علامة الانتهاء. ابتسمتا وهما تبتعدان لبضع خطوات وتطالعان في تفحص عملهما. هتفت ميساء في سرور:

- ممتاز.

في حين زوت ياسمين ما بين حاجبيها وهي تدقق النظر:

- الجانب العلوي يميل إلى اليمين أكثر من اللازم. ألا تجدين ذلك؟

دفعتها ميساء في احتجاج في اتجاه السرير وهي تضحك:

- قلت انتهينا. والنتيجة ممتازة. لن نعيد العمل الآن.

في تلك اللحظة، سمعتا باب الشقة يفتح ولمحتا رنيم عبر فرجة باب الغرفة نصف المفتوح، وهي تتمايل بخطواتها الرّشيقة، حاملة أكياسًا مليئة بالمشتريات.

- مرحبًا يا بنات!

حيّتهما في مرح وهي تلوّح بكفها قبل أن تختفي داخل غرفتها. همست ميساء في قلق:

- أنتِ واثقة من اتخاذك القرار الصواب؟ ألا ترين أنّك تسرعت قليلًا بانتقالك إلى هنا؟

- لماذا؟ ألا يعجبك المكان؟

اقتربت منها ميساء أكثر وقالت بصوت أكثر خفوتًا:

- بل ما يقلقني هو صاحبة المكان. لم أرتح إليها.

- ما بالها رنيم؟ تبدو طيّبة.

- طيبة؟ ألا تلاحظين نظراتها المتعالية، ومشيتها المليئة بالخيلاء؟ ثم طريقة لباسها المتفسخة، وتسريحة شعرها المستهترة، وأصباغ وجهها الصّارخة.

سكتت ياسمين للحظات ثم همست بدورها:

- ربما كان مظهرها يوحي بذلك بالفعل. لكن بداخلها روحًا طيبة.

- تلك طيبتك أنت يا عزيزتي، تريك الطيبة في الجميع!

ابتسمت ياسمين ولم تعلّق. ربّما كانت ساذجة في نظر الكثيرين، تثق في حدسها حين يتعلّق الأمر بتقييم المعدن البشريّ. تُستغلّ أحيانًا أو تسمح للآخرين باستغلالها عن طيب خاطر. فيها طيبة أصيلة تجعلها ترى الخير فيمن حولها وتستفزُه في دواخلهم. حتّى حين يخيب ظنّها لا يراودها النّدم. فحسن الظنّ خير من سوئه، والإثم الذي ينجرّ عن الثّاني يغلب الأذى الذي قد يتأتّى من الأوّل. أحيانًا تتساءل حقًّا إن كانت قد تجاوزت حدود الطيبة وتوغّلت في مجال السّذاجة. لكنّها تأبى مراجعة خطّ سيرها. يكفيها أن تضع رأسها على الوسادة مساء وهي راضية مرتاحة البال، ليس في قلبها ضغينة على أحد.

- حسن، افعلي ما شئتِ. يجب أن أذهب الآن. أمّي تحتاجني في المطبخ.

قالت ميساء ذلك وهي تتجاوز باب الغرفة. أضافت حين أصبحت في مستوى باب الشقة:

- لا تنسي العشاء الليلة.

قبل أن تنطق ياسمين بكلمة واحدة، كان الباب الخارجي يغلق وتختفي وراءه ميساء. تنهّدت في ضيق وهي تستلقي على سريرها وتحتضن وسادتها. عشاء في بيت الخالة زهور؟ لم تكن قد ذهبت إلى هناك بعد عودتها من ليون هذه المرّة. أحضرت حقائبها وجاءت على الفور إلى شقتها الجديدة. اتّصلت بميساء التي هبّت لمساعدتها دون تفكير. كانت تنضمّ إليها بعد حصّة الجامعة الصّباحية وتقضي معها بقية النهار. تتناولان الغداء وتخططان لأعمال اليوم. مضت أيامها الأولى في باريس بين التّسوق والأشغال حتى أنهت ترتيب الغرفة. كلما دعتها ميساء لقضاء الليلة في منزل العائلة، تعذرت بالحقائب والتحضيرات. لكنها اليوم انتهت من كل شيء، ولم يعد بإمكانها التّهرب من دعوة العشاء. منذ عرفت بنوايا زهور تجاهها أصبح حرجها كبيرًا. لا شك أنّها تحدّثت إلى والدتها مؤخرًا وعلمت منها أنها "جسّت نبضها" وأصبحت على علم بالمخطط. حتى ميساء، رغم أنها لم تصرّح لها بشيء لكنها تلمح في نظراتها وحركاتها بعض التلميحات الخفيّة. فكيف تذهب إلى المصيدة المعدّة من أجلها بقدميها؟ وهل يسعها أن تتخلّف؟

****

في الغرفة المجاورة، كانت رنيم تعاين مشترياتها الجديدة. انتقت الفستان الذي سترتديه في الغد ووضعته بعناية فوق الكرسي تمهيدًا لعمليّة القياس المغرية، ثمّ أتمّت ترتيب بقيّة الحاجيات في الخزانة. ابتسمت في رضا وهي تتبختر أمام مرآتها مثل عارضات الأزياء، تقطع مساحة غرفتها جيئة وذهابًا في خطوات مدروسة ناعمة ومسيطرة، ثمّ تتوقّف مجدّدًا عند صورتها وتتأمل هيئتها الأنيقة. غدًا سيكون أوّل أيّامها في مكتبها الجديد. تعمل على إحكام مقوّمات "الانطباع الأوّل". الشكل، الابتسامة، الثقة. فجأة، أحسّت بوخز مؤلم تحت قفصها الصّدريّ. انحنت قامتها وكفها تشدّ على موضع الألم. قطعت الخطوات القليلة التي تفصلها عن سريرها في بطء، واستلقت على المرتبة. استرخت، أغمضت عينيها وأخذت تتنفس بعمق وهي تحسّ بالوجع يتضاءل حتى تلاشى تمامًا بعد بضعة دقائق.

أرهقت نفسها كثيرًا في الفترة الأخيرة وضربت بكل توصيات الطبيب عرض الحائط. كانت تريد أن تنسى آلام قلبها فشغلت نفسها بالتسوّق وتأثيث الشقة والمشاوير المتكرّرة، ولم تعط جسدها الوقت الكافي للنّقاهة التامّة. لم تكن تريد أن تنفرد بنفسها وأفكارها فتعود الذكريات المؤلمة لتطفو على السطح. لكنّ كل مجهوداتها كانت تذهب هباء حين تنهك جسدها فيغلبها الألم الذي يذكرها بعمليتها الجراحية وكليتها المفقودة. اندفعت العبرات لتغرق وجهها في بكاء صامت. كان يجب أن تلفظ تلك الأوجاع

التي تنخرها من الدّاخل.

ابتسمت بين دموعها وآلامها. كانت تحقّق رقمًا قياسيًا جديدًا. لم تبك قدرها الأليم منذ أسبوع كامل. جيّد يا رنيم، أنتِ تسيرين على المسار الصحيح. حين تبدئين العمل وتشغلين كل وقتك به لن يتسلل إليك شبح ميشال روسو مجدّدًا. فقد كانت بعض القضايا تسكنها ليلًا ونهارًا حتى تستبد بأحلامها. تعلم ذلك من منطلق تجربتها السابقة في العمل مع ميشال. ميشال.. بدا اسمه غريبًا على شفتيها في تلك اللحظات. وقريبًا سيصبح جزءًا من الماضي البعيد.. قريبًا جدًّا.

****

جلست ياسمين إلى جانب ميساء على الأريكة العريضة وأخذتا تلتهمان الفشار في نهم وتتابعان شريطًا بوليسيًا على الشاشة في تركيز وانسجام. استرخت ملامحها ونسيت توترها الذي لم يكن له داعٍ طيلة العشاء. لم يظهر هيثم كعادته على المائدة، بل بدا أنه لم يكن في البيت أصلًا. وخالتها زهور لم تتلفظ بكلمة واحدة بخصوص الموضوع. بإمكانها إذن أن تستمتع بوقتها دون أن تعكر تلك المسألة صفوها، إلى أجل ما.

انتبهت حين تناهى إليها صوت الباب الخارجي وهو يُفتح، تليه خطوات متثاقلة تعبر الممرّ. لم يكن لديها أدنى شك في هويّة القادم. وقفت زهور على الفور وفي عينيها نظرة مستاءة وانضمّت إلى هيثم في المدخل، في حين ثبّتت ياسمين عينيها على الشاشة متظاهرة بعدم الاهتمام، لكنّ ضربات قلبها كانت تتسارع بشكل مضطرب. لماذا كل هذا القلق؟ وماذا لو رأته؟ هل يحسبها وقاحة منها أن تزورهم في بيتهم وهي تعلم برغبته في خطبتها؟ غاصت في مقعدها في حرج وقد أخذ جبينها يتفصّد عرقًا. ميّزت بمشقة صوت زهور الهامس:

- هل تناولت طعام العشاء؟
- نعم، كنت في المطعم مع بعض الأصدقاء.
- ألم أطلب منك أن ترجع باكرًا هذا المساء؟

خفتت الأصوات تدريجيًا وحلت مكانها همهمات مكتومة، ولم تنتبه ياسمين إلا حين لمحت هيثم بطرف عينها يدخل القاعة بهدوء ويلقي التحية. جلس في الطرف الآخر من الغرفة على أريكة منفردة دون أن يضيف كلمة واحدة. أطرقت ياسمين في إحراج وحبست أنفاسها. كان صمت مرتبك قد سيطر على الجلوس ولم يعد يسمع غير صوت التليفزيون. بعد دقيقتين، أحسّت ياسمين بهمهمة خافتة، سمعت بعد حين صوت العم عبد الحميد وهو يقوم وجريدته في يده:

- اعذروني.. أنا متعب. أظنني سآوي إلى الفراش.

بعد بضع لحظات، سمعت نفس الهمهمة تتكرّر، بعدها همست ميساء وهي تتوجّه إلى المطبخ:

- سأقوم بغسل الأواني.

هتفت ياسمين وهي تهمّ بالانضمام إليها:

- أساعدك؟

لكن كفّ زهور قبضت على ذراعها بسرعة وهي تقول مستبقية إياها:

- لا داعي.. الأواني ليست كثيرة، ستفرغ منها بسرعة. ارتاحي أنت.

بادلتها الابتسامة في توجّس. لم تمض دقيقة واحدة، حتى وقفت زهور بدورها وهي تقول:

- سأصنع بعض الشاي.. من منكما يريد قدحًا؟

"منكما"؟ تلفّتت ياسمين حولها في ارتباك لتكتشف أنه لم يعد هناك في الغرفة غيرها.. وهيثم. هكذا إذن. كانت خطّة مقصودة سعى أفراد العائلة إلى تحقيقها حتى تجد نفسها معه، وحدها. مرّت لحظات من الصّمت المتوتر بينهما بعد أن غادرت زهور. كانت تسمع قرقعة الصحون التي تغسلها ميساء وغليان الشاي الذي تحضّره زهور.. وصوت أنفاسها المضطربة. جاء صوته أخيرًا من الطرف الآخر من القاعة.

- إذن تحضرين رسالة الدكتوراه؟

هزّت رأسها علامة الموافقة دون أن تتكلم. فأردف:

- في أي مجال؟

همست بصوت حييّ خافت:

- علم الاجتماع.

ردّ في برود ظاهر:

- آه.. هل اخترتِ تخصّصًا أدبيًا لأنك لم تكوني متفوقة في العلوم الصّحيحة؟

رفعت رأسها في دهشة وقد صدمها سؤاله. قالت في تماسك:

- ليس الأمر كذلك. أنا أرفض التّمشي الذي يفرض على الطلبة المتفوقين اتباع التخصّصات العلمية، وعلى الطلبة الأقل تفوقًا التخصّصات الأدبية. كل طالب يجب أن يختار تخصّصه حسب قناعاته وميوله دون أن يجعل نظرة المجتمع وأفكاره المسبقة تحدّد توجّهاته.

هزّ رأسه مؤيدًا، لكنه ما لبث أن قال متظاهرًا باللا مبالاة:

- رأي معقول.. لكنني صراحة أفضّل التعامل مع أصحاب الميول العلميّة، لأنهم يكونون أكثر عقلانية لتعوّدهم على التحليلات المنطقية التي ترتكز عليها العلوم الصّحيحة.

غصبًا عنها كان مستوى الحوار يسير نحو الحدّة.

- ربّما تكون أغفلت أن علم المنطق من العلوم الأساسية التي يتناولها طلاب التخصّصات الأدبية؟

- طبعًا.. طبعًا.

قال ذلك وهو يمط شفتيه في استهانة وكأنه يماشيها في رأيها، حركة رأت فيها الكثير من التكبر والاستعلاء. هل يقصد استفزازها؟ لم تكن تصرّفاته تحمل معنى آخر، لأنها كانت خالية من الذوق.

- وما هو موضوع البحث؟

- ظاهرة الانتحار في موقع العمل.

ردّت في فتور، لكنها فوجئت به وهو يضحك في سخرية:

- الانتحار؟ وهل يستحق ذلك بحثًا وتمحيصًا لسنوات عدّة؟ الأسباب: غياب الوازع الديني. الحلول: الرجوع إلى الدين. انتهى

البحث.

عضّت على شفتها السفلى في قهر. كان لديها كلام كثير لتقوله، إنّ البحث يجب أن يكون متماشيًا مع خصائص المجتمع. إنّ تحليل الأسباب وتقديم الحلول يجب أن يخاطب عقل المتلقي ويقنعه حتى يكون ناجعًا. إن تقديم الدين كحل في مجتمع يعمّ فيه الإلحاد سيعرّضها للسخرية ويؤكد لدى رئيسها كل الأحكام المسبقة التي يوحي بها شكلها و... أشياء كثيرة أخرى. كانت تحاول ترتيب أفكارها، لكن استمرار صمتها أشعرها بالعجز، وأشعره بالتفوّق لا محالة.

- ما هي مشاريعك بعد الدكتوراه؟ تريدين العودة إلى تونس؟

فوجئت بتغييره للموضوع، لكنها كتمت غيظها وأجابت:

- نعم، أعتقد ذلك.. لا نية لي في الإقامة في فرنسا على المدى الطويل.

- لم تعجبك باريس؟

تردّدت للحظات:

- أقمت في ليون قرابة الشهر.. وباريس لم آتها إلا منذ أسبوع. المدينة تبدو جميلة.. لكنّ المجتمع كثير التعقيد. لم أنجح في الحصول على تمويل للدكتوراه إلا بمشقة. إضافة إلى غربة البلد أستشعر غربة الروح.. وأشك في أن الأمور ستتحسّن مع الوقت. لذلك لا أنوي الإطالة.

استمع إليها في انتباه، ثم ارتسمت على شفتيه ابتسامة مستفزة:

- إذن تشكين في قدرتك على الاندماج في المجتمع الفرنسي؟

ظنت للحظات أنه تخلى عن طريقته الفجّة، لكنها كانت مخطئة. ردّت في تحفز:

- ليست لي نيّة بالاندماج. الاندماج يعني التخلي عن الهوية والمبادئ والذوبان في المجتمع حتى يتقبلني الآخرون. وهذا لا يناسبني.

- إذن تعتقدين أننا تخلينا جميعًا عن هويّتنا ومبادئنا حتى يتقبّلنا المجتمع؟ أمي، أبي، ميساء؟

يتعمّد محاصرتها بأسئلة حادّة ومحرجة. هل هذا هو أسلوبه في "التعارف"؟ تنهّدت وهي ترسم ابتسامة على شفتيها وتقول في هدوء:

- خالتي زهور وعمي عبد الحميد كانا موفّقين، وأنا أقدّر فيهما قوّة الشخصية والحرص على حسن توجيه أولادهما رغم الصّعوبات.. وأعتقد أنهما وفّقا.. إلى حدّ ما.

قالت عبارتها الأخيرة بلهجة خاصّة لم يغفل هو عن معناها. واصلت بعد صمت قصير:

- لكنّ هذا النّجاح ليس عامًّا، وهناك شواهد كثيرة على النتيجة المعاكسة. وأصبح من الصّعب السيطرة على ما يبثه المحيط المباشر، ابتداءً من المدرسة من سموم في نفوس الأطفال النقيّة.

تجاهل تلميحها السّابق وقال ببرود:

- إذن تعترفين بأنك لا تثقين في قدرتك على تحقيق توازن نفسيّ في المجتمع الفرنسيّ؟

لم تعد تحتمل أسلوبه الغريب الذي لم تكن تدري سببه. هل يعقل أن يكون وقحًا بطبعه؟ أجابت بلهجة قاطعة وفي نفسها رغبة

بإيقاف ذلك الحوار السّخيف.

- نعم، أعترف.

كانت نظرة التّحدّي في عينيها مناقضة لعبارتها. ابتسم ولم يجب على الفور. رفع نظراته ليلمح والدته وهي تحمل طبق الشاي وتمشي على مهل في اتجاههما. وقف في هدوء وهو يقول بصوت وصل إلى مسامع زهور:

- أظنّ أننا نختلف في أمور كثيرة.

أجابت ياسمين في ثقة وهي تهزّ رأسها موافقة:

- لا أعتقد أننا نتفق على شيء أكثر من اتفاقنا على هذه النقطة.

نقلت زهور نظراتها بينهما في دهشة وهي تضع الطبق على المائدة المنخفضة. في حين هزّ هيثم كتفيه في استهانة وابتعد في اتجاه غرفته، وكأنّه قد حقق نصرًا ما. أمّا ياسمين فإنّها رسمت ابتسامة هشّة على شفتيها متظاهرة باللا مبالاة، في حين كانت تغلي في داخلها.

- تريدين بعض الشاي؟

لمست التردّد والقلق في صوت زهور وهي تمدّ إليها كوبًا. أخذته منها شاكرة، لكنّ مقاومتها كانت آخذة في الانهيار. أخذت بضع رشفات ثم وقفت معتذرة. دخلت غرفة ميساء وارتمت على السرير لتطلق العنان لدموعها. لم تشعر بالإهانة من قبل أكثر ممّا أحسّت بها اليوم. سامحك الله يا أمي! سامحك الله يا خالتي زهور! إذا كان الرجل غير مهتمّ، فلماذا تضعانني في هذا الموقف المحرج؟

(15)

القضية

جلس جورج برنار إلى مكتبه وانهمك في مطالعة بعض الأوراق في اهتمام، لكنّ تركيزه كان يعود بسرعة إلى المكالمة الهاتفيّة الغريبة التي وصلته باكرًا ذلك الصباح. كان ينتظر بفارغ الصبر أن تصل شريكته في مكتب المحاماة فيفيان مونغومري حتى يحدّثها بشأنها. على السّاعة التاسعة تمامًا، سمع دقات موقعة على باب مكتبه ثم أطلت فيفيان برأسها لتلقي التحية. ابتسم وهو يناديها في حماس ظاهر:

- فيفيان، تعالي.. يجب أن نتحدث.

ألقت نظرة على ساعتها وهي تقول بسرعة:

- لا يجب أن أتأخر عن المحكمة، مرافعتي تبدأ بعد نصف ساعة.

- لن أؤخرك كثيرًا. هناك أمر هامّ يجب أن نناقشه.

اقتربت حتى وصلت أمام مكتبه العريض. وضعت حقيبة يد مثقلة بالملفات وجلست قبالته. بادرها على الفور:

- مكتب المدّعي العام اتّصل هذا الصباح، وعرض علينا قضية جديدة.

هزّت فيفيان رأسها متابعة. حتى الآن لم يكن هناك شيء غريب. المدّعي العام يتّصل باستمرار ليعرض عليهم قضايا وعلى غيرهم من مكاتب المحاماة، حين يكون المتّهم غير قادر على توكيل محامٍ بنفسه.

- هل تعلمين أي قضية هي؟

هزّت رأسها نافية. لم تكن قد سمعت عن قضية مميّزة مؤخرًا في دائرة باريس لتكون جديرة بشدّ انتباهها.

- الحادثة التي حصلت في ليون، الانفجار العظيم في شركة الكيميائيات.

قالت في دهشة:

- حقًا؟! لكنّها تابعة لدائرة ليون القضائيّة، فلماذا يريد منّا المرافعة فيها؟

شبك ذراعيه أمام صدره وهو يقول في فخر من بحوزته أخبار هامّة وحصريّة:

- سيتمّ نقلها قريبًا إلى دائرة باريس. رئيس الجمهورية بنفسه طلب ذلك، حتى تنظر فيها المحكمة المختّصة في الإرهاب.. وحتّى يتمكّن من متابعة المستجدات فيها عن كثب.

- رئيس الجمهورية؟

- نعم، هناك اعتقادات شبه أكيدة بأن خليّة إرهابيّة كانت وراء الحادثة، والشاب المتّهم كان المنفّذ.

- دعني أحزر.. المدّعي العام يطلب منّا تمثيل الإرهابي؟ إنها قضية خاسرة لا محالة!

أخذ جورج يحرّك كرسيه الدوّار يمنة ويسرة في تفكير ثم قال:

- قد تكون قضيّة خاسرة، لكنها دعاية مجّانية لنا بالتأكيد. القضية ستتمّ متابعتها من قِبَل وسائل الإعلام، وسنحصل على لقاءات تليفزيونية عديدة. سنصبح من المشهورين يا عزيزتي.

سكتت فيفيان للحظات ثم سألت في شكّ:

- هل ترافع أنت في القضية؟

قال في حذر:

- فكرت أنّك الشخص المناسب.

وقفت في استياء وهي تهتف:

- كنت أعلم أنك ستضع العبء عليّ.

حاول تهدئتها:

- أي عبء يا عزيزتي؟! إنّه المجد. إنّها الشهرة! أمّا البحث والتقصي وإعداد المرافعات، فهناك شخص آخر مناسب لها.

- من تقصد؟

ارتفع في تلك اللحظة رنين هاتف مكتبه. رفع السّماعة مبتسمًا دون أن يردّ على فيفيان. جاءه صوت السكريتيرة الخاصّة وهي تقول:

- الآنسة رنيم شاكر وصلت.

- دعيها تدخل.

وضع السماعة وقال مخاطبًا فيفيان:

- الشخص المناسب وصل للتوّ.

كانت قضية خطرة، وقبولها مجازفة حقيقيّة. بإمكانها أن تأخذهم إلى شهرة ساحقة، كما يمكنها أن تلوّث اسم المكتب وترسله إلى الحضيض. لم يكن يريد أن يورّط اسمه في الأمر حماية لمستقبله المهنيّ. لذلك يستخدم فيفيان مونغومري والمحامية الجديدة التي تبدأ عملها اليوم في المكتب، رنيم. كان توقيت انضمامها ممتازاً.

****

أدارت رنيم المفتاح في القفل ودفعت الباب برفق. خطت إلى داخل الشّقة ورمت بحقيبة يدها وفردتي حذائها بصفة عشوائية، قبل أن ترتمي على الأريكة التي تحتلّ القسم الأعظم من غرفة الجلوس.

- مرحبًا.

استدارت في فزع وهي تضع كفها على صدرها حين جاءها صوت ياسمين من المطبخ.

- أنت هنا؟

ابتسمت ياسمين في اعتذار وهي تتقدّم نحوها، وبيدها إبريق شاي تفوح منه رائحة الأعشاب الطبيعيّة.

- لم أرد أن أفزعك. تريدين بعض الشاي؟

هزّت رنيم رأسها موافقة، فأحضرت ياسمين كأسين وصحن كعك انتهت من صنعه للتوّ وجلست إلى جانبها. أخذت تملأ

الكؤوس بحركة محترفة وهي تقول:

- تبدين متعبة. كيف كان يومك الأوّل؟

تنهّدت رنيم وهي تلتقط قطعة كعك وتقضم منها في شراهة.

- سترين حين تبدئين العمل.. اليوم الأول ينقضي في ملء الاستمارات وتوقيع العقود ومختلف الأمور الإدارية المملة والمرهقة.

أشارت إلى الكعكة ورفعت إبهامها في استحسان ثم أضافت وقد التمعت عيناها بإثارة واضحة:

- لكنّ القضية الأولى التي سأعمل عليها تستحق التّضحية. ستكون مختلفة جدًّا عن كل القضايا السّابقة.

- حقًّا؟ هذا رائع.

- هل تذكرين الانفجار الذي حصل في ليون الأسبوع الماضي؟

- انفجار شركة الكيميائيات؟

هزّت رنيم رأسها في اعتزاز وهي تقول:

- نعم، هو ذاك. سأقوم بالمرافعة في تلك القضيّة، تخيّلي؟! لم أتصوّر أن يمنحني جورج برنار فرصة ذهبيّة كهذه لإثبات نفسي، وبمثل هذه السّرعة أيضًا.

ابتسمت ياسمين مدارية الخواطر الكئيبة التي تثيرها في نفسها ذكرى تلك الحادثة، وقالت في دعابة:

- لا شك أن توصيتك متينة!

تلاشت الابتسامة من على شفتي رنيم فجأة وارتسم الوجوم على ملامحها. لماذا يحوم الحديث حول ميشال بشكل أو بآخر طوال النهار؟ لم يتوقف جورج وفيفيان عن الثّناء عليه واسترجاع الذكريات التي جمعتهما به.. وهما يعتقدان في ذلك محاباة لها. يجهلان تمامًا عمق الجرح الذي تركه في نفسها. وها هي الآن زميلتها في السّكن تذكرها به دون دراية منها.

- أنا آسفة، لم أقصد الإساءة.

- لا عليك. تلك قصّة طويلة.. ربما أحدّثك عنها يومًا.

خيّم الصمت عليهما للحظات. أخذت كل منهما ترشف من كأسها ببطء ونظرات سارحة. تكلمت رنيم أخيرًا وهي ترمق ملامح ياسمين المتجهمة والعصابة التي تشدّها على رأسها:

- ما الذي حصل معك؟ توقعت ألا تعودي قبل المساء. ثم أين ميساء؟ ظننتكما لا تفترقان أبدًا.

قالت ذلك وهي تضحك، فابتسمت ياسمين بدورها. صحيح، لم تكن تفترق عن ميساء في الأيام الماضية. منذ مجيئها إلى باريس وهي ترافقها في كل مكان وتساعدها على قضاء كل شؤونها. لكنها تسللت باكرًا ذلك الصباح وتركتها نائمة في سريرها. ودّعت خالتها زهور التي لم تستطع أن تلحّ عليها في السّؤال وعادت إلى شقتها. لم يكن هناك ما تسألها عنه. كل شيء كان واضحًا أمام عينيها. لم يكن هناك مجال للاتفاق بينها وبين هيثم. انتهى الموضوع.

تنهّدت بدورها وهي تقول في لؤم مقلدة لهجة رنيم:

- تلك قصّة طويلة.. قد أحدّثك عنها يومًا ما.

ضحكت رنيم بقوّة ثم استوت في جلستها وهي تقول في اهتمام:

- هكذا إذن، واحدة بواحدة.. تعالي. سأحدثك بقصتي، ثم تحدّثينني بقصتك. اتفقنا؟

رغم أن الجرح في نفسها كان ما يزال يافعًا، والحديث عنه سينكؤه ويجدّد آلامها إلا أنها اندفعت وقد راودتها رغبة في تقاسم ذلك الحِمل مع شخص آخر. رمقتها ياسمين طويلًا ولم يخف التّردّد في عينيها هي الأخرى. كانت قد اتصلت بوالدتها ذلك الصباح وطلبت منها أن تنهي الأمر مع خالتها زهور. رغم إلحاحها، لم ترضَ بإخبارها عن التّفاصيل. لم تخبر أحدًا عن تفاصيل الحديث السّخيف الذي دار بينهما. لا داعي لإحراج ميساء وخالتها زهور وعمّها عبد الحميد، فهم لا يستحقّون ذلك. أما ابنهم الوقح، فلن تجعل له اعتبارًا بعد اليوم. أبدًا. تنهّدت مرّة أخرى وهي تقول:

- طيب.

ابتسمت رنيم وقالت في مرح لتخفّف توترها:

- يا ويلك مني إن كان مجرّد شجار بينك وبين ميساء!

طفرت الدموع من عيني ياسمين مع اختلاط ضحكها بألم الذكرى، فتابعت رنيم وقد تسلّل إليها التّردّد:

- ليس الأمر سهلًا بالنسبة إليّ أيضًا. ظننت أنني سأحتفظ بهذه القصة لنفسي إلى الأبد.

استمعت إليها ياسمين في انتباه وهي تروي مغامرتها المؤلمة مع المدعوّ ميشال روسو. دمعت عيناها حين وصلت في روايتها إلى فقدانها للوعي أمام البناية التي يسكنها، بعد هروبها من المستشفى. حين توقفت رنيم عن الكلام، احتضنتها ياسمين بقوّة وهي تهمس:

- حمدًا لله على سلامتك! ذلك الشخص الحقير لا يناسبك ولا يستحقك. عيبنا نحن بنات حواء أن مشاعرنا تسيّرنا وقلوبنا تتحكم بنا.

مسحت رنيم دموعها بأطراف أناملها وهي تهزّ رأسها موافقة، فواصلت ياسمين بلهجة قويّة:

- لكن هل تعلمين؟ الله يحبك، لأنه أراد لك النجاة من هذه التجربة دون الوقوع في معصية كبيرة. صحيح أنك فقدت كلية، وهي ليست بالأمر الهيّن. لكن علاقتك بميشال هذا كانت خطأ منذ البداية. حتى لو توّجت بالزواج فهي خطأ. لأن المرأة المسلمة لا يصح أن تتزوّج غير المسلم!

- آه، نعم.

غمغمت رنيم في وجوم. لم تكن المعلومة غائبة عنها. لكنها مثل كل معلوماتها الدينيّة مجرّد "معلومات" أما التطبيق فشيء آخر. وأن تضع ياسمين قصّتها العاطفيّة الحزينة تحت مجهر الدّين ضايقها حتمًا. قالت مغيّرة الموضوع:

- كانت هذه تجربتي باختصار.. والآن دورك!

- ربّما كانت قصتي أقل ألمًا وأهمية من قصتك.. أعترف أنني أحسست بتفاهة ما حصل معي بعد أن استمعت إليك.

هتفت رنيم في إلحاح:

- لا يهمني، أريد حكاية.. حتى لو كانت تافهة!

قصّت عليها ياسمين تفاصيل سهرة البارحة والحوار المتشنج الذي دار بينها وبين هيثم. ضربت رنيم بكفها على الطاولة في غضب وهي تقول:

- ذلك الحقير. من يعتقد نفسه؟ ما بالهم أصحاب التخصّصات الأدبية! هاه؟!
ابتسمت ياسمين وهي تقول مداعبة:
- هل تدافعين عني أم عن نفسك؟
- أدافع عنّا الاثنتين يا عزيزتي! سوف نلقّنه درسًا قاسيًا شقيق ميساء هذا.. قلت إن اسمه.. هيثم؟ سترى يا هيثم، إن لم أعلمك كيف تخاطب الفتيات الرّقيقات، لن أكون أنا رنيم!
ضحكت ياسمين وهي تقول مهدّئة:
- رويدك، من قال إنني أريد تلقينه درسًا؟ الموضوع انتهى عند هذا الحدّ ولا نيّة لي في الحديث إليه مرّة أخرى، مهما كانت الأسباب.
عقدت رنيم حاجبيها في تحدٍّ ووقفت هي تقول في تأنٍّ وبحركات مسرحيّة:
- هذا شأنك يا عزيزتي، بإمكانك التّخلي عن حقوقك الشخصية إن أردت. لكن بما أن الحكاية وصلت إليّ فهي قد أصبحت قضية رأي عام، والمدّعي العام يجب أن يقتصّ من الجاني باسم الحقوق المدنية العامّة!
ضحكت ياسمين بمرح طفوليّ وقد أمست هموم الأمس تسلية اليوم. شاركتها رنيم ضحكها وهي تستلقي إلى جوارها على الأريكة. رغم الدّموع والحكايات الحزينة، كانت أمسية ممتعة. استمّر سمرهما لساعات، حضّرتا وجبة عشاء سريعة معًا، تناولتاها وهما لا تتوقفان عن الضحك والكلام. لم تعتقد أيّ منهما أنّ الفضفضة ستزيح عن صدرها حملًا ثقيلًا وتورثها مثل ذلك الارتياح اللذيذ. كانتا تستمتعان للمرّة الأولى بذلك النّوع من المصارحة. الانفتاح الكامل أمام شخص غريب لا يعرف عن ماضيك شيئًا، لا يطلق عليك أحكامًا ولا يحاول قراءة أفكارك.
الصّداقة بين غريبين تبدأ أحيانًا بكلمة، بلفتة حانية، بلحظة صراحة نادرة. في اللحظة التي تليها يصبح الغريب صديقًا، بل لعله يكون قد حصل في ثوانٍ على أكبر أسرار الآخر وأعمقها. فغالبًا ما تكون ساعات الصّداقة الأولى هي الأكثر غزارة وسخاء من حيث منسوب الأسرار المتدفقة من الجانبين. ربما لأن كليهما لا يحسبها صداقة في تلك الآونة، بل مصبًّا مؤقتا للأزمات النفسيّة.
تنّهدت رنيم أخيرًا وهمست في ضيق:
- هل تعتقدين أن الرجل الذي يناسبني.. موجود؟ في مكان ما من هذا العالم؟
ابتسمت ياسمين في صمت وسرحت للحظات وفي عينيها نظرة حالمة. تعلم على الأقل أن الرّجل المناسب لها موجود، في مكان ما من الأراضي الفرنسية.. في مدينة ليون بالتحديد. لكن هل تلقاه مجدّدًا، يومًا ما؟ هل تلتقي طرقهما مرة أخرى، بقدر ما؟
حدجتها رنيم بنظرة يملؤها الشك وهتفت:
- أنا أكلمك، هل تسمعين؟ ثمّ ما هذه النظرة الغريبة؟ وراءك حكاية أخرى، أليس كذلك؟
قفزت ياسمين من مكانها مبتعدة لتفرّ من قرصات رنيم المؤلمة. صرخت في احتجاج وهي تركض لتتوارى خلف باب غرفتها. هتفت وهي تدفعه لتمنع رنيم من الدخول:
- حكاية واحدة في اليوم.. لا تكوني طمّاعة!

صرخت رنيم في استياء صبياني وهي تواصل ضرب الباب بقبضتها:

- تحتفظين لنفسك بالقصّة الأفضل، هذا ليس عدلًا.. افتحي الآن!

تعالت ضحكات ياسمين وهي تواصل دفع الباب. ليست مستعدّة بعد للحديث عن تلك التجربة. ستحتفظ بها لنفسها لبعض الوقت رغم إيقانها بأن كل شيء قد انتهى، وبانعدام الأمل بعد انتقالها إلى باريس. ربّما تتحدّث بسرّها الصّغير إلى رنيم في الغد، أو في أمسية لاحقة.. لسبب تجهله لم تواتِها الجرأة حينها. تلاشت ضربات رنيم على الباب وسمعت خطواتها وهي تبتعد وتتوعّد.

- ليلة سعيدة.

كانت تلك آخر كلماتها قبل أن تغلق باب غرفتها هي الأخرى. استلقت رنيم على سريرها ونثرت شعرها بحرية على الوسادة. تشعر بتلك الحرية نفسها تغمر كيانها بعد أن تخلصت من سرّها الثقيل. لم يعد سرّها وحدها. للمرّة الأولى تعبّر عن ألمها بالكلمات وتصف بدقّة تفاصيل تجربتها المريرة. ربما كانت تلك خطوة أخرى نحو الخلاص النهائي والكامل من جرح صدرها.

تعالت دقات خفيفة على باب غرفتها. هتفت دون أن تقوم من مكانها:

- ياسمين، ماذا تريدين؟ جئت لتقصي عليّ الحكاية قبل النوم؟

ضحكت ياسمين وهي تمدّ رأسها عبر فتحة الباب وقالت:

- أقصّها عليك في وقت لاحق.. في الأثناء، استمتعي بهذا.

وضعت على المنضدة القريبة كتابًا، ثم أضافت قبل أن تختفي:

- اقرئي فيه كلما أحسست بالضيق.. سيسرّي عنك.

استقامت رنيم في فضول ومدّت يدها لتتناول الكتاب. كان كتاب قرآن.

(16)

الإرهابي

فتح عمر عينيه بصعوبة، ثم عاد ليغمضهما بقوّة حين بهرت الأضواء التي تملأ الغرفة بصره. آه، نعم. إنه في غرفته الجديدة في المستشفى الجديدة. تذكر في تشوّش رحلته الغريبة على متن المروحيّة الخاصّة. كان يحلم منذ صغره بركوب إحدى تلك الطائرات العموديّة المثيرة، لكنه لم يتخيّل أبدًا أن يركبها في مثل هذه الظروف، ليحل ضيفًا على الخدمة الرئاسيّة بعينها!

- أخيرًا استيقظت.

فوجئ حين سمع صوتًا لم يألفه، مع بروز رجل غريب من ركن الغرفة المظلم، كأنه يقبع هناك منذ أمد بعيد، يترقب استيقاظه.

أردف الرجل وهو يقف عند رأسه:

- حسب أبحاثنا، ليست لديك عائلة في فرنسا، وليس لديك محامٍ خاص. أليس كذلك؟

هزّ عمر رأسه ببطء. هل كان يتوقع أنّه سيحتاج إلى محامٍ؟ طيلة أيّام صمته الاضطراري تنامت في عقله قناعة مؤلمة بأنّ اختباره كان السّبب في الانفجار الذي حوّل الشركة إلى أنقاض ورماد. وإن كان لا يستوعب بعد كيف أمكن حصول ذلك! لقد رأى بأمّ عينه كرة اللهب التي أحرقت كلّ شيء في طريقها. وتساءل في رعب حقيقيّ عن مصير زملائه الذين لم يسمع لهم صوتًا وهو يحاول اقتحام الطابق الرابع ليطفئ المحرّك.

لم يكن قد أدلى بإفادته بعد بخصوص الحادث، فهو لم يسترجع القدرة على النطق إلا منذ يومين، قبيل نقله إلى باريس بزمن يسير. وهذا الرّجل قد جاء بالتأكيد من أجل هذا الغرض.

- المدّعي العام قام بتعيين محامٍ عنك بالنيابة. إن كان لديك اعتراض يمكنك رفعه للمحكمة حال بدء المداولات في القضية.

انفرجت شفتاه بصعوبة وجاهد حتّى ينطق بكلماته الأولى:

- هل.. هل هناك.. ضحايا؟

ردّ المحقّق في جفاف:

- ثمانية قتلى. عددهم قد يزيد بسبب الإصابات الحرجة. وأكثر من ثلاثين جريحًا.

- يا إلهي!

تسرّبت العبرات من جفنيه في ألم. ثمانية؟! صامويل، ألبير، كارولين.. وكل الزملاء من قسم الأبحاث، هل قضوا؟ سأله مرّة أخرى في لوعة:

- هل هم من شركة الكيميائيات؟ كانوا في غرفة الاستراحة في الطابق الرابع؟

سكت المحقّق للحظات ثمّ قال في برود:

- أفهم أنّك ترغب في التأكد من نتائج العمليّة، لكنني هنا لأوجّه إليك الأسئلة لا لأجيب عنها. ومع ذلك، سأردّ. نعم، كلهم

موظفون من الشركة. المنفذ الوحيد من غرفة الاستراحة كان مسدودًا. و البعض علق في المصعد. لم يتمكنوا من الخروج، فاختنقوا بالدّاخل. والآن أخبرني، ما الذي حصل بالضبط؟

رغم الصّدمة التي سيطرت عليه، تكلم عمر باضطراب وأخذ يقصّ تفاصيل ذلك المساء بكل ما أمكنه من دقّة. كان يتوقف حين تؤلمه حنجرته. لم يكن قد استعاد صوته تمامًا والكلام يتعبه. في حين شغّل المحقق آلة التسجيل وتابع كلماته في انتباه. حين أنهى عمر روايته مع حصول الانفجار، أطرق الرجل ثم قال بعد صمت قصير:

- حسن. هذه الرواية الرسميّة التي لقّنوك إياها.. والآن أريد الحقيقة!

طالعه عمر بنظرات مبهوتة وهتف بما سمحت به طاقته:

- لكن.. هذه هي الحقيقة كلها يا سيّدي!

- اسمع يا هذا، الملف الذي بين يديّ وما يحمله من شهادات وقرائن كافٍ لإدانتك بكل سهولة. لكن إن ساعدتنا في كشف كل الأطراف المشاركة في المؤامرة، فستجد منّا تعاونًا. قد نتوصّل إلى اتفاق يمكّنك من الحصول على حكم مخفّف. عشرون سنة فقط بدل السّجن المؤبد.

حدّق فيه عمر بعينين زائغتين وأنفاس مبهورة وهمس بحبال صوتية منهكة:

- السّجن المؤبد؟

- وهل يحكم على الإرهابيين الذين يهدّدون أمن البلاد بأقل من ذلك؟ من حسن حظك أن عقوبة الإعدام قد ألغيت من القانون الفرنسي.

تسمّرت عينا عمر على ملامح الرجل القاسية وهو لا يصدق ما تسمعه أذناه. إرهاب. يتهمونه بالإرهاب! لم يكن يستوعب شيئًا. رأسه تكاد تنفجر. مع كل الألم والعلامات الشوهاء التي تملأ جسده، مع خسارته البدنيّة والنفسيّة والماديّة الفادحة، مع كل هذا يريدون وضعه على كرسي الاتهام؟

- الملف يشير إلى سوابق في سجلك...

سوابق؟ فغر عمر فاه غير مصدّق.

- إدارة جامعة غرونوبل بلّغت عن طالب ذي "سلوك مريب" من المشتبه انتماؤه إلى جماعة متطرفة. هل تمّ تجنيدك في تلك الفترة؟ جماعة محلّية أم على الحدود السويسريّة؟

"سلوك مريب"؟ كل هذا من أجل سنتيمترات لحية عفا عنها مقصّ الحلاق لزمن يسير؟ و تعفف عن حياة الصخب الجامعيّة؟

- العمليّة استهدفت ثلّة من خيرة الباحثين الشّبّان في بلادنا. هل كان من بينهم هدف محدّد؟ من هو؟ أم أنّها عمليّة عشوائيّة؟ هل تسعى مجموعتك إلى سلاح كيميائي ما؟

انهالت الأسئلة الغريبة من فم المحقّق أمام صمت عمر المفجوع. كلّ شيء كان غير قابل للتّصديق.

- ربّما كانت حياتك لا تهمّك، فأنت كنت تنوي الخلاص منها في عمليّتك الانتحارية. لكنّني سأضمن لك أن تعيش أكثر، وتتمنّى الموت كل يوم أكثر من مرّة.. مع الأشغال الشاقة التي سنخصّك بها. صدّقني هذا ما سيحصل إن استمررت على عنادك. لا يمكنك أن تحمي جماعتك إلى الأبد، لكن يمكنك أن تخفف عن نفسك المسؤولية.

- أيّ جماعة وأيّ مسؤوليّة؟ أنا لم أفعل شيئًا! كان مجرّد حادث!

زفر المحقق وقال في امتعاض:

- أنصحك بالتشاور مع محاميك قبل أن تتخذ موقفًا متسرّعًا. إمكانيّة الاتفاق ما زالت متاحة.

ثم توجّه إلى الباب معلنًا نهاية الجلسة. قبل أن يغادر الغرفة الزّجاجيّة، استدار ليقول في لهجة محذرة:

- لا تتأخر في اتخاذ القرار الصائب، فقد أغير رأيي وتضيع فرصتك الأخيرة.

****

تقدّمت رنيم كعادتها بخطوات رشيقة متزنة باتجاه مكتب الاستقبال في المستشفى المدني لضاحية باريسيّة مرموقة. للمرّة الأولى كانت تزور موكلًا في غرفة مستشفى. وليس أيّ موكل. إرهابيّ. رنّت الكلمة في رأسها فاقشعرّ لها جسدها.

- غرفة عمر الرشيدي من فضلك. المحتجز على ذمّة العدالة.

رفع إليها موظف الاستقبال نظرة متحفزة:

- معذرة، الزيارة ممنوعة.

أخرجت بطاقتها والتوكيل الذي حصلت عليه ذلك الصباح من مكتب المدّعي العام وقالت:

- أنا محاميته.

- من هنا من فضلك.

قال ذلك بعد أن عاين الأوراق الرّسمية، ثم توجّه إلى المصعد في آخر الممر. تبعته رنيم وقد أخذها التوجس. ستكون بمفردها في غرفة مغلقة مع إرهابيّ. لم تكن قد فكرت في تفاصيل اللقاء وملابساته من قبل، فقد غلبت الحماسة على إعمال العقل. لكن مع اقتراب الموقف من التّحقق فقد بدأت تدرك مقدار دقّة وضعها. لمحت عن بُعد الشرطي ذا البزّة الرّسمية الذي وقف أمام إحدى الغرف، فأيقنت أنّها الغرفة المعنيّة. وقع بصرها على الحاجز الزجاجي الشفّاف الذي يفصل المريض عن حارسه فتنهدت في ارتياح. لن يمكنه أن يؤذيها، وكلّ ما يحصل داخل الغرفة مرئيّ من خارجها. لكن لماذا قد يفكر في أذيتها وهي تكلف نفسها عناء الدّفاع عنه وتمثيله في هذه القضية الشائكة؟

بعد إجراءات التثبت من الهويّة، سمح لها الشرطيّ بالمرور. كانت اللفافات البيضاء قد تراءت لها وهي وراء الزجاج من الجانب الآخر، لكنّ المشهد عن قرب كان أشدّ وطأة. كانت تعلم أنّ المتّهم قد نجا بأعجوبة من الانفجار، لكنّ رؤية العين شيء آخر. رمقته في شيء من الرّثاء الممتزج بالرّهبة. من حسن حظه أن الحروق لم تطل وجهه الوسيم. من موقفها ذاك لمحت نظرته الكسيرة التي ارتخت عنها أهدابه الكثيفة، والصلابة التي تشدّ عضلات فكّه، وقد أطرق في تفكير ظاهر التوتر.

تنحنحت لتنبّهه إلى وصولها. فرفع عمر نظراته تجاهها ببطء، ألقى عليها نظرة سريعة ثم أشاح بوجهه في ضيق واضح. حين واجهتها نظراته لمحت الضمادة التي تغطي عينه اليسرى وقسمًا من وجنته. إذن فقد طالت الحروق وسامته.

- مرحبًا.

قالت في لهجة ودودة، لكن إجابته كانت باردة وصارمة:

- ماذا تريدين؟

جذبت كرسيًّا وجلست قرب السرير وهي تقول محاولة الحفاظ على لهجتها المطمئنة:

- أنا رنيم، المحامية المكلفة بالدّفاع عنك.

لمحت شبح ابتسامة ساخرة على شفتيه وهو يقول باستفزاز متعمّد:

- أنا متهم بالإرهاب، هل تعلمين؟

سرت في جسدها قشعريرة باردة مرّة أخرى، ازدردت ريقها وهي تقول بصوت خافت:

- نعم أعلم.

قال دون أن ينظر إليها:

- هل تعتقدين ببراءتي؟

تردّدت للحظات. لا تملك إجابة بعد. أردف في إصرار:

- لا شك أنّك قد اطلعت على ملف القضية. هل تظنّين أنّني نفّذت الانفجار؟

تمتمت في توتر:

- لست أدري. أنا هنا لأستمع إليك و...

قاطعها بصوت حازم:

- إذن مع السّلامة. لا أريد محاميًا غير مقتنع بالقضية التي يترافع فيها!

قالت في احتجاج:

- لكنّني تسلمت ملف القضيّة البارحة. لم يكن لديّ ما يكفي من الوقت لأكوّن فكرة شخصيّة عن الأحداث. ومن المفترض أن يكون هذا اللقاء فرصة لتوضيح الرؤية ودراسة خط الدفاع الممكن.

قال ببرود أدهشها:

- رنيم، أليس كذلك؟ أنت مسلمة؟

هزّت رأسها علامة الإيجاب دون أن تدرك علاقة سؤاله بالقضيّة. تابع عمر في ازدراء:

- هل نظرت إلى شكلك في المرآة؟

خفضت رنيم نظراتها في ضيق لتعاين شكلها. امتدّت كفّها على الفور لتجذب تنورتها القصيرة إلى الأسفل بعد أن انحسرت عن ركبتيها حال جلوسها، ثم قامت بتزرير أعلى قميصها لتغطي ما انكشف من نحرها. رغم حرجها هتفت في حدّة:

- ما علاقة شكلي بعملي؟ أنا هنا كمحامية لا غير.

قال في نفس البرود القاتل:

- أنت مثلهم، بل لعلك أسوأ منهم. يعتقدون أن كلّ من يقول "الله أكبر" يهمّ بعملية انتحارية. وأنّ كل مسلم ملتزم هو بالضرورة مشروع إرهابيّ. ربما أفهمهم لأنّهم يجهلون كل شيء عن ديننا ورؤوسهم مليئة بالأفكار المشوّهة. أمّا أنت، أيتها "المسلمة المحترمة"، تعرفين الإسلام كل المعرفة.. ومع ذلك تولينه ظهرك وتنكرينه بعقلك وتتمرّدين على تعاليمه بشكلك. أنت التي تدينين به لا تحترمينه كما ينبغي لك أن تفعلي، فكيف أثق بك كترجمان يقنع هذا المجتمع ببراءتي؟ كيف تدافعين عن معتقد وأنت

تتنكرين له بعد أن نشأت بين أحضانه؟ لذلك لا أريدك للدفاع عنّي. أرجوك ارجعي من حيث أتيت.
أحسّت ببرودة لاذعة تسري في أوصالها وتجمّدت نظراتها في الفراغ للحظة. ثم وقفت في هدوء، وتوجهت نحو باب الغرفة دون أن تنطق بكلمة واحدة.

(17)

عنصريّة

وقفت ياسمين في المحطة تنتظر حافلتها. كان يومًا شاقًا في الشركة. انغمست لساعات في ملء الاستمارات والملفات، تقودها موظفة الإدارة من مكتب إلى آخر لإنهاء الإجراءات الخاصّة بتمويل بحثها ومختلف التفاصيل الإداريّة الضروريّة. تنقلت معها عبر مختلف الأقسام لتعرّفها على الموظفين الذين ستتعامل معهم طيلة فترة الدكتوراه. ثمّ أخذتها أخيرًا إلى المكتب الذي أعدّ من أجلها في الطابق الثامن، حيث مكتب دافيد كيلير رئيسها المباشر. تذكرت كلمات رنيم عن يومها الأوّل فابتسمت. بدايات متشابهة. ربما كانت رنيم أكثر حماسًا منها بقضيّتها الأولى، فهي لا تجد صعوبة تذكر في الاندماج والحصول على القبول من طرف زملائها.. كوني متفائلة يا ياسمين، فزملاؤك أيضًا ليسوا سيئين. جاءت جولي ومارينا للترحيب بها اليوم. كانتا في غاية اللطف والكرم. شربتا معها القهوة بعد الظهر حين انتهت من إجراءاتها الكثيرة واستلمت مكتبها.

لمحت الحافلة تقترب فتهيّأت. جاء دورها أخيرًا، وقفت أمام الجهاز القارئ للرّقاقات الإلكترونية ومرّرت بطاقتها. تلك البطاقة التي تمّكنها من التجوّل في كل أنحاء باريس دون أن تدفع ثمن التذكرة في كل مرّة. وللتحقّق من صلاحيّة بطاقتها كان عليها المرور باختبار الجهاز القارئ للرّقاقات كلما صعدت المترو أو الحافلة. فوجئت بالمصباح الأحمر يضيء والجهاز يصدر طنينًا مزعجًا معلنًا عن بطاقة غير معتمدة. ارتبكت ياسمين وهي تعاين بطاقتها في استغراب. لقد حصلت على البطاقة يوم أمس، واستعملتها في رحلتها الصّباحيّة. لماذا لا تعمل الآن؟ وصلها صوت السائق وهو يصرخ في انزعاج:

- ما الأمر يا آنسة؟ ألم تشحني بطاقتك؟

مدّت إليه البطاقة في توتّر وهي تقول في احتجاج:

- بلى فعلت، لكنها لا تعمل.. لست أفهم!

قلب البطاقة بين يديه وهو يعقد حاجبيه ثم هتف في برود:

- إن كانت البطاقة لا تعمل فيجب أن تدفعي ثمن التذكرة.. ولا تنسي أن تشحنيها فيما بعد.

هتفت ياسمين في إصرار:

- لكنني شحنتها البارحة. أنا واثقة من ذلك!

تفحصها السائق في استياء ثم قال في عجرفة:

- هكذا إذن.. لا تريدين أن تدفعي؟ لا داعي لتضييع الوقت لأن لعبتك مكشوفة. يمكنني تمييز الأشخاص أمثالك جيدًا، لا داعي للتمثيل!

تجمّعت العبرات في عيني ياسمين لكنّها قالت بصوت واثق:

- من فضلك، لا تخاطبني هكذا.. هذا يومي الأول في العمل. اشتريت البطاقة البارحة وشحنتها، كانت تعمل هذا الصّباح.

واصل الرّجل في سخط وقد تعالت اعتراضات المسافرين على تأخر انطلاق الحافلة:

- هذه ليست مشكلتي. والآن لا وقت عندي أضيّعه. سأسمح لك هذه المرّة بالركوب حتى لا أعطل بقية الركاب. لكن حذار أن تكرّري المحاولة مرّة أخرى. فملامحك طبعت هنا.

قال ذلك وهو يشير بسبابته إلى رأسه وفي عينيه نظرة حادّة. لم تردّ عليه ياسمين. ابتلعت الإهانة وتقدّمت في الممرّ الضّيق المؤدي إلى آخر الحافلة. كانت العربة مليئة بالركاب في وقت الذروة. استندت إلى أحد الأعمدة المعدنية في صمت، وسؤال واحد يتردد في ذهنها. لماذا لم تنزل؟ كان بإمكانها أن تترك الحافلة وتركب غيرها، لكنها لم تفعل. تحمّلت صفاقة السائق وبقيت هناك. ربّما لأنها كانت تخشى أن يتكرّر الموقف مع سائق آخر؟ ربّما لأنها تعرف تلك اللهجة العنصريّة ولا تريد أن تستمع إلى المزيد منها؟

اقتربت منها سيدة مسنّة وهمست في لطف:

- اذهبي إلى مكتب الاشتراكات واطلبي منهم التثبّت من البطاقة.

رفعت إليها عينين حمراوين اعترتهما الدّهشة. هزت رأسها علامة الموافقة وهمست بكلمات شكر مرتبكة. ستفعل بالتأكيد. ستفعل.

****

مرّت ساعات النهار بسرعة. انغمست في العمل بالكامل ونسيت -أو كادت- حادثة الأمس المزعجة. كان عليها أن ترسم تخطيطًا دقيقًا لمسار بحثها وتحدّد الخطوات اللازمة ومدّتها الزّمنيّة التقريبيّة، من عمل ميداني واستجوابات للموظفين وبحوث نظرية. نظرت إلى ساعتها. كانت تشير إلى السادسة مساءً. لم تغادر المكتب منذ وصولها. أحضرت معها شطيرة منزلية التّحضير، تناولتها على مهل أمام حاسبها الآلي قبل أن تستأنف العمل. لم يكن ذلك مبالغة منها في الجدّيّة، لكنّها كانت تشعر بالحرج من الانضمام إلى زملائها في ركن الاستراحة أو الالتحاق بهم في المطعم لتناول وجبة الغداء. مرّت مارينا بمكتبها واقترحت عليها مرافقتها، لكنّها اعتذرت. لم تتعوّد بعد على أجواء الشركة، وهي كانت متحفّظة بطبعها. ثم لا تدري أيّ المطاعم يرتادون وهل يمكنها أن تجد ضمن لائحة أطعمته ما يناسبها.. لذلك فضلت اعتزالهم لبعض الوقت.

كانت قد جمعت حاجياتها وتهمّ بإغلاق جهازها حين سمعت دقات موقعة على بابها. رفعت رأسها لتلمح السيّد دافيد كيلير، رئيسها المباشر. قال وعلى شفتيه ابتسامة ودودة:

- كيف حالك ياسمين؟ وكيف هو العمل؟

استوت في وقفتها في ارتباك وقالت دون تردّد:

- كل شيء بخير.. لقد شرعت في تحضير التّخطيط الكامل للبحث. أتريد رؤيته؟

- لا داعي. خذي كل وقتك للاطلاع على البحوث الموجودة والتفكير في تخطيط مميّز. سأتّصل بك قبل نهاية الأسبوع لنتحدّث أكثر. عملًا موفقًا.

حين ابتعد عن مكتبها، لمحت الرجل الذي كان يرافقه. باتريك. عرفت اسمه من جولي التي عرّفتها على موظفي قسم البحوث في جلسة إرشادية سابقة. تشك في قدرتها الآن على وضع الاسم الصحيح على كل وجه، لكن باتريك.. كيف يمكنها أن تنسى

ملامحه؟ هزّت كتفيها في لا مبالاة. لا شأن لها به، طالما ظل بعيدًا عنها ولم يضايقها.

ابتعد باتريك رفقة دافيد وفي رأسه فكرة غريبة. حين غادرا المصعد واقتربا من موقف السّيارات، نظر إلى دافيد وهو يقول في لهجة خالية من كل اهتمام:

- تسافر الأسبوع المقبل إلى برلين، أليس كذلك؟

هزّ دافيد رأسه علامة الإيجاب وهو يضغط على زرّ التّحكم ليفتح سيارته ويلقي حقيبته على المقعد المجاور للسّائق. أردف باتريك بنفس اللهجة اللا مبالية:

- هل تريد أن تفوّض إليّ بعض الأعمال في فترة غيابك؟

رفع إليه دافيد نظرة مليئة بالدّهشة. لم يتعوّد من باتريك أن يطرح عليه مثل هذه الاقتراحات السخيّة.

- أنت متأكد؟ يمكنك أن تهتمّ ببعض الملفات؟

وضع باتريك كفيه في جيبي سترته وهزّ كتفيه مع ابتسامة عريضة:

- طبعًا.. نحن صديقان.

- ممتاز. سأضع على مكتبك غدًا بعض الدّفاتر التي تخصّ ملفًا مستعجلًا. كنت سأعهد إلى ياسمين بأمره، مع أنني كنت متخوّفًا من عدم قدرتها على الاهتمام بالأمور الإدارية نظرًا إلى حداثة انضمامها إلى الشركة. لكن بما أنك تعرض ذلك، فهذا يناسبني جدًا.

التمعت عينا باتريك بنظرة غريبة وقد راقه كثيرًا ما سمعه من دافيد للتوّ:

- إن شئت، يمكنني أن أدرّب ياسمين في فترة غيابك وأجعلها تعمل على الملف تحت إشرافي.

رفع دافيد حاجبيه في دهشة متزايدة:

- هل غيّرت رأيك بشأن ياسمين بهذه السرعة؟ أشك أنها وضعت شيئًا في قهوتك هذا المساء.

ضحك وهو يربت على كتف الرجل في مودّة. قال باتريك بلهجة غامضة:

- لم يتغير رأيي أبدًا.. لكن بما أنها هنا، فلنر ما في جرابها من إمكانيّات.

****

وقفت من جديد في محطة الحافلات وهي تهزّ ساقها في توتّر. ذهبت ذلك الصّباح إلى مكتب الاشتراكات وتأكدت من صلاحيّة بطاقتها. وحتى تثبت براءتها، أخذت من الموظفة فاتورة الشراء التي تحمل رقم البطاقة وتاريخ شحنها. ستؤدّب ذلك السّائق حتمًا. كانت تتمنّى أن يكون على متن الحافلة القادمة حتى تلقّنه درسًا على وقاحته مساء أمس. لم يكن توتّرها سوى حماسا وتوقا إلى لحظات المواجهة المقبلة.

هل كانت تعتقد أنّ متاعبها ستنتهي حالما تجد تمويلًا لبحث الدكتوراه؟ أبدًا. كانت تدرك أنّ أعينًا تتربّص بها وبشبيهاتها من المسلمات، وعنصريّة مزمنة تنخر قلوبًا لن تتركها في سبيلها. ومهما تأجّلت المواجهة مع مخاوفها، فإن ذلك لا يعني النّجاة منها إلى الأبد. حين كانت على وشك الاستقرار والاستسلام لحياة الرتابة، فاجأتها بظهورها على السّطح في توقيت وشكل غير متوقعين، كنوع من الإثارة وتغيير الرّوتين! فليكن إذن، إن كان لا بدّ من المواجهة، فلتشحذ أسلحتها وتشمر عن ساعديها!

أخيرًا توقفت الحافلة التي تقلّها إلى شقتها. ألقت نظرة على مكان السّائق. نعم إنّه هو. تقدّمت بخطوات واثقة تحت نظراته الباردة. من الواضح أنّه قد تعرّف عليها أيضًا. "ملامحك طبعت هنا"، كانت تلك كلماته. أخرجت بطاقتها ومرّرتها أمام الجهاز في حركة متحدّية وانتظرت. ولدهشتها الكبيرة، أضاءت الإشارة الحمراء معلنة عن خلل ما. فغرت ياسمين فاها وتسمّرت مكانها في فزع. ما الذي يحصل؟ لماذا لم تعمل بطاقتها؟ سارعت بتمريرها مرة ثانية وثالثة في إصرار. لكنّ النتيجة كانت واحدة. البطاقة لا تعمل. رفعت رأسها لتلمح نظرة الشماتة المتغطرسة التي تطل من عيني السّائق. جاءها صوته الكريه:

- أنت مرّة أخرى؟! ألم أحذرك من معاودة الكرّة؟ لكنّك مصرّة على قلة الأدب.

كتمت ياسمين غيظها مع سيل الشتائم التي انسابت من شفتيه، وأخرجت الفاتورة التي حصلت عليها ذلك الصّباح من الموظفة. أبرزتها أمام عينيه وهي تهتف بقوّة:

- بطاقتي سليمة. لقد شحنتها منذ يومين، وهذه الفاتورة. إن كان جهازك لا يعمل، فتلك مشكلتك.

أخذ منها السّائق البطاقة والفاتورة في شك وألقى عليها نظرة سريعة، ثم أطلق ضحكة ساخرة وهو يلقي إليها أوراقها في احتقار:

- كيف تملكين الجرأة لتقومي بهذه الحركة الرّخيصة؟ من أين حصلت على هذه الفاتورة؟ هاه؟ لا شك أنّك التقطتها من الأرض لأنها بالتأكيد ليست لك. الرّقم الذي تحمله مختلف عن رقم بطاقتك!

أخذت ياسمين البطاقة وقد شلتها المفاجأة. دليل براءتها لم يفدها بشيء، بل زجّها في مأزق آخر لم تحسب له حسابًا. تجمّعت العبرات في عينيها منذرة بالهطول. لن تبكي. لن تبكي. قاومت في استماتة، لكنّ الطوفان بداخلها كان أقوى من دروعها الهشة. فاضت أمواجه وفارت حتى انحدرت على شواطئ عينيها وتدفقت السّيول لتغرق وجنتيها. أخذت دموعها تتساقط تباعًا وهي مطرقة إلى الأرض فرارًا من كل الأعين التي تتابع المشهد. كانت تشعر بنظرات شفقة وسخرية وشماتة تطالعها من كل جانب. كانت فرجة مسائية ملهمة. كل من يزعجه حجابها، لا شك قد استمتع بالعرض المجّاني. ارتفعت شهقاتها المكتومة مع تواتر أفكارها القاتمة.

وكأنّ دموعها الصّادقة أزعجت السائق، فصرخ بها وهو يشير إلى الركاب الذين وقفوا ينتظرون دورهم للصّعود:

- والآن ابتعدي من أمامي. إن كنتِ تصرّين على عدم شراء تذكرة فلا تعطليني أكثر من هذا. اركبي من الباب الخلفي إن شئت تكرار التجربة، لكن لا أريد أن أرى دموع التماسيح هذه بعد الآن.

مسحت ياسمين عينيها بظهر كفها وانسحبت في انكسار إلى آخر الحافلة. لم تكن يوما بهذه الهشاشة. اختبرت ظروفا صعبة في تونس من قبل، وأبدت صمودا جديرا بالإشادة. لكن هنا، الآن، ماذا دهاها؟ أهو البعاد عن الأهل و السند؟ أهي غربة فوق غربة أنضبت معين قوّتها؟ تجاوزت اختبار مقابلات العمل دون أن تذرف دمعة واحدة، وأنهت المرحلة عن نجاح وانتصار. لكنّها تعلم أنّ هذه الشتائم وتلك النظرات لن تكون مرحليّة أو آنيّة، تختفي باختبار تجتازه وتتجاوز عمّا سبقه بجرّة قلم على ملفّات الذاكرة. بل لعلها تكون معلما من معالم حياتها الباريسيّة المقبلة، ركنا قارًا في برنامج يومها. تصطبح على شتيمة وتمسي على نظرة احتقار حارقة. فهل تحتمل؟ هل ترضى؟ هل هناك ما يستحقّ أن تتنازل من أجله عن كرامتها وتتجرّع الذلّ والهوان في كل روحة وجيئة؟

أخرجت هاتفها واتّصلت على الفور برنيم. كانت الشّخص الوحيد الذي يمكنها أن تشاركه مأساتها في تلك اللحظات.

- رنيم أرجوك، هل يمكنك إيجاد رقم شركة النقل من أجلي؟

ارتعبت رنيم وهي تسمع صوتها المختنق من العبرة.

- ما الذي جرى يا عزيزتي، أخبريني؟

قصّت عليها ياسمين حكاية البطاقة التي تكرّرت مرتين، فقالت رنيم بلهجة حازمة:

- أعطني رقم بطاقتك ورقم الحافلة والرّمز الذي ترينه خلف مقعد السائق.. ودعيني أتصرّف.

أملت عليها ياسمين ما طلبت، ثم أغلقت الخط. رنيم ليست من النوع الذي يستسلم بسهولة. لا شك أن عملها في المحاماة أورثها طبعًا قتاليًا حادًا، وهي ستفعل المطلوب لتعيد إليها حقها بالتأكيد. كانت واثقة. مضت بضعة دقائق قبل أن يرنّ هاتفها. سارعت لتردّ في لهفة. فجاءها صوت رنيم مشبعًا بمتعة الانتصار:

- بطاقتك سليمة. اتّصلت بالشركة وقدّمت شكوى بالسّائق الذي تصرّف بعنصرية واضحة وتطاول على زبونة بألفاظ سوقيّة ومسيئة على أساس اختلافها العرقي والدّيني. إن لم يتصرّفوا معه بما يستوجبه الموقف نرفع قضية لدى المحكمة ونحصل على تعويض ضخم!

وجدت الابتسامة طريقها إلى وجه ياسمين التي استرجعت بعض ثقتها.

- كنت أعلم أنك الشخص المناسب!

أغلقت الخطّ وقد تسللت إليها بوادر الارتياح. لن يضايقها السّائق بعد الآن، فقد صارت لديها محامية مستعدّة للدّفاع عنها في كل وقت. سمعت رنينًا يرتفع عند مقدمة الحافلة فرفعت رأسها لتلمح السائق وهو يردّ على اتصال خارجي على هاتفه اللا سلكي. لم تكن الكلمات تصلها من موقعها ذاك لكنها أيقنت أن لرنيم يدًا في الأمر.

حين توقفت الحافلة في الموقف الخاصّ بها، خطت في اتّجاه الباب الأماميّ. لكنّ السائق استوقفها حين همّت بالنزول. فوجئت به وهو يشير إليها بالاقتراب عبر المرآة العاكسة. تقدّمت باتجاهه في شك. ماذا يريد منها الآن بعد؟ ما أن اقتربت حتى لمحت ابتسامته المتملقة التي حلت مكان التّكشيرة، وازدادت دهشتها حين تكلم بصوت هادئ ولهجة تقترب من الاعتذار:

- يبدو أن سوء تفاهم حصل بيننا. المشكلة في البطاقة جعلتني أفقد صوابي وأشك بأمرك. تعلمين في مهنتنا هذه نتعامل مع اللصوص والمحتالين كل يوم، لذلك يجب علينا الحذر و...

أجابت ياسمين ببرود:

- وهل يجب عليكم إهانة الركاب أيضًا؟ أم أنني أبدو لصّة أو محتالة؟

تلعثم الرجل وهو يبحث عن تبرير:

- لكن البطاقة لم تعمل. والرقم على الفاتورة لم يكن واضحًا. لذلك كان عليّ أن أكون صارمًا.

- تأكد أننا أيضًا سنكون أكثر صرامة في المرّة القادمة!

استدارت ياسمين والسائق إلى مصدر الصوت. كانت رنيم التي جاءت لانتظار ياسمين في المحطة قد تقدّمت باتجاه الباب المفتوح. أضافت بلهجة متعالية حازمة من خلف نظاراتها الشمسية:

أخرجت هاتفها واتّصلت على الفور برنيم. كانت الشّخص الوحيد الذي يمكنها أن تشاركه مأساتها في تلك اللحظات.

- رنيم أرجوك، هل يمكنك إيجاد رقم شركة النقل من أجلي؟

ارتعبت رنيم وهي تسمع صوتها المختنق من العبرة.

- ما الذي جرى يا عزيزتي، أخبريني؟

قصّت عليها ياسمين حكاية البطاقة التي تكرّرت مرتين، فقالت رنيم بلهجة حازمة:

- أعطني رقم بطاقتك ورقم الحافلة والرّمز الذي ترينه خلف مقعد السائق.. ودعيني أتصرّف.

أملت عليها ياسمين ما طلبت، ثم أغلقت الخط. رنيم ليست من النوع الذي يستسلم بسهولة. لا شك أن عملها في المحاماة أورثها طبعًا قتاليًا حادًا، وهي ستفعل المطلوب لتعيد إليها حقها بالتأكيد. كانت واثقة. مضت بضعة دقائق قبل أن يرنّ هاتفها. سارعت لتردّ في لهفة. فجاءها صوت رنيم مشبعًا بمتعة الانتصار:

- بطاقتك سليمة. اتّصلت بالشركة وقدّمت شكوى بالسّائق الذي تصرّف بعنصرية واضحة وتطاول على زبونة بألفاظ سوقيّة ومسيئة على أساس اختلافها العرقي والدّيني. إن لم يتصرّفوا معه بما يستوجبه الموقف نرفع قضية لدى المحكمة ونحصل على تعويض ضخم!

وجدت الابتسامة طريقها إلى وجه ياسمين التي استرجعت بعض ثقتها.

- كنت أعلم أنك الشخص المناسب!

أغلقت الخطّ وقد تسللت إليها بوادر الارتياح. لن يضايقها السّائق بعد الآن، فقد صارت لديها محامية مستعدّة للدّفاع عنها في كل وقت. سمعت رنينًا يرتفع عند مقدمة الحافلة فرفعت رأسها لتلمح السائق وهو يردّ على اتصال خارجي على هاتفه اللا سلكي. لم تكن الكلمات تصلها من موقعها ذاك لكنها أيقنت أن لرنيم يدًا في الأمر.

حين توقفت الحافلة في الموقف الخاصّ بها، خطت في اتّجاه الباب الأماميّ. لكنّ السائق استوقفها حين همّت بالنزول. فوجئت به وهو يشير إليها بالاقتراب عبر المرآة العاكسة. تقدّمت باتجاهه في شك. ماذا يريد منها الآن بعد؟ ما أن اقتربت حتى لمحت ابتسامته المتملقة التي حلت مكان التّكشيرة، وازدادت دهشتها حين تكلم بصوت هادئ ولهجة تقترب من الاعتذار:

- يبدو أن سوء تفاهم حصل بيننا. المشكلة في البطاقة جعلتني أفقد صوابي وأشك بأمرك. تعلمين في مهنتنا هذه نتعامل مع اللصوص والمحتالين كل يوم، لذلك يجب علينا الحذر و...

أجابت ياسمين ببرود:

- وهل يجب عليكم إهانة الركاب أيضًا؟ أم أنني أبدو لصّة أو محتالة؟

تلعثم الرجل وهو يبحث عن تبرير:

- لكن البطاقة لم تعمل. والرقم على الفاتورة لم يكن واضحًا. لذلك كان عليّ أن أكون صارمًا.

- تأكد أننا أيضًا سنكون أكثر صرامة في المرّة القادمة!

استدارت ياسمين والسائق إلى مصدر الصوت. كانت رنيم التي جاءت لانتظار ياسمين في المحطة قد تقدّمت باتجاه الباب المفتوح. أضافت بلهجة متعالية حازمة من خلف نظاراتها الشمسية:

- هذه المرّة اكتفينا بإنذار، لكننا مستعدّون للتّصعيد إن تكرّرت قلة الأدب والإهانات.

حدجها السائق بنظرة منزعجة:

- وأنتِ من تكونين؟

وضعت رنيم بطاقتها المهنيّة أمامه وهي تقول في تحدٍّ:

- أنا محاميتها.

انتظرت للحظات ريثما يستوعب الرّجل المأزق الذي وضع نفسه فيه، ثم أردفت:

- لم تقرّر الاعتذار بعد؟

- أنا آسف. أنا آسف حقًّا.

حين ابتعدتا لم تكن كلمات الاعتذار على شفتي الرجل قد توقفت عن التّدفّق. احتضنت ياسمين رنيم في امتنان وهي تهتف:

- لستِ هيّنة حقًّا. لا أدري ماذا كان ليحل بي دونك!

ضحكت رنيم وهي تقول في ثقة:

- أنسيت أنّ هذا عملي؟ لكنني لن أطالبك بالأتعاب هذه المرّة. فلنقل إنها هدية ضيافة.

ثم مالت عليها لتهمس في أذنها:

- بالنسبة إلى بطاقتك، احفظيها بعيدًا عن الهاتف الجوال، فموجاته الكهرومغناطيسية تفسد عمل الرّقاقات الإلكترونية.

(18)

اعترافات مسائية

منذ يومين أصبح عمر قادرًا على التّحكم في أصابع يده اليمنى وطيّ ذراعه دون أن يسبّب له ذلك آلامًا مبرحة. أوجاع خفيفة يقدر على احتمالها. لينتقل من وضعية الجلوس إلى وضعية الاستلقاء، يكفيه أن يمدّ كفّه باتّجاه لوحة التّحكّم الإلكترونية التي تمكّنه من تعديل انحناء المتّكأ حسب الحاجة. ابتسم في سخرية وهو يعاين مستوى الرّفاهيّة في الخدمات التي تقدّمها المستشفى. كل هذه العناية حتى يشفى سريعًا ويتمكنوا من محاكمته.. وينزلوا به أشدّ العقوبات. الطبيب كان واضحًا في زيارته الأخيرة. العمليات الجراحية التي سيجريها ستعالج الكسور والتمزقات العضلية وتصلح التخريب الذي لحق بأليافه العصبيّة، لكنّها أبدًا لن تعيد إليه جلده المحترق. لن تتكفل الدّولة بأي حال بعمليّات التّجميل الدّقيقة والباهظة التي من شأنها أن تخفي التشوّهات بالكامل.

اهتزّ من الدّاخل حين وقعت عيناه على صورته في مرآة لأوّل مرّة منذ الحادثة. حدّق في تلك المومياء البشريّة زائغة العين في صدمة. كانت الضمادات تكاد تغطي كلّ شبر من جسده وعين واحدة تطلّ على العالم، في حين نجت العين اليسرى بأعجوبة بعد أن طالتها الشظايا الملتهبة. لم يفقد بصره وإن كان شكل عينه قد غدا شائهًا. حمد الله على تلك النعمة وقد أدرك كم كان قريبًا، شديد القرب من الموت. نجاته كانت معجزة حقيقيّة. رفاقه الباقون لم يكن حظهم مثل حظه.

قد يظل مشوّهًا طول حياته. ولكنه قد يقضي بقية حياته في السّجن أيضًا. هل يبالي بتشوّه جلده حين يفقد حريّته وكرامته؟ أطرق في إرهاق وقد أعياه التفكير. لقد طرد المحامية منذ يومين. من سيدافع عنه الآن؟ هل يمكنه أن يقف كالبطل في مواجهة القاضي والمحلفين ويرافع بنفسه؟ ربما لا يتقن مراوغات المحامين واستراتيجياتهم الملتوية، لكنه سيكون صادقًا وشفافًا. هل يعجزون عن قراءة البراءة في كلماته المستميتة؟

زفر بقوّة وأغمض عينيه. رحمك الله يا أمي! رحمك الله يا أبي! لم يعيشا ليريا ابنهما الأصغر يعيش المهانة والمذلّة. لو كانا على قيد الحياة، لقتلهما الخبر! وحدها شقيقته عائشة بقيت على اتصال به بعد سفره. كان يتّصل بها مرّة في الأسبوع، وربما كل أسبوعين. كان ذلك الاتصال هو كل ما يربطه بالمغرب منذ مجيئه. لم يترك الكثير ليتحسّر عليه. حتى عائشة قد لا تكون افتقدته هي الأخرى. تكفيها هموم البيت والزوج والأولاد. ليس بحاجة لإزعاجها بمشكلاته الآن. سيتّصل بها حين تشفى حنجرته بالكامل. يسأل عن الأحوال كالعادة، يقصّ عليها نادرة أو اثنتين عن ليون والشركة والمجتمع الغربي الذي يثير في ذهنها أحلامًا دفينة. لكنه قطعًا لن يخبرها عمّا حلّ به. سيصيبها الجنون وينكّد عليها حياتها دون أن تملك المجيء لمساندته. حين ينتهي كل شيء، ويصدر الحكم النهائي، وقتها فقط سيخبرها بما نزل به. قد يعتذر لأنه لن يزورها الصيف المقبل، ولن يحضر هدايا للأطفال، وربما لن يزورها لصائفات عديدة بعد. وقد يعلمها بعودة نهائيّة ليستقرّ إلى جوارها. ذلك يعتمد على المسار الذي ستتخذه المحاكمة..

رفع رأسه حين فتح الباب فجأة. حدّق في عدم تصديق حين ظهر أمامه وجه مألوف وغريب في آن. مألوف لأنه يعرفه كل المعرفة، وغريب لأنّه لم يتوقع أن يراه هناك البتة. هتف في دهشة:

- كارولين؟ كيف..؟!

قبل أن ينهي تساؤله، كانت قد قطعت الأمتار التي تفصلها عنه وارتمت عليه تعانقه بقوّة وحرارة. لم يستطع أن يصدّها أو يدفعها عنه. فقد تعاونت ذراعاها التي طوّقته مع اللفافات القطنية التي تكبّله مع عطرها الأنثوي النفّاذ الذي كاد يقطع أنفاسه. حين ابتعدت عنه واتخذت مجلسًا على طرف سريره سألها في لهفة وقد تزاحمت الأسئلة على طرف لسانه:

- أنت بخير؟ كيف نجوت؟ وكيف وصلت إلى هنا؟

ابتسمت في حزن وهي تكفكف دموعها التي أسالت كحل عينيها وقالت:

- أنا بخير.. غادرت المبنى قبل ثوانٍ من الانفجار القاتل. كنت محظوظة. حين عرفت أنّك هنا، اتصلت بأصدقاء لي في النّيابة العموميّة، ودبّرت إذنًا بالزّيارة.

- والآخرون؟ هل نجوا؟

هزّت رأسها في أسى علامة النفي، فأطرق متألمًا. كان سؤالًا عقيمًا، فقد سبق وأنبأه المحقق عن الضحايا الثمانية. لكنّ معجزة ظهور كارولين أمام عينيه ذلك الصّباح غذّت في نفسه أملًا مستحيلًا. فوجئ بها وهي تمسك كفه نصف المضمدة بين يديها الناعمتين، في حين أخذت الكلمات تتدفّق من فيها وهي ترنو إليه في حنوّ:

- أنا آسفة.. أنا آسفة للغاية لكل ما حصل معك. شيء فظيع، فظيع جدًا. كيف أمكنهم أن يوجهوا إليك هذه التهمة؟ ألا يكفي ما ألمّ بك من أذى جسديّ؟ حين علمت أنّك كنت هناك ساعة الحادثة لم أستطع النّوم. أصابني الفزع.. منذ علمت بما أصابك وأنا أحاول الوصول إليك بأي طريقة. حين بلغني نقلك إلى باريس، سافرت على الفور وقمت بكل الاتصالات الممكنة حتى أكون هنا اليوم. لا شك أن الفترة السابقة كانت قاسية جدًا عليك.. الألم والوحدة حين يلتقيان.

سحب عمر كفه بهدوء وقد ألجمته كلماتها الرقيقة. رغم كل ما فعله في السابق لصدّها ورغم الإهانة التي طالتها منه في لقائهما الأخير، لكنّها كانت الوحيدة التي اهتمت لأمره وجاءت لمواساته. هل يطردها كما طرد المحامية من قبل؟ هل يفضّل أن يبقى وحيدًا بدون معين في محنته هذه التي تزلزل الجبال؟ في أوقات الوحدة والاحتياج، لا تنتظر صديقًا حقيقيًا.. مجرد صديق، يفي بالغرض. بادرته من جديد قبل أن يتكلم:

- كيف يمكنني أن أساعدك؟

أطرق في صمت للحظات. هو نفسه لا يدري كيف يمكنها أن تساعده. هل هناك شخص قادر على إخراجه من مأزقه ذاك؟ ربما لم يعد يثق في الأشخاص، لكن...

ردّدت في إصرار:

- اطلب منّي أيّ شيء.. أيّ شيء يمكنه أن يخفّف عنك هذه الأزمة؟

قال دون تردّد:

- أريد كتاب قرآن.

****

جلست ياسمين على مقعدها المواجه لطاولة المطبخ وأخذت تقضم قطعة الخبز المحمّص المدهونة بالمربى دون شهيّة. مضى أسبوع كامل منذ رأت ميساء آخر مرّة. لم تتّصل بها بعد تلك الليلة السّوداء التي أهانها فيها شقيقها. ربّما تعتقد أنّها غاضبة منها وغير راغبة في لقائها؟ أو ربّما تكون هي غاضبة لأنها تظنها قد نبذت أخاها؟ أيًّا كانت الاحتمالات، يجب أن تبادر بالاتصال بها قريبًا لتذيب الجليد القائم بينهما. لا تريد لعلاقتها بميساء وبقيّة العائلة أن تتأثر بتلك الحادثة. لا يمكنها أن تضيّعهم مرّة أخرى وهم سندها الوحيد في غربتها الباريسيّة. أخذت جرعة أخيرة من حليبها الدافئ ووقفت وقد استقرت على قرار. ستتّصل بميساء في استراحة الغداء.

التفتت حين سمعت صرير باب الغرفة المقابلة يفتح وتخرج منه رنيم. ألقت عليها تحية سريعة وهتفت وهي متّجهة إلى غرفتها لتأخذ حقيبتها:

- تركت بعض الحليب السّاخن على الطاولة.

حين خرجت من جديد، كانت رنيم قد أخذت مكانها في المطبخ. بادرتها هذه الأخيرة مداعبة:

- كيف حال سائقك؟

ضحكت ياسمين ثم قالت في سخرية:

- أصبحنا صديقين.

- حقًّا؟

- هناك محاولات من جانبه على الأقل. يستقبلني بابتسامة واسعة كل يوم وتحيّة مؤدبة.

- استمتعي بوقتك يا عزيزتي.

كانت ياسمين قد وصلت إلى باب الشقة الخارجي وتهمّ بالانصراف، حين استوقفتها رنيم في تردّد:

- لحظة.. هل تعطينني رأيك؟

- في ماذا؟

قبل أن تردّ رنيم، انتبهت ياسمين إلى هندامها المتغيّر. كانت رنيم قد ابتعدت عن الطاولة التي كانت تحجب نصفها السفليّ ووقفت في وسط الغرفة. كانت ترتدي فستانًا طويلًا أسود، كأنه فستان سهرة، ووضعت فوقه سترة عنّابية طويلة الأكمام مزررة بالكامل. رفعت ياسمين حاجبيها في دهشة، فقالت رنيم وقد تضرّجت وجنتاها حرجًا:

- هذا الفستان الطويل الوحيد الذي أملكه.. ما رأيك؟

لم يبد على ياسمين أنّها قد استوعبت الطلب، فقالت ببساطة:

- فستان جميل.

لوت رنيم شفتيها في امتعاض وهي تقول دون أن تواجه نظراتها:

- ذلك المتّهم الذي أخبرتك عنه، أهانني في المرّة الماضية بسبب ثيابي. أريد أن يكون لقاؤنا هذه المرّة جادًّا ومثمرًا.. لذلك أودّ أن تعطيني رأيك لأنّه.. لأنّه يبدو من نفس الصّنف.

- نفس الصّنف؟
كان حرج رنيم يتزايد وهي تقول في ارتباك ظاهر:
- أعني، أنت وهو.. من نفس الصّنف. يتحدّث عن الإسلام والالتزام والملابس المحتشمة.
ضحكت ياسمين وقالت مخففة عنها:
- نعم، نعم.. فهمت. هكذا ممتاز.
ثم أضافت وهي تتجه إلى الباب:
- إن شئت، يمكنك استعارة بعض ثيابي.
حين صارت وحدها في الشارع، تسللت ابتسامة واسعة إلى شفتيها. لم تعتقد أن رجلًا غريبًا يقبع وراء القضبان ستكون له اليد الأولى في تأديب رنيم. لو كانت تلقت نصيحة منها أو من غيرها لاعتبرتها اعتداءً على حريّتها الشخصيّة. أما في إطار العمل، فهي قادرة على تقديم كل التّضحيات حتى تنجح في قضيّتها.
أيًّا كنت أيّها الغريب المجهول، جزاك الله خيرًا!
****
كانت السّاعة تشير إلى الثانية عشرة والربع حين باغتتها جولي وهي تدخل مكتبها في ضوضاء مرحة. ضربت بكفّها على المكتب ثم جلست قبالتها وهتفت في لهجة حازمة:
- موظفو القسم يتناولون غداءً جماعيًا اليوم.. هي عادة شهريّة لدينا. فكرت أن الدّعوة ربّما لا تكون قد وصلتك، لذلك مررت لاصطحابك. ستأتين أليس كذلك؟
بعد محاولات عدّة لجعلها تنضمّ إليهم ها هي تحاصرها بشكل لا يسمح بالمراوغة. حين لمحت تردّدها قالت وهي تستعجلها:
- لقد سبقونا جميعًا. وأنا تأخّرت وأخبرتهم أنني سأمرّ عليك.
تنحنحت ياسمين وهممت في ارتباك:
- في الحقيقة...
لم تكن قد أنهت جملتها حين تعالت طرقات جديدة على الباب، جعلت كلتيهما تلتفت. تسمّرت مكانها في دهشة حين طالعها آخر شخص قد تتوقّع رؤيته هناك.. هيثم! خاطبها بالفرنسية متجاهلًا وجود جولي، قال وهو يشير إلى ساعته كأنّه يذكرها بموعد ما:
- تأتين للغداء؟
وقفت جولي معتذرة وهو تقول:
- يبدو أن لديك موعدًا آخر.. لا بأس هذه المرّة.
تنحّى هيثم عن الباب قليلًا ليترك مجالًا كافيًا لانصراف جولي. في حين راقبتهما ياسمين في حيرة. كانت ممتنّة لهيثم لأنه أنقذها من دعوة جولي المحرجة، لكنّها لم تنسَ بعدُ كلماته الموجعة في آخر لقاء لها به. حدجته بنظرة صارمة وهي تقول:
- نعم، بماذا أخدمك؟

تنهّد وهو يشيح بوجهه. لم يكن برودها مفاجئًا:

- ميساء أرادت أن تفاجئك اليوم بدعوتك على الغداء.

رفعت حاجبيها في دهشة. يا حبيبتي يا ميساء! كانت تفكر بالاتصال بها منذ دقيقتين، حين دخلت جولي. سرّها ذلك التوارد في الأفكار بينهما. لكن تلك اللئيمة كانت أكثر جرأة وبادرت بالمجيء إليها. كادت تبتسم، لكنّها تذكرت هويّة الشّخص الماثل أمامها، فقالت في جدّية:

- ميساء؟ أين هي؟

- تركتها تنتظر في الأسفل عند الاستقبال.

عقدت حاجبيها في استغراب، فأردف:

- طلبت مني أن أرشدها إلى المكان، فوجدت الفرصة مناسبة لنتحدّث قليلًا.. ونوضح بعض الأمور.

قالت في جفاف:

- ليس بيننا أي أمور تستحق التوضيح.

أجاب متجاهلًا كلماتها:

- ميساء حسّاسة جدًا وتعتقد بأنّ صداقتكما قد تأثرت بعد الخلاف الذي حصل بيننا.

خلاف؟ هل يسميه خلافًا؟ كتمت غيظها ولم تعقب بكلمة. استمعت إليه في سكون وهو يواصل:

- لا أريد أن أكون سببًا في إفساد العلاقة بينكما.. ولا أريد لتلك الحادثة أن تمنعك من زيارة العائلة. هل يمكن أن ننسى ما حصل ونتجاوزه.. كشخصين راشدين؟

عاد إليها الغضب الذي كبتته في تلك الليلة وأحسّت بضغطها يرتفع. قالت وهي تمثل البرود:

- لن تكون سببًا في التّفرقة بيني وبين ميساء وخالتي زهور، لأنهما أغلى عندي من كل هذه الحكاية التافهة! سأتجاوز عن الأمر.. باختياري. لكنّني أذكّرك بأنّه لم يكن مجرّد.. "خلاف"!

ابتسم وهو يدرك تمامًا تلميحاتها:

- حسن أنا أعتذر.. لم أرد أن أكون فظًّا معك في المرّة الماضية.

سألته في استغراب ساخر وهي تضيّق عينيها:

- لم ترد أن تكون فظًّا؟

قال في ارتباك وقد تبين له التناقض في كلماته:

- أقصد.. تعمّدت ذلك، لكنّني لست كذلك في العادة.. ليس هذا من طبعي.

لم تختفِ علامات السّخرية من على وجهها وهي تنشغل بترتيب أوراقها. استطرد في هدوء:

- نعم، تعمّدت ذلك. أردت الظهور بشكل سيّئ أمامك حتّى يأتي الرّفض من طرفك. كنت أريدك أن تستنتجي من تلقاء نفسك أنّني لا أناسبك.

رفعت رأسها دون أن يبدو عليها أنّها قد استوعبت ما قيل للتّوّ. لم تكن تفهم شيئًا. تعمّد الفظاظة حتّى ترفضه؟ من الرّجل هنا؟

هل أجبره أحد على هذه الخطبة حتى يتهرّب منها بهذه الطريقة؟ كان يكفيك يا هذا ألا تتقدّم منذ البداية، وكفى الله المؤمنين شرّ القتال.

واصل وهو يحاول قراءة ما يراودها من أفكار:

- في الحقيقة، هناك فتاة أخرى في حياتي.

حدجته بنظرة احتقار وقالت:

- ولماذا لم تصارح خالتي زهور بذلك وتجنّبني ونفسك كل هذا الإحراج؟

احتجّ وقد تسللت بوادر الانفعال إلى ملامحه الباردة:

- وهل تظنّينني لم أفعل؟ لكنّ والدتي غير مقتنعة بالفتاة.. لذلك خطبتك من عائلتك دون علمي أو استشارتي.. لتلوي ذراعي وتجبرني على التخلي عنها.

نظرت إليه في عدم تصديق. خالتي زهور؟ كيف؟ لماذا؟ مرّت لحظات صمت من الجانبين. سألته بعدها في هدوء:

- وهل سألت نفسك لماذا خالتي زهور غير مقتنعة بفتاتك؟

أشاح بوجهه وقال في انزعاج وهو يخفي كفيه في جيوب سرواله:

- تحدثنا طويلًا في الموضوع.. أنا أقدّر أسبابها، لكنّني غير مقتنع بها.

كان الحديث يحيد عن مساره الأوّل. لماذا سألته؟ ليس ذلك من شأنها. ساد بينهما صمت قصير إضافي قبل أن يقول هيثم وهو يوليها ظهره:

- لا تنسي، ميساء تنتظر في الاستقبال.

لم تتحرّك من مكانها بعد انصرافه. لبثت متفكرة لدقائق قليلة، ثم زفرت بقوّة وهي تقوم من مكانها. ميساء تنتظرها.

****

على الأريكة العريضة التي تتوسّط غرفة المعيشة في الشقة الباريسيّة الصّغيرة، استرخت الفتاتان مشتركتين الدّثار وهما تتابعان عرضًا ترفيهيًا على الشاشة. زفرت ياسمين في ملل وهي تعقد ذراعيها أمام صدرها. ثم ألقت نظرة جانبيّة حذرة على رنيم التي بدا عليها السّرحان. بادرتها محاولة ملء فراغ الغرفة الصّامتة:

- لم تخبريني.. كيف كان لقاؤك مع المتّهم اليوم؟

- هاه؟

التفتت إليها رنيم التي كانت تحدّق في الشاشة دون تركيز، وقد ذهب تفكيرها بعيدًا.. أخذت جهاز التحكم وراحت تتنقل بين القنوات دون اهتمام:

- لم أذهب إلى المستشفى اليوم.

- لماذا؟

قالت دون أن تنظر إليها:

- لم أستطع الذهاب.. انشغلت في المكتب مع فيفيان.

رفعت ياسمين حاجبيها في استغراب:

- حقًا؟

تنهدت رنيم وهي تلقي الجهاز وترفع ذراعيها لتسند رأسها وتستلقي إلى الوراء:

- لست واثقة. لا يمكنني أن أعود للقائه وأنا غير واثقة من براءته.

هزّت ياسمين رأسها علامة المتابعة وانتظرت أن تكمل رنيم حديثها.

- في الزيارة السابقة، قال إنه لا يريد محاميًا لا يؤمن بقضيّته. فكرت كثيرًا في الأيام الماضية. قلّبت كل تفاصيل الملف، شهادة الحارس ومختلف موظفي الشركة، التقرير عن عملية تفتيش شقته، تقرير الخبراء عن الانفجار.. لم يكن هناك دليل مباشر وقاطع أو حُجة ملموسة على أنه فجّر المكان متعمّدًا. لكنّه الوحيد الذي كان على عين المكان. الانفجار حصل في مختبره. الحارس سمعه يصرخ "الله أكبر" قبل الانفجار بدقائق. زملاؤه ورؤساؤه شهدوا بأنّه شخص انطوائيّ ومنعزل، بل أنّ بعضهم ذهب إلى وصفه بغرابة الأطوار. حين قام رجال الشرطة بتفتيش شقته، رأوا شخصًا ما يقفز من النافذة ويفرّ من المكان. تقرير الخبراء يفيد بوجود مواد غريبة في المختبر لم يكن من المتوقع أن تكون قابلة للانفجار، ولم يكن من المفترض أصلًا أن تكون هناك.

زفرت من جديد وهي تتابع في ضيق:

- وجهة نظر حاكم التحقيق تتّجه نحو عمليّة إرهابيّة هو منفذها ويشترك فيها مع شخص أو أشخاص آخرين، أحدهم الذي فرّ من الشقة. الموادّ التي تمّ العثور عليها من قِبَل الخبراء قد يكون استعملها لصناعة قنبلته. وصْف زملائه له بالمعقّد وإدمانه العمل إلى ساعات متأخرة حسب شهادة الحارس، كلها تجعل منه المضطرب النّفسيّ المثاليّ لتنفيذ عمليّة انتحاريّة مجهولة الدّوافع.

- أليس غياب الدّافع سببًا محتملًا للاعتقاد بالبراءة؟

- أقول إنّ الدّوافع مجهولة بمعنى أنّها لم تحدّد بعد على وجه الدّقة. قد تكون تصفية لطرف ما. ثمانية أشخاص لقوا حتفهم في الحادثة وقد يكون المستهدف أحدهم. أو إجهاض لمشروع علميّ ما. فقد تمّ إتلاف كميّات هائلة من الوثائق الخاصة بأرشيف قسم البحوث. أو استحواذ على مشروع سلاح كيميائي، فالمتهم مكث أكثر من سنة في الشركة بما يكفي للتجسّس على الأبحاث الجارية وتسريب وثائق إلى الجماعات الخارجيّة التي يهمّها الأمر.. في نهاية المطاف، إيجاد الدّافع يساعد على تفسير الجريمة في معظم الأحيان. لكن في أحيان كثيرة يبقى مجهولًا إلى النهاية، دون أن يمنع ذلك إدانة المجرم الذي تحاصره الأدلة.

- وهل تعتقدين أنه حاول الانتحار بالفعل؟

- لو رأيته لأدركت أنه لم يحاول الفرار من مكان الانفجار بأيّ حال! التشوّهات تغطي جسده بالكامل! لقد كانت نجاته معجزة.

- هل بدا لك شبيهًا بالإرهابيين؟ أو ربّما لمحت فيه علامات الجنون؟

- بالعكس.. بدا شخصًا هادئًا ومتّزنًا، لكنّه في نفس الوقت حازم وجريء، كأنّه في موقع قوّة.

- ماذا تقصدين؟

- لست أدري. كان يوجّه إليّ الأوامر. ويصرّ على ضرورة إيمان محاميه ببراءته. لكنّ ذلك ليس دليلًا في ذاته. أحيانًا أشك في أنّه قد يكون نفذ الجريمة لكنّه يرى نفسه بريئًا بمنطق غريب خاصّ به. تعلمين، هؤلاء الأشخاص لا يمكن تفسير طريقة تفكيرهم.

- ربما يكون بريئًا بالفعل.

عادت رنيم لتضغط في ضيق على أزرار جهاز التحكم وهي تقول:

- تحدّثت اليوم مطوّلًا مع فيفيان لأجعلها تعتبر احتمال البراءة، لكنّها وجورج مقتنعان بضرورة اعترافه بالجريمة. ومن المفترض أن أعمل على دفعه إلى الاعتراف.. لا أدري كيف!

قالت ياسمين في هدوء:

- أليس من المفترض أن يعتبر المتّهم بريئًا حتى تثبت إدانته؟

أومأت رنيم في صمت. في كل شرائع الأرض، المتهم بريء حتى تثبت إدانته.. وفي كل محاكم الأرض يُنتهك هذا المبدأ، باسم الأمن القومي وقوانين الطوارئ والإجراءات الوقائية والإحصائيات المعدلة و... كل المبرّرات الممكنة مهما كانت درجة صحتها وإقناعها.

تابعت ياسمين:

- إذن اعتبريه بريئًا حتى يثبت لديك غير ذلك. وفي الأثناء يمكنك التعامل معه على أساس البراءة، ولن تكوني كاذبة حين تعودين إليه وتؤكدين رغبتك في الدفاع عنه.. في نفس الوقت أخبري رؤساءك في المكتب أنّك تعملين على الحصول على اعتراف، وواصلي أبحاثك حتّى تتّضح لديك الرؤية. خذي موقفًا وسطًا بين الجانبين، ومع انكشاف المزيد من الحقائق يمكنك اتّخاذ موقف أكثر وضوحًا.

ابتسمت رنيم وقد راقت لها الفكرة ثم ألقت برأسها إلى الخلف مجدّدًا في ارتياح وهي تقول:

- آه.. أشعر بحال أفضل الآن. شكرًا لك.

ابتسمت ياسمين بدورها وهي تهمس:

- إن أردت رأيي، فحدسي يخبرني بأنّه بريء.

استدارت رنيم لتواجهها وقالت في همس هي الأخرى:

- دعيني الآن من حدسك وأخبريني.. كيف كان يومك؟

عادت إليها تفاصيل لقائها غير المتوقع ذلك الصباح، لكنها قالت في لا مبالاة:

- رأيت ميساء اليوم، وتناولنا الغداء معًا.

رفعت رنيم حاجبيها وقالت مداعبة:

- حقًّا؟ انتهت الهدنة بينكما؟

أضافت ياسمين في لهجة غامضة:

- رأيت شخصًا آخر أيضًا.. شقيقها.

استدارت رنيم في تحفز وهتفت:

- من؟ ذلك المتعجرف لا أحد غيره! ماذا قلت له؟ هل تشاجرتما؟ لقنته درسًا كما علمتك؟

ندّت عن ياسمين ضحكة خفيفة ثم قالت:

- مهلك. جاء ليوضّح الأمور. يبدو أن الحكاية كلها كانت تخطيطًا من خالتي زهور.. لم يكن يريد الخطبة من الأساس، لذلك تصرف بغلظة حتى تنتهي الحكاية بأسرع ما يمكن.

- يا ســــــــلام! وهل أقنعتك توضيحاته وتأثرت بها؟ وانتهت الحكاية هكذا؟

هزّت ياسمين كتفيها في استهانة وهي تغوص في مقعدها ثم قالت بهدوء:

- كل هذا لا يهمّني.. لم أكن أريد هذه الخطبة أيضًا. حتى إن كانت خالتي زهور قد تسرّعت فربما يكون هذا أفضل. لأنّ علاقتي بالعائلة لن تتأثر.. أمّا هيثم، فهو كان مجرد صديق طفولة. لم يعن لي يومًا أكثر من هذا. حتى أنّني استأت في البداية حين حدّثتني والدتي بأمر الخطبة.. بالنسبة إليّ هكذا أفضل.

أنصتت إليها رنيم في صمت، ثم قالت في اهتمام:

- لأن هناك شخصًا آخر، يهمّك أكثر؟

ضحكت ياسمين وهي تهتف:

- أنتِ.. لم تنسي الأمر، أليس كذلك؟

- طبعًا. لم أتنازل بعد عن حكايتي. ستخبرينني الآن، من يكون ذلك الشخص الآخر؟

تنهدت ياسمين في ضيق:

- ليس هناك شخص آخر. كان لقاء عابرًا ولا يبدو أن القصة تحتمل بقيّة ما.

قصّت عليها مغامرتها الصيفيّة مع راكب المترو المجهول. واستمعت رنيم في حماس وترقب. حين وصلت إلى النّهاية الباردة في ذلك الصّباح الحزين، حين انتظرته طويلًا في المترو لكنه لم يظهر، أخفت رنيم فاها بكفّها وهي تغالب ضحكتها:

- لا أقصد السّخرية.. لكنّني لا أصدّق أنّ هذا النّوع من الحكايات ممكن الوقوع في القرن الحادي والعشرين! علاقة أفلاطونيّة تستمرّ كلّ هذا الوقت؟ لا شكّ أنّ الرّجل معقّد.. أو غير مهتمّ!

- أنت لا تفهمين!

قرأت الانزعاج في وجه ياسمين فتابعت:

- يا عزيزتي، الرّجل كائن غريزيّ بطبعه. غريزة التملّك والسّيطرة والتّزاوج تقود تصرّفاته تجاه المرأة. لذلك من الطّبيعي أن يسعى إلى التّقرّب من المرأة التي يحبّ، أن يحاول معرفة كلّ شيء يخصّها، وأن يعبّر عن ميله وإعجابه أيضًا، إن لم يكن بالكلمات، فبلغة الجسد.

هزّت ياسمين رأسها رافضة قانون الغريزة الذي تعرضه رنيم:

- لا تقعي في التّعميم. ليس كل الرّجال على هذه الشاكلة. وأعتقد أنّك لم تتعرّفي بعد على النوع الذي أتحدّث عنه.

مطّت رنيم شفتيها في عدم اقتناع. في عرفها الرّجال كلّهم متشابهون. في محيطها يغازل الرّجل المرأة، يمسك بيدها ويدعوها

إلى حفلة وقد يشاركها الرّقص، وحين يكون مهتمًّا يحرص على الحصول على رقم هاتفها، ويتّصل بها في ساعة متأخّرة من اللّيل حتى يكون صوتها آخر ما يحمله معه إلى عالم الأحلام. في عرفها أيضًا، لا يناقش الرجل المرأة التي يحبّ في أمور السيّاسة والتّاريخ والأدب. يفعل ذلك مع الأصحاب، ويخصّها هي بعذب الكلام، يجعلها تضحك ويصغي إليها لساعات وهي تهذي عن مشكلاتها اليوميّة التّافهة.. ومن يفعل غير ذلك فهو بالتّأكيد معقّد أو لا يجيد قواعد اللّعبة، وبالتّالي لا يستحقّ الاهتمام.

- أنا أقول إنّ هذا الرّجل ضيّع على نفسه الفرصة وانتهى الأمر. هو الخاسر في النّهاية يا عزيزتي!

أطرقت ياسمين ولم تعلّق. ربّما حزّ في نفسها ألا تؤمن رنيم بعاطفتها النقيّة المجرّدة أكثر مما آلمها ضياع تلك العاطفة.. إلى الأبد.

****

لم تكن خائفة هذه المرّة حين تجاوزت باب الغرفة. لم ترسم على شفتيها نفس الابتسامة المتملقة التي لم تنفع البتّة في الزّيارة السّابقة، بل اكتفت بنظرتها الحازمة التي تميّزها في أوقات الجدّ والتّركيز. حين دفعت دفّة الباب وأطلت عليه، كان منغمسًا في قراءة كتاب يستقرّ على ركبتيه.

- يجب أن نتحدّث.

بادرته في لهجة جادّة ودون مقدّمات. كانت مصمّمة على المضيّ في هذه القضية وكان ذلك واضحًا في كل حركاتها. لم يرفع عمر رأسه عن كتابه حين انتبه إلى اقتحامها المكان. حدجته رنيم في ضيق وهو يواصل قراءة السّطور دون اهتمام بوجودها. تكلمت مجدّدًا:

- أريد الدّفاع عنك حقًّا، ولذلك أنا في حاجة إلى تعاونك حتى نخرجك من هنا.

مرّت بضع ثوان من الصّمت قبل أن يغلق الكتاب دون أن يبعد نظراته عنه. تابعت رنيم حركاته في ترقّب. لمحت اضطراب أصابعه التي كانت تقبض على الغلاف الجلدي المزخرف. آه، كان كتاب قرآن. ذكرها بالكتاب الذي يستقر على منضدتها منذ أيام. لم تكن قد قرأت فيه بعد. عادت إلى الواقع حين جاءها صوته أخيرًا حزينًا كأن به خدرًا:

- هل أنت مقتنعة ببراءتي؟

قالت في ثقة:

- نعم، أنا مقتنعة.

رفع عينيه إليها في شيء من الدّهشة فلمحت لوهلة الإغماضة الخفيفة لعينه اليسرى التي استغنت عن الضمادة، والجرح الغائر الذي شقّ أعلى وجنته باتجاه الصّدغ، لكنه سرعان ما أشاح بوجهه كعادته. تابع في هدوء:

- ما الذي تغيّر في أيام قليلة؟

كان أقل حدّة واستهزاء من المرّة الماضية. ربّما لأنه لمس تأثير كلماته في هندامها وهيئتها. ربّما لأنّها لم تكن متردّدة ومذبذبة مثلما كانت في زيارتها الأولى. ربّما لأنّ أيام التفكير القاسية أقنعته بأنّه غير قادر على خوض المعركة وحده. كان في حاجة إلى يد المساعدة من كل من يقدّمها. وهي تبدو مصرّة على تمثيله أمام المحكمة. بعد أن صدّ كارولين لشهور طويلة، رضي

بمجالستها وبزياراتها. ربّما لأن الأمل الذي تحمله إليه فاق الضيق الذي كان يلقاه من فتنتها. ربّما لأنه أصبح يحمل همومًا أكبر من شهوات النفس وفتنة المجتمع وغرائز الجسد. ربّما لأنّ هاتين البنتين هما كل من يؤمن بعدالة قضيته على سطح هذه البسيطة. ربّما.

جذبت رنيم كرسيًا وجلست تجاهه. قالت في حزم:

- ليس أمامنا وقت نضيّعه. المحاكمة ستبدأ بعد أسبوعين. لذلك أنا بحاجة إلى كل التفاصيل التي قد تساعدنا.

لم يردّ بكلمة واحدة. ما يزال متردّدًا. تابعت في إصرار:

- شهادات زملائك في العمل ليست مطمئنة أبدًا. ألم يكن لديك أصدقاء في الشركة؟ هل هناك من يمكننا أن ندعوه للشهادة أمام المحكمة ليقول كلمة طيّبة عنك؟

تنحنح في استحياء ثم قال:

- هناك.. وليد الرّاجحي. ليس صديقًا بأتم معنى الكلمة، لكن علاقتنا كانت طيبة.

أخفت رنيم ابتسامة الظفر التي حاولت التسلل إلى شفتيها. لقد انتصرت في الجولة الثانية. كسرت بروده وأقنعته بالاستمرار في القضية، وهذا يعدّ نصرها الأول على عناد موكلها. أخفت علامات السرور وقالت في جدّية وهي تسجل في دفتر ملاحظاتها الأسماء التي يذكرها:

- هل هناك شخص آخر؟

(19)

الاختبار

طرق الباب بهدوء وقال في برود متعالٍ:

- هل يمكنني أن آخذ القليل من وقتك؟

رفعت ياسمين رأسها لتلمح باتريك يقف أمام مكتبها وبيده حزمة من الملفات. وقفت في ارتباك وقد تذكرت رسالة دافيد الإلكترونية الأخيرة. سيكون عليها أن تعمل معه على بعض الأمور الإدارية.

- أنا جاهزة متى شئت.

لم ينتظر ردّها وتقدّم ليضع كومة الأوراق على سطح مكتبها في حركة فوضويّة. لم يكن يعاملها بقسوة ولم تلمح في تصرّفاته تطاولًا أو قلة احترام.. لكنها بشكل ما كانت تجده عدائيًا. ربّما هو انطباع ترسّب في نفسها بعد تلك الحادثة في المصعد. أو ربّما هو البرود المغلف بالأدب الذي تنطق به كل كلمة على لسانه. جلس على الكرسي المقابل لها وقال وهو يتناول الملف الأول:

- سأشرح لك طريقة العمل، ثم أتركك تنجزين الملف الثاني وحدك.

هزت رأسها علامة الموافقة، ثم تابعت شرحه في انتباه واهتمام. كان يتكلم بسرعة ويقلب الأوراق بسرعة أيضًا، دون أن يترك لها فرصة الاطلاع عليها بالكامل. لكنها لم تقاطعه. أخذت ورقة وقلمًا وأخذت تسجل التعليمات بأقصى سرعتها. كانت هناك كلمات مختصرة تسمعها للمرّة الأولى، لكنها لم تستوضح عنها. سجلت ما أمكنها تسجيله واحتفظت باستفساراتها لنفسها في عناد. لم تكن تريد أن تظهر جهلها أمامه. كلما أشكلت عليها جزئيّة تذكرت تشبيهه لها بعاملة النظافة فتحجم عن السؤال. ستثبت له أنها قادرة على فك شفراته المعقدة دون أن تعلن عجزها.

- هل لديك أي استفسارات؟

هزّت رأسها علامة النّفي في مكابرة مستميتة. ابتسم وهو يقف مغادرًا المكتب:

- طيب.. بالتوفيق.

ابتعد باتريك وعلى شفتيه ابتسامة ساخرة. كيف أمكنها أن تكون بهذا الغباء؟ يعلم أنّه تعمّد الغموض في توضيحاته. انتظر منها أن تسأل عن التفاصيل وتستوقفه، لكنها لم تفعل. متأكد من أنها لن تنهي الملف في وقت قريب، حتى إن أنهته فسيكون مليئًا بالأخطاء حتمًا.

في مكتبها انكبت ياسمين على ملفها في جدّية. مضت ربع ساعة وهي تحاول فك شفرة الألغاز التي ألقاها إليها باتريك دون جدوى. بعد فترة من التفكير العقيم، أخذت سماعة الهاتف وكوّنت رقمًا.

****

حين جلس باتريك إلى مكتبه، لم يستطع التركيز. عادت إليه دون استئذان صور من حياته السابقة في طهران. كان ذلك أول

عهده بالمجتمعات المحافظة. لم تكن هناك امرأة واحدة في محيط عمله، إيرانيّة كانت أم أجنبية. في الأماكن العامّة، لم يكن يلمح سوى العباءات السوداء التي تتحرك كالأشباح، لا يُرى منها إلا عينان وأحيانًا لا شيء، مجرد سواد دامس! كان يرثي للمرأة المسلمة التي بدت له تعيش في الظلام، على هامش المجتمع.. لا تقود السيارة، لا تغادر منزلها وحدها، لا تسافر وحدها، لا تتحدّث إلى الرجال ولا تختلط بهم في عمل أو فسحة أو غيرهما.

ثمّ حصل أن لاحظ حركات معاكسة خفيّة بين بعض الشباب المائع وصاحبات العباءات حين توقّفت سيّارته في إشارة ضوئيّة. تلك المشاهد كانت تثير دهشته في البداية. لكن كل شيء تغيّر منذ حضر جلسة خاصّة نظمها أحد رفاقه المحنّكين في كواليس المجتمع الخفيّة. اقتنع بالانضمام إلى شلة الأنس بعد أن أصابه الاختناق من رتابة الحياة وخلوّها من جلّ أصناف المتعة التي عرفها في بلده. وحين رأى تينك الفتيات يدخلن الشقة الشبابية بعباءاتهن السّوداء، ثم ينزعنها ليكشفن عن وجوه تشبه الألواح الزيتية بأصباغها الفاقعة وعن أجساد فاتنة تترنح في مشيها على أنغام الموسيقى الغربيّة التي ملأت أرجاء المكان، وتكاد تتمزّق فوقها الثياب الضيّقة التي انشقت كالشرانق لتمنح الحريّة للفراشات الليليّة، تغيّرت نظرته بالكامل. كان يجب أن يعلم أن حياة سريّة أخرى من النفاق والملذات تدبّ في أنحاء المجتمع تحت غطاء الحشمة والقيم.

لم يكن يعلم شيئًا عن الوجه الآخر لحياة تينك الفتيات، عن عائلاتهن أو مستوياتهن الثقافية أو حتى أصولهنّ الجغرافية. لا يعلم حتّى إن كنّ إيرانيّات، بل لعلّ بعض ملامحهنّ كانت تفضح أصولًا جنوب آسيوية. لكنّ نشوته بالاكتشاف المخزي فاقت كلّ شيء وغذّت حقدًا مستترًا كان يبحث عن فرصة للإعلان عن نفسه. كان يلذّ له أن يقع على تلك الثغرة التي تشوّه صورة الإسلام والمسلمين الذين يتبجحون على مدار الساعة بخصال مجتمعاتهم المحافظة.. لحاجة في نفسه.

منذ ذلك الحين، أصبحت تسليته المفضلة في أوقات الفراغ أن يضع ملامح من صنع خياله على كل وجه يغطيه البرقع، أو أن يتوقع وجهة كل فتاة تغادر بيت والديها وهي تبدي حشمة وتعففًا. وفي لحظة تهوّر فكّر في نشر الصّور التي تملأ جوّاله عن السّهرات الخاصّة التي حضرها مرّات عدّة. ومع أنّه لم يقدم على ذلك أبدًا، لكن مجرّد التفكير في ردود فعل أرباب العائلات المحترمة التي تورّطت بناتها، يصيبه بنوبة ضحك مرضيّ. لم يعد هناك مكان في مخيلته للنّوايا الحسنة. بالنسبة إليه كل امرأة تغطي جسدها هي ضحيّة رجل يفرض عليها سجن الثياب والأقمشة، لكنها أيضًا تسلية رجل آخر ترتكب بين يديه كل الممنوعات حالما تغفل عنها الأعين.

لكن قصّة حقده الدفين أقدم من عمر سفره إلى إيران، وعصبيّته التي تغالبه في حضور ياسمين أعمق من مجرّد خيالات مريضة أو احتقار لجنس أو فئة. كانت بداخله عقدة حقيقية يجهلها كل من حوله. في أغلب الأحيان ما يعرفه الناس عن معارفهم وأقربائهم وحتى أصدقائهم المقربين من مشاعر ومواقف يماهي الجزء السطحيّ من الجبل الجليديّ العائم فوق البحر، أمّا الجزء الخفيّ والأعظم حجمًا فتحول حواجز كثيرة دون ظهوره إلى العيان.. مثل الاحترام والآداب والمراسم الاجتماعية، وأهمّها الرغبة في الحفاظ على صورة شخصية لامعة. وباتريك كان أكثر الناس حرصًا على إخفاء عقدته النفسيّة المستفحلة وحفاظًا على صورته في محيط عمله، والجبل الجليدي بداخله كان أعمق وأضخم من أن يحزر أحدهم وجوده.

في مجتمعه الفرنسيّ، كان الإسلام مرتبطًا في المجمل بالمهاجرين من شمال إفريقيا، ولذلك فإنه يرتبط أيضًا بالمهن الحرفيّة وضواحي المدن الكبرى بأحيائها الشعبية ذات الظروف القاسية والشباب المنحرف.. فلم يكن من الشائع أن تفرز أفرادا

ناجحين على المستوى الأكاديمي، وإذا أشرقت الدنيا في وجه أحدهم فقد يسعفه الحظ ليصبح فنانًا فكاهيًا، لاعب كرة قدم أو مطربًا شعبيًا. أما الدّراسات العليا والشهادات العلميّة فلم تكن في متناول هؤلاء. عدا استثناءات قليلة، كانت ياسمين إحداها. أما الاستثناء الآخر الذي عكّر حياته إلى درجة التشوّه، فقد تمثّل في شخص الرجل المتعجرف الذي سرق منه شقيقته الوحيدة. نعم لقد تزوّجت شقيقته من رجل مسلم.

- باتريك، أنت هنا؟ أنتظرك في الأسفل منذ عشر دقائق.

ارتسمت على شفتيه ابتسامة واسعة وهو يطالع الشابة الأنيقة التي وقفت عند باب مكتبه وقال معتذرًا:

- أنا آسف.. انشغلت بعض الشيء. هيا بنا يا حبيبتي.

أخذ سترته وقدّم لها ذراعه لتتأبطها، فأخذتها بكل سرور. كانا يهمّان بمغادرة المكتب حين سمعا طرقات متردّدة على الباب:

- سيد باتريك، أحضرت إليك الملف الذي طلبت.

قاوم الدّهشة التي حاولت التسرّب إلى ملامحه لسرعة ردّها، فحدج ياسمين بنظرة فارغة وقال في برود:

- عودي فيما بعد. ألا ترين أنني مشغول الآن؟

ارتبكت ياسمين وتسمّرت في مكانها. في حين ابتعد باتريك صحبة صديقته وهذه الأخيرة تهمس له:

- لماذا أنت قاسٍ هكذا مع الموظفين؟

جاءها صوته واضحًا بعد أن قطع بضعة أمتار في اتجاه المصعد:

- لا تهتمي، هذا مفيد لتكوينهم. الحياة المهنية ليست بالسهولة التي يتوقعها البعض.

****

جلست ياسمين تأكل في صمت والنّكات الصاخبة التي يطلقها جيران طاولتها تصل إلى أسماعها. لم ترافقهم إلا لأنها وعدت جولي بعد أن ساعدتها بشأن ملفها. كان من الغباء أن تعتقد أنّها قادرة على فكّ أحجيات باتريك بمفردها. بضع دقائق من المواجهة المرعبة مع تلك المفردات المبهمة كانت كافية لتتيقن من مدى تورّطها. اتصلت بجولي التي هبّت إليها على الفور وهي تستمع إلى نبرتها الباكية عبر أسلاك الهاتف، واستنفرت قوات مساندة من المكاتب الأخرى. تعاون الجميع على استكمال الخطوات المطلوبة ثم هنؤوا أنفسهم على اجتياز التحدّي كفريق. كانوا لطفاء ومرحين ومستعدّين لتقديم المساعدة، وقد أحبّت ياسمين ذلك للحظات.. قبل أن تتيقن من ورطتها الجديدة بمصاحبتهم.

لم تمض بضع دقائق حتى تأكد لديها إحساسها بأنها ليست في مكانها الطبيعي. حاولت جولي أن تجعلها تشارك في الحديث بتوجيه بعض الأسئلة إليها من حين إلى آخر، لكن إجاباتها المقتضبة جعلت هذه الأخيرة تستسلم وتتركها وشأنها. كانت تهزّ رأسها من حين إلى آخر وتوزّع بعض ابتسامات صغيرة متظاهرة بمتابعة الحوار.

توجّهت إلى الحمّام لتغسل وجهها وتأخذ نفسًا عميقًا. لم تكن تتوقع أن غداءً واحدًا سيكون ثقيلًا على قلبها بهذا الشكل. تنهدت وهي تطالع وجهها في المرآة، ولسبب تجهله تكرّرت في ذهنها كلمات باتريك الأخيرة "الحياة المهنية ليست بالسهولة التي يتوقعها البعض".

كانت تهمّ بالعودة إلى مائدتها حين لمحت وجهًا مألوفًا على مائدة أخرى قرب المدخل.. هيثم! تذكرت حينها أنه يعمل في بناية

قريبة من شركتها. يبدو أنه يتناول غداءه في هذا المطعم أيضًا. لم يكن وسط مجموعة كبيرة من الزملاء مثلها. كان يجلس إلى طاولة صغيرة منفردة، لكنه لم يكن وحيدًا. فضولها جعلها تتوقف لتحدّق في مرافقته التي توليها ظهرها. لم تر الكثير من ملامحها، غير شعرها الأشقر السبط الذي ينساب على كتفيها وبشرتها البيضاء الناعمة. انتبهت حين رفع هيثم عينيه ورآها. خفضت بصرها على الفور في هلع وابتعدت في اتجاه طاولتها. لقد ضبطها.

حين وصلت إلى مكانها كانت تلهث. لكن لحظة. من ذا الذي يجب أن يخجل من نفسه، هو أم هي؟ تمالكت نفسها بعد أن أيقنت تفوّقها عليه. رنت في أذنيها كلماته منذ أيام قليلة.. في حياتي فتاة أخرى. ارتسمت على شفتيها ابتسامة ساخرة. إن كانت مرافقته اليوم هي المعنيّة، فإنّ رفض زهور متوقع لا محالة. هزّت كتفيها في لا مبالاة. لا علاقة لها بالأمر. ذلك شأن يخصّه وحده. لكنها بشكل ما أحسّت بالخيبة. يقول إنه نجح في اختبار التوازن بين المبادئ والاندماج.. هذا واضح.

- ما بالك لا تأكلين؟

كانت قد عادت إلى الجلوس قبالة جولي، لكنها لم تكن في مزاج طيّب. هل يجب أن تخبر ميساء ووالدتها بما رأته اليوم؟ ليس من حقها أن تتدخل، وهيثم رجل راشد ومسؤول عن تصرّفاته. لكن علمها بمصاحبته لتلك الشقراء وإخفاؤه عن العائلة يشعرها بالذنب. أخذت حقيبتها ووقفت معتذرة:

- سأعود إلى المكتب. لديّ ملفات مستعجلة.

لم يكن بإمكانها التفكير وسط تلك الفوضى العارمة. ابتسمت مودّعة فريق الزملاء وانطلقت في اتجاه المخرج. حين وصلت إلى الباب استوقفها صوته على حين غرّة:

- ياسمين.. لحظة.

استدارت لتلمح هيثم وصديقته الشقراء يقفان عند مدخل المطعم. طالعتهما في استغراب. لم تكن تتوقّع أن يكون بتلك الوقاحة حتى يواجهها وهو برفقتها. ربّما يطلب منها ألا تخبر والدته وعائلته بأمره؟ بالطبع، زهور ليست مقتنعة بعلاقته هذه وتحاول منذ فترة أن تخطب له غيرها، ولا شك أنه وعدها بألا يراها مجدّدًا، لكنه ما زال يخلف وعوده. كل تلك الأفكار تبادرت إلى ذهنها تباعًا وهي تتقدّم في اتجاههما ببطء. قال بالفرنسية في هدوء غير متوقع:

- أعرّفك بلورا.

توقفت عيناها عند وجهها المليح وابتسامتها الرّقيقة. كانت شقراء حقيقيّة بجمال فرنسيّ هادئ. كل شيء فيها ينطق بالأنوثة، حتى الأقراط الذهبية التي تتدلى من أذنيها وتصدر رنينًا لطيفًا كلما حركت رأسها. حين لاحظ صمتها، أضاف موضحًا:

- لورا زميلة لي في العمل.. حديثة عهد بالإسلام.. وتحتاج إلى من يعلّمها الدّين.

بدت علامات الدهشة على ياسمين وهي تمدّ كفها لتصافحها. كانت قد توقّعت كل شيء، إلا هذا.

- آه! حقًا؟! كيف؟!

ارتبكت ولم تجد الكلمات المناسبة. كانت مفاجأة حقيقيّة. قالت بعد أن تجاوزت دهشتها:

- أنا سعيدة جدًا من أجلك. حمدًا لله على هدايتك إلى الإسلام.

شكرتها لورا في حياء ثم قالت:

- أنا لا أعرف الكثير عن الإسلام، ففي محيطي ليس هناك مسلمون.. لكنّني سررت كثيرًا حين التقيت هيثم. تعلمت منه الكثير في وقت قصير.

أضافت وهي ترنو إليه في إعجاب واضح وابتسامة واسعة تزيّن شفتيها:

- أنا ممتنة له حقًّا.

خفض هيثم رأسه في حرج وتنحنح في ضيق قبل أن يقول:

- أفعل ما بوسعي.
- معذرة؛ سأعود بعد حين.

قالت لورا ذلك وهي تبتعد في اتجاه الحمام. ما أن غابت عن ناظريه حتى قال هيثم بالعربية في جدّية:

- أظنك تفهمين الآن مواطن الخلاف بيني وبين أمي. لورا ليست البنت التي تحلم بها، لكنّها تتعلم بسرعة وتريد أن تصبح مسلمة بأتمّ معنى الكلمة.

سكتت ياسمين للحظات. كان بودّها أن تقول كلامًا كثيرًا، إنّه لا يجوز أن يرفع الكلفة بينه وبينها متعللًا بتعليمها الدّين، وإنّ المرأة لا تتعلم الدّين إلا على يد امرأة مثلها درءًا للفتنة، لكنّها أحجمت. لم يكن موقعها يسمح لها بإسداء النصائح، ولم تكن تضمن أن يتقبلها منها بالشكل المطلوب. وكأنّه يقرأ أفكارها مجدّدًا قال في حزم:

- لا يمكنني إن أتخلى عنها. ما يزال إيمانها هشًّا وقد ترتدّ إن لم تجدني إلى جانبها.

كانت قدرته على قراءة كلماتها الصّامتة تدهشها في كل مرّة. قالت محاولة تجاوز الإشكالية:

- هل يمكنني المساعدة؟

لم تكن الدّهشة هو ما لمسته في ردّه، بل نوع من اللهفة كأنّه كان ينتظر تلك البادرة منها:

- حقًّا تفعلين؟

حين عادت لورا بعد أن أعادت طلي وجهها بطبقة جديدة من المساحيق، فبدت مثل دمية جميلة على واجهة بعض المحلات، بادرتها ياسمين على الفور:

- إن كنتِ لا تمانعين، فسيكون من دواعي سروري أن نبقى على اتصال.

هتفت لورا والابتسامة العذبة لا تفارق شفتيها:

- آه هذا رائع! ستكونين أوّل أخت لي في الإسلام!

تبادلتا أرقام الهاتف تحت نظرات هيثم الراضية، ثم ودّعتهما ياسمين لتعود إلى مكتبها. حين ابتعدت بقدر كافٍ، استدارت لتلقي نظرة أخيرة على الثنائي الذهبي الذي انشغل عنها بسرعة وانغمس في أحاديثه. لمحت هيثم وهو يطرق في ارتباك وتحمرّ وجنتاه لملاحظة ألقتها لورا، في حين تتعلق عينا هذه الأخيرة بوجهه وهي ترنو إليه في شغف ظاهر. تنهدت ياسمين وهي تمضي لشأنها.

(20)

محكمة!

دخلت رنيم قاعة المحكمة وراء فيفيان وجلست إلى جوارها في صمت وهي غير قادرة على إخفاء استيائها. بعد كلّ الوقت الذي أمضته في دراسة ملفّ القضية، ها هي تحضر الجلسة الأولى كمحامية مساعدة، في حين استحوذت فيفيان على موقع المحامي الرئيسيّ. انتبهت حين فتح الباب الجانبي وتوافد المحلفون التسعة للجلوس في مكانهم المخصّص. عضّت على شفتها السفلى في غيظ وهي تتأمّل سحناتهم. تمنّت أن تشرف بنفسها على انتقاء المحلفين، لكنّ فيفيان بعجرفتها المعتادة ذهبت دونها. وبالنّظر إلى الأشخاص الموجودين في القاعة اليوم يمكنها أن تجزم أن فيفيان لم تكن مهتمّة أبدًا بمصلحة موكلها.

لم يكن بين المحلفين شخص واحد من أصول عربيّة أو أجنبيّة، بل لم يكن من بينهم صاحب بشرة ملوّنة واحد. ذلك الرجل الأشيب الذي يجلس باستقامة مبالغ فيها مخنوقًا بربطة عنقه مثلًا، إنّه النموذج الحيّ للباريسيّ الأصيل الذي يتذمّر باستمرار من اجتياح الأفارقة لفضائه الخاصّ. قد يتعامل مع بقّال أو سبّاك عربيّ، لكنّه سيتّهم أحدهما دون تفكير إن تعرّض منزله إلى السّرقة. وتلك السيّدة مشدودة الملامح التي ما تزال ترتدي قبعة سخيفة لا تتلاءم مع الموضة وتقبض بتزمّت على حقيبة يدها، إنّها ولا شك تسترجع في صمت تجربة قديمة حاول فيها عربيّ قذر التحرّش بها في وسيلة نقل عموميّ.. وهذا وذاك وتلك. بدوا جميعًا فرنسيّين أصليّين تضرب أنسابهم العريقة عميقا في تاريخ بلاد الغال. بل لعلها تقرأ في وجوه بعضهم علامات التشفي، كأنّهم جاؤوا لإنزال أشد العقوبات بهذا العربيّ الإرهابيّ الذي أقلق راحتهم في عقر دارهم.

زفرت في ضيق وهي تتوقع الأسوأ. لكنها قطعًا لن تستسلم. فتحت دفترها وراحت تراجع الأسئلة التي أعدّتها لاستجواب الشهود. تخاف أن ينسيها توترها بعضها، فتتلعثم وترجع لها إعاقتها القديمة. حانت منها التفاتة لتلمح فيفيان مسترخية على مقعدها وقد غاصت في محادثة هاتفية خاصّة تتخللها ضحكات ناعمة، كأنّ القضية برمّتها لا تعنيها.

أخيرًا دخل القاضي المختصّ في الإرهاب ومساعداه، فأغلقت فيفيان هاتفها على مضض. بعد قليل، دخل حاجبان أحدهما يدفع كرسيًا متحرّكًا، فالتفتت الأعين جميعها لمطالعة الوافد الجديد. ازدردت رنيم ريقها وسرت في جسدها قشعريرة باردة، تلك الرّجفة التي فاجأتها في لقائها الأول بعمر. كان يجلس على الكرسيّ في جَلَد ويواجه النظرات المعادية بقوة وثبات. دفعه الحاجب حتى وصل به إلى منصّة الدفاع، غير بعيد عن رنيم وفيفيان. سرت همهمة بين الحضور وقد ترك فيهم منظره مشاعر متباينة. وما لبث الصّمت أن ساد على قاعة المحكمة حين أعلن الحاجب الأوّل عن بدء جلسة الاستماع إلى الشهود، ثمّ نادى الشاهد الأول للمثول أمام المحكمة.

- بروفيسور دانيال بروكس، هلا ذكّرتنا بوظيفتك في شركة الكيميائيات؟

بادره النائب العام وهو يتقدّم في اتجاه المنصّة. تنحنح دانيال ليجلو صوته وقال:

- أنا مدير قسم الأبحاث في الشركة.

- هل كان لديك اتصال شخصي بالمتهم؟

- الدكتور عمر كان أحد الباحثين الجدد الذين وظفتهم الشركة السّنة الماضية، وراهنت كثيرًا شخصيًا على كفاءته والقيمة الإضافية التي سيقدّمها إلى الفريق والشركة ككلّ.

- هل كانت آمالك في موضعها بخصوص المتهم؟

عقد دانيال حاجبيه وبدا عليه التردّد:

- الدكتور عمر انضمّ إلينا منذ وقت قريب، والمشاريع في مجالنا تتطلب وقتًا طويلًا عادةً، سنوات ربّما.

قاطعه النائب العام:

- سأصوغ سؤالي بطريقة أخرى، طوال السنة الماضية هل وصلك مردود ملموس بخصوص نشاط الدكتور عمر في الشركة؟

- لا، لكن...

- هل كان لديك علم دقيق بنوعيّة الأبحاث التي يقوم بها؟

- ليس بالضبط.

- إذن من الممكن أن تكون الشركة قد موّلت دون علمها عملية صنع قنبلة ما، انتهت بالتفجر في مختبرها؟

- لست أدري.

بدا على الشاهد الاضطراب والانزعاج، لكنّ كلمات النائب العام كان لها تأثيرها على المحلفين. لاحظ بعين الرّضا علامات الاستهجان التي ظهرت على وجوه بعضهم، قبل أن يستكمل استجوابه بسؤال جديد:

- ومن النّاحية الاجتماعية، كيف كان المتّهم في محيط العمل؟ كيف كانت علاقاته؟

كان وجه دانيال ممتقعًا. حانت منه التفاتة خاطفة في اتجاه عمر، ثم واصل الرّد على الأسئلة محاولًا الحفاظ على هدوئه:

- في الحقيقة، لم أكن أرى الدكتور عمر كثيرًا.. فهو لم يكن يحضر الاحتفالات والتجمّعات التي تقيمها الشركة.. ولم أكن أراه أيضًا في المناسبات العامّة التي ينظمها الفريق، سواء كانت في مبنى الشركة أو خارجه.

- هل تجده يميل إلى العزلة والوحدة؟

تمهّل دانيال في الردّ محاولًا ترتيب كلماته، فكر في تبرئة ساحته قبل الاهتمام بشأن عمر:

- في اعتقادي الشخصيّ، لديه مشكلة في الاندماج في مجتمعنا بصفة عامّة، رغم الجهود التي نبذلها في القسم وفي الشركة عمومًا لجعل موظفينا ينسجمون بسرعة ويتأقلمون مع معطيات الحياة على الطريقة الفرنسيّة.. لم تعترضنا في السّابق مشكلات مع الموظفين الأجانب، فنحن حريصون على تهيئة الأجواء المناسبة وإزالة الحواجز بينهم بكل السبل. إلا أن الدكتور عمر أبدى عزوفًا مستعصيًا عن الحياة الاجتماعية في الشركة.

- بروفيسور بروكس، شكرًا لك. لا أسئلة لديّ بعد هذا.

عاد النائب العام إلى الجلوس في مقعده وعلى وجهه ابتسامة الظفر، بعد أن حصل من شاهده الأول على الاعترافات المطلوبة. التفت حينها القاضي إلى منصّة الدفاع، وأعطى الإذن ببدء الاستجواب. همّت رنيم بالوقوف، لكنّ قبضة فيفيان الحديدية استوقفتها في حزم، ثم وقفت لتقول:

- ليست لدينا أسئلة سيدي الرئيس.
التفت عمر إلى رنيم في غضب وهمس:
- ما الذي يحصل هنا؟
- لحظة أرجوك.
همست رنيم بدورها وقد أخذ جبينها يقطر عرقًا، ثم عادت لتهمس إلى فيفيان:
- دعيني آخذ الكلمة. هناك أسئلة مهمّة يجب أن أطرحها على الشاهد.
حدجتها فيفيان بنظرة صارمة وهي تقول:
- أنا المحامية الرئيسيّة هنا وقد قرّرت أنّنا لن نطرح أسئلة على الشّاهد.
قبل أن تعترض رنيم، ضرب القاضي على طاولته مجدّدًا وطلب من الحاجب أن ينادي الشاهد الموالي. لكنّ عمر هتف بشكل مباغت قبل أن يغادر دانيال كرسيّ الشهادة:
- سيدي الرئيس لديّ سؤال للشاهد من فضلك.
حدّقت فيه فيفيان في امتعاض، في حين أشار القاضي إلى دانيال ليعاود الجلوس. فلم يكن هناك قانون يمنع المتهم من طرح الأسئلة على الشهود بنفسه. تكلم عمر وهو ينظر إلى مخاطبه بقوّة وعمق:
- بروفيسور بروكس، هل تذكر حين جئت إلى مكتبك قبل الحادثة بأسبوع؟ ألم أحضر إليك ملفًا كاملًا عن مشروع "الاندماج البارد" الذي أعمل عليه بكل جوانبه التقنية والمالية؟ حينها طلبت منّي مهلة حتى تطلع على الدّراسة قبل طلب اجتماع لجنة معاينة للنظر في المشروع.. هل تذكر؟
ساد التوتر على القاعة وتوجهت نظرات الحضور إلى دانيال في ترقّب. تنحنح هذا الأخير ثم همهم بنفس التمهّل المدروس، يحمي نفسه وقسمه من جميع المساءلات المحتملة:
- نعم، أذكر أنك جئت إليّ بملف ما.. لكنّني لم أطّلع عليه ولا أدري ما يحويه بالضبط. وبما أن المكتب احترق بما فيه، مثل كل مكاتب القسم، فلم يعد بإمكاني البتّ بمضمون الملف.. ثمّ هل قلت الاندماج البارد؟ تلك الأسطورة القديمة؟
- لم تعد أسطورة يا سيّدي. والملفّ يحوي كل تفاصيلها.
كان صوت عمر قويًّا وواثقًا إلى درجة أرهبت رئيسه السابق وجمّدته مكانه.
همست رنيم مخاطبة عمر:
- ألم تكن لديك نسخة أخرى من البحث؟
- كانت لديّ نسخة في المكتب، لا شك أنها تحوّلت إلى رماد، ونسخة أخرى أخذتها إلى الشقة.
وقفت رنيم وتكلمت بصوت عالٍ مخاطبة الشاهد:
- بروفيسور بروكس، إن أمددناك بنسخة من الملف هل يمكنك معاينته هذه المرّة والتعرف على نوعية الأبحاث التي تضمّنها؟
- نعم بالتأكيد.
وقف النائب العام في احتجاج وقد أحسّ بحملته الهجومية قد بدأت تتبعثر في الهواء:

- أعترض سيدي الرئيس. ما هي أهمية هذا الملف بالنظر إلى القضية؟

هتفت رنيم في حدّة:

- أهمية الملف تكمن في تعريفه بنشاطات موكلي وأبحاثه طوال السنة الماضية، التي حاول النائب العام التشكيك في جديّتها.

ضرب القاضي على الطاولة منهيًا النزاع:

- اعتراض مرفوض. الشاهد الموالي.

جلست رنيم وهي تتنهّد في ارتياح. لكن فرحتها بالانتصار الجزئيّ لم تدم طويلًا، إذ مالت عليها فيفيان وهي تهمس في حدّة:

- ما الذي فعلته للتوّ؟ ألم أطلب منك عدم التدخل؟

تمتمت رنيم في ارتباك يشوبه ذهول:

- لكن.. هل فعلت شيئًا خطأ؟

- ششششش.. ولا كلمة بعد الآن.

عقدت ذراعيها أمام صدرها وهي تمطّ شفتيها في انزعاج، في حين راقبهما عمر في قلق؛ إن تواصل الأخذ والردّ بينهما بهذا الشكل فلن تسير القضية كما ينبغي. حين عادت فيفيان إلى العبث بهاتفها، همست رنيم إلى عمر بصوت خافت:

- اطلب رفع الجلسة.

حدق فيها في عدم استيعاب:

- أنا؟ أطلب رفع الجلسة؟

همست مجدّدًا وهي تهز رأسها بقوّة:

- نعم. أنت المعنيّ الأول بالقضية، وإذا كان أداء المحامي لا يناسبك فبإمكانك رفع الجلسة للتشاور.

تردّد عمر للحظات. كان الحاجب قد نادى على الشاهد الثاني الذي كان يتقدّم في اتجاه منصة الشهادة. تنحنح ليجلو صوته، ثم رفع كفه طالبًا الكلمة:

- سيدي الرئيس.

التفت إليه القاضي في انزعاج:

- ماذا هناك الآن؟

- سيدي أطلب رفع الجلسة.. للتشاور.

ثم أضاف وقد تذكر كلمات رنيم:

- لأنني غير راضٍ عن أداء المحامي.

التفتت إليه فيفيان في تحفّز، في حين أخفت رنيم ابتسامتها. أخيرًا، ضرب القاضي الطاولة بمطرقته وهو يعلن في انزعاج واضح:

- رُفِعت الجلسة.

حالما فُتح باب المحكمة على مصراعيه، هجم المصوّرون والصحفيّون دفعة واحدة على فيفيان ورنيم، اللتين لم تنهيا بعد

أحاديثهما المتشنّجة بخصوص الإستراتيجية المتّبعة في القضية. امتدّت المصادح في اتّجاههما من كل جانب وتوافدت الأسئلة.

- سيدتي، كيف ترين القضية اليوم؟
- هل سيستمر الدفاع في التّمسك بالبراءة؟
- ما هو موقفكم من صيغة الاتهام التي يوجهها المدّعي العام؟
- لماذا تمّ رفع الجلسة بهذه السّرعة؟
- هل هناك إمكانية تغيير في فريق الدّفاع؟

أشاحت رنيم بوجهها وشقّت طريقها خارج الازدحام، في حين وقفت فيفيان تحت الأضواء وعدسات التصوير وهي ترسم ابتسامة واثقة. بعد أن تأكدت من ظهور وجهها على الصّفحة الأولى من جميع مجلات وجرائد الغد، تكلمت في لهجة حازمة ورفيقة في آن، تدرّبت عليها طويلًا تمهيدًا لظهورها المنتظر على وسائل الإعلام:

- لا يمكنني تقديم الكثير من التفاصيل الآن، فالقضية ما تزال في بدايتها. شكرًا لاهتمامكم.

بعد نحو ساعة، دخلت المرأتان المكتب والشرر يتطاير من عيني كلتيهما. كانت فيفيان من بادر بالشكوى إلى جورج. جلست قبالته وهي تشير إلى رنيم في استياء:

- محاميتك الجديدة تريد إفساد عملي بالكامل.

جذبت رنيم المقعد الآخر وجلست بدورها وهي تهتف في احتجاج:

- بل هي التي تفعل. لا تريد استجواب الشهود ولا تتركني أفعل. من حسن الحظ أن الشاهد الرئيسي لم يدرج في جلسة اليوم وإلا ضاعت منّا البراءة!

التفتا إليها في حركة واحدة وقد بدت عليهما الدّهشة. قال جورج في شك:

- قلتِ البراءة؟

زفرت رنيم في ضيق. أفلتت منها الكلمة دون إرادة منها، والآن صار عليها أن تدافع من جديد عن وجهة نظرها التي لم تجد أذنًا صاغية في اللقاء السابق. تكلم جورج مرّة أخرى:

- ألم نكن قد اتفقنا على إقصاء احتمال البراءة؟

أخذت رنيم نفسًا عميقًا وقالت في هدوء، وهي تنظر في عيني جورج بقوّة:

- لكنني أعتقد أنه احتمال ممكن جدًا. أنا أميل إلى الوقوف في صفّ موكلي. ما دام مصرًا على براءته فأنا مستعدّة إلى الدّفاع عنه على هذا الأساس، حتى يثبت لي غير ذلك.

ضحكت فيفيان وقالت في ظفر مخاطبة جورج:

- أرأيت. إنها لا تصغي إلى التّوجيهات وتتصرّف كأنها الرئيسة هنا.

بدا على جورج التفكير وهو ينقل نظراته بينهما. قال موجهًا كلماته لفيفيان:

- لم تكن القضية تهمّك منذ البداية أليس كذلك؟ لهذا اخترنا عقد اتفاق مع النائب العام والحصول على اعتراف من المتهم

لقاء تخفيف العقوبة.

هزت فيفيان رأسها موافقة، فتابع:

- وبما أننا وجدنا من يهتمّ اهتمامًا كاملًا بالقضية، فأظن أن بإمكاننا إعفاءك. ما رأيك؟

هتفت رنيم في سرور حقيقي وهي تقف من مكانها:

- آه جورج! أنت رائع! شكـــرًا، شكرًا جزيلًا لك. لن تندم على إعطائي هذه الفرصة، أعدك.

ابتسم جورج وهو يرى حماس المحامية الشابة، في حين تجهم وجه فيفيان وهي تقف بدورها:

- أنت واثق ممّا تفعل؟ أرجو ألا تندم على هذه الخطوة فيما بعد.

تابعهما وهما تغادران المكتب بانفعالات متباينة، وإحساس غريب يراوده بأن القضية المزعجة التي كان يتذمر منها منذ أسابيع قليلة ستصبح بشكل ما قضيّة الموسم.

(21)

قريبي العزيز!

أخذ باتريك يقلب الملفات بين يديه في تركيز صامت. يحصي الأخطاء ويتتبع الثغرات. لم يكن أداؤها سيئًا عمومًا. كان من الواضح أنها قد حظيت ببعض المعونة. تلك المتحاذقة الصغيرة! كبرياؤها المنتفخ يجعلها تعزف عن طلب المساعدة منه، لكنها أخذتها دون تردّد من غيره لتتظاهر أمامه بالتفوّق! كان يحلو له أن يصف تصرّفها ذاك بالغش، مع أنّه كان ليتصرّف بنفس الطريقة لو كان مكانها! ذلك الغش الذي يرتبط في لا وعيه بالثقافة العربيّة. ألم يغشّ علي بابا اللصوص حتّى يستحوذ على الكنز دونهم؟ ألم يغشّ علاء الدين السّاحر ليبقي المصباح السّحريّ في حوزته؟ البعض يسميه ذكاءً، نباهة أو فطنة. لكنه تحيّل صرف حين يتعلق الأمر بالعرب!

- مرحبًا باتريك.

رفع رأسه عن ملفاته وطالع محدّثه الذي قاطع سيل أفكاره في دهشة:

- دافيد.. هل عدت من السّفر؟

وقف ليحييه في مودّة في حين قال دافيد مداعبًا:

- لا تبدو مسرورًا برؤيتي. كأنّ العمل على ملفاتي أسعدك. ثم ما كل هذه الجدّية؟ حين لم أرك في ركن الاستراحة تشرب قهوتك الصباحيّة شككت في الأمر.

ارتبك باتريك الذي أدرك للتوّ درجة الاهتمام المبالغ فيها التي كان يوليها أعمال تلك الموظفة الجديدة. إن كان دافيد الذي عاد اليوم من السفر قد لاحظ تغيّره، فما ظن بقية الزملاء به؟

جلس دافيد على المقعد قبالته، ومدّ ذراعه ليتناول الملفات التي كان هذا الأخير يراجعها.

- كيف أداء ياسمين؟

- لا بأس به.

انغمس دافيد في مطالعة الملف الأول ثم رفع رأسه وهو يبتسم في استغراب:

- أنت تبالغ! هذا عمل ممتاز!

قال باتريك في ضيق:

- هناك بعض الأخطاء الفادحة. انظر على الصفحة الثالثة.

ألقى دافيد نظرة سريعة على النقطة التي أشار إليها باتريك، ثم أطلق ضحكة قصيرة:

- هل أنت جادّ؟ طوال حياتي المهنية لم أولِ ملفًا إداريًا اهتمامًا مماثلًا.

ثم أضاف وهو يقف ويجمع ملفاته:

- لا شك أنك سلطت عليها ضغطًا رهيبًا حتى أنهت الملفات بهذه السرعة والدّقة. أعلم الآن أنّه يمكنني الاعتماد عليك في الملفات القادمة. ستزيح عني حملًا ثقيلًا يا رجل!

قال ذلك وهو يغمزه ضاحكًا، ثم لوّح إليه بكفه وهو يغادر مكتبه. تنهد باتريك وهو يحاول استجماع أفكاره. كلّ تلك المسألة تأخذ من وقته واهتمامه أكثر مما تستحق. وكل هذا التفكير يأخذه دون وعي إلى شقيقته. مرّ وقت طويل مذ رآها آخر مرّة. كلّ ذلك بسبب زوجها المقيت الذي منع عنه زيارتها، والمسافات جعلت المهمّة أشق. تناول هاتفه وبحث عن رقمها في الذاكرة. ربّما يشعر بتحسّن لو سمع صوتها.

****

- لا وجود لهذا الملف بين أغراض المتهم.

قال الشرطي بلهجة حازمة وهو ينحني ليجمع الصّناديق التي تبعثرت محتوياتها على أرضية الغرفة ويعيد ترتيبها على الرّفوف الجانبية. ألحّت رنيم:

- أنت متأكد؟ ربّما كان في أحد الصّناديق.. بين بعض الكتب.

هزّ الرجل رأسه نافيًا وهو يقول في ثقة:

- كما رأيتِ بعينيك، لقد تثبتُّ من كل الصناديق مرتين. لا وجود لهذا الملف بين الأدلة التي تمّ جلبها من شقة المتهم.

زفرت رنيم في ضيق. إن لم يكن الملف هنا فأين يمكن أن يكون؟ شكرت الشرطي وغادرت المكتب على عجل. يبدو أن هذه القضية ستستوجب منها أن تعطي من وقتها أكثر من العادة. ربما عليها أن تضحي بنهاية الأسبوع أيضًا لتذهب إلى ليون وتتثبّت من كل شيء على عين المكان. هذه الرحلة كانت محتمة عليها عاجلًا أم آجلًا. بل كان من المفترض أن تكون أولى خطواتها حال استلامها ملف القضيّة. ليس هناك أفضل من تكوين فكرة شخصيّة عن محيط المتهم وموقع الحادثة.

ما إن دخلت على عمر في غرفته بالمستشفى حتى قالت في جدّية:

- سأذهب إلى ليون هذا الأسبوع.. أحتاج إلى إلقاء نظرة على شقتك والشركة. هل هناك شيء إضافيّ يجب أن أعرفه قبل ذلك؟

نظر إليها عمر في هدوء:

- تأكدي، ليس هناك ما أخفيه.

تنهّدت. إنّها تشعر بصدقه وتلمس الشفافيّة في كلماته. تصريحاته متناسقة ومتماسكة، لكنّ محتواها عجيب مشطّ في الغرابة، فكيف تقنع المحلّفين بها؟ اختراعه المفترض لتوليد الطاقة النظيفة يقرّ الخبراء بكونه أسطورة لا حقيقة لها، ناهيك بالنهاية الكارثيّة لتجربة يقول إنّ تبعاتها النظريّة لا تتعدّى تشغيل جهاز كهربيّ منزليّ! لم تكن الأمور تسير بشكلٍ جيّد حتّى السّاعة. وقصّة المشرّد الذي آواه ثمّ قفز من نافذة الشقة حين اقتحمها رجال الشرطة كانت ثغرة أخرى لا تدري كيف ترأب صدعها. قالت في عتاب وهي تجمع ملفّاتها:

- و لم تجد إلا سارقًا دخل الأراضي الفرنسيّة بصورة غير شرعيّة، لتؤويه عندك؟

بدا الأمر غريبًا ومستهجنًا وهو يراه بعيني رنيم.

- من الناحية التقنية، أنتِ محقّة. لكن من وجهة نظر إنسانيّة، كان أخًا مسلمًا فاقدًا لكل سند، فلم أملك أن أتركه يواجه قدره وحيدًا.

- لن يكون من السّهل إقناع النائب العام والمحلفين بوجهة نظرك الإنسانيّة هذه.

حين غادرت الغرفة، استسلم عمر لأفكاره. هل كان من سوء حظه أن فرّ نادر قبل دخول رجال الشرطة؟ لم يكن يريد أنّ يسبّب له المتاعب بعد أن أعطاه الأمان والحماية، لكنّه لا يأمن أن يعتقد القاضي والمحلفون بوجود شريك له في عملية إرهابية موهومة. الثابت لديه هو أن تهمة الشريك ستتبدّد مع إثبات براءته وتفنيد الادّعاءات القائمة ضدّه. لكنّ القبض على نادر كان ليؤدّي إلى سجنه وترحيله إلى الجزائر لا محالة. تنهّد وقد هداه تفكيره إلى الرّضا عمّا آلت إليه الأمور. أمله الآن أن لا يكون نادر قد أوقع نفسه في مشكلات جديدة بعد تركه الشقة.

****

وقفت ياسمين أمام مدخل الحديقة وأخذت نفسًا عميقًا. حين حدّثتها رنيم باعتزامها السّفر إلى ليون، وجدت الفرصة مناسبة لزيارة عائلة والدها. كانت قد ودّعت رنيم عند باب الفندق الذي حجزت فيه واتفقتا على اللقاء في مساء الغد في محطة القطار. وها هي تتردّد الآن في ولوج المسكن متوقعة الأسوأ. كانت قد اتّصلت بالأمس لإعلامهم بقدومها، فكانت إيلين من ردّ وهي في حالة سكر واضح! لم تكن قد عايشت مشهدًا مماثلًا عدا في الأفلام. اللسان الثقيل المتلعثم، الكلمات البذيئة المطوطة، الضّحكات الفجّة غير المتزنة والغناء الناشز الذي ينبعث خلال الحديث بدون سابق إنذار.. كانت ترى وجهًا جديدًا لزوجة والدها وأمّ أخويها، وجهًا لم يسرّها اكتشافه، وسيمرّ وقت طويل قبل أن تقدر على محو مخلّفاته من ذاكرتها.

إن لم تكن إيلين قد وعت من سكرتها فكيف يمكنها أن تتصرّف؟ دفعت البوابة الحديدية وعبرت الممرّ الحجريّ المؤدّي إلى المدخل الرئيسي. حين وصلت أمام الباب الخشبيّ الموارب، تناهت إليها أصوات ضحكات مرحة قادمة من الدّاخل. رفعت حاجبيها في عجب ثمّ ابتسمت في رضا. يبدو أنّ الوضع قد تحسّن قبل وصولها. يا للارتياح! لن تكون نهاية أسبوع ثقيلة كما توقعت. طرقت الباب بخفّة وانتظرت للحظات. سمعت وقع خطوات رشيقة تركض إليها. استقبلتها سارة بابتسامة مرحة وعانقتها في حرارة غير معهودة. كان مزاجها أفضل من أيّ وقت مضى. سألتها ياسمين وهما تتجاوزان المدخل جنبًا إلى جنب:

- هل لديكم زوّار؟

- نعم.. خالي هنا.

- خالك؟

ردّدت ياسمين في استغراب. خالها؟ لم تكن تعلم أن لإيلين شقيقًا ما. كانت تظنها وحيدة والديها. ربما لأنّها لا تتحدّث كثيرًا عن عائلتها. عندما وصلت إلى غرفة الجلوس، ألقت التحيّة وعيناها تمرّان في نظرة عابرة على خيال الرّجل الشاب الذي جلس إلى جوار إيلين. كانت تتحرّك في اتجاه زوجة أبيها لتعانقها، لكنّها تعثرت فجأة وكادت تفقد توازنها بفعل الارتباك. هبّت إليها إيلين وأمسكتها من ذراعها لتساعدها على التماسك.

- أنتِ بخير؟

هزّت رأسها علامة الإيجاب وعيناها مطرقتان حرجًا، تجمع بقايا كرامتها التي تبعثرت على الأرض. بادرها باتريك الذي كان أسرع منها في تجاوز دهشته، وقال في هدوء يشوبه شيء من التهكم:

- مرحبًا ياسمين. لم أتوقع أن أراك قبل يوم الإثنين!

نقلت إيلين بينهما نظرات مستغربة:

- هل سبق والتقيتما؟

أجاب باتريك عنها بنفس نبرته الهادئة:

- نعم، ياسمين.. زميلة.

- يا للصّدفة! شيء لا يصدّق!

كانت سحنة إيلين مشرقة بشكل لافت وبدا أن حضور شقيقها له تأثير جدّ إيجابي عليها. بل على العائلة كلها. غاصت ياسمين في مقعدها وهي تتمنّى أن تختفي من المكان على الفور. رسمت على وجهها ابتسامة لمداراة توترها واستمعت في غير تركيز إلى إيلين تتحدّث عن أمور شتى. ازدردت ريقها بصعوبة. كانت علاقتها بباتريك بالغة الجدّية في الشركة. فهو حين لا يكون فظًا، يكتفي بالبرود المغلف بالأدب. لذلك فإن رابطة القرابة التي اكتشفتها في الحين لم تكن لتشعرها بارتياح أو انشراح.

قالت إيلين وهي تقف من مكانها:

- سأتركّكما لبعض الوقت لأحضّر مائدة العشاء.

- أساعدك؟

- استريحي أنت، لقد وصلت للتوّ.

جلست على مضض وهي تبحث في رأسها عن أيّ فكرة، أيّ كلمة تقطع بها الصّمت البغيض. تلفتت حولها في حذر. لم تكن سارة هناك. قبل أن تفكر في الهروب بادرها باتريك في لهجة غامضة:

- إذن أنتِ ابنة كمال عبد القادر؟ أو دعيني أقول.. سامي كلود؟

كانت طريقته في نطق اسم والدها غريبة. فيها سخرية لاذعة لم تخف عليها. ولأوّل مرّة شعرت بأن باتريك تخلّى عن تحفّظه المعتاد ويستعدّ لإشهار مخالبه في وجهها. لم تنتظر جملته الثانية ووقفت وهي تقول معتذرة:

- سأعود.

سارعت بصعود الدّرج إلى الطابق الثاني حيث غرفة سارة. كانت هذه الأخيرة منهمكة في فتح علبة من الحجم الصّغير بعد أن نزعت عنها ورق التغليف. ما أن لمحت ياسمين حتى هتفت في حماس:

- انظري إلى الهدية التي أحضرها لي خالي باتريك.

جلست ياسمين إلى جوارها مبتسمة وأخذت تتأمل معها الهاتف المحمول الجديد.

- واااو! إنه رائع! ألا تجدين ذلك؟

هزّت ياسمين رأسها موافقة وهي تحاول السيطرة على تنفسها السريع. قالت أخيرًا بعد أن تركت سارة تقلب هديتها الثمينة

لبرهة:
- لم أكن أعلم أن لديك خالًا.
أومأت سارة وقالت وعيناها لا تفارقان الهاتف:
- صحيح أنّه لا يزورنا كثيرًا، لكننا نراه حين نذهب إلى باريس.
- آه.. هكذا إذن.
- اتصل بنا بالأمس، وكان وضع أمي سيّئًا.. تحدّث إليها على الهاتف ووعدها بالمجيء.. وهي الآن كما ترين أفضل حالًا. إنّها تصغي إليه كثيرًا. علاقتهما رائعة.
في تلك اللحظة جاءهما رنين الجرس مرافقا صوت إيلين:
- هيا يا أولاد؛ العشاء جاهز.
في الأسفل، كان باتريك يجلس بمفرده وقد انتابه ذهول رجعيّ. إذن ياسمين هي ابنة كمال! ذلك الشخص البغيض الذي يحقد عليه كل الحقد. ريان وسارة أبناؤه أيضًا، لكنّ أمرهما مختلف. هما ابنا شقيقته أولًا. نشأتهما فرنسيّة خالصة، وسحنتهما أوروبيّة لا شية فيها، فيهما شبه من عائلة "كلود" فلا يكاد الناظر يخطئ قرابته بهما. لكن تلك العربيّة هي بنت ذلك العربيّ الذي حرمه من شقيقته الوحيدة وابنيها، وأهانه بما يكفي ليحقد عليه بقية عمره. ما يزال يذكر ذلك اليوم الذي طرده فيه من البيت وقذف أشياءه وراءه وهو يصرخ فيه بألا يضع قدمه هناك مجدّدًا. أمام عيني إيلين الباكية، جرّ متاعه ومضى دون أن يلتفت والحقد في قلبه يتنامى. كلّما تذكّر تلك المرحلة من ماضيه، تمنّى أن يرفع لافتة سوداء كتلك التي انتشرت في أربعينيات القرن الماضي، يكتب عليها "ممنوع على الكلاب والعرب"، يعلّقها على مداخل حياته!
مرّت سنوات طويلة كان يتّصل فيها بإيلين دون علم زوجها ويلتقيها في الخفاء. لم يكن يملك أن يدخل المنزل وكمال هناك. والآن وهو يرى زواجهما ينهار كان يشعر بسعادة طاغية. لم يكذّب حدسه. ذلك العربيّ لم يكن مناسبًا لها. إنّها تستحق الأفضل، وهو جاء ليقنعها بذلك. كان يجب أن يحصل الطلاق منذ زمن بعيد.. لم يفت الوقت بعد.
رفع رأسه حين سمع صرير الدّرجات الخشبية تحت وطء الخطوات النازلة. حدج ياسمين بنظرة باردة. كان يجب أن يعلم أنها ابنته منذ البداية. تشبهه في تمسّكها المتعالي بالفضيلة المزعومة. تقاطع طريقهما بهذا الشكل لا يمكن أن يكون صدفة مجانية.
- إلى المائدة جميعًا.
ارتفع نداء إيلين مجدّدًا، فتحرّكوا واحدًا إثر الآخر في اتجاه المائدة. ما أن استقرّت ياسمين على مقعدها حتى توقفت نظراتها على القارورة الخضراء التي تتوسّط الطاولة. منذ أسابيع قليلة كانت إيلين تشتري اللحم الحلال من أجلها. لم تجرؤ يومًا على شرب الكحول أمامها ولا هي شكّت مرّة واحدة في استهلاك تلك المشروبات داخل جدران منزل والدها. لكنّها اليوم، تتصدّر المائدة كأنّها سيّدة المكان الشّرعيّة! لم تكن قد تجاوزت دهشتها بعد، حين امتدّت كفّ باتريك لتلتقط القارورة بخفّة. سكب لنفسه كأسًا ثم ملأ كأس إيلين قبل أن يلتفت إلى ياسمين:
- هل أسكب لك؟

رفعت نظراتها إليه غير مصدّقة. هل هو غبيّ أم أنّه يتغابى؟ لكنّ الابتسامة الماكرة التي افترّت عنها شفتاه جعلت جسدها يرتجف. وقفت دون أن تردّ وقالت مخاطبة إيلين:

- يجب أن أجري اتصالًا.

ارتقت الدّرجات على عجل حتّى وصلت إلى غرفة المكتب التي كانت غرفتها لأسابيع مضت. أغلقت الباب وهي تلهث. ذلك الشخص، لا يمكن أن يكون باتريك الذي عرفته في الشركة! إنّه يتصرف بغرابة هنا. جلست على طرف السرير وتناولت هاتفها. ضغطت على زرّ الاتصال بسرعة وانتظرت في نفاد صبر.

- لم أكن أعلمك أنك ستشتاقين إليّ بهذه السّرعة.

ابتسمت حين وصلها صوت رنيم بلهجتها الشقية. قالت مجارية إياها:

- هذا جزائي لأنني فكرت أنك ستشعرين بالملل وحدك في غرفة الفندق.

لكن رنيم بفراستها أدركت أن وراء اتصالها أمرًا ما:

- أفصحي.. ما الأمر؟

تنهدت ياسمين ولم تتكلم. من أين تبدأ؟ عاجلتها رنيم بسؤالها:

- زوجة أبيك بخير؟

- إيلين بخير، وأخواي أيضًا، لكنّني أشعر بالغربة هنا. كأنّني في مكان لم أتعوّد عليه.

قالت رنيم في قلق:

- هل ضايقتك زوجة أبيك بشيء؟

- هي لم تفعل.. لكن شقيقها فعل.

- ما شأن شقيقها هذا؟

- تذكرين باتريك؟ زميلي في الشركة؟ حادثة المصعد؟

قصّت عليها بسرعة تفاصيل المواقف التي جمعتها بباتريك في الشركة ثمّ في البيت في تلك الأمسية. أضافت بعد صمت قصير:

- صحيح أنّه بارد على الدّوام، لكنه مؤدّب في العادة. اليوم أحسست بأن نظراته وتلميحاته خبيثة. لا أحسّ بالارتياح لوجوده أبدًا.

في تلك اللحظة جاءها صوت إيلين من الأسفل:

- ياسمين، العشاء سيبرد.

هتفت من وراء الباب المغلق:

- حسن، سآتي بعد قليل.

سألتها رنيم:

- هل ينادونك للعشاء؟

- نعم.
- لماذا لا تذهبين؟ سنواصل حديثنا لاحقًا.
قالت ياسمين في رجاء:
- أرجوك لا تذهبي. أنا أتذرّع بالاتصال حتى لا أجلس معهم على العشاء.
ضحكت رنيم وهي تقول:
- لكنني أيضًا أريد أن أتناول عشائي.
- ستخرجين؟
- لا، طلبت عشاء في الغرفة.. انتظري.
سمعت وقع خطوات تذهب وتجيء مصحوبة ببعض الجلبة قبل أن تعود رنيم على الخط:
- حسن، عشائي وصل. إن كنت لا تريدين الأكل فأنا أتضوّر جوعًا.
تجاهلت ياسمين تصريحها وقالت في شكوى:
- تصوّري أنه عرض عليّ كأسًا من المشروب الكحولي؟
قالت رنيم وفمها مليء بالطعام:
- غبيّ!
- ليس غبيًا. بل كان يقصد الحركة. كأنه يريد استفزازي.
لم تجب رنيم واستمرت في لوك قطعة اللحم التي تملأ فاها. سألتها ياسمين في شك:
- ماذا تفعلين؟
- آكل. إن كنت لا تريدين إقفال الخط فلا خيار لديّ.
- خائنة. أنا جائعة أيضًا.
سمعت طرقات على بابها ثم أطل رأس إيلين وقد بدا عليها الاستياء. لا شك أنها تتبّعت صوتها حتى وصلت إلى غرفة المكتب. قالت في لهجة حازمة:
- ياسمين! أي محادثة هامّة هذه التي تجرينها في وقت العشاء؟ نحن ننتظرك على المائدة.
احمرّ وجهها وهي تقول في اعتذار:
- كلوا أنتم. أنا لست جائعة.
بعد أن غادرت إيلين وأغلقت الباب، هتفت رنيم في دعابة:
- كذاااابة. كنت تقولين للتّو إنّك جائعة.
استمرّ الحديث بينهما ردحًا من الزمن عن كل شيء وعن لا شيء. بعد نحو ساعتين، أنهت ياسمين اتصالها. كانت في حاجة إلى تلك الثرثرة الفارغة مع رنيم حتى يمضي الوقت. تنهدت وهي تقف من مجلسها. لا شك أن الجميع قد انتهوا من العشاء منذ زمن. فتحت باب الغرفة بهدوء، فألفت الممرّ مظلمًا. أطلت على الطابق السّفلي فبدا غارقًا في الظلام بدوره. يبدو أنهم قد

آووا إلى غرفهم أخيرًا. نزلت الدّرجات ببطء وحذر متجنبة إحداث أيّ صوت. دخلت المطبخ على أطراف أصابعها وأضاءت المصباح. كانت الأطباق المتسخة مكوّمة داخل المغسلة، في حين كانت قدر تحوي بقايا طعام العشاء على المصطبة. ابتسمت في سرور وراحت تملأ صحنًا نظيفًا. حين استدارت لتجلس إلى المائدة، تسمّرت في مكانها في رعب وهي تحدّق في الشخص الواقف عند باب المطبخ وعلى شفتيه ابتسامة صفراء.

كان باتريك قد خرج إلى الحديقة ليدخّن سيجارة، بعد أن آوت إيلين وولداها إلى أسرّتهم، وقد وجد من المسلي أن يلتقي بياسمين في المطبخ وهي التي فرّت من صحبته طوال السّهرة.

تسارعت نبضات ياسمين في جنون. لم تكن قد انتبهت إلى وصوله. منذ متى وهو يطالعها بتلك النظرات الغريبة؟ لم تنطق بكلمة واحدة وهو يتقدّم في اتجاهها ببطء. راقبت حركاته في تحفّز فتراءى لها أنّه قد أسرف في الشرب ذلك المساء. وجاءت الرائحة الكريهة المنبعثة عنه لتؤكد اعتقادها.

وقف باتريك على الطرف الآخر من المائدة وقال بصوت تشوبه بحّة خفيفة وهو يطفئ سيجارته التي اشتعل معظمها في وعاء قريب:

- كيف حال سامي إذن؟ لم ألتقه منذ زمن.

ازدردت ياسمين ريقها بصعوبة وهي ترقب خطواته المترنحة. أم أنّ الرائحة التي ملأت المكان بوصوله أوحت إليها بأنّه يترنّح؟ لم تكن واثقة. تابع باتريك دون اهتمام بردّها:

- هل ما زال يردّد نفس المواعظ بطريقته المتسلطة المغرورة؟ لا تفعل كذا، لا تذهب إلى كذا.

لم تنطق بكلمة. لكنّ فكرة واحدة كانت تتردّد في ذهنها. إنّه ثمل! إنّه ثمل! إنّه ثمل!

داهمته نوبة سعال صاخبة. بصق على الأرض ثم رفع عينيه إليها:

- كان يقول.. لا تشرب الخمر في بيتي. لا تحضر الفتيات إلى بيتي.. آخر مرّة قال لا تضع قدمك في بيتي مرّة أخرى.. ستخبرينه بأنّني حضرت في غيابه، أليس كذلك؟

قال ذلك وهو يتقدّم باتجاهها خطوة. لم تبد عليه التسلية أو المزاح. كانت هناك مرارة غريبة في صوته. هتفت ياسمين على الفور:

- لن أقول شيئًا.

لعلّها ظنّت تفهمها سيوقف تقدّمه في اتجاهها. تراءى شبح ابتسامة في زاوية فمه وتوقف بالفعل. ثمّ رفع كفّيه في حركة استسلام قبل أن يقول في هدوء:

- لا تخافي. لن أمسّك بسوء.

ثمّ أضاف وكأنّه يقرأ أفكارها:

- لست ثملًا.

عضّت على شفتها في توتّر. وهل هناك ثمل يقرّ بذلك؟ فاجأها حين سأل في اهتمام:

- كيف يسمّي نفسه هذه الأيّام؟ هل عاد إلى كمال؟ أم أنّ اسمًا جديدًا راق له؟

ضحك هذه المرّة وأخذ يواصل تقدّمه، في حين تراجعت ياسمين حتى التصقت بالثلاجة. هتفت محذرة وهي ترى المسافة بينهما تتقلّص ورائحة الكحول النفّاذة تزداد قوّة:

- توقف مكانك. لا تقترب أكثر.

لكنه أشار إلى الثلاجة خلفها وقال في هدوء:

- أريد قارورة ماء باردة.. ممكن؟

كانت أطرافها ترتجف، وأيقنت بأنّها ستصبح محاصرة تمامًا بين المائدة والثلاجة إذا خطا خطوة أخرى في اتجاهها. قالت بصوت مرتعش جاف:

- باتريك. ابق هناك من فضلك.

تجاهل رجاءها وهمس مبتسمًا:

- الصغيرة خائفة؟ لن أؤذيك.. ياسمين، نحن زملاء.. هل نسيتي؟

استجمعت ياسمين شجاعتها، وبكل القوّة التي أوتيتها، فتحت باب الثلاجة ودفعته في وجه باتريك ليلتصق هذا الأخير بالخزانة وهو يتأوّه في ألم. هرولت في اتجاه السلم دون تفكير. سمعته يطلق بعض الشتائم النابية، لكنها لم تتوقف حتى توارت خلف باب الغرفة. سمعت بعدها باب غرفة إيلين وهو يفتح وتناهت إلى مسامعها همهمة بالأسفل قبل أن يحلّ الصّمت من جديد. لكنّها لم تستطع النوم. جلست على الأرض وتكوّرت على نفسها بعد أن أسندت ظهرها إلى الباب وهي تحاول طرد صورته المترنحة من مخيلتها. "ياسمين، نحن زملاء.. هل نسيتي؟". لم تنس ذلك، وتلك هي مشكلتها الحقيقية! كيف ستذهب إلى العمل يوم الإثنين وهي تعلم أنّها ستراه هناك؟

(22)

لورا

لم يكن عبورها لمدخل البناية دونما احتراز هذه المرّة. حين انفرج باب المصعد عند الطابق الثالث، تلفتت ياسمين حولها في حذر. تملكها قلق يتجاوز بمراحل قلق يومها الأول. لقاؤها مع باتريك عند إيلين كان كابوسًا حقيقيًا لازمها في اليومين الماضيين. أما وقد وصلت إلى مبنى الشركة، فقد صارت تحمل همّ ما قيل وقد يقال من شائعات بشأنها للثأر. ثمّ هو صديق مقرّب لرئيسها المباشر ويمكنه ببضع همسات أن يحوّل تجربتها المهنيّة الغضّة إلى جحيم.

كانت الأفكار السوداء تملأ رأسها وهي تشقّ الممرّ في طريقها إلى المكتب. لم يكن باتريك في الرّدهة كعادته وتراءى لها باب مكتبه مغلقًا. زفرت في ارتياح وهي تحطّ بسلام في مخبئها الآمن. سيتأجّل اللقاء لبعض الوقت. لم تره منذ تلك الحادثة الليليّة بينهما في المطبخ. حين غادرت شبه متسللة، كان ما يزال غارقًا في النوم. كان من المفترض أن تلتقي رنيم في المساء بعد أن تنهي زياراتها الميدانيّة، لكنّها اتصلت بها مع تباشير الصباح الأولى وطلبت الانضمام إليها في مهمّتها. لم يكن بإمكانها أن تظل معه في المنزل ذاته بعد أن اعتدت عليه، أو حاول الاعتداء عليها، حسب وجهة النظر المعتمدة! وحين عادت في المساء لجمع حاجياتها كان قد سبقها بالرّحيل. إيلين لم تحرجها بأيّ أسئلة كانت، قدومها ورحيلها المفاجئان لم يثيرا أدنى اهتمام لديها.

- ياسمين، إلى مكتبي في الحال.

انتفضت من الفزع حين أطل دافيد برأسه وهتف بصوت حازم ومخيف.

- حاضر.. على الفور.

وقفت من مكانها وهي ترتجف. لم تره بمثل هذا الانفعال من قبل. هل يكون ما تخشاه قد وقع؟ جمعت بعض الملفات بصفة عشوائية، فربّما يستوجبها بخصوص أحدها في إطار عملية مراقبة مفاجئة، وهرولت في اتجاه مكتبه. حين ألفت عددًا من الموظفين في الدّاخل، اطمأنت إلى أنّ موعد محاكمتها لم يأن بعد. لكنّها أدركت من تجهم الوجوه أن أمرًا جللًا قد حصل.

حين أوصد باب المكتب على المجموعة داخله، تكلم دافيد بصوت حازم:

- محاولة انتحار جديدة.

سرت همهمة قلقة بين الحضور، في حين امتدت الأيدي لالتقاط نسخة من رسالة مطبوعة:

- كنت عند المدير هذا الصباح. الوضع سيئ. الموظفة قامت بإرسال هذا المنشور إلى أعضاء مجلس الإدارة، وأيضًا إلى وسائل الإعلام المرئية والمكتوبة قبل أن تقدم على محاولتها. من حسن الحظ أن أحد أفراد عائلتها تفطّن إليها في الوقت المناسب ونقلها إلى الإسعاف.

ألقت ياسمين نظرة على نسختها. من حق المدير أن يقلق، فالنّصّ كان يوجّه اتهامات مباشرة للشركة على إهمالها لموظفيها

وظروف العمل السّيئة وعدم تقدير الموظفين الذين اقتربوا من التقاعد.. كانت تصف بدقة إحساسها بعدم النفع والأزمة النفسيّة التي مرّت بها حتى فكرت في الانتحار.

- يجب أن نمنع وسائل الإعلام من بثّ هذه الرسالة، بأيّ وسيلة.

أنهى دافيد إملاء الإجراءات المطلوبة على فريق العمل، ثم سمح لهم بالانصراف. قبل أن تتحرك ياسمين من مكانها، التفت إليها وهو يقول بجدية:

- سيبدأ العمل الرسمي على البحث الآن.. فلدينا حالة حقيقية.

أنصتت ياسمين باهتمام ودوّنت كل المعلومات التي أملاها عليها دافيد من دفتر الموظفين أمامه بخصوص الموظفة المعنيّة. ستبدأ بحثها الجادّ بخصوص ظاهرة الانتحار. ولم تكن هنالك فرصة أفضل من تجربة ميدانية طازجة. رغم مرارة الفكرة وساديتها لكنها مجبرة على اقتحام العالم الخاص لتلك الموظفة البائسة، حتى تكون قادرة على وضع أسس نظريتها المرتقبة.

- في السنة الماضية سجلنا خمسا وعشرين محاولة انتحار، اثنتا عشر منها أودت بحياة أصحابها.

- إذن من المتوقع أن تكون هناك فرص أخرى.

أفلتت منها تلك الجملة الفظيعة دون شعور منها. فهمست على الفور معتذرة:

- أنا آسفة. لا يجب أن أقول هذا.

- لا تأسفي. فتلك هي الحقيقة. إيجاد الحلول يبدأ من دراسة المشكلة.

في تلك اللحظة، ظهر باتريك عند باب المكتب.

- دافيد، هل تتناول القهوة؟

تغيّرت ملامحه فجأة حين انتبه إلى وجود ياسمين على الجانب الآخر من المكتب. قال على الفور متحاشيًا الالتقاء بنظراتها:

- أرى أنك مشغول. سأعود لاحقًا.

لكن دافيد عاجله قبل أن يبتعد:

- انتظر، أنا آتٍ حالًا. مهلًا.. ما تلك العلامة على جبينك؟

رفعت ياسمين عينيها بغتة وكأنها تلقت صعقة كهربائية. على جبينه كانت ضمادة صغيرة تخفي جرحًا ما. لم يكن هناك أدنى شك لديها أنّه من مخلفات الحادثة. أطرقت وهي تتمنّى أن تنشق الأرض وتبتلعها قبل أن ينطق بالجملة الموالية.

- لقد تعثرت وأنا أنزل الدرج.

ابيضّ وجهها وانسحبت منه الدماء للحظات، في حين ضحك دافيد وهو يقول:

- خذ حذرك في المرة القادمة.

حين ابتعدت خطواتهما معًا في الممرّ، أطلقت ياسمين تنهيدة ارتياح. لكن إلى متى؟

****

- لا أثر للحقيبة.

قالت رنيم ذلك متعمّدة الاختصار. لم تشأ أن تقصّ عليه تفاصيل زيارتها. هل كان بوسعها أن تصف له ما آل إليه وضع الشقة

بعد رحيل صاحبها؟ حالة الفوضى العارمة التي كانت عليها أذهلتها. لم تكن مجرّد عمليّة تفتيش. والأدهى هو تصرّف صاحب العمارة الجشع. كان قد استحوذ على ما تبقى من الممتلكات ذات القيمة، من آلات كهربائيّة وإلكترونية وعزم على التخلّص من بقيّة حاجيات عمر وعرض الشقة للإيجار من جديد! كان عليها أن تسلّمه صكًا بالمبلغ المستحقّ على عمر ليرضى بإعادة الأجهزة وتركيب قفل جديد للشقة بعد أن خلع القديم رجال الشرطة. لم يكن أسبوعًا موفقًا. وقد كلّفها سخرية من فيفيان تدفع أيّ شيء لتردّها إليها في أقرب وقت!

- إن لم يكن أعوان الشرطة قد أخذوها ولم تكن موجودة في الشقة.. فأين ذهبت؟
- قد يكون ذلك اللصّ قد أخذها حين هروبه؟

لم يكن عمر يريد تصديق ذلك الاحتمال رغم ما يعرفه عن ماضي نادر الأشوه وإقدامه السّابق على السّرقة. لقد استأمنه ووثق فيه، ولا يريد أن يسيء الظنّ به لمجرّد شكوك لا إثبات لها. مع أنه التفسير المنطقي الوحيد لتبخّر الحقيبة والملف من الشقة! قال بلهجة محايدة:

- الحقيبة اختفت، هذا واقع يجب أن نتعامل معه. مجرّد التخمين لن يعيدها.

قالت رنيم دون تفكير:

- لحسن الحظّ أنّ شيئًا آخر لم يُفقد. كل الأجهزة في أماكنها وصاحب العمارة قام بوضع قفل جديد مكان المكسور.

ابتسم عمر ولم يعلّق. بينما أحسّت رنيم بسخافة تعليقها السّابق. ومن يهتمّ بالأجهزة الآن؟ فقالت مغيّرة الموضوع:

- هل هناك وسيلة أخرى للحصول على الملف؟ هل هناك نسخة أخرى في مكان ما؟
- هناك البروفيسور سامي كلود.
- البروفيسور سامي كلود؟ هل هو زميل في الشركة؟
- إنّه باحث معروف في مجال الطاقة. التقيته صدفة في مكتب البروفيسور بروكس. حين أبدى اهتمامًا بالمشروع الذي أعمل عليه أرسلت إليه نسخة من الملف ليعاينه ويشاركني ملاحظاته.
- ممتاز، سأتولى البحث عنه.

حين خرجت رنيم من عنده كانت تحسّ بالمسؤولية تزداد ثقلًا على عاتقها. في داخلها كانت قد اتّخذت قرارًا جادًا بأن تعيد إليه حرّيته. لكنّها كانت بحاجة إلى شحنة من الأمل حتى تسير بهذه القضية إلى النهاية دون أن ينتابها إرهاق محبط. لكن أين تجدها، أين؟ كانت تمشي في الممرّ بعقل غائب حين لمحت المرضة التي تهتمّ بحالة عمر.

- من فضلك، هل من جديد بشأن حالة موكلي الصّحية؟
- علاجه قد اكتمل تقريبًا.. من المتوقع أن يسمح الطبيب المختصّ بخروجه الأسبوع المقبل.

تسمّرت رنيم مكانها في ذهول. لم تكن تتوقع ذلك الردّ. شكرتها وابتعدت وقد تزايد قلقها. لم تكن فكرة خروجه من المستشفى سارّة بأتم معنى الكلمة. رغم ارتياحها إلى قُرب تعافيه، لكنها تعلم جيّدًا أنه لن يغادر المستشفى ليعود إلى بيته.. بل في اتجاه زنزانة الإيقاف. ستكون هناك بالطبع حصص معاينة دورية للتأكد من تحسّن حالته الصحيّة، والتئام الكسور فيما بعد. لكن الأرجح هو أنّه لن يجد شيئًا من الرّعاية اليوميّة التي يتمتّع بها هنا. بل سيعامل مثل أي موقوف آخر. انحنت قامتها فجأة وقد

ازدادت مسؤوليتها طنًا من الوزن الإضافيّ.

****

تعلقت نظرات رنيم بالفتاة الشقراء التي ظهرت عند باب الشقة وبين يديها باقة ورود أنيقة.

- لورا.. صديقة هيثم.

كرهت ياسمين أن تعرّفها بتلك الكلمات، لكنّها لم تجد عبارة أخرى تؤدّي المعنى. إنّها صديقته شاءت ذلك أم أبت، بالمعنى الغربيّ للكلمة.

- هذه زميلتي في السكن رنيم.

تقدّمت رنيم لتصافحها في صدمة. لا يمكنها أن تفهم كيف تفكر ياسمين هذه. ذلك الولد المتعجرف الذي عاملها بغلظة ثم قدّم أعذارًا واهية.. تستقبل اليوم صديقته؟

- تفضلي بالجلوس، سأعود بعد قليل.

قالت ياسمين ذلك وهي تحث الخطى في اتجاه المطبخ. ابتسمت لورا في حياء وهي تجلس على طرف الأريكة. ابتسمت رنيم ثم قالت معتذرة بدورها:

- خذي راحتك. سأجري اتصالاً وأعود.

دخلت غرفتها، نزعت حذاءها ثم فتحت جهاز حاسوبها. ألقت نظرة على البريد الوارد فارتسمت ابتسامة واسعة على وجهها. لقد حصلت على الرقم الذي تنتظره. جرّبت الاتّصال بالبروفيسور كلود في مقرّ عمله، لكنّ سكرتيرة الجامعة كانت تردّد في كلّ مرّة بأنّه في إجازة. اتّصلت على هاتفه الشخصيّ دون فائدة، وها هي قد توصّلت إلى رقم منزله أخيرًا. خلال سنوات عملها مع ميشال كانت قد كوّنت بعض العلاقات التي تمكّنها من الحصول على معلومات حصريّة، عناوين أو أرقام هواتف تحتاجها أو غيرها من الإرشادات الضرورية لقضاياها. تناولت هاتفها ونقلت الرقم الذي يظهر على الشاشة. انتظرت لثوانٍ عصيبة وهي تستمع إلى رنين الهاتف من الطرف الآخر. أخيرًا جاءها صوت أنثوي بارد:

- آلو!

هتفت رنيم في لهفة:

- مرحبًا. هل يمكنني الحديث إلى السيد كلود؟

لكن لهجة محدّثتها الجافة جاءت لتوقف اندفاعها الحماسي بشكل مباغت:

- ليس هنا.

- كيف يمكنني الاتصال به؟ الأمر عاجل جدًا.

لم يظهر الاهتمام في صوت إيلين وهي تقول محاولة إنهاء الاتصال:

- إنه مسافر في الوقت الحالي.

- هل يمكنني أن أعرف موعد عودته؟

- لا أدري. لا أحد يعرف مواعيده.

أنهت رنيم اتصالها وهي تشعر بخيبة شديدة. كانت تضع آمالًا كثيرة على حضور البروفيسور سامي في الجلسة المقبلة. لكن يبدو أنها مجبرة على تعديل خطتها الدّفاعية. زفرت بقوّة وهي تستلقي على السرير. في تلك اللحظة فتح الباب وأطلت ياسمين برأسها وهي تهمس:

- لماذا أنت هنا؟ تعالي للجلوس معنا.

همست رنيم في ضيق:

- هل وجودي ضروري؟

قالت ياسمين وهي تهزّ رأسها في حماس:

- طبعًا يا عزيزتي. اذهبي ورحّبي بالضيفة، سأنضمّ إليكما بعد قليل.

همست رنيم في محاولة أخيرة للتهرّب:

- لكنني لا أعرفها.

- ولا أنا!

قالت ذلك وهي تنسحب، في حين لبثت رنيم مستلقية لبعض الوقت. استوت في شيء من التململ وهي تفكّر. صديقة هيثم؟ ثمّ ما لبثت أن وقفت يدفعها نوع من الفضول وسارت باتجاه غرفة الجلوس حيث تجلس لورا وحيدة.

تابعتها ياسمين بنظرات راضية وهي تعكف على تحضير طبق الحلويات. كانت فكرة رائعة أن تجعل رنيم تحضر لقاءها بلورا، بذلك تكون قد ضربت عصفورين بحجر واحد. لم تكن تحلم بفرصة مماثلة لتقرّب رنيم من عالمها أكثر.

في الجهة الأخرى، جلست رنيم قبالة لورا وهي تبتسم مرحبة. رمقتها هذه الأخيرة في اهتمام. لم تتوقّع أن تجد فتاة مثل رنيم هنا. حين رأت ياسمين للمرّة الأولى أدركت من هندامها وهيئتها أنها من النوع "الملتزم". وبما أنها عرضت عليها تعليمها الإسلام، فقد توقعت أن تكون الأجواء "ملتزمة" بالكامل. لذلك فوجئت بظهور رنيم بسروالها الضيق وقميصها القطني ذي الأكمام القصيرة. ربما بدت لها أقرب إليها من ياسمين، فارتاحت إلى وجودها.

- أنت مسلمة جديدة أيضًا؟

بادرتها بالسؤال، فتضرّج وجه رنيم وقالت في ارتباك:

- آه، لا.. أنا مسلمة قديمة، قديمة جدًّا.

ابتسمت لورا مدارية استغرابها، فقد كانت الفكرة التي تكوّنت لديها عن المسلمين عبر أحاديث هيثم وياسمين مختلفة. قالت مغيّرة الموضوع:

- أنت تعرفين هيثم؟

أجابت رنيم في سخرية خفيفة:

- لم يحصل لي الشرف.

المواقف القليلة التي حدّثتها عنها ياسمين بخصوصه كان كافية لتقف منه موقف عداء، إلى أن يصحّ لديها ما يخالف ذلك.

- وياسمين، هل تعرفه جيّدًا؟

- كانا صديقين في طفولتهما على ما يبدو، لكنها أقرب الآن إلى شقيقته ميساء.
- آه، فهمت.
هزّت لورا رأسها في اهتمام، في حين تأففت رنيم في داخلها. هل ستكون كل أسئلتها عن ذلك المتعجرف؟ في تلك اللحظة جاءت ياسمين وهي تحمل الطبق. وضعته على الطاولة المنخفضة وهي تقول مخاطبة لورا:
- أرجو ألا تكوني قد وجدتِ صعوبة في الوصول إلى الشقة؟
قالت لورا ببساطة:
- لا أبدًا. طلبت من هيثم أن يصف لي المبنى على رسم بياني.
أشاحت رنيم بوجهها لتخفي الضحكة التي أوشكت على الانفجار على وجهها. هل يمكنها أن تقول جملة واحدة لا تذكر فيها هيثم هذا؟ في حين بدت علامات الاستياء على ياسمين التي حدجتها بنظرة صارمة، ثم قالت وهي تجلس إلى جوار ضيفتها:
- أخبريني، ماذا تعلمت عن الإسلام إلى حدّ الآن؟
احمرّ وجه لورا في ارتباك وهي تقول:
- هيثم أهداني كتاب فقه، وكتاب سيرة نبوية، وكتاب قرآن مترجم إلى الفرنسية.
هذه المرّة لم تستطع رنيم أن تسيطر على موجة الضحك التي داهمتها. أخفت وجهها بين كفيها لتخنق الضحكة، فداهمها السّعال بشدة. وقفت من مكانها معتذرة وتوجهت إلى الحمام. فهرولت ياسمين على أثرها بعد أن اعتذرت من لورا.
- أخبريني ما الذي دهاك؟
همست ياسمين إلى رنيم التي كانت قد استعادت أنفاسها.
- غصبًا عني، أقسم لك. ضيفتك هي السّبب. منذ دخولها وهي لا تنفك عن: هيثم ذهب، هيثم جاء، هيثم فعل، هيثم قال.. أشك في أنها مهتمة بتعلم أي شيء. إنها مهتمة بهيثم فقط لا غير.
قالت ذلك وهي تقلد طريقة لورا الرقيقة ذات اللكنة الفرنسية والمبالغة في الأنوثة في نطق اسمه. قرصتها ياسمين في استياء وهي تهمس من جديد:
- لا تقولي هذا. أنت تظلمينها. هيثم كان الشخص الوحيد الذي ساندها بعد إسلامها، لذلك هي ممتنة إليه. هذا كل ما في الأمر.
هزّت رنيم كتفيها في تحدٍّ وفي عينيها نظرة تقول: انتظري لتري بنفسك. بعد بضع ثوانٍ، عادت البنتان إلى الجلوس على الأريكة. قالت ياسمين مستأنفة الحديث:
- إذن أخبريني، هل قرأت في تلك الكتب؟
- في الحقيقة، لم أجد الوقت للاطّلاع عليها جميعها. فهي كبيرة الحجم.. لكنني تناقشت وهيثم في أمور شتى.
ألقت ياسمين نظرة تفقدية إلى رنيم التي بدت متماسكة هذه المرّة واكتفت بابتسامة خفيفة.
- حسن، ليس من الضروري أن تقرئيها كلها في الوقت الحالي. لكن يمكنك العودة إلى كتاب الفقه مثلًا كلما احتجت إلى معرفة حكم شرعي معيّن. فهو بتبويبه الواضح يمكّنك من الوصول إلى المعلومة بسهولة ويسر.. في مرحلة أولى، يمكنك البدء

بتعلم أركان الإسلام الخمسة، وأركان الإيمان.
هتفت لورا على الفور:
- لقد علمني هيثم الصلاة.
هزّت ياسمين رأسها في استحسان:
- هذا ممتاز.. وهل وجدتِ صعوبة في المواظبة عليها؟
خفت حماس لورا وهي تقول في حرج:
- تعلمت الصّلاة بصفة نظرية، لكن التطبيق ليس سهلًا.
- لا بأس، نتعلم التطبيق معًا.
ثم وقفت وهي تضيف:
- سنبدأ بتعلم الوضوء. سأحضر إناءً وإبريق ماء ونتوضأ ثلاثتنا فقد حان موعد صلاة العصر.
ابتعدت ياسمين في حين زوت رنيم ما بين حاجبيها في انزعاج. ما علاقتي أنا بهذا الدّرس؟ كانت تفكر في الانصراف حين بادرتها لورا في فضول:
- وأنتِ، هل تعرفين الصّلاة؟
دارت رنيم ارتباكها وهي تقول متظاهرة باللا مبالاة:
- تعلمتها حين كنت صغيرة في المدرسة.. لكنني نسيت فيما بعد.
- إذن يمكن أن يكون الشخص مسلمًا دون أن يصلي؟
تلعثمت رنيم أمام نظرات لورا المتفحّصة. لم تكن الشخص المناسب ليحدّثها عن الدّين، لكنها مسلمة في نظرها، لذلك يجب أن تكون لديها كل الإجابات. قالت في ضيق:
- تعلمين! في كل دين هناك درجات من الإيمان والالتزام. مثلًا المسيحيّون، منهم من يصلي كل ليلة أمام أيقونة العذراء ويعلق صليبًا في غرفته، ومنهم من يكتفي بصلاة الأحد في الكنيسة.. ومنهم من يكتفي بإيمان في قلبه بمبادئ الدّين وقيمه.. دون أن يجعل ذلك منه مسيحيًا بدرجة أقل من الآخرين.
هزّت لورا رأسها في اهتمام:
- آها.
في تلك اللحظة، عادت ياسمين وهي تحمل الأدوات اللازمة. قالت في مرح مشجعة لورا ورنيم:
- هيا بنا يا بنات.
وقفت كلتاهما في تثاقل، وبعد أن مسحتا أصباغ وجهيهما أخذتا تتابعان حركات ياسمين وتقلدانها. بعد أن جففن أطرافهن، أحضرت ياسمين العباءات والأوشحة واستقمن في صف واحد لأداء الصلاة. حين أنهين الركعات الأربع، أمسكت لورا بكف ياسمين في سرور واضح وهتفت:
- ستخبرين هيثم أنني تعلمت الوضوء والصّلاة، أليس كذلك؟

رمقتها ياسمين في دهشة وهزت رأسها علامة الإيجاب:

- طيب، إن شئت.

وقفت لورا ونزعت عنها العباءة والوشاح وهي تتأفف من الحرّ:

- لست أدري كيف تتحملين كل هذه الأغطية في كل فصول السّنة. معذرة، أحتاج دخول الحمام.

همست رنيم في أذن ياسمين بعد أن غابت عن أنظارهما:

- هاه؟ كيف وجدتها؟

لبثت ياسمين صامتة للحظات، ثم قالت في تسليم:

- أنت محقة. إنها متيّمة به.

ثم أضافت في شيء من التفاؤل:

- لكنها مقبلة على التعلم، وهذا شيء جيّد! وأنت أيضًا. أنا فخورة بك جدًّا. بالمناسبة، الحجاب جميل عليك جـدًا!

حدجتها رنيم في شك وهمّت بالاحتجاج، ثم ابتعدت في اتجاه المرآة لتلقي نظرة على شكلها. وقفت أمام صورتها المختلفة التي تطالعها لأوّل مرة. عيناها، شفتاها وحتى وجنتاها.. كلها كانت مختلفة. لم تتعوّد على التطلع إلى وجهها إلا وهي تضع أصباغها الصباحية، أو حين تعيد ترتيب شكلها بعد استراحة الغداء. لذلك فإنها لم تقف من قبل أمام وجهها الخالي من الألوان. ثمّ.. أين شعرها؟ تلك الخصل الساحرة التي تختزل الجمال الشرقي، كيف تكون الحسناء الآسرة بدونها؟ بحركة عصبية اقتلعت الوشاح الأسود لتطلق شعرها. كانت تتنفس من جديد.

خرجت لورا من الحمام بعد أن أعادت صبغ وجهها وترتيب خصلاتها الشقراء. أخفت ياسمين خيبتها وهي تراها تتقدّم في اتجاهها تسبقها رائحة عطرها. قالت محاولة استئناف ما كانت بصدده:

- ماذا تريدين أن نفعل الآن؟

لكنّ لورا لوّحت بكفها في اعتذار وهي تقول:

- يكفي لهذا اليوم. يجب أن أذهب الآن.

بعد أن ودّعت لورا وأغلقت الباب وراءها، التفتت بحثًا عن رنيم لكنها لم تكن هناك. لاحظت بأسف الوشاح والعباءة ملقيين على الأرض في المكان الذي كانت تقف فيه منذ حين. توقفت عيناها على باب غرفتها المغلق وتنهّدت.

(23)

دوّامة الإرهاب

- تفضلي من هنا.

تبعت ياسمين خطوات المرضة في قسم الصّحة النّفسية في وجل. لم تكن في زيارة عاديّة لمريضة عاديّة. روزلين ويليامس التي كانت تعمل في نفس شركتها أقدمت على محاولة انتحار نجت منها بأعجوبة. وكان على ياسمين أن تدرس حالتها عن قرب. رغم حساسيّة الموقف، كانت مجبرة على اتخاذ خطوات سريعة. دورها سيكون مختلفًا عن موظفي قسم الرّعاية النفسية. فهم بصفتهم المهنيّة سيتصرّفون معها بأساليب علمية بحتة بغية استخلاص العقدة الكامنة في لا وعيها. أما هي فليست بمثل حرفيتهم وخبرتهم ولا تجيد تقنياتهم ولا حصلت على تكوين في ذلك المجال. بحثها يهمّ ظروف العمل في الشركة بالأساس وعلاقتها بتلك الفعلة التي تدلّ على أقصى حالات اليأس والانهيار. ستتعامل معها بالقليل الذي تحمله في جرابها من الأدوات، التي ظلت نظرية إلى تلك اللحظة، وتدعو الله أن يكون التوفيق حليفها.

دخلت الغرفة وراء المرّضة، فألفت روزلين قابعة قرب النافذة وهي توليها ظهرها. كانت المرأة الخمسينية تلبس مريلة المستشفى البيضاء الخالية من الخيوط والأزرار، وشعرها القصير المكشوف يصل بالكاد إلى أسفل عنقها. فوجئت بشكل الغرفة شبه الخالية من كل شيء. كأنّ الطاقم الطبي يحرص على إبعاد كل ما قد يسمح للمريضة بالإقدام على محاولة انتحار جديدة. وذلك يشمل الأدوات الحادة والصلبة والخيوط الرقيقة والمواد الكيميائية.. فبدت الغرفة الصغيرة بمثابة علبة تجارب بيضاء ناصعة.

- لديك نصف ساعة.

قالت المرضة ذلك وهي تستدير مغادرة لتتركهما على انفراد. بعد برهة من الصّمت، اقتربت ياسمين من مكان روزلين وجلست على الطرف الآخر من المقعد العريض وهي تقول مبتسمة:

- كيف حالك الآن؟

التفتت روزلين ببطء لتنظر إليها شزرًا، ثم أشاحت بوجهها من جديد بحركة نافرة. ازدردت ياسمين ريقها بصعوبة وقد أيقنت بأنّ مهمتها ستكون أصعب مما تصوّرت. لم تكن تعوّل على تعاون تلقائيّ، لكنّها درست أساليب اكتساب الثقة ومدّ جسور التّواصل مع المريضة من خلال الحوار الهادئ والمتفهّم. قالت من جديد محاولة الحفاظ على هدوئها:

- أعلم أن وجودي قد يضايقك.. لكنني هنا لمساعدتك.

تكلمت روزلين فجأة بلهجة مشحونة بالسّخرية:

- هلا ساعدت نفسك أولًا؟

عقدت ياسمين حاجبيها في استغراب وقالت في تردّد:

- لم أفهم.. ماذا تقصدين؟
التفتت إليها روزلين حينها وهي تقول في حدّة:
- حين أنظر إليك أشعر بأنّ حياتي ذهبت سدى، وأن نضالات المرأة الفرنسيّة لتصبح ندًا للرجل ذهبت مع الريح. في حين أقاتل وغيري من أجل حرّية المرأة والمساواة مع الرّجل على جميع الأصعدة.. أنت ومثيلاتك تكرسن فوقيّة الرجل بقبولكن التّواري خلف أكوام الأقمشة، كأنك بضاعة يخشى عليها من الغبار.
امتقع وجه ياسمين أمام هجوم المرأة الشرس. يبدو أنها ستفرغ شحنة الغضب والاستياء من كل العالم في وجهها. فليكن. أخذت نفسًا قبل أن تقول مستجمعة قوّتها:
- يا سيدتي، لكل فريق نضالاته. فإن كنتِ أنت قد ناضلت من أجل حرية المرأة في التعرّي من ثيابها، فأنا أناضل اليوم أيضًا من أجل حريتي في ارتداء ما أشاء. لماذا تقولين بأنّني أخضع لسلطة الرجل حين أختار هذا اللباس؟ لماذا لا يكون خيارًا شخصيًا نابعًا من إيمان لا دخل لبشر فيه؟
هزت روزلين رأسها في عدم اقتناع وهي تقول في ثقة:
- لا أصدق أن شخصًا عاقلًا يختار السجن ويترك الحرية. وأنت يا صغيرتي سجينة العادات والتقاليد التي أصبحت جزءًا منك حتى لم تعودي ترين تأثيرها عليك. ذلك المجتمع الرّجالي الذي نشأت فيه زرع فيك الخوف والقناعة بالوضع، في حين أن هناك على الضفة الأخرى حياة أفضل.
قاطعتها ياسمين بغتة:
- وما الذي جعلك تقرّرين التنازل عن هذه الحياة الأفضل؟
ارتبكت روزلين وظهر على وجهها الوجوم، ثمّ قالت وقد عادت إلى انغلاقها:
- حتى الحياة الأفضل فيها الكثير من الاعوجاج الذي يجب أن يقوّم بالوسائل القصوى.
رمقتها ياسمين لبرهة وابتسمت في أسف. كانت المرأة ترى انتحارها ضربًا من البطولة. كمن يضحي بنفسه ليعرف الآخرون مستقبلًا منيرًا من بعده. احتجاج يتخذ الموت وسيلة. سألتها في حزم:
- وأين ذهبت المبادئ التي ناضلت من أجلها؟ ألم تكن هناك لتساعدك على تجاوز الأزمة؟
حدجتها المرأة بنظرة صارمة وهي تتمتم:
- أنت تسخرين مني؟
لكن ياسمين هتفت في صدق:
- أنا لا أسخر منك أبدًا. لكنني أريد أن أوضّح إليك المقاربة. أنا أناضل من أجل حرّيتي في اختيار لباسي، لأنني أؤمن بالله الذي أمرني بالحجاب. حين تضيق بي الدنيا وتشتد عليّ الضغوطات، ألجأ إلى الله فأبثّ إليه حزني وأستمدّ من ديني الطاقة التي تدفعني إلى الأمام. في المقابل، أنت تناضلين من أجل الحريّة المطلقة والنّقية من كل قيود. سنسمّيها "عقيدة الحرية". وحين وجدت نفسك في ظروف قاسية لماذا لم تعودي إلى تلك المبادئ التي تعيشين من أجلها لتستمدي منها الشجاعة على مواصلة الطريق؟ لماذا اخترت الانتهاء من الحياة، مع أنه قرار لا رجعة فيه ولا يترك المجال لفرصة جديدة؟ أليست لديك ثقة

كافية في معتقدك؟

ران الصمت للحظات دون أن تعلق روزلين. فأردفت ياسمين في هدوء وهي ترفع يديها ككفتي ميزان:

- من منا الخاسر في النهاية: أنا بإيماني بدين فيه حقوق وواجبات، يعطيني من الاطمئنان بقدر ما أبذل من الطاعة؟ أم أنت بإيمانك بعقيدة الحرية تلك، ومع أول اختبار عسير في الحياة تنهار ثقتك في كل مبادئك السّامية وتختارين القطع النهائي؟

وقفت روزلين في عصبية وصرخت فجأة وبشكل غير متوقع:

- إرهابيّة.. اخرجي من هنا أيّتها الإرهابيّة.. أخرجوا الإرهابيّة من هنا. النجدة!

على وقع صراخها جاءت الممرّضة على عجل. أمسكت بذراع روزلين لتبعدها عن ياسمين ثمّ هتفت بلهجة آمرة:

- يكفي لهذا اليوم. يجب أن تستريح المريضة الآن.

وقفت ياسمين في صدمة وغادرت المكان في ذهول تام. كان النّقاش يسير بشكل جيّد حتّى ذلك الحين، فما الذي دها المرأة حتى تنعتها بالإرهابيّة على حين غرّة؟

****

لم تستطع أن تمحو من مخيلتها تفاصيل الحوار الذي دار بينها وبين روزلين ذلك الصّباح. كانت مشغولة البال طوال النهار حتى وهي تجلس مع جولي ومارينا وزميلات أخريات في وقت الاستراحة. الإرهاب. أصبحت كلمة متكرّرة تطرق مسامعها في أوقات مختلفة من الليل والنّهار. قضيّة شركة الكيميائيّات كانت تشغل الرّأي العامّ وتحتلّ الصّدارة في نشرات الأخبار والبرامج الاجتماعيّة. يحتلّ المنابر "خبراء في مسائل الشرق الأوسط" و"مفكّرون مستشرقون" يقدّمون رؤية ضيّقة عن المجتمع المسلم ويدّعون الإلمام بحالات مشابهة لحالة "الإرهابيّ الأصولي المندسّ" متحدّثين عن الدكتور عمر الرّشيدي.

في ذلك الأسبوع، خرجت "مارين لوبان"، عضو البرلمان الأوروبي والقيادية الشابة في حزب "الجبهة الوطنية" اليميني المتطرّف، وابنة مؤسّسه ورئيسه "جان ماري لوبان"، خرجت في حشود من مؤيديها وأنصارها لتعلن "حربها على الإرهاب". لم يكن عليها أن تبذل مجهودًا جبّارًا في صياغة خطابها، فقد كان "جورج بوش" الابن قد اضطلع بالمهمّة في السّنوات الأخيرة بوضعه أبجديّات معجم "الحرب على الإرهاب"، وصار من اليسير على من يرغب في تبنّي التّوجّه نفسه استيراد الخطاب الأمريكي وترجمته إلى لغة أهل البلاد وتطبيقه على واقعها.

لم تكن المبادرة مفاجئة، فقد عرفت مارين وحزبها منذ زمن بآرائها السياسيّة المتشدّدة تجاه الهجرة الإفريقيّة والمغاربيّة، التي تؤمن بخطرها على الاقتصاد ومبدأ اللائكية، وخصوصًا تهديدها للأمن العام. ويبدو أنّ حادثة شركة الكيميائيات جاءت لتؤكّد مخاوفها وتعزّز موقفها، فخرجت باقتراح جديد يدعو إلى فتح حوار عام عن "الهويّة الوطنيّة" سرعان ما لقي ترحابًا عامًّا في الأوساط الثّقافية والسياسيّة.

تعالت الأصوات من كلّ اتّجاه تطرح أسئلة "وجوديّة" مؤرقة: هل يعتبر الفرنسيّ المسلم "فرنسيًّا" حقًّا، أم أنّ اعتناقه لدين يحتضن الإرهاب يتعارض مع فرنسيّته؟! هل يمكن لفرد من الأفراد أن يجمع بين الجنسيّة الفرنسيّة المكتسبة والأصل العربيّ، أم أنّ الظروف الحاليّة تقتضي تخييره بين الجنسيتين ليحدّد في أيّ جهة يقف؟ وسحب الجنسيّة الفرنسيّة منه بالقانون في صورة ثبت تعاطفه مع الإرهابيّين؟!

سرى الغليان في الشوارع كما تسري النار في الهشيم، واعتبر شباب الجيل الثاني والثالث للهجرة أنفسهم مستهدفين. وفي إحدى الليالي، هاجمت مجموعات ملثمة مقرّات حزب الجبهة الوطنية بالهراوات والعصيّ. حطّموا ونهبوا كل ما تطاله أيديهم، وأضرموا النار في المباني الخالية. ولم يتوقف الأمر عند ذلك الحدّ، بل امتدّ التخريب ليطال وسائل النقل العموميّ وسيّارات الشرطة والمباني الحكوميّة، بالإضافة إلى دور عبادة يهوديّة لم يدر أحد مدى علاقتها بموضوع الخلاف. خلال أسبوع واحد، كانت حمّى العنف قد أصابت مئات الشباب الفرنسيّ من أصول عربيّة، في ضواحي باريس أولًا ثم في باقي الولايات الفرنسيّة، وتسبّبت في حرق آلاف السيّارات وتدمير عشرات المباني باستعمال قنابل "المولوتوف" يدويّة الصنع. وأعلنت وسائل الإعلام أنّ أعمال الشغب تلك كانت الأوسع نطاقًا والأقوى وتيرة في تاريخ فرنسا الحديث، منذ أحداث مايو 1968. *

---

* أحداث مايو 1968 عرفت بانتفاضة شباب الجامعات وتمثلت في حركة اجتماعيّة شاملة ضدّ الرأسمالية والإمبرياليّة.

في تلك الفترة، لم يكن غريبًا أن تنطلق صفارات الإنذار في أيّ وقت من أوقات النهار أو الليل في محطات قطار الأنفاق، ليتمّ إخلاء القطار والمحطّة وتعطيل حركة السّير لساعات طويلة بسبب التبليغ عن "طرد مهجور" في إحدى العربات. كان الهلع الذي أصاب الفرنسيّين يجعلهم يتشكّكون من أيّ شيء ومن كلّ شيء، ويتخيّلون أنفسهم مهدّدين بخطر إرهابي محدق لا شك سيفتك بهم قريبًا. وصدرت أيضًا جملة من البيانات العشوائيّة تتبنّى تفجير شركة الكيميائيات الإرهابيّ تحت تواقيع مختلفة، لكن سرعان ما كانت السّلطات تكتشف بعد تحقيق بسيط سلامة الطرود المهجورة، وسخافة البيانات التي غالبًا ما كانت نتاج دعابة ما من شباب عابث يسخر من الوضع كلّه ويتناول الأزمة الأمنيّة الحادّة التي تحيق بالبلاد بلا مبالاة تامّة.

تعلم ياسمين أنّ الفتيات يتجنّبن إيذاءها بحديث مباشر قد يجرحها، لكنّ الدّاء تفشّى واستفحل وأصبح الموضوع الرّئيسيّ لكلّ مجلس. تفاجأ بنظرات حذرة من حين إلى آخر حين تقطع ممرًا أو تتوقّف عند مكتب، وتلتقط كلمات مبعثرة في غفلة من أصحابها.

"لم تعد فرنسا بلدًا آمنًا. التهديد بالإرهاب يثير الرّعب في قلوب المواطنين الذين صاروا يخشون على حياتهم من تفجيرات إرهابية قد تطرأ في أيّ حين".

"إنّ وجود إرهابيّين يتجوّلون أحرارًا على الأراضي الفرنسيّة يثير القلق والفزع في الشارع ويقوّض الإحساس بالأمن، ويدفع إلى ثورة شعبيّة ضدّ قوات الأمن والحكومة القائمة التي لم تفعل شيئًا حتّى الآن لإعادة الاستقرار وتفكيك الخلايا الإرهابيّة".

"إنّهم بيننا. يروننا ولا نراهم. الإرهابيّون يتوغّلون في مجتمعنا ويندمجون فيه ويحاصروننا من الدّاخل. لم يعد بالإمكان تمييز الإرهابي بكونه شابًا عاطلًا ومنحرفًا من أصول مغاربيّة. حيث إنّ التجربة قد أثبتت أنّه قد يكون حاصلًا على شهادات علميّة مرموقة وإطارًا في شركة معروفة".

"أوقفوا الإرهاب. أوقفوا مدّ الهجرة المغاربيّة والإفريقية. نظّفوا مجتمعنا من الحثالة المسمومة".

العناوين التي تملأ وسائل الإعلام المرئية والمقروءة، والتصريحات التي ترد على ألسنة مسؤولين حزبيين وممثلين لجمعيّات المجتمع المدنيّ، كانت كلّها تصبّ في اتّجاه واحد. الخطر الإرهابيّ المحقّق وارتباطه الوثيق بالمهاجرين العرب والأفارقة. رغم أنّ قضيّة تفجير شركة الكيميائيات كانت ما تزال في المحكمة ولم يتمّ البتّ فيها بعد، إلّا أنّ الشّائعات الخبيثة انتشرت ووجدت

لها صدى في نفوس متربّصة متوثّبة واتت الأحداث حاجة في أعماقها، وأصبحت إدانة الدكتور عمر في نظر المجتمع تحصيل حاصل ومسألة وقت لا غير.
ضاقت ذرعًا بنشرات الأخبار وكرهت البرامج السياسيّة. تشفق كثيرًا على رنيم التي تبقى يوميًا وباستمرار في قلب المعمعة. تتحمّل كلمات زميلتها فيفيان اللاذعة ومحاصرة وسائل الإعلام من كلّ جانب، تخوض حربها وحيدة من أجل براءة موكّلها، وتحرص على عدم وصول أصداء الرأي العامّ الفرنسيّ بخصوص قضيّته إليه في عزلته المفروضة. لكن هي، ياسمين، كانت تعتقد طيلة الوقت بأنّ الضّباب سينقشع قريبًا حين يظهر الحقّ وتفنّد التّهم. لم تكن تتوقّع أن يتناثر الشرر في كلّ اتّجاه ليصيب أبرياء لا تشوب سيرتهم شائبة. كشخص مسالم وقليل الاحتكاك بالآخرين، لم تتخيّل أن يصلها الفيض ويطالها شخصيًا فينعتها أحد ما، يومًا، بالإرهابيّة! لم يكن ذلك الموقف الرهيب الذي عاشته ذلك الصّباح ليراود أكثر أحلامها جموحًا وإمعانًا في الفانتازيا!
خرجت من أفكارها حين شعرت باهتزاز في حقيبتها. سارعت إلى إخراج هاتفها الذي كان على الوضع الصّامت ثم اتسعت عيناها بقوّة. وقفت معتذرة من زميلاتها على الفور وغادرت المكان دون انتظار. لم يكن بإمكانها أن تضيّع تلك المكالمة

- أبي، هذا أنت؟

جاءها صوته بعيدًا ومشوّشًا:

- ما الأمر يا ياسمين؟ أقلقتني عليك.

كانت تتصل به كل يوم في استراحة الظهر وفي المساء على أمل أن يردّ عليها. لكنّ هاتفه كان مغلقًا معظم الأحيان. قالت في عتاب:

- كان من الصعب الحديث إليك في الأيام الأخيرة.
- اضطررت إلى إغلاق الهاتف. هناك رقم غريب يتصل بي عشرات المرّات في اليوم الواحد ويقاطعني في الاجتماعات والمحاضرات وفي كل وقت.
- آه، أنت بخير إذن.
- ياسمين، ما الأمر؟

تردّدت لبعض الوقت. كانت قد وعدت باتريك بألا تخبر والدها عن زيارته لإيلين، لكنّ فضولها لمعرفة طبيعة الخلاف بينهما غلب. قالت مصطنعة الهدوء:

- أبي، هل تعرف شخصًا اسمه.. باتريك كلود؟

مرّت لحظات من الصّمت المتوتر قبل أن يسألها كمال في جفاف:

- كيف عرفت باتريك؟
- إنّه.. إنّه زميل لي في الشركة.. وقد قال إنّه يعرفك!

صمت للحظات ثمّ سألها في ارتياب:

- هل ضايقك بشكل ما؟

سألته بدورها في حذر:

- لماذا تتوقع أن يضايقني؟

- بالطبع، لا بدّ أنّه قد فعل. لا تقلقي سأتصرّف. ربما ستتأخر عودتي إلى المنزل، لكنني سأتصرّف حتمًا.. يجب أن أذهب الآن.

حاولت استيقافه، لكنّه كان قد أنهى الاتصال. اتصلت به مجدّدًا لكن الهاتف عاد مغلقًا! تنهدت في أسى. ماذا عنها هي؟ كيف ستتصرّف مع باتريك هذا في الشركة؟ كانت تسير في سرحان تقلّب كلمات والدها وقد أعياها التفكير، حين اصطدمت عيناها بالرجل الواقف في ركن الاستراحة يحتسي قهوته في هدوء. استدارت على الفور لترجع من حيث أتت، لكن بعد فوات الأوان. كان باتريك قد لمحها.

- ياسمين.

تسمّرت في مكانها حين وصلها صوته، واستدارت ببطء لتواجهه وهي تضغط على أصابعها في توتر. منذ تلك الحادثة لم تلتقه أبدًا وجهًا لوجه. لذلك تأخّرت المواجهة. لا تدري إن كان من حسن حظها أم من سوئه أن الفتيات كنّ قد تفرّقن وعادت كل منهنّ إلى مكتبها.

- لا داعي لأن تفرّي كالمصعوقة كلما رأيتني.

رفعت عينيها إليه وقد أدهشتها كلماته. قبل أن تعلق كان هو يضيف في هدوء:

- لقد نسيت ما حصل تلك اللّيلة.. يمكنك أن تنسيه أيضًا.

همست في توتر:

- طيّب.

ثم استدارت وهمّت بالمغادرة، لكنّه أردف بسرعة:

- إن كنت تريدين للمشكلات أن تنتهي، اطلبي من والدك أن يطلّق إيلين.

التفتت إليه بقوة وقد صدمها طلبه. فتابع بنفس البرود القاتل:

- أعدك أنني لن أضايقك بعد الآن. سأهتمّ أيضًا بريّان وسارة، فهما مهمّان جدًا بالنسبة إليّ. إيلين يجب أن تخرج من سجن والدك وتأتي للعيش معي في باريس. يكفيها ما عانته طوال السنين الماضية.

لم تتكلم ياسمين. كانت نظراته مخيفة رغم الهدوء الظاهر. تابع دون أن يهتمّ بصمتها:

- يمكنك زيارة أخويك وقتما تشائين. أما كمال أو سامي أو أيًّا كان، فلن يلوم إلا نفسه إن اقترب من عائلتي مجدّدًا.

كانت لهجته قد احتدّت وهو ينطق الجملة الأخيرة. وجاءت كلمة "عائلتي" نشازًا في أذني ياسمين. عائلته؟ ريّان وسارة عائلته؟ همّت بالاعتراض والاستنكار. ليس من حقه أن يوجّه حياة غيره. والدها وإيلين شخصان راشدان ويمكنهما أن يحلا مشكلاتهما دون تدخل خارجي. لماذا يصرّ على بعثرة العائلة والعبث باستقرارها؟ بسبب قصّة من الماضي لا تعلم تفاصيلها؟ أيًّا كانت أسبابه فلا ذنب لأخويها حتّى يشرّدهما بين أبوين منفصلين. لكن أيًّا من تلك الكلمات لم تتجاوز شفتيها. حبست استنكارها داخلها. أخذت نفسًا عميقًا ثم استدارت لتبتعد باتجاه مكتبها. ربّما لم يكن تدخلها إلا ليزيد الأمور سوءًا.

(24)

الشاهد

- اسمك؟ سنك؟ ومهنتك؟
- غوستاف بلامر، خمس وخمسون سنة.. حارس شركة الكيميائيات في ليون.
- أين كنت وقت الحادثة؟

ردّ الرّجل بسرعة وبثبات من تدرّب على سرد الحكاية مرّات ومرّات:

- كنت أقوم بجولة على المكاتب في الطابق الثالث من المبنى الشرقيّ، حين سمعت انفجارًا قويًّا بدا لي أنه قادم من المبنى الشمالي. قوّة الارتجاج جعلتني أسقط على الأرض، واللوحات وقطع الأثاث التي في الممرّ كانت تتهاوى، وزجاج النوافذ كان يتفجر في كل المبنى.
- قبل الانفجار، هل لفت انتباهك شيء ما؟
- نعم سيدي. حين مررت على مكاتب قسم الأبحاث كان الدكتور عمر الرشيدي ما يزال في المختبر. وبعد بضعة دقائق حين كنت في الطابق الثالث من نفس المبنى، سمعته يصرخ "الله أكبر"، بعد ذلك حصل الانفجار.
- هل كان هناك شخص آخر في المبنى آنذاك؟
- نعم يا سيدي. مجموعة باحثين شبان يحتفلون بترقية أحدهم. كلهم كانوا ضحايا الانفجار.
- شكرًا لك. ليست لديّ أسئلة أخرى.

ابتعد النائب العام في اتجاه المنصّة، في حين وقفت رنيم بدورها لتطرح أسئلتها:

- سيد غوستاف، هل تعرف الدكتور الرشيدي بشكل جيّد؟

ارتبك الرجل وهو يقول بعد تردّد:

- ليس بشكل مقرّب.. فكوني حارسًا ليليًا لا يسمح لي بلقاء الموظفين كثيرًا.
- هل تعتقد إذن أنّه بإمكانك تمييز صوته القادم من الطابق الرابع والجزم بأنه هو من كان يصرخ؟

احتج الرّجل في اضطراب:

- لكنني واثق من أنه هو.. إنّه العربيّ الوحيد في القسم، وقد رأيته في المختبر ذلك المساء.

قاطعته رنيم في تأكيد:

- إذن تصريحك بأن الصّوت كان صوت موكلي نابع "فقـــط" من كونه العربيّ الوحيد في القسم، ولكونك تعتقد بأنّه كان موجودًا في المبنى آنذاك، وليس لتعرّفك على صوته مثلًا؟
- والمتّهم اعترف أيضًا بكونه صرخ في ذلك التوقيت.

- سيّدي، أسئلتي تتعلّق بشهادتك أنت. بما رأيته وسمعته، وليس باعترافات المتّهم.
ابتسمت رنيم وهي تطلق سؤالها الموالي:
- فلنفترض أنّ هناك شخصًا آخر كان موجودًا في الطابق الثاني أو الخامس أو في أيّ طابق آخر غير الطابق الرابع حين مررت على المختبر.. فلنفترض أن هذا الشخص انتظر نزولك إلى الطابق الثالث ليذهب إلى المختبر، فهل من الممكن أن يصل إلى هناك دون أن تراه أو تنتبه إليه؟
- لا يمكنه الوصول إلى الطابق الرابع إلا باستعمال المصعد أو السلالم في مدخل كل طابق. أعتقد أنّني كنت لألمح تحرّك المصعد وإشارته الضوئية، أو أسمع وقع الخطوات على السلم.
- ماذا لو كنت داخل أحد المكاتب حينها، وكان الشخص المعنيّ يتعمّد إخفاء وقع خطواته؟
فكر الرجل للحظات ثم قال في تسليم:
- ربّما.. ربّما كان بإمكانه المرور دون أن أنتبه.
التفتت رنيم إلى المحلفين لتلمح تأثير الكلمات على وجوههم الواجمة، ثم قالت مغيّرة الموضوع:
- حسن، بعد ذلك سمعت الانفجار. كم مضى من الوقت بعد أن سمعت الصرخة وحتى وقع الانفجار؟
- ربما دقيقتان أو ثلاث.
- أنت متأكد؟
فكر الحارس محاولًا استعادة ترتيب الأحداث:
- حين سمعت الصرخة كنت في المبنى الشمالي حيث المختبر.. وحين حصل الانفجار كنت بالكاد قد وصلت إلى المبنى الشرقي. إن كنت قد توقفت لعشرين ثانية في كل مكتب ومررت على نحو ثمانية مكاتب.. ثم قضيت دقيقة واحدة في السلم.. ربّما تكون أربع دقائق.
سألته رنيم فجأة:
- برأيك، ما الذي يجعل إرهابيًا يُقدم على عمليّة انتحاريّة يتأخر لأربع دقائق تفصل بين "الإعلان" و"التنفيذ"؟
قاطعها النائب العام في احتجاج:
- أعترض سيدي الرئيس. الشاهد ليس مطالبًا بالإجابة عن هذه الأسئلة.
استدارت رنيم في حدّة لتواجهه وقالت:
- الأسئلة موجهة إلينا جميعًا وليست للشاهد فقط. والسؤال الأهمّ هو: ما هو السّبب وراء التفجير الذي حصل؟ ألا تلحظ معي غياب دافع واضح ودامغ؟ لماذا لا نسلّم بأنّ الأمر كان مجرّد حادث أليم، موكّلي كان من أكثر المتضرّرين منه؟
كانت تنتظر امتقاعًا على وجه النائب العام وتلعثمًا على لسانه، لكنها اصطدمت بابتسامة واسعة وهو يقول في لهجة غامضة:
- لا تستعجلي الأمر يا آنستي. فالدّافع سيظهر اليوم حين نستكمل الاستماع إلى الشهود.
ضرب القاضي على الطاولة بمطرقته ليوقف النزاع الكلامي:
- هل من أسئلة إضافيّة للشاهد؟

قالت رنيم في ارتباك وقد سرحت نظراتها في تفكير:
- لا سيدي الرئيس.
عادت لتجلس في مكانها وهي لا تتوقف عن تقليب كلمات النائب العام في رأسها. أخذت تعيد قراءة قائمة الشهود. لم يكن هناك إلا عدد من موظفي الشركة. هل في جعبة أحدهم كلام لم يدل به من قبل؟ كانت تظنّ الحارس شاهد الإدانة الوحيد. لكنّ كلام النائب العام أربكها. كانت ما تزال غارقة في تفكيرها حين اقترب منها عمر وهمس بلهجة واثقة:
- ليس هناك ما يدعو للقلق. لأنّني لم أفعل شيئًا.
رفعت رأسها ونظرت في عينيه بقوّة ثم ابتسمت:
- أنت محق، لا داعي للقلق. النائب العام يتعمّد إرباكي حتى لا أركز في استجواب بقيّة الشهود.
هز عمر رأسه موافقًا وهو يبتسم بدوره. كان يضع ثقته الكاملة فيها، فما أبدته إلى حد الآن من استماتة في الدفاع عنه يجعله يؤمن بأنّه لم يخطئ حين ترك مصيره بين يديها. أمّا هي فقد كانت تلك القضية تترك في نفسها آثارًا لم تحسب لها حسابًا حين قبلتها. آثار لم تتفطن هي بعد إلى وجودها.
- الشاهد الموالي.
تتالى توافد الشهود من موظفي الشركة التي كانت شهادتهم تتلخص في الحديث عن سيرة عمر وطبعه المتحفظ مع زملائه. كان عدد قليل منهم يذكر بعض المواقف التي جمعته به في حين اكتفى البعض الآخر بوصفه بالانطوائي. لحسن الحظ كانت هناك بعض الشهادات المنصفة من وليد الذي يعمل في قسم المحاسبات، وخصوصًا من عاملات التنظيف اللواتي أشدن بمعاملته اللطيفة التي تركت أثرًا طيبًا في نفوسهن، مقابل الجفاء الذي يلمسنه من بقية الإطارات في الشركة. كانت قد مضت ساعات على بداية الجلسة وبدأ عمر يشعر بالتعب. همس إلى رنيم التي كانت قد أنهت استجواب أحد الشهود وأخذت تقلب أوراقها في تركيز:
- أنا مرهق.. إلى متى ستستمرّ الجلسة؟
همست رنيم بدورها مهوّنة:
- لم يعد هناك سوى شاهد واحد لليوم. لم يبق الكثير.
مع تقدّم الاستجوابات كانت ثقتها بدفاعها تزداد. لم تر أثرًا لتهديدات النائب العام ذلك الصباح، ومع اقتراب نهاية الجلسة لم يبق لقلق الصّباح مكان.
- الشاهد الموالي.
فجأة تقدّم الحاجب وطلب من الحاضرين من صحفيين وإعلاميين وغيرهم مغادرة القاعة. نهض الحضور وأخذوا يتقدّمون نحو المخرج في جلبة، وكلّهم يتساءل عن سبب ذلك الإجلاء غير المتوقع. تلفت عمر حوله في استغراب وهمس إلى رنيم:
- ما الذي يحصل؟
وقفت على الفور واتّجهت إلى منصّة القاضي. غابت للحظات قصيرة ثم عادت لتجلس في مكانها وقد امتقع وجهها. رنا إليها عمر في قلق وقد تسرّب إليه توترها وانتظر أن تخبره بما عندها. لكنها ابتسمت مدارية اضطرابها وهي تقول محاولة طمأنته:

- الشاهد طلب التّمتّع بنظام حماية الشهود. لا يريد لغير الأطراف المعنية الاستماع إلى تصريحاته، لذلك طلب القاضي إخلاء القاعة.
سألها عمر في قلق:
- هل هي تصريحات جديدة لم يدل بها في التحقيق؟
هزّت رنيم رأسها علامة الإيجاب وتمتمت بوجه متجهم:
- يبدو ذلك.
لم تكن علامة طيّبة. كونها لا تعرف شيئًا عن محتوى الشهادة المقبلة، يعني أنها لم تحضّر دفاعها، وقد تكون هناك مفاجآت لم تحسب حسابها. لكنّ أكثر ما يقلقها هو طلب الشاهد الحماية من المحكمة. ذلك يعني أن في جعبته كلامًا بالغ الخطورة، وسيدهشها حقًّا أن يكون ذلك في مصلحة عمر.
أمام أعين المحلفين والنائب العام والقضاة، تقدّم البروفيسور كريستوف نوارو إلى منصّة الشهادة. جلس في المكان المخصّص له ثم رفع رأسه ليرمق عمر بنظرة غريبة. أدلى ببياناته الشخصية وأدى القسم بأن يقول "كل الحقيقة، ولا شيء غير الحقيقة"، ثم انتظر أن يبدأ النائب العام الاستجواب. وقف هذا الأخير وفي طريقه إلى وسط القاعة توقف لثانية واحدة قرب رنيم، وهمس وعلى شفتيه ابتسامة صفراء:
- استعدي للبكاء يا صغيرتي!
عقدت رنيم حاجبيها في قلق والتفتت إلى عمر في تساؤل. ما الذي يخفيه هذا الشاهد؟ لكنّ عمر الذي وصلته كلمات النائب العام مال عليها وهو يقول في استغراب:
- إنه البروفيسور كريستوف، كان معي في قسم الأبحاث بالشركة.. لا أظنّه كان على عين المكان يوم الحادثة، ولا أفهم سبب السّرّيّة التي يحيط بها شهادته.
في تلك الآونة قفزت إلى رأسه كلمات وليد عن تحالف صامويل وكريستوف ضدّه واهتمامهما بأبحاثه.. ثم زيارة كريستوف لمكتبه قبل الحادثة بأيام قليلة. لم يكن ذلك ينبئ بخير أبدًا.
- بروفيسور نوارو، أنت تعمل في الشركة منذ سنوات، فما هو مدى معرفتك بالمتّهم؟
اكتست ملامح كريستوف جدية بالغة وهو يقول:
- الدكتور الرشيدي -إن صح إطلاق لقب الدكتور عليه- بدا لي ذا سلوك مريب منذ البداية. ابتعاده عن الاختلاط بالزملاء والسرّيّة التّامّة التي يحيط بها تجاربه، كلها أثارت شكوكي ناحيته.. وقد تأكد لي الأمر لاحقًا حين عرفت بحقيقة نواياه.
تشنجت قبضة عمر وهو يشدّ على ذراع الكرسيّ المتحرّك بقوة، في حين شحب وجه رنيم التي تتابع المشهد في صمت. واصل النائب العام استجوابه وهو ينظر بطرف عينه في اتجاه منصّة المحلفين:
- وما هي هذه النّوايا التي تقصدها؟
المتّهم لم يكن يعمل على أيّ تجارب علمية أو غيرها، بل كان يحضّر طوال العام الماضي للتفجير الذي أقدم عليه لمسح الشركة، وخصوصًا قسم الأبحاث، من الوجود.

ارتفع صوت عمر صارخًا:

- هذا كذب! محض افتراء!

ضرب القاضي الطاولة بمطرقته ليقطع احتجاج عمر، في حين استأنف النائب العام الذي كان يعيش نشوة الانتصار في تلك اللحظات:

- وما هي برأيك أسباب حقده على الشركة إلى هذه الدّرجة؟

- ليس حقدًا يا سيدي، بل طمعًا. بشكل من الأشكال وصلت إلى المتّهم وشركائه الإرهابيّين معلومات عن مولّد الطاقة النظيفة الجديد الذي أعمل وشريكي الدكتور صامويل بلير الباحث الشاب -رحمه الله- على إنجازه. عمل على الانضمام إلى الشركة وانتظر حتّى اكتمل المشروع بدراسته الاقتصاديّة والتقنيّة ثمّ خطط لسرقة الملف الأصليّ، وتفجير المختبر حتّى تختفي كل آثار البحث، ما عدا تلك التي يحتفظ بها.. وبالطبع تصفية الباحث الرّئيسي في المشروع، الدكتور صامويل.

أخفى عمر وجهه بين كفيه وهو لا يصدّق ما يسمع. كيف وصلت به الدّناءة إلى صياغة ذلك الاتهام الشنيع؟ فضلًا عن نسبة البحث إلى نفسه، يتّهمه بالتخطيط ضدّ الشركة!

- أخبرنا كيف اكتشفت ذلك يا سيدي؟

- قبل أسبوع من الحادثة، كنت قد أنهيت تحضير الملف وقمت بطبع نسختين منه. نسخة لأعرضها على شريكي الدكتور بلير وأخرى أردت أن أحملها إلى البروفيسور دانيال بروكس مدير القسم. في ذلك اليوم اتصلت بي زوجتي من المستشفى. كانت قد تعرّضت إلى وعكة صحيّة استوجبت نقلها إلى الإسعاف. خرجت من المكتب بسرعة ونسيت أن أغلق مكتبي، لأكتشف صباح الغد أن النسختين قد اختفتا من درج المكتب حيث تركتهما، إضافة إلى أضرار بالغة بجهازي باستعمال أداة حادّة، يبدو أنها سُبقت بمحاولة فاشلة لفك كلمة السّرّ الخاصّة بالجهاز.

- ما الذي يجعلك تعتقد ذلك؟

- الشاشة سيدي، كانت تُظهر أنّ أحدهم قد أدخل كلمة سرّ خاطئة مرات عدّة، ما أدى إلى حظر الدخول إلى الجهاز بصفة مؤقتة. مع اختفاء النّسخ الورقيّة أيقنت أن عملية سرقة قد حصلت وأنّ السّارق أراد الاستيلاء على النّسخة الإلكترونية أيضًا. ولّما لم يتمكن من فك كلمة السّرّ قام بمحاولة تكسير الجهاز حتى يستحيل فتحه من جديد.

- لماذا لم تخبر رئيس القسم حينها أو تقدّم شكوى بالسّرقة الواقعة؟

- لم يكن لديّ أيّ حجّة ملموسة. كان عليّ أن أتأكد بنفسي ممّا حصل قبل التبليغ عن السّرقة. العمليّة صارت ليلًا، وكان من المعروف أن عددًا قليلًا من الأشخاص من بينهم المتهم يغادرون الشركة بعد الآخرين. ولأنّ شكوكي كانت تتجه إلى المتهم منذ البداية فقد قمت بزيارته في مكتبه. لاحظت على الفور ارتباكه. لم يكن يتوقع حضوري. عرضت عليه المساعدة وتظاهرت بجهل نواياه بالكامل.. لكنّه كان يتخذ حذره ولم يرغب في إطالة الحوار. علمت في الغد من السيد بروكس أنّ المتّهم جاء لرؤيته وبرفقته ملف أبحاث جديدة يريد رأيه بها.

- لماذا لم تخبره على الفور بسرقة أبحاثك؟

- لأنّني لم أكن أملك الدّليل. مع اختفاء النسخ الورقية وتعطل الجهاز لم يكن لديّ الكثير لأفعله. اتصلت بالتقني المختصّ في

الشركة لتصليح الجهاز بسرعة.. لكن العملية أخذت منه وقتًا طويلًا نظرًا للأضرار الماديّة الحاصلة، ولم أتمكن من تشغيل الجهاز إلا عشيّة الحادثة. حينها كان السيد بروكس قد انصرف. حاولت الاتصال به عدّة مرات على الهاتف لكنّه لم يكن يرد. لذلك تركت له رسالة صوتيّة ووطنت العزم على زيارته في مكتبه صباح اليوم التالي.

علق النائب العام وهو يواجه المحلفين ويشير بكفيه علامة الاستسلام:

- لكن الحادثة جاءت لتشغل الجميع عن قصّة الأبحاث.

هز كريستوف رأسه علامة الموافقة، فأضاف النائب العام وهو يلتفت إليه من جديد:

- ماذا عن حادثة التفجير؟ أظنك كنت من ضمن فريق الخبراء الذي قام بتحليل مكونات الشظايا؟

- نعم يا سيدي. عملت مع عدد من المختصّين على العين المكان لنكتشف سرّ الانفجار ودرجة خطورته على المحيط الطبيعي والبشريّ. بتحليل البقايا والشظايا اكتشفت وجود مكونّات المادّة الخام التي كنت أعمل عليها، فتأكدت من أن المتهم كان قد سرق ملفاتي بالفعل. وقام بتفعيل التجربة باستعمال محرّك في مختبره. لكن تلك المادة كانت تختلط بمكونات أخرى غريبة لا شك أنها جزء من تجارب المتهم التفجيريّة التي كان يعدّها في الخفاء.

- هلا ذكرت لنا بإيجاز طبيعة البحث الذي كنت تعمل عليه بروفيسور؟

- "الاندماج البارد" سيدي. أسطورة علميّة قديمة أصبحت اليوم حقيقة تثير الأطماع.

- بروفيسور كريستوف نوارو، شكرًا لك.

حين جاء دور رنيم لاستجواب الشاهد وقفت بوجه ممتقع وهي تقول:

- سيدي الرئيس، أطلب رفع الجلسة للتشاور مع موكلي.

****

دفعت رنيم باب مكتب النائب العام بقوّة وهتفت في عصبيّة:

- هل لي أن أفهم ما الذي حصل اليوم في المحكمة يا سيدي؟

استرخى النائب العام في مقعده ونزع نظاراته الطبية، ثم طالعها بابتسامة هادئة:

- ما الأمر أستاذة رنيم شاكر؟

أجابته بنفس الاندفاع المحتج:

- لماذا لم يصلني خبر قبل الآن بمحتوى تصريحات الشاهد الأخير؟ هل هي أساليب ملتوية لإغراق موكلي؟

حافظ الرّجل على هدوئه وهو يقول متجاهلًا تعليقها:

- هل تظنّين أن الاتهام بالإرهاب جاء من فراغ؟ القضيّة تحظى باهتمام رئيس الجمهورية نفسه، والشعب الفرنسيّ كلّه ينتظر الحكم فيها، فهل تعتقدين أنّنا اختلقنا التّهم وألصقناها بموكلك؟

تنهد وهو يضيف:

- البروفيسور كريستوف نوارو اتّصل بي بعد أيام قليلة من الحادثة وطلب الإدلاء بشهادته بسريّة تامّة. لم يكن يريد أن تتسرّب المعلومات التي سيدلي بها إلى أيّ كان، لأنّه كان يخشى على حياته من الإرهابيين الذين ما يزالون طلقاء إلى حدّ

الآن. وبمثوله أمام المحكمة للشهادة تعهدنا بتوفير الحماية الكاملة له ولعائلته.
ثبّتت رنيم نظراتها في عينيه وهي تقول في ثقة:
- على أي حال، لم نتأكد بعد من صحّة تصريحاته.
اتسعت ابتسامة النائب العام وهو يقف من مكانه ويتقدّم باتجاهها. قال حين أصبحا وجهًا لوجه:
- أنت واثقة من براءته إلى هذه الدّرجة؟ حذار يا صغيرتي. لا تجعلي قلبك يؤثر على حكم عقلك.
عقدت حاجبيها في ضيق وهي تهتف في برود:
- ماذا تقصد يا سيدي؟
قال وهو يبتعد عنها من جديد:
- ما فهمتِه.
تسارعت دقات قلب رنيم وقد أصابها الارتباك فجأة. تمالكت نفسها وزمّت شفتيها لتستعيد مظهرها الصارم، في حين أضاف الرجل بلهجة ذات معنى:
- الشاب عربيّ.. مثلك تمامًا، وقد يجعلك التعاطف تخطئين الحكم. هذه القضية لا أظنّك قد تكلفت بمثلها من قبل. إن لم أكن مخطئًا فهي بدايتك مع الجنايات؟ هذه ليست قضية طلاق أو شجار بين جارين في حيّ شعبيّ. لكن لست أفهم.. كيف سمح لك جورج باعتماد البراءة؟
قالت رنيم متجاهلة كلماته الأخيرة:
- حسن أمامي عمل كثير. أستأذن الآن.
استدارت وتقدمت بخطوات حازمة في اتجاه الباب، في حين تبعها صوت النائب العام وهو يقول:
- تثبّتي أين تضعين أقدامك يا صغيرتي. واحذري الغوص في الوحل.. فإن الخروج منه صعب.

****

- رنيم تعالي إلى مكتبي.
كانت قد وصلت إلى مكتبها للتوّ بعد المشادّة الكلامية التي جمعتها بالنائب العام. كان مزاجها سيّئًا ويزداد سوءًا كلما أعادت في ذهنها إشاراته إلى تداخل مشاعرها مع حكمها في القضية. كانت ساخطة جدًّا عليه وعلى نفسها أيضًا. هل تراها تعيد نفس الخطأ؟ هل تعاطفت مع عمر حتى نسيت واجبها وغيّبت حكم عقلها؟ لم تكن تعترف بذلك حتّى بينها وبين نفسها، لكن أشياء كثيرة تغيّرت داخلها دون أن تدري.
حين ناداها جورج أخرجها من بوتقة أفكارها. جرّت نفسها جرًّا إلى مكتبه دون رغبة منها.
- تلقيت اتصالًا من النائب العام منذ حين.
قاطعته في استماتة:
- أرجوك جورج لا تسحب مني القضية.
ابتسم جورج مهدئًا:

- اطمئني؛ لن أفعل ذلك. لكنّك في حاجة إلى شيء من الرّاحة لاستعادة تركيزك.

كيف يمكنها أن تأخذ قسطًا من الرّاحة والقضية في أوجّها؟ واصل جورج موضحًا:

- اتركي القضية جانبًا ليوم واحد. يوم غد مثلًا. اشغلي نفسك بعمل سهل لا يستوجب الكثير من التفكير. خذي مثلًا هذا الملف. سيّدة مسنّة تريد من يساعدها على كتابة وصيّتها. ما رأيك؟

ابتسمت رنيم وهي تمدّ كفها لتسلّم الملف وقالت في امتنان:

- سأتّصل بها في الحال.

ربّما كان على حقّ. ربّما كان ذلك ما تحتاج إليه. عمل سهل ورتيب. ولتترك أعباء القضيّة إلى اليوم التالي. ربما تكون حينها قادرة على النظر في الوقائع بموضوعيّة أكبر. ما أن غادرت المكتب حتى ظهرت فيفيان أمام جورج وهي تقول في نوع من التشفي:

- ألم تندم بعد على تسليمها القضيّة؟

ضحك جورج بصوت مسموع وقال وهو يسترخي في مقعده:

- ولن أندم أبدًا يا عزيزتي.

ثم أضاف بلهجة خاصّة:

- لا يهمّني الحكم النهائي في القضيّة، ولن أنزعج أبدًا إن خسرناها.. فالخسارة كانت الاحتمال الأكبر منذ البداية. لكن هل تدرين؟ حين أرى اندفاعها وحماسها أشعر بموجة من الانتعاش.. تذكرني ببداياتي في عالم المحاماة. حين كنت مليئًا بالشباب والتفاؤل.. وكنت أدافع عن المبادئ والقيم قبل الأشخاص والمصالح.

ابتسمت فيفيان وهي تقول مداعبة:

- لكنك ما زلت شابًا يا عزيزي.

هزّ كتفيه وهو يقول في نوع من الحسرة:

- لكنني لم أعد أرى الأشياء بنفس المنظار، ولا أتناول القضايا بنفس الروح.. لذلك أحبّ التعامل مع المحامين الأقل خبرة، لأن البدايات تكون دائمًا مثيرة وذات نكهة مميّزة.

قطعت عليه فيفيان لحظات تأمله الشاعرية وهي تقول:

- هل أخبرتها أن ميشال سيزورنا الأسبوع المقبل؟

- لم أفعل.. فلتكن مفاجأة.

- إن شئت الصّراحة فهي مفاجأة للجميع. منذ استقراره في مرسيليا لم نعد نراه كثيرًا.

قال جورج وهو يأخذ ملفًا على مكتبه ويتصفحه:

- قال إنه يحتاج لقاء بعض الشخصيات في باريس من أجل قضيّة ما.

قالت فيفيان وهي تغمزه في خبث:

- قل إنه يبحث عن ذريعة لزيارة صغيرته المدللة. أشعر أنه قد ندم على تركها ترحل.

كانت تقول ذلك وهي تتمنّى في داخلها أن يأخذها معه بالفعل. لكنّ جورج هزّ كتفيه في استهانة وهو يقول:

- ربّما.. لكنّني لن أتركها ترحل.

(25)

رجل من ورق

استلقت رنيم على سريرها في إنهاك. كانت تحاول العمل بوصيّة جورج ومنع أفكارها من التسلل إلى قضيّة عمر. لكن غصبًا عنها كانت كلمات النّائب العام تتردّد في رأسها دون توقف. "الاتهام بالإرهاب لم يأتِ من فراغ". وضعت كفها على جبينها في إعياء. كيف حال عمر يا ترى؟ هل سيجد النعاس إلى جفنيه سبيلًا بعد التصريحات المدمّرة التي أدلى بها كريستوف؟ انتبهت فجأة إلى أنها كانت تفكر فيه كشخص. لم تكن القضية ما يشغلها في تلك الآونة. بل "هو".. كيف يشعر وبماذا يفكر وكيف هي معنويّاته. عقدت حاجبيها في ضيق. منذ متى تلاشت الحدود التي وضعتها بين الشخص والقضيّة؟ دون أن تشعر كان احتمال البراءة يطغى على كل الاحتمالات الأخرى في ذهنها. تذكّرت في دهشة أنّها لم تكن مقتنعة بها في البداية. لكنّ تعاطيها شبه اليوميّ مع عمر جعلها بشكل ما تثق فيه. لم تثق في أحد بهذا الشكل من قبل.. اشتعلت إشارة الإنذار في رأسها فجأة. هل تكون قد أخطأت بثقتها في عمر؟ هل تكون قد انزلقت من جديد إلى الأحكام العاطفية؟

دقّت ياسمين على غرفتها بلطف وانتظرت أن تردّ عليها رنيم. حين لم يأتها جواب، أدارت أكرة الباب ودفعته بهدوء وهي تناديها برفق:

- رنيم، أنت مستيقظة؟

لم يأتها ردّ، عدا همهمة خافتة. كانت الغرفة غارقة في الظلام، ومع تسلل ضوء قليل من الباب نصف المفتوح، لمحت ياسمين جسد رنيم الملقى على السرير والوسادة فوق وجهها. اقتربت منها ببطء وهي تهمس:

- أنت بخير؟ هل تؤلك رأسك؟

تنهدت رنيم دون أن ترفع الوسادة. حين كانت تقيم بمفردها كانت تحظى بساعات الوحدة التي تريد وقتما تريد. لكنّ السكن مع فتاة مثل ياسمين يعني التنازل على قدر من الخصوصيّة لصالح المشاركة. وياسمين هذه لن تنصرف إلا بعد أن تطمئنّ عليها. ولتعترف بينها وبين نفسها أن ذلك لم يكن سيّئًا في نهاية الأمر.

- لم تتناولي عشاءك اليوم.. لذلك قلقت عليك.

أزاحت الوسادة واستندت على مرفقها لتستوي جالسة ثم قالت في ضيق:

- كان يومًا سيّئًا في المحكمة.

- آه.

ربما تخفّف عنها الفضفضة كما فعلت في كل مرّة؟ لماذا لا تجرّب؟ استطردت رنيم وهي تضع الوسادة وراء ظهرها وترفع بصرها إلى السقف:

- ظهر شاهد جديد وما يحمله كان من الوزن الثقيل.. الثقيل جدًا.
حكت لها باختصار ما حصل في المحكمة ذلك اليوم. جلست ياسمين إلى جوارها على السرير وأخذت تستمع إليها في انتباه.
حين أنهت روايتها قالت في جدية:
- لكن كلام الشاهد لا يمكن أن يكون صحيحًا، أليس كذلك؟
سكتت رنيم وهي تقلب كلمات النائب العام في رأسها دون توقف. هزّتها ياسمين من جديد وهي تقول:
- أنتِ واثقة من براءة الدكتور عمر، أليس كذلك؟
زفرت رنيم بقوة وهي ترمي الوسادة إلى الجانب الآخر من الغرفة:
- لم أعد أدري.
هتفت بها ياسمين في حماس:
- لكن هذه التهم لا تبدو منطقية. أنت نفسك قلت إن أحداث ذلك اليوم غير منطقية. لا يمكن أن يكون قد سرق بحث ذلك الرجل ثم جلس في المكتب ينتظر في بلادة، ليصرخ "الله أكبر" ويفجّر المكان بعد خمس دقائق إضافية. ألا توافقينني الرأي؟
هزّت رنيم رأسها موافقة وهي تقول في إرهاق:
- أوافقك في كل ذلك. لكن الوصف المفصّل للمخطط البشع الذي تقدّم به الشاهد اليوم كان كافيًا لينهار دفاعي بالكامل أمام القاضي والمحلفين.
قاطعتها ياسمين على الفور:
- أنا لا أتحدّث عن المحلفين، بل عنك أنت. هل ما زلت مقتنعة ببراءته؟
سكتت رنيم لبضع ثوانٍ وكلمات النائب العام ترنّ في عقلها من جديد. قالت أخيرًا بصوت كسير:
- لكنّني أشعر بالخوف.
سألتها ياسمين في دهشة:
- تخافين؟ ممّ؟
قالت رنيم في سرحان متجاهلة سؤالها:
- في البداية كنت أرمق بدهشة ثقته الكبيرة.. أحترم فيه ثباته المثير للإعجاب في قاعة المحكمة وأمام النظرات المعادية، وأشفق عليه من تحالف العالم ضدّه.. ثم تتابعت اللقاءات بيننا، ومع مضيّ الوقت أصبحت قضيّته تخصّني، كأن مصيره يعنيني. كنت أشعر في داخلي أنّه بريء. شخص يتصرّف بذلك الرقي ويعاملني بتلك الأخلاق لا يمكن أن يكون مجرمًا. واليوم مع اجتماع كل الأدلة ضده أصابني الذعر.. ماذا لو كان مذنبًا؟ ماذا لو كنت أدافع عن إرهابيّ وأتمنّى خروجه من السّجن بأيّ طريقة؟ ماذا لو قضى بقيّة حياته خلف القضبان؟
توقفت عند ذلك الحدّ وقد بدا عليها التأثر. راقبتها ياسمين بأنفاس مبهورة. هل تكون رنيم قد تعلقت بموكلها دون أن تدري؟ حتّى تلك اللحظة كانت ترفض الاعتراف باتخاذ القضية منحى شخصيًا بالنسبة إليها. ومن منطلق معرفتها برنيم تدرك أنها لن تعترف. مرّت لحظات من الصّمت المُحرَج بينهما. كانت رنيم تشعر بأنها أفضت بأكثر ممّا ينبغي، في حين راحت ياسمين تفكر

في طريقة لمساعدتها دون إحراجها. تكلمت ياسمين أخيرًا لتقول في جدّية:
- هل فقدت ثقتك بهذه السّرعة في براءته؟ تعالي نفكر في كل الاحتمالات. ماذا لو كان هناك ملفا أبحاث وليس ملفًا واحدًا؟
- ملفا أبحاث؟
- نعم، ملف أبحاث الدكتور عمر وملف البروفيسور الآخر. وهناك شخص ثالث سرق ملف البروفيسور ثم تعمّد إيقاع عمر في الفخ، لأنه بدا له الضحية المناسبة. ألا يفسر ذلك كل شيء؟
استمعت إليها رنيم في انتباه وتركيز وقد تجاوزت ارتباكها. ثم قالت وهي تتنهّد:
- هل تصدّقين؟ كنت مذعورة من فكرة أن يكون عمر مذنبًا، إلى درجة أنني لم أفكر في الأمر بصفة عقلانية. ذلك النائب العام، لقد نجح في إرباكي حقًا!
أضافت ياسمين مؤيّدة:
- ثم ماذا لو كان الشاهد يكذب؟ ماذا لو كان يختلق كل تلك الحكاية عن سرقة الملف لأنّه كان يريد سرقة ملفات الدكتور عمر؟ بمعنى أنه يتهم الدكتور عمر بما كان هو ينوي القيام به.
هزّت رنيم رأسها موافقة. لا يمكنها الثقة في تصريحات الشهود ثقة كاملة. عليها أن تقوم ببحثها الموازي. قالت في حزم:
- سأبدأ بالتثبّت من هذا أولًا. إن كان هناك أي تناقض في روايته فسأجده حتمًا. لن أرحمهم.
ثم ابتسمت وهي تضيف:
- تعلمين؟ ربما أتخذك مساعدة في وقت ما!

****

ها هو يجلس وحيدًا مجددًا في غرفة ناصعة البياض، لا يحيط به شيء غير الجدران وقطع الأثاث القليلة. حتى الآلات الطبية التي كانت تملأ الفضاء كانت تختفي واحدة إثر الأخرى. لم يعد يحتاج نفس الرعاية التي كان يلقاها في البداية. لكنّ صحته لم يكن كل ما يشغله في تلك الآونة.
لم يرها منذ البارحة. هل يمكنها أن تثق به بعد كل ما حصل؟ الاتهامات التي وجهها إليه كريستوف كانت مقنعة. وبقراءته لملامح القاضي والمحلّفين يمكنه أن يجزم في أيّ صف يقفون. ربما كان ذلك موقفهم منذ البداية، وتصريحات كريستوف لم تأتِ إلا لترسّخ الحكم المسبق الذي يحملونه.. إلا أن بعض الأمل كان قد راوده في بداية الجلسة. حين رأى براعة رنيم في محاورة الشهود وفي تبديد اتهاماتهم وبعثرة حججهم بتفكيرها المنطقي السلس.. أمل ضئيل ما لبث أن تبخّر في لمح البصر.
لا يظنّها ستعود. طلبت رفع الجلسة "للتشاور مع موكلها" لكنها انسحبت دون أن توجه إليه كلمة واحدة. ترقب عودتها في أي لحظة، لساعات طويلة. ومع مرور الوقت بدأت الهواجس تستحوذ عليه. ماذا لو غيّرت رأيها؟ ماذا لو شكت في براءته؟ لم تكن تثق فيه بادئ الأمر.. وهو لم يسلمها مقاليده إلا مضطرًا. كان محتاجًا إلى دفاع وهي كانت الشخص الوحيد المتوفر. ومع الوقت أصبح أكثر اقتناعًا بها، وبأنّ حظه لم يكن بذلك السوء. كانت تبلى بلاءً حسنًا وكانت ترفع من معنوياته أيضًا. أحسّها صديقة في بعض الأحيان، حين تستمع إلى مخاوفه وتهتمّ بصحّته. لكن هل هي مختلفة عنهم حقًا؟ هل يمكنها أن تثق فيه إلى النهاية رغم كل ما يُكال إليه من تهم ورغم شُحّ أدلة البراءة؟ عليها ضغوطات كثيرة في مكتب المحاماة الذي تنتمي إليه، لا ريب.

زميلتها فيفيان كانت لا تطاق، ستعمل على عرقلتها بكلّ السبل. والنائب العام لم يكن ليّنا معها أيضًا. جميعهم كان يسخر من قلة خبرتها واندفاعها. هل تكون قد رضخت وتركت القضية؟

الساعات القليلة الماضية كانت أثقل على قلبه من أسابيع اعتقاله الطويلة. لم يكن عجولًا في السابق. لكنّ صبره نفد وأعصابه غدت على وشك الاشتعال. لم يتخيّل أنّه سيشتاق إليها يومًا بهذا القدر. كانت عيناه تعودان إلى الباب المغلق كل فترة، وهو يتمنّى أن يراه يفتح. زفر بقوّة وهو يتناول كتابا. رواية أحضرتها كارولين في إحدى زياراتها. مزّق الصفحة الأولى وانهمك في صنع شكل ورقيّ. قرأ الكتاب عشرات المرّات علّه يهزم مخالب الوحدة والقلق ويصدّها عن النهش في عقله. رواية تافهة وسطحيّة. لكنّ ذلك لم يمنعه من اجترار كلماتها مرّات ومرّات وإيهام نفسه بأنه يكتشف تفاصيل جديدة في كل مرّة. مزّق ورقة ثانية وانهمك في صناعة شكل آخر. لم يكن بارعًا في فنّ "الأوريجامي"، لكنّه مثل كل طلاب المدرسة تعلم في طفولته بعض الأشكال البسيطة التي كان يتسلى بتراشقها مع رفاق فصله في ساعات الدّرس، كلما ولّتهم المعلمة ظهرها.

فتحت رنيم الباب بهدوء وتسمّرت مكانها في دهشة. نظرت في صدمة إلى الأرضية المليئة بعشرات الأشكال الورقية المتشابهة وإلى الرجل الجالس بينها، وهو لا يكاد يشعر بما يدور حوله. دمعت عيناها دون أن تشعر. بهدوء جلست القرفصاء إلى جانبه وهمست بصوت خافت حتى لا تفاجئه:

- عمر، أنت بخير؟

رفع رأسه ببطء ونظر إليها. وعلى عكس اللهفة التي كان عليها ذلك الصباح، طالعها ببرود وهو يقول في شيء من السّخرية:

- آه، أنت هنا؟

همست في قلق وهي تعاين حالته المتغيّرة:

- هل تحتاج إلى الطبيب؟ أنادي أحدًا من قسم التمريض؟

دفع الكفّ التي عرضتها عليه لتساعده على الوقوف، واستند على جانب السرير ليعود في صمت إلى مرقده متجنبًا النّظر إليها. كان الطّفل الذي في داخله يتمرّد. منذ حين كان يخشى أن تتخلى عنه وتذهب دون رجعة. أما الآن بما أنها هنا فلا ضير من بعض العتاب والعبوس.

قالت من جديد وهي تشير إلى الأوراق على الأرض:

- أنت من فعل هذا؟

قال بنفس البرود:

- كان كتابًا سيئًا. الصواريخ الورقية أكثر تسلية.

ثم أضاف بلهجة جادّة:

- لماذا أنت هنا؟

- لماذا أنا هنا؟ لأنني محاميتك!

أجابها بسخرية لاذعة:

- وأين كانت محاميتي البارحة حين كنت في أمسّ الحاجة إليها؟ ألم يكن من المفترض بنا أن "نتشاور" بعد الجلسة؟ أم أن

هنالك أطرافًا أخرى تتشاورين معها قبل أن تقرّري الاستمرار في القضيّة؟
شحب وجه رنيم بشدّة وهي تقول بصوت مختنق:
- ماذا تقصد؟
كان صوته يرتفع في انفعال واضح وهو يقول:
- من أقصد؟ زملاؤك في المكتب، رئيسك في العمل، النائب العام، وربما أيضًا البروفيسور كريستوف.
- أنت.. لست جادًّا.
همست في صدمة وهي تخفض عينيها. تشعر بأنّها على وشك البكاء وتخشى أن تخونها دموعها مع أول حرف يتجاوز شفتيها. لم تبكِ البارحة أمام ياسمين فهل تبكي الآن أمامه؟ معه حقّ، لا يدرك الأوقات العصيبة التي مرّت بها منذ غادرت قاعة المحكمة. لم يكن معها للاستماع إلى كلمات النائب العام المسمومة ولا يعلم أنّها ضربت عرض الحائط حتى بنصيحة جورج بالابتعاد عن القضيّة ليوم واحد. لا يعلم كمّ الضغوطات التي مرّت بها ولا ما دفعها إلى زيارته هذا الصباح حتى قبل أن تذهب إلى موعدها مع موكلتها الجديدة. لا يعلم أنها فكرت فيه مساءً وهي وحيدة في غرفتها وقرّرت أن مواساته واجبة عليها قبل التحقيق والتحري والبحث وراء الشهود.. لا يعلم كل ذلك، ولن يعلم. لأنها لن تخبره.
مرّت لحظات من الصّمت الثقيل المتوتّر قبل أن يقول عمر بشكل مفاجئ:
- أنا آسف.
رفعت رأسها في دهشة لتطالعه. كان ما يزال مطرقًا، يتجنّب النظر إليها حتى وهو يقول:
- لم أرد أن أكون قاسيًا. لكن ليلة البارحة كانت فظيعة، ولا ذنب لك في ذلك.
بدا على شفتيه شبح ابتسامة وهو يضيف:
- ما عنيته هو أنني ممتّن لمجيئك اليوم.. حقًّا.
لحسن الحظ لم يكن من النوع الذي يحدّق ويدقّق، وإلّا كان لمح الدّمعة اليتيمة التي تدحرجت على وجنتها والتي سارعت بمسحها لتخفي علامات ضعفها. بصعوبة بالغة تمالكت نفسها وقالت وقد استعادت ثقتها:
- سأكون معك إلى نهاية القضيّة. كن واثقًا من ذلك.
- إن شاء الله.
ردّدت وراءه وهي تحسّ معنى تلك العبارة للمرّة الأولى في حياتها:
- إن شاء الله.
خرجت من عنده وهي أكثر تصميمًا من أيّ وقت مضى. ستعطيه ثقتها الكاملة هذه المرّة وتدافع عنه حتّى النهاية. دون دموع ودون عواطف. ستجعل القضيّة اهتمامها الأول. فقط لا غير.
لم تكن قد وصلت بعد إلى محطة المترو حين رنّ هاتفها. تطلعت إلى الرقم الذي ظهر على الشاشة ثم أجابت في لهفة:
- هاه؟ ماذا وجدت؟
جاءها صوت المتحرية الخاصّة التي تساعدها في الكثير من تحقيقاتها:

- تأكدت من البيانات المسجلة في المستشفى المركزيّة في ليون.

كتمت رنيم أنفاسها في انتظار الكلمات التالية.

- الاسم والتاريخ متوافقان مع ما وجدته في سجلات المستشفى. زوجة البروفيسور نوارو كانت بالفعل في قسم الحالات المستعجلة ذلك اليوم بعد إصابتها بكسر في ساقها.

زفرت رنيم في ضيق ثم قالت:

- ماذا عن التقني المختصّ، هل تمكنت من الحصول على بياناته؟

- نعم. سأرسلها إليك على الفور.

أغلقت الخط في تجهم. لكن لا بأس. ما زالت هناك ثغرات أخرى عليها أن تتحرّى بشأنها.

(26)

اعترافات

طرقت باب غرفتها بلطف ثم نادت بصوت هامس:

- ياسمين، أنت مستيقظة؟

فتحت ياسمين الباب على الفور وهي تنهي ترتيب حجابها:

- صباح الخير، أنت مبكرة اليوم.

هزت رنيم رأسها وهي تقول في جديّة:

- أمامي يوم طويل.. لكنني أحتاج مساعدتك قبل أن أذهب.

ثمّ أشارت إلى مكتبة ياسمين التي تغصّ بالكتب وقالت:

- لاحظت أن عمر يحبّ القراءة، وفكّرت بأنّه قد يشعر بالملل في وحدته.. ربّما لو شغل نفسه بمطالعة بعض الكتب لمنعه ذلك من الاستسلام للضغوطات النفسية؛ أريد أن أستعير منك بعض الكتب. ممكن؟

ابتسمت ياسمين وهي تفسح المجال أمامها:

- طبعًا.. اختاري ما بدا لك.

تقدّمت رنيم لتقف في حيرة أمام الرّفوف التي تراصّت عليها العناوين المبهمة. بعد لحظات من التأمل هتفت وهي تتراجع:

- اختاري أنت. لا أدري أي الكتب يناسبه!

- حسن، سأختار بعض الكتب على ذوقي، وإن لم تعجبه خذي غيرها.

وضعت رنيم في حقيبتها مجموعة الكتب التي انتقتها ياسمين وخرجت بخطى حثيثة. كان عليها المرور على مكتبها أولًا من أجل تحضير الأوراق التي تخصّ موكلتها الجديدة. ثم يمكنها أن تزور عمر. ستكون زيارة سريعة. لم يكن هناك جديد في القضيّة. ستحمل إليه الكتب وتطمئن عليه ثم تعكف على تحريّاتها. الجلسة القادمة لم تعد بعيدة.

ما أن تجاوزت عتبة مكتبها حتى تسمّرت في مكانها مبغوتة.

- كيف حال الحسناء؟

لم تكن تحلم. ذلك الصّوت الرجاليّ المألوف أكّد لها ذلك. فوجئت وهي ترى وجهًا ينتمي إلى ماضيها، لم تقع عيناها عليه منذ بضعة أشهر. تذكر جيّدًا الموقف الأخير الذي جمعها به والذي لم يكن مبهجًا البتة.

- ميشال!

قالت في ضيق وهي تتقدّم داخل المكتب. للحظات أحسّت بأن الهواء النّقيّ نقص من الغرفة. ربّما كانت تلهث بعد صعود السّلم.. وربّما كان وجوده هناك يغتصب جزءًا من حريّتها. ابتسم وهو يقف لاستقبالها ويقول في ودّ:

- مفاجأة، أليس كذلك؟

تجاوزته رنيم في ثبات، توجّهت نحو النّافذة وفتحتها على مصراعيها ثم سارت حتى وصلت إلى مكتبها. ارتمت على مقعدها في لا مبالاة متعمّدة ثمّ ابتسمت وهي تقول في برود:

- بماذا أخدمك؟

عبس ميشال للحظة. ذلك البرود في صوتها وحركاتها كان متوقعًا. قال محاولًا تبديد التوتر الذي طفا في الجوّ:

- أعلم أنك منزعجة من وداعنا البارد.. لكنّني جئت طامعًا في صفحك.

ودعانا البارد؟ هل ذلك ما يسمّي به انهيارها أمام البناية وهي تنزف دماء قلبها؟ تأملته للحظات في سرحان. ياه! هل هذا هو الرّجل الذي كادت تموت من أجله منذ أشهر قليلة؟! كيف كانت بمثل ذلك الغباء وتلك السذاجة؟ تجاهلت رجاءه الأخير وهي تردف في تباعد:

- أين ذهبت شقراؤك؟ أم تراك مللتها مثلما مللت غيرها؟

كان في عينيه عتاب ورجاء وهو يقول مثبّتًا عينيه في عينيها:

- لا تحاسبيني على زلاتي الماضية، فلقد كنت مغفلًا حين تركتك ترحلين. لكنني استوعبت ذلك متأخرًا.. لم أكن أعلم أنك ستتركين كل ذلك الفراغ في حياتي.

استمعت إليه رنيم في صمت. لو كان رجع إليها بعد أيام قليلة من شجارهما لكانت عادت إليه دون تفكير، بل ربما كانت لتطير من الفرح وهي تراه يترجاها ويطلب رضاها. لكنها اليوم لم تعد رنيم نفسها. صارت أقوى وأصلب. في تلك الآونة تفطنت إلى أن أسابيع كثيرة مضت دون أن يخطر طيفه ببالها مرّة واحدة. بعد بداية حياتها الصّعبة في باريس حين كانت تجبر نفسها على نسيانه بانغماسها في مشاغل لا تنتهي، أصبحت لها حياتها المستقلة التي لا أثر فيها لميشال. كانت قضية قد استحوذت على تركيزها بالكامل ولم تترك مكانًا يذكر للذكريات التعيسة والبكاء على الأطلال. انتبهت مجدّدًا لصوته وهو يقول وعيناه ترنوان إليها في هيام:

- اشتقت إليك كثيرًا.. ألم تشتاقي إليّ؟

لا تدري لماذا اتسعت الابتسامة على شفتيها مع عبارته تلك. صارت المشاعر التي يسكبها بين يديها في سخاء تثير سخريتها. جاهدت طويلًا كي تمحوه من ذاكرتها، فكيف يتوقع أن تشتاق إليه؟

- دعني أفكر.

قالت ذلك وهي تتظاهر بالتخمين ثم قالت في هدوء:

- آسفة، لا أعتقد.

ابتسم بهدوء وصبر. كان يعلم أنها ستعاند. لن تقبل اعتذاره بسهولة، من حقّ الحسناء أن تتدلل. قال في ثقة وهو يخرج بطاقة من جيبه:

- كنت أود دعوتك على العشاء الليلة في مطعم فاخر.. ومن ثم آخذك إلى سهرة مميزة في قصر الأوبرا. ما رأيك؟

بحكم علاقته السّابقة بها طيلة سنتين كان يدرك حبّها للأضواء والمظاهر البراقة. وسهرة الأوبرا كانت إغراءً لا يمكن أن تقاومه

رنيم التي يعرفها. تناولت البطاقة التي وضعها على الطاولة أمامها وابتسمت. ربما كانت لتقفز إلى عنقه في مشهد مماثل منذ أشهر قليلة فقط. لكنّ تلك المغريات لم تعد تسيل لعابها اليوم. بشكل لم تدركه هي نفسها، كانت قد تغيّرت من الدّاخل. لم تتعرّف على نفسها وهي تلمحها في مرآة عيني ميشال. كان أقرب النّاس إليها في مرسيليا. لكنها لم تعد رنيم ذاتها. في حركة غير متوقعة، قالت وهي تدفع البطاقة في اتجاهه:

- آسفة، لا يمكنني أن أقبل دعوتك.

رفع حاجبيه في دهشة. كانت أعند مما تصوّر. تنهد وهو يقول:

- لا أطلب منك العودة معي إلى مرسيليا. فقط اقبلي الدّعوة ودعينا نتحدّث. أعدك بأنني لن أتجاوز حدودي والسهرة ستعجبك بالتأكيد. وبذلك يكون كلانا رابحًا. أعطني فقط هذه الفرصة لأثبت لك أنني تغيّرت.

رفعت إليه عينيها وهي تقول في صدق:

- أنا أيضًا تغيّرت يا ميشال، لم أعد رنيم التي تعرفها.

****

لم تكن زيارة ميشال لها ذلك الصباح من دواعي تسليتها. بل لعلّ وجوده أمامها فجأة كان نوعًا من الكوابيس التي كانت تفرّ منها باستمرار طوال أسابيع مضت.. لكنها كانت فرصة لتختبر صلابتها وعمق التحوّل وتجذّره داخلها. كانت ابتسامة واسعة تملأ وجهها وهي تقطع الممرّ الذي يقودها إلى غرفة عمر بالمستشفى. بشكل ما كانت تشتاق إلى رؤيته. ربّما جاء ميشال في الوقت المناسب ليثبت عندها أنّها لم تعد بذلك الضّعف أمامه. لقد حصلت بعد عناء على استقلال مشاعرها، والآن يمكنها أن تهديها لمن تريد.

كانت على بُعد أمتار قليلة من الغرفة حين رأت الباب يفتح، ولمحت شابة شقراء تخرج منها. لدهشتها لم تكن هذه الأخيرة ترتدي إزار الممرضات الأبيض. راقبتها وهي تمرّ إلى جوارها بمشية متكبّرة دون أن تعيرها اهتمامًا. عقدت حاجبيها في ضيق. تساءلت دون وعي: يا إلهي! شقراء أخرى؟

بعد عملية التثبّت من هويّتها الروتينية تجاوزت رجل الأمن ودخلت الغرفة بمزاج سيّئ. لم ينجح ميشال في تعكير صباحها، لكن تلك الشابة المجهولة التي لمحتها للتّو فعلت. قالت وهي تتظاهر بعدم الاهتمام:

- من هي الفتاة التي خرجت من عندك الآن؟

رفع عمر رأسه في لا مبالاة وهو يقول:

- كارولين؟ إنها زميلة في الشركة.

لم تدر إن كانت لا مبالاته علامة حسنة أم سيّئة. ربّما كانت زميلة عاديّة إلى درجة أنه لا يجد حاجة للحديث عنها. وربما تكون علاقته بها مميّزة ولذلك لا يريد أن يخوض في أحاديث عنها معها. قالت في انزعاج واضح:

- لكن كيف وصلت إلى هنا؟ لم أعلم أن زيارة المتّهمين متاحة للجميع.

آلمته عبارتها. لم تتعوّد أن تشير إلى وضعه بكلمات جارحة. لكنها لم تكن مخطئة، فهو وإن كان في المستشفى وتحت العلاج، فهو متهم في قضية خطرة وتحت حراسة مشدّدة من رجال الأمن. قال في مرارة لم تخف عليها:

- أشفقت عليّ من الوحدة فتدخل بعض معارفها للحصول على الإذن بالزيارة.
أطرقت رنيم ولم تعلق. لم تكن تفهم ردّة فعلها. لماذا كل هذا الانفعال؟ لأنه تلقى زيارة دون علمها؟ لم تكن يومًا وصيّة عليه. إنها محاميته وحسب. لم تكن تعلم شيئًا عن حياته قبل الحادثة ولا دخل لها فيها بأيّ حال من الأحوال. ربما لأن زائرته شقراء جذابة؟
زفرت وهي تقول مغيّرة الموضوع:
- إلى حدّ الآن رواية البروفيسور كريستوف نوارو متناسقة. زوجته كانت موجودة في المستشفى في الوقت الذي ذكره.
لمحت علامات الضيق على وجهه فاستطردت بسرعة:
- لكن ذلك لا يعني أنّه يقول الصّدق. علينا التّحرّي بشأن علاقاته في الشركة وطبيعة عمله.. وصدقني سأترصد أدنى تناقض وأقتنص كلّ الثغرات لمحاصرته.
ابتسم وهو يراها تستعيد حماسها. لم يكن مزاجها طيّبًا حين وصلت. ربما كانت هناك أمور خاصّة تشغلها. لا شأن له بحياتها ومشكلاتها الشخصيّة، ولا حق له بالتدخل فيها أو الاستفسار عنها. لكن أمله أن تكون في أحسن حالاتها النفسيّة والجسديّة يوم الجلسة المقبلة، لأنّ المدّعي العام لن يكون متساهلًا أبدًا. راقبها في استغراب وهي تفتح حقيبتها وتشرع في إخراج كتب أخذت ترصفها أمامه في عناية.
- ما هذا؟
ابتسمت وهي تشير إليها:
- بما أنك تحبّ القراءة، فقد أحضرت لك ما تشغل به وقتك.
تناولها واحدًا إثر الآخر، يتحسّسها في دهشة حقيقيّة، وعكف يطالع العناوين ويقلب الصّفحات في اهتمام. كانت مفاجأة سارّة بالتأكيد. بعد بضعة دقائق، كان يرفع رأسه وهو يهتف:
- أنت مذهلة حقًّا! بدأت أغيّر رأيي فيك اليوم.
- حقًّا؟
هزّ رأسه ثم عاد ليرفع أحد الكتب أمامها:
- هذا الكتاب، بحثت عنه لفترة طويلة ولم أكن أجده في مكتبات ليون. لذلك فاجأتني بإحضاره اليوم. ثم دعيني أقول إن ذوقك في الكتب ممتاز. أو على الأقل يتوافق مع ذوقي.
اتسعت ابتسامتها وهي تراه يضحك وينسى هموم القضيّة كطفل صغير يتلقى هديّة العيد. شكرت في سرّها ياسمين من كل قلبها. لم يخب حدسها بأنّها قصدت الشخص المناسب لمساعدتها. انتبهت على صوت عمر وهو يقول في سرحان:
- ذكرتني بفتاة كنت أعرفها. تحبّ الكتب كثيرًا وتناقشني بشأنها.
- فتاة؟ هل هي زميلة لك؟
قال بحسرة واضحة في صوته:
- للأسف لم أتعرّف عليها بشكل جيّد.. كنا نركب المترو معًا. كنت أراها كل صباح تقرأ كتابًا.. بشكل عفوي بدأ حوار بيننا، ثم

أصبحنا نتناقش باستمرار ونتبادل الكتب. وفي يوم من الأيام اختفت فجأة ولم أرها بعد ذلك.

أحسّت ببرودة لاذعة تسري في عمودها الفقري وانحبست أنفاسها فجأة، بينما اضطربت نبضات قلبها في استغاثة طالبة بعض الأكسيجين. لقد سمعت تلك الحكاية من قبل.. على لسان شخص مختلف. تابع عمر غير منتبه لتغيّرات وجهها:

- هذا الكتاب، رأيت الإعلان عنه قبل شهور. وتعاهدنا على أنّ من يجده منّا أولًا عليه أن يعيره للآخر.

توقف فجأة وهو يلمح شحوب وجهها الغريب. هتف في قلق:

- هل أنت بخير؟

أجبرت نفسها على الابتسام وهي تقول بهمس:

- أحس بألم في رأسي.

وقفت وهي تقول معتذرة:

- أتركك مع كتبك الآن.. يجب أن أذهب.

ابتعدت عن المكان وساقاها لا تكادان تحملانها. منذ زمن وهي تريد أن تعرف كل شيء عنه وعن ماضيه. تتشوّق إلى لحظات المصارحة والمكاشفة. تتمنّى أن يفتح قلبه ويحدّثها عن كل شيء.. وأيّ شيء. لكنّها لم تتخيّل أن الصّمت قد يكون أفضل. لم تدرك أن الجهل قد يكون أهون. لم تعلم أنّها تسأل عن أشياء إبداؤها قد يسوؤها.

(27)

محاولة جديدة

فاجأت ياسمين نفسها وهي تنكمش فزعًا حين ركبت جماعة من الشباب الملتحين حافلتها ذلك الصّباح، بأثوابهم البيضاء الطويلة وملامحهم الجادّة المتجهّمة. هل أتى الإعلام على رجاحة عقلها؟ ثمّ كيف لها هي المسلمة أن يقشعر جسمها لمرأى مسلمين مثلها؟ لم تستوعب الأمر. لكنّها لم تستطع الرّدّ حين مرّ أحدهم حذاءها وحيّاها بصوت يقترب من الخفوت، ربّما لم يسمعه غيرها. "السلام عليكم يا أختاه". لكنّ الأخت كانت مشغولة بفَرَقها فلم تجب، كأنّها تنفي بصمتها تلك الأخوّة المزعومة. حين استغرقت في التفكير في تلك الحادثة، هالها الأمر.

ولم تكن تلك الحادثة الوحيدة. منذ أيّام دخلت عيادة طبيب أسنان لتقتلع ضرسًا نخره السوس حتى أضناها ألمًا. كانت تجلس في قاعة الانتظار، حين ظهر الطبيب عند المدخل وطلب من المريض الموالي موافاته إلى غرفة الفحص. فوجئت حين رأت "كيبا" يهودية تعتلي رأس الطبيب. طيلة الدقائق الموالية، راودها ألف خاطر وخاطر. هل عليها أن تفرّ من العيادة إلى غير رجعة؟ ماذا ظنّ الطبيب حين رأى فتاة تلبس الحجاب في قاعة انتظاره؟ بل ما الذي تهامس به بقيّة المرضى منذ تخطت عتبة العيادة؟ تعلم أن الرّسول صلى الله عليه وسلم كان يتعامل مع اليهود، وهي لم تكن ترى يهودًا للمرة الأولى، فهي تمرّ كل يوم بمدرسة يهوديّة حين تمضي من شقتها إلى محطة الحافلة. ترمق بطرف حذر القبعات السوداء العريضة والضفائر الطويلة التي تتدلى منها والكيبا الصغيرة التي يعتمرها الأطفال، وتحثّ الخطو مبتعدة قبل أن يلفت شكلها انتباه بعضهم. هل كانت عنصريّة دون أن تدري؟ أم أنّه الحذر الطبيعيّ من الآخر؟ ذلك الحذر نفسه الذي يضايقها في نظرات الآخرين إليها؟

أدركت في لحظة كمّ التّناقض في سلوكها وشعرت بالخزي. كيف أمكنها أن تلوم الآخرين على انسياقهم وراء لعبة الإعلام القذرة، في حين أنّها رغم ادّعائها الفطنة والوعي تنقاد إلى قوالب جاهزة تعشش دون علمها في أعماق لا وعيها؟ كان من الحريّ بدارسة علم اجتماع مثلها أن تكون قدوة ومثالًا يُحتذى في فهم الكتل الإيديولوجية واستيعاب اختلافاتها. وإلّا فلا عتب على الصحفيّين ورجال الإعلام الذين يزعمون الحياد وينثرون على الرّؤوس ما عنّ لهم من الأفكار!

- السلام عليكم.

رفعت رأسها مبغوتة على وقع تلك الكلمات العربيّة التي لم تتعوّد سماعها في الشركة، وذكرى الحادثة الصّباحيّة تراودها. هل لحق بها ذلك "الأخ" إلى هنا؟ حدّقت في ارتباك في الرجل الذي سدّ بطوله باب مكتبها. حين لم يأته ردّها على الفور قال في اعتذار:

- هل أزعجك؟

وقفت في توتر واضح وهي تقول:

- هيثم! تفضل.. هل ميساء في الأسفل؟ وقت الغداء لم يحن بعد.

ابتسم في ارتباك وهو يتقدّم بضع خطوات:

- في الحقيقة ميساء ليست هنا. والموضوع لا يخصّ الغداء أيضًا.

سارع بالقول وهو يلمح الإحراج الذي تسببّه زيارته:

- كنت أريد أن أسألك عن لورا. علمت أنك تحدّثت إليها منذ أيام. كيف وجدتها؟

- لورا.. نعم، بالطبع. كانت زيارة قصيرة.. لكننا تعلمنا الوضوء والصلاة. أرجو أن تكون قد استوعبت كل شيء. لكن بما أنها مهندسة فلا شك لديّ في قدرة تعلمها السّريعة!

أطلق ضحكة خافتة وقد أدرك ما ترمي إليه. لا تغفل عن تذكيره بسلوكه البغيض في لقائهما الأول كلما سمحت لها الفرصة.

قال في هدوء:

- لورا ليست مهندسة. هي خريجة كلية التجارة.

لا تدري لماذا تتلبّسها روح هجوميّة كلما رأته. تصرّفاته هي السبب حتمًا. قالت متداركة:

- ظننت أنها مهندسة مثلك.. لذلك اتفق عقلاكما.

كانت تغامر من جديد بالغوص في ذلك الحقل المحفوف بالألغام. لكنّ ابتسامة هيثم اختفت فجأة وهو يقول مغيّرًا الموضوع:

- كنت أودّ أن أستوضح منك. لقد ذكرت لورا أمرًا غريبًا، عن إسلام بدون قيود.. هل تدرين من أين جاءتها هذه الفكرة؟

- ماذا؟

- قالت إنّها لا تحتاج الصّلاة والحجاب وكل الواجبات الأخرى في الوقت الحالي.. تريد أن تركّز على.. "رسوخ الإيمان في قلبها".. نعم، هذا ما قالته.

- آه، هذا جيّد. أقصد هذه خطوة طيّبة، أليست كذلك؟ من المهمّ أن يرسّخ إيمانها بشكل جيّد.. وستأتي الخطوات الأخرى لاحقًا، أليس كذلك؟

بدا ممتعضًا وهو يردّ:

- لا، ليس كذلك! كانت متحمّسة لتعلّم الصلاة قبل أن تذهب إليك، وكان الحجاب مسألة وقت وحسب.. فما الذي تغيّر منذ ذلك الحين؟

خمّنت استعجاله لكلّ التفاصيل الشكليّة لإسلام لورا، فذلك سيسهّل تقبّل العائلة لها وإتمام الزواج. وخمّنت أيضًا أنّ هذا التراجع في موقف لورا تزامن مع احتكاكها بها. تصاعد الدّم إلى وجهها وتسارعت أنفاسها. هل يتّهمها بالتّأثير على لورا سلبًا بعد ما أبدته من محاولات المساعدة؟ قالت في حدّة:

- لا علاقة لي بتفكيرها الجديد هذا. هل تظنّ أنّني قد أنفّرها من الصّلاة والحجاب؟

بعد أن نطقت كلماتها، مرّت بذهنها صورة رنيم. لا تدري لماذا فكّرت فيها في تلك اللّحظة. لقد تركتها مع لورا لدقائق قليلة. هل تكون قد ارتكبت حماقة بذلك؟ قبل أن تتدارك الأمر كان هيثم يعتذر:

- لم أقصد.. ظننت أنّك قد تفيدينني بأمر ما.

لم تدر إن كان عليها أن تفضي إليه بشكوكها قبل أن تتأكد منها. قبل أن تحسم أمرها، فوجئت به وهو يتقدّم حتى وصل إلى

مكتبها، ودون أن يستأذنها أخذ قلمًا من مقلمتها ودوّن على ورقة بيضاء بعض الرموز والأرقام ثم رفع رأسه وهو يقول:

- هذا بريدي الالكتروني ورقم هاتفي. أرسلي إليّ على البريد إن تذكرت أمرًا.. أو صارحتك لورا بشيء.

وكأنما تفطن إلى نبرته الآمرة فأضاف:

- لو سمحت.

ثمّ لوّح لها بكفه قبل أن ينصرف. تنهدت وهي تجلس إلى مكتبها من جديد وتتناول الورقة بين يديها. حفظت بياناته في مفكرتها بشيء من الضّيق. لا تفعل ذلك من أجله.. بل من أجل لورا، ومن أجل خالتها زهور التي لا شك أن الموضوع ما زال يسبّب لها الكوابيس.

****

دقّت ياسمين الباب بلطف وفتحته ببطء. أطلت برأسها داخل الغرفة لتبحث عن صاحبتها. حين ألفتها تجلس في نفس المكان قرب النافذة، تقدّمت بهدوء. تنحنحت ثم قالت في لهجة أرادتها لطيفة:

- كيف حالك روزلين؟

التفتت إليها روزلين في حدّة وقد بدا أن وجودها فاجأها. لم يكن لقاؤهما الأخير يمتّ إلى النجاح بصلة. وكانت مغامرة حقيقية أن تجرؤ على زيارتها بعد أسبوع واحد من المحاولة الأولى. لم يكن الأمر بيدها. يجب أن تتقدّم في بحثها وروزلين هي نقطة الانطلاق. ابتسمت في تلطف وهي تتخذ مجلسا إلى جوارها على المقعد العريض، دون أن تستأذنها.

- المرضة تقول إنّك أكثر هدوءًا اليوم.

لم تكن روزلين قد نبست ببنت شفة إلى تلك اللحظة. استمرّت في التحديق باتجاه زجاج النافذة الذي يفصلها عنه حاجز حديدي متشابك، لمنعها من محاولة الفرار، وربما للحيلولة بينها وبين الزجاج الذي قد تفكر في استخدامه لأغراض أخرى. مثل الانتهاء من حياتها.

أخرجت ياسمين من حقيبتها صندوقًا معدنيًا صغيرًا يحوي بعض الحلويات التي صنعتها بنفسها وأدنته من روزلين. ظنّت أن تلك الوسيلة قد تساعدها في التقرّب من مريضتها. ربما كانت المعدة طريقًا إلى قلب الرجل، لكنّها بالتأكيد طريق إلى قلب سيّدة وحيدة ومسجونة في مستشفى نفسيّة ذات قوانين صارمة. لم يخب حدسها إذ تعلقت نظرات المرأة بالصّندوق، متردّدة في البداية، ثم بجرأة أكثر أخذت قطعة من الكعك وقضمتها بشراهة ينازعها الخجل. ابتسمت ياسمين في جذل. كانت خطتها تسير كما يجب. قالت متظاهرة باللا مبالاة وهي تأخذ قطعة بدورها:

- الحياة ليست كلها سيّئة. هناك أوقات لذيذة كهذه تستحق أن نعيش من أجلها.

فجأة ارتفع رنين هاتفها. أخرجته من حقيبتها في استياء. كانت بصدد إحراز تقدّم ولم تكن تريد المقاطعة. لكنّها غيّرت رأيها حين لمحت اسم لورا يظهر على الشاشة. تلك ساحة معركتها الثانية. نظرت إلى روزلين وهي تقول معتذرة:

- يجب أن أردّ على هذا الاتصال.. سأعود فورًا.

بدا أن روزلين لم تهتمّ لوجودها من عدمه، فقد كانت منغمسة في التهام قطع الكعك. ابتسمت ياسمين وهي ترمقها في رضا. من كان يظنّ أن هذه المرأة أقدمت على الانتحار منذ أسبوعين؟ غادرت الغرفة بخطى سريعة. اطمأنّت إلى إغلاق الباب خلفها

ثمّ أشارت إلى الممرّضة في المكتب المقابل لتعلمها بمغادرتها المؤقتة. حين هزّت الممرّضة رأسها كانت ياسمين تضغط على زرّ الردّ:

- لورا كيف حالك؟

جاءها صوت لورا مفعمًا بالضّيق:

- لست بخير.

- أخبريني ماذا حصل؟

كانت على وشك البكاء وهي تقول:

- هيثم، لا أفهمه. رغم كل ما أفعله من أجله لكنه يبدو متغيّرًا.. لم يعد يتحدث إليّ كما السّابق. يتجاهلني ويعتذر عن الجلوس معي وقت الغداء بأعذار عدّة ومختلفة كل يوم، حتى أنّني بدأت أشك بأنه يفعل ذلك متعمّدًا.

تساءلت ياسمين وهي تستمع إلى شكواها، هل يعاقب هيثم لورا لتراجعها بشأن قرارات التزامها السابقة؟ أم أنّه وثق بها أخيرًا وترك لها مسؤولية رعاية لورا كما ترى؟ قالت لتهدّئها:

- اطمئني، هيثم لم يتغيّر من ناحيتك. لكنه يترك لك فرصة لتعميق الإيمان بداخلك دون أن يشوّش عليك.

قالت لورا في براءة:

- يشوّش عليّ؟ لكنّني في حاجة إليه!

ابتسمت ياسمين وهي تقول في تفهم:

- لا تهتمي الآن لهيثم وركزي على نفسك.. على إيمانك. ابتعاده سيساعدك على توضيح بعض النقاط داخلك. أنت لم تسلمي من أجل هيثم، بل من أجل نفسك قبل كل شيء، لاقتناعك بالإسلام، أليس كذلك؟

كانت ياسمين تريد التأكد من صدق نيّتها أوّلًا. لكنّ التّردّد بدا على لورا وهي تقول:

- لست أدري إن كنت سأصمد إن تخلى عنّي.

كان البكاء واضحًا في صوتها هذه المرّة. همست ياسمين بهدوء:

- اهدئي أرجوك وحدّثيني عن كل شيء.

استرسلت لورا ودموعها تسبقها:

- أعرف هيثم منذ سنتين.. لكنه لم يكن يتحدّث إليّ كثيرًا.. كل التبادل الذي كان بيننا يخصّ العمل ولا شيء غيره.. لكنّني أعجبت به، بشكله، بشخصيّته وأيضًا بأخلاقه وبطريقته المؤدبة في التّعامل مع الزّميلات.. كنت أراه كنوع من الفارس الشرقيّ الذي أخذ يسكن أحلامي.. فبحثت عن وسيلة للتقرّب منه.

زفرت ياسمين في ضيق. لم يكن حدس رنيم مخطئًا إذن. تابعت لورا بصوت مختنق:

- حين عرفت أنّه مسلم، أخذت أبحث وأحاول التّعرف على الإسلام.. ثمّ بدأت أسأله في كلّ مرّة عن بعض التفاصيل والقصص التاريخيّة.. وكنت أرى حماسًا كبيرًا في عينيه وهو يحدّثني عن تلك المواضيع التي يحبّها.. ولما رأى اهتمامي بالإسلام، أصبح يهتمّ بي ويسأل عنّي ويحضر لي الكتب والقصص المترجمة إلى الفرنسية.. وأنا كنت سعيدة جدّا باقترابي

من عالمه، لكنّني كنت أدرك أنّ صلتنا ستدوم ما دام تعلّقي بالإسلام.. لذلك أعلنت إسلامي.
تنهّدت ياسمين حين وصلت لورا إلى تلك المرحلة من قصّتها ثم قالت في رفق:
- لم يفت الأوان بعد. ما زالت الفرصة سانحة لتحسّني إسلامك. يجب أن تركزي الآن على التّعلم والتعمّق في المبادئ الإسلامية. ألست تعتقدين أنها جيدة وتناسبك؟
لكن لورا لم تتوقف عن البكاء. واصلت متجاهلة مقاطعة ياسمين:
- ورغم ذلك.. رغم دخولي الإسلام فإنّ عائلته لم تقبلني.. والدته كانت تعارض ارتباطنا بقوّة.. فما الذي يجب عليّ فعله حتى ترضى بي زوجة لابنها؟
هزت ياسمين رأسها وهي تقول بقوّة:
- لورا أرجوك اسمعيني. لا تشغلي نفسك بكلّ هذه التفاصيل.. خالتي زهور ستقتنع بك حين تصبحين جاهزة. حين تعرفين الإسلام جيدًا وتقتنعين به ستجدين نفسك بدون شعور منك تسعين إلى فعل الطاعات والالتزام بتعاليم الإسلام.. وهذا كل ما يريده هيثم وأهله، أن تكوني مسلمة بأتمّ معنى الكلمة.
- أن أكون مسلمة بأتم معنى الكلمة يعني أن ألبس الحجاب مثلك؟ وأصلي كل يوم خمس مرّات؟ وأصوم رمضان؟ وأشياء كثيرة أخرى في كتب الفقه.. لا أطلي أظافري ولا أضع أصباغًا على وجهي ولا أسهر مع أصحابي.. ممنوعات كثيرة وصعبة.. لا أجدني قادرة عليها.
قالت ذلك وانفجرت باكية من جديد. ترجتها ياسمين وقد رقّ قلبها لها:
- رويدك يا لورا. رفقًا بنفسك. كل ذلك سيأتي بالتدرّج. حين تقتنعين بالمبدأ سترين كيف يسير كل شيء بسلاسة ويسر. لست بحاجة إلى التفكير في كل ذلك الآن.
- لا أدري يا ياسمين.. لا أدري.
كانت تبدو منهارة ومتعبة. قالت ياسمين على الفور:
- حسن، تعالي إلى شقتي هذا المساء.. من الأفضل أن نتحدّث بشكل مباشر.
أنهت الاتصال وتنهّدت بعمق. ستساعدها بما تقدر. لن تتركها تتراجع وترتدّ. مهما كانت ظروفها فهي صارت مسلمة منذ نطقت بالشهادتين. تعلم أن مهمّتها لن تكون سهلة، لكنها ستفعل ما بوسعها. تقدّمت في اتجاه الغرفة حيث تركت روزلين وهي تبتسم. هناك أمور أخرى عليها الاهتمام بها في الحال. سترى أين وصلت مريضتها مع صندوق الكعك.
استعملت البطاقة الممغنطة لتفتح الباب وتقدّمت إلى وسط الغرفة. انفرجت شفتاها لتنطق بشيء ما، لكنّ عينيها اصطدمتا بأشيائها المبعثرة على الأرضيّة. مفكرتها، حافظة نقودها، مفاتيحها.. وكلّ الأشياء التي كانت تملأ حقيبتها الجلدية. هتفت هذه المرّة في جزع:
- روزليـــــــن...
لكنّها بترت كلمتها بعد أن تقدّمت خطوة واحدة لتلمح ساقين تتأرجحان وسط الغرفة. أحسّت برجفة تجتاح جسدها وهي ترفع بصرها ببطء وصدمة على امتداد الجسم الهامد الذي يتدلى من السّقف، حتى وصلت إلى العينين الخاليتين من الحياة.

شهقت في ارتياع وهي تتراجع إلى الخلف حتى التصقت بالجدار وأوصالها لا تتوقف عن الارتعاش. حاولت أن تصرخ لكنّ صوتها خرج مختنقًا متحشرجًا بعبرتها:

- النجدة.. هل هناك أحد؟

ثم تهاوت على الأرض وعيناها مثبتتان على الحزام الجلدي الذي كان منذ دقائق قليلة متصلًا بحقيبتها.. في تلك اللحظة كان جانب منه ينعقد بإحكام حول أسلاك مصباح الإضاءة المتصلة بالسقف، في حين أحاط طرفه الثاني بعنق المرأة وعصره بشدة.. حتى الموت.

****

تحلق أفراد العائلة حول مائدة العشاء وأخذوا يتناولون طعامهم في جوّ أسريّ منسجم. كانت ميساء تقصّ عليهم يومها الجديد في الجامعة، يقاطعها وائل من حين لآخر ليفتك الكلمة فيتزاحمان في مرح طفولي لإفراغ جرابيهما من الحكايات. أمّا هيثم فقد كان يجلس في طرف المائدة ويستمع في صمت بينما تسرح أفكاره من حين لآخر بعيدًا عن فضاء الشقة الضيّق.

كان قد وجد ذلك الصباح في بريده الإلكتروني رسالة جديدة من لورا. أصبحت تكتب إليك بشكل يوميّ مؤخّرًا، مع أنّهما يلتقيان مرارًا في ممرّات الشركة وغرفها. تعوّض عن لحظات "الخلوة" المعتادة في المطعم أو على الهاتف، بثرثرة متّصلة ومضطربة، تعكس تأثير ابتعاده عنها على حالتها النّفسيّة. كان يعلم أن علاقته بها اتخذت مسارًا خطرًا وصار عليه أن يعيد الأمور إلى نصابها. لكن انسحابه التدريجيّ كان مربكًا لها.

فجأة ارتفع رنين هاتف ليخرجه من أفكاره. أخرج هيثم هاتفه من جيبه ونظر إلى الشاشة التي أضاءت معلنة عن اتصال جديد. عقد حاجبيه في ضيق وهو يقرأ الاسم الذي ظهر أمامه ثم ضغط على زرّ التجاهل وأعاد الجهاز إلى مكانه. لكن لم تمض ثوانٍ حتى ارتفع الرنين المزعج مجدّدا. وقف هذه المرّة معتذرًا وتوجّه إلى غرفته، في حين تبادلت زهور وميساء نظرات مليئة بالشك.

ما أن أصبح هيثم وحيدًا حتى ضغط على زرّ الرّدّ على الاتصال وقال في انزعاج:

- لورا ما الأمر؟ ألم أطلب منك عدم الاتصال حين أكون في البيت؟

هو في الحقيقة لا يردّ حين يكون في المكتب بحجّة انشغاله بالعمل، ولا يردّ في البيت بحجّة وجود أفراد العائلة معه. ولم يزدها ذلك إلا جنونًا وإمعانًا في محاصرته. صوتها المنكسر فاجأه. قالت في قلق ظاهر:

- أنا آسفة. لكنني لم أعلم ما يجب عليّ فعله. كنت على موعد مع ياسمين هذا المساء. ذهبت إلى شقتها فلم أجد أحدًا.. حاولت الاتصال بها لكنّ ممرضّة أجابت لتقول إن ياسمين ترقد في المستشفى. وطلبت مني إعلام أهلها.. وبما أنني لا أعرف أحدًا منهم فقد اتّصلت بك.

عقد حاجبيه في قلق وهو يسألها:

- ما اسم المستشفى؟

بدا عليها التّردّد وهي تقول في تلعثم:

- لست واثقة.

هتف في حدّة:

- لست واثقة؟

- لا أذكر الاسم. انتظر سأتصل بها من جديد.

قاطعها في صرامة وهو يقول:

- لا داعي لذلك. سأتصل بنفسي.

أنهى الاتصال ثم نظر إلى الشاشة في عصبيّة. تذكر أنه لا يملك رقم ياسمين. ربما كان عليه أن يأخذه حين أعطاها بياناته. لن يطلبه من ميساء، ستتشك في الأمر. لم يكن أمامه إلا معاودة الاتصال بلورا. ما أن وصله صوتها حتى قال في اقتضاب:

- أعطني رقمها.

سجل الرقم في ذاكرة هاتفه ثم أغلق الخط ليكوّن رقم ياسمين. انتظر لثوانٍ عدّة وهو يستمع إلى الجرس يرنّ من الجهة الأخرى دون فائدة. أعاد تكوين الرقم وترقب الردّ بصبر نافد.

- مرحبًا، من المتّصل؟

- هل هذا هاتف ياسمين؟

- نعم، هل أنت من أفراد عائلتها؟

تردد للحظات. كيف يعرّف نفسه؟ قال أخيرًا:

- أنا صديق.

- هل يمكنك إعلام أهل المريضة؟ لقد فقدت الوعي اليوم وتمّ تنويمها.

أخذ من الممرّضة عنوان المستشفى ورقم الغرفة ثم زفر في ضيق. كيف سيبلغ والدته بالأمر دون أن يذكر لورا وعلاقتها بياسمين؟ خرج إلى غرفة الطعام وقد ظهر على وجهه التوتر، وتزايد توتره مع النظرات المترقبة التي استقبلتها به والدته. قال أخيرًا في تلعثم:

- آآ.. إنّها ياسمين.

هتفت ميساء في دهشة:

- ياسمين؟ كانت هي من اتصل؟

لا يدري أيّ تفكير لدى شقيقته أوحى إليها بأن ياسمين يمكن أن تتصل به. لكن الفكرة راقت له، طالما أنّها تبعده عن ذكر لورا الذي يصيب والدته بالجنون. هزّ رأسه علامة الموافقة في اندفاع لم يحسب عاقبته. دعك جبينه بأصابعه الطويلة وهو يقول:

- إنّها في المستشفى.. يبدو أنّه أغمي عليها.. واضطرّوا لتنويمها الليلة.

وقفت زهور في ارتياع وهي تهتف:

- يا إلهي، الصغيرة المسكينة. يجب أن نذهب إليها.

أشار هيثم بكفه مهدئًا:

- إنّها تحتاج إلى بعض الرّاحة.. سآخذك لزيارتها غدًا إن شاء الله.

حمد الله أن روايته لم تثر الشكوك لدى أحدهم. كلهم اهتمّوا بصحّة ياسمين ولم يتساءلوا عن سبب اتصالها به دون غيره أو عن كيفية وصول رقمها إليه. استدار ليعود إلى غرفته فناداه والده:

- هيثم.. لحظة.

التفت إليه في ارتباك:

- نعم أبي.

أشار إلى المكان الشاغر الذي كان يجلس فيه هيثم وقال:

- لم تنه طبقك.

أوف، لم يكشف أمره. ابتسم وهو يلوّح بكفه:

- لقد اكتفيت. الحمد لله.

بعد أن أوصد باب غرفته خلفه، وقفت ميساء لتجمع الصحون وهي تهمس في استغراب:

- لا أصدّق أنّ ياسمين اتصلت بهيثم ولم تتصل بي. ألست أنا صديقتها؟

(28)

ليلة من ليالي ألف ليلة

جلست إلى مكتبها في إرهاق. لم يكن العمل ما يثقل كاهلها بقدر ما يفعل اكتشاف ذلك الصباح. رغم محاولتها شغل نفسها طوال النهار إلا أنّ أفكارها تتسلل غصبًا عنها إلى المنطقة المحظورة. قضت ساعات وهي تتنقل مع موكّلتها الجديدة بين الإدارات والمباني الرّسميّة. لم يكن وجودها ضروريًا في كل المراحل لكنّها كانت متفرغة، هكذا قالت، والحقيقة أنّها أفرغت جدول أعمالها من كل ما يخصّ قضيّة عمر لتبتعد عن سيرته قدر الإمكان. لكن ما أن وجدت نفسها بين جدران المكتب من جديد حتى رزحت تحت ثقل مخاوف الصباح.

كيف ستواجه ياسمين الآن؟ كيف تخبرها بأنها تعلقت بالشاب الذي تحسبه فارس أحلامها؟ بل كيف تبلغها أنّ بطل حكايتها الذي اختفى دون سابق إنذار يرقد في المستشفى بجسد مليء بالحروق والكسور وينتظر محاكمة بتهمة الإرهاب؟ ليتها لم تصرّ عليها لتحدّثها عن قصّة شاب المترو. ليتها لم تطلب منها الكتب. ليتها لم تأخذها إلى عمر. ليتها.. ليتها. لكنّها فعلت. فعلت كل شيء بنفسها. والآن أصبحت الشخص الوحيد الذي يمكنه أن يصل الحبل المقطوع. منذ افتراق طريقيهما أصبحت هي همزة الوصل الوحيدة بين عالميهما.

ياسمين وعمر. كان يجب أن تعلم. إنّهما متوافقان بشكل مذهل. في الطباع والأفكار والقناعات والأذواق. كانت تتندّر في سرّها بخصوصهما فتقول إنهما نسختان متطابقتان، الأولى ذكر والثانية أنثى.. الأولى في العمل والثانية في البيت. لذلك قرّرت ألا تهتم بالعمل الذي يخصّه هو وألا تعود إلى البيت الذي تسكنه هي.

لكن مهلًا، ماذا لو لم يكن عمر يتحدث عن ياسمين؟ وماذا لو كانت ياسمين تتحدّث عن شخص آخر غير عمر؟ كان هناك احتمال ضئيل بأن تكون تلك القصّة تكررت بنفس الشكل بين زوجين مختلفين، في نفس المدينة وفي نفس الفترة. ابتسمت في تهكم على أملها الهزيل. كانت تبحث عن قشة تتعلق بها.

- لا زلت هنا؟

فاجأها صوت جورج الذي ظهر عند الباب.

- هل تعلمين كم الساعة؟

نظرت في ساعتها. كانت قد تجاوزت الثامنة مساءً. لم يكن هناك من موجب لتأخرها حتى ذلك الوقت. لكنها لم تكن ترغب مطلقًا في العودة إلى الشقة تلك الليلة.

- كنت أنتظر انتهاءك لأتحدّث إليك، لكن يبدو أننا سنتأخر عن الجماعة. لذلك أضطر إلى مقاطعتك.

سألته في استغراب:

- نتأخر عن الجماعة؟

- أنت مدعوّة على العشاء.
رفعت حاجبًا وقد أدركت ما يقصد:
- ميشال سيكون هناك أليس كذلك؟
هز كتفيه وهو يقول:
- لست أدري ما وجه الخلاف الذي بينكما، لكنّه يبدو مصرًا على مصالحتك. طلب منّي التحايل عليك لتحضري، لكنّني لا أجيد الأساليب الملتوية. أنت امرأة عاقلة وراشدة. إن كنت تودّين المجيء فسيسعد ذلك الجميع. أمّا إن امتنعت فذلك شأنك. لكن دعيني أخبرك أولًا أنني لم أر ميشال متأثرًا من أجل امرأة بهذا الشكل من قبل.
ابتسمت في هدوء وهي تقول:
- حسن.. سآتي.
نظر إليها في دهشة:
- حقًا تفعلين؟ لم أكن أعتقد أن أسلوبي في الإقناع ناجع إلى هذه الدّرجة.. أظنّني سأصاب بالغرور.
ضحكت رنيم وهي ترتدي معطفها:
- لا علاقة لأسلوبك بالأمر. أحتاج إلى تغيير الجوّ.. وهذه فرصة جيّدة في نهاية الأمر.
حدجها جورج متظاهرًا بالحزن:
- كان يمكنك أن تجامليني وتقولي بأنني أقنعتك.
قالت ساخرة وهي تسير إلى جواره:
- ذكرني بأن أفعل في المرّة القادمة.

****

ما أن تخطت عتبة المطعم حتى أيقنت من فخامة المكان العالية. تقدّمت فوق السّجاد الأحمر الذي فرش على امتداد الممرّ المؤدّي إلى قاعة الطعام وهي تتأمّل المكان من حولها في انبهار. الديكور، الألوان، الأضواء.. كلها كانت في غاية الذوق والرّقيّ. استقبلها النادل ببذلته الناصعة وربطة عنقه الأنيقة وانحناءة عريضة:
- آنسة رنيم؟
رفعت حاجبيها في استغراب وهي تلحظ أن النادل كان يعرف اسمها. التفتت لتستفسر من جورج، لكنه كان قد اختفى! إنها متأكدة من أنه كان يمشي خلفها. لا تدري كيف تبخر بتلك السرعة ودون أن تشعر. أطلت من الواجهة البلوريّة فلمحت سيارته وهي تبتعد عبر الشارع الرئيسي. هكذا إذن. يبدو أنه أتقن حبك الخطة هذه المرّة. لوهلة فكرت بالانسحاب، لكنّ رغبة خفيّة في اكتشاف ما يحضره لها ميشال كانت تنازعها. كل شيء حولها كان ينطق بالإغراء. دون أن تشعر غلبها ضعفها أمام الأشياء البرّاقة فتقدّمت خلف النادل الذي أشار إليها بأن تتبعه.
صعدت درجات السلم المؤدّية إلى القاعة العلويّة ثم تقدّمت باتجاه المائدة التي أشار إليها مرافقها. لم يكن ميشال هناك. جلست في ارتباك قرب النافذة وأخذت تتلفت حولها وهي تنتظر أن يظهر أحد، لكنّ القاعة كانت خالية تمامًا. ذلك المتهوّر هل

يكون قد حجز القاعة كلها؟ إن كانت الوجبة الواحدة في مطعم كهذا تقدر بمئات اليوروات، فماذا عن حجز القاعة كلها؟ عضّت على شفتها السفلى في تأثر. ماذا لو لم تحضر؟ كيف كان سيشعر وكل جهوده تضيع هباءً؟ والمصيبة هي أنّها لم تكن تنوي الحضور. لولا الاكتشاف الذي صدمها لما كانت قبلت الدعوة. والحقيقة أنّها لم تقبلها من أجل ميشال بقدر ما كانت فرارًا من مواجهتها مع ياسمين. سرحت نظراتها عبر الواجهة الزجاجية التي كانت تهدي منظرًا خلابًا لمدينة الأنوار وقد أضاءت نواحيها بآلاف المصابيح مبدّدة ظلمة الليل، وانتظرت في تململ أن يظهر ميشال.

فجأة انطفأت أضواء القاعة في وقت واحد وبقيت الشموع وحدها تتلألأ في الظلمة. ارتبكت وهي تجوب المكان بعينيها ولبثت متحفّزة الحواس مترقّبة ما سيأتي. انتبهت مع تسلل نغمات رقيقة هادئة من مكبّرات الصّوت المثبّتة في أركان القاعة. رفعت رأسها في اهتمام وهي تصغي إلى ذلك اللحن السّاحر لأغنية تعشقها.. "أحبّها حتّى الموت". لكنّ المفاجأة الحقيقية كانت الصّوت الرجالي الذي أخذ في الغناء.

"كنت لا شيء قبلها

وأنا اليوم حارس ليالي نومها

أحبها حتى الموت" *

تلفتت يمنة ويسرة وهي تبحث عن مصدر الغناء. لم يكن صوت المغنّي الفرنسي فرانسيس كابريل**. تعرّفت على تلك النبرة المألوفة دون صعوبة، وابتسمت في كل مرّة تفطنت فيها إلى نوتة خاطئة، وقد تكرّر ذلك كثيرًا. لم يكن صوته شجيًّا ولم يكن الغناء ميزته، لكنه كان يستمتع بأداء ذلك الدّور. استمرّ في الغناء لثوانٍ إضافية في الكواليس دون أن يظهر للعيان، كأنه يريد لسحر اللحظة أن يمتدّ أكثر.

"يمكنك أن تدمّر كل ما تريد، ويكفيها أن تفتح ذراعيها لتعيد بناء كل شيء.

أحبها حتى الموت" ***

---

* Moi je n'étais rien, et voilà qu'aujourd'hui
Je suis le gardien du sommeil de ses nuits
Je l'aime à mourir

** Francis Cabrel: مغني وملحن وعازف غيتار فرنسي من مواليد 1957، معروف بأغانيه الملتزمة. أشهر انتاجاته أغنية "أحبها حتى الموت" التي غناها سنة 1979 بالفرنسية ثم الاسبانية، قبل أن تغنيها شاكيرا سنة 2011.

*** Vous pouvez détruire tout ce qui vous plaira
Elle n'a qu'à ouvrir l'espace de ses bras, pour tout reconstruire
je l'aime à mourrir

توقفت رنيم عن البحث حين لمحت ظلًّا يتحرّك. التمعت عيناها في تأثر وهي تحدّق في الرّجل الذي خرج من إحدى الزوايا المظلمة، وهو يمسك مصدحًا وباقة ورود حمراء ويردّد كلمات الأغنية التي تحفظها عن ظهر قلب:

"هي تمحو أرقام ساعات الحيّ

وتحوّل حياتي إلى دمى ورقية وضحكات

تبني جسورًا بيننا وبين السماء

نعبرها في كل مرّة لا تريد أن تنام
أحبّها حتى الموت.
كان عليها أن تخوض كل الحروب، لتكون بتلك القوّة اليوم
كان عليها أن تخوض كل حروب الحياة، والحب أيضًا" *

كان يتحدّث عنها لا محالة. أحسن اختيار الأغنية التي تعبّر عنها.. عن حروبها في الحياة، وفي ميدان الحبّ أيضًا. راقبته وهو يتقدّم باتجاهها على مهل. أخيرًا توقف أمامها والباقة الحمراء الكبيرة تكاد تحجب وجهه. مع آخر كلمات الأغنية كانت الباقة تستقر بين ذراعي رنيم التي وقفت مصدومة ومنبهرة. في نفس اللحظة عادت المصابيح لتنير القاعة بضوئها البراق ولتكتشف وجه مخاطبها بوضوح. هذه المرّة وجدت الابتسامة طريقًا إلى وجهها وهي تطالعه في ذهول. لم تكن تعلم أنه قادر على فعل كل هذه الحركات الرومانسية من أجلها.

- مائة واثنتان وثلاثون وردة.. على عدد الأيام التي مضت دون أن أراك.

حدّقت فيه في دهشة غير مصدقة. هل كان يعدّ الأيام حقًّا؟

- أنت مجنون!

---

* Elle a gommé les chiffres des horloges du quartier
Elle a fait de ma vie des cocottes en papier, des éclats de rire
Elle a bâti des ponts entre nous et le ciel
Et nous les traversons à chaque fois qu'elle, ne veut pas dormir
Je l'aime à mourir
Elle a dû faire toutes les guerres pour être aussi forte aujourd'hui
.Elle a dû faire toutes les guerres de la vie, et de l'amour aussi

- أنا مجنون لأنّني جرحت إنسانة رقيقة مثلك. وكان يجب أن أصلح خطئي مهما كلف الثمن.

سحب مقعدها إلى الوراء وهو ينحني في لباقة، ثم اتخذ مجلسه قبالتها. كانت تلمح لمعة غريبة في عينيه وهو يرنو إليها في تلك اللحظة. لمعة صدق لم تلحظها فيهما من قبل. حين زارها ذلك الصباح كانت تظنّ نفسها في منأى عن تأثيره. لم تهتزّ منها شعرة واحدة وهو يرجوها بأن تعطيه فرصة أخيرة. لكن وهي تجلس هنا معه في هذا الإطار الرّهيب، كان إحساس غريب يراودها. ماذا لو كان ميشال هو قدرها؟ ماذا لو كانت عودته في هذا الوقت بالذات إشارة ربّانية؟ في نهاية الأمر مشاعرها تجاه عمر كانت خاطئة منذ البداية. كانت ستصطدم بجدار أصمّ حتمًا، فلا مجال للمنافسة بينها وبين ياسمين.. أيقظتها من أفكارها لمسته وهو يمسك بكفها فوق الطاولة. بحركة غريزية سحبت كفها بقوّة. سألها في دهشة:

- رنيم، ما الأمر؟

همست في حرج وهي تضمّ كفيها في حجرها:

- إنها مفاجأة.. مفاجأة حقيقية.

لم تتعمّد تلك الحركة. ندّت عنها دون أن تشعر. تسارعت أنفاسها بنسق مضطرب. لم تكن تمانع أن يمسك يدها في السابق.. هو أو غيره من الأصدقاء. كانت تحسبها حركة بريئة وبسيطة لا تلقي إليها بالًا. لكن الآن حالًا، ما الذي دهاها؟ لماذا نفرت من

تلك اللمسة؟

جاءها صوته مجدّدًا وهو يقترب منها أكثر:

- أعجبتك؟

هزّت رأسها علامة الإيجاب وهي تبتسم. كانت تعيش حلمًا. تحسّ بالخفة، كأنها تحلق في سماء القاعة.. كأنها ترقد فوق الغيوم. حلم لذيذ ممتع مثلما تمنته في أحلام اليقظة وهي طفلة، وربما أجمل.

قال في رقة وابتسامة واثقة تزين شفتيه:

- كنت سأترك المفاجأة الأخيرة من أجل السّهرة، لكنّني لم أعد أستطيع الانتظار.

قال ذلك وهو يخرج علبة حمراء مخملية من جيبه. شدّ أصابعه عليها وهو يقول:

- هل تذكرين حين كنت تحدّثينني عن الزواج؟ كنت خائفًا من الارتباط لأنني لم أكن واثقًا أنّني قد وجدت الشخص المناسب بعد.. أردت إعطاء نفسي فرصة إضافية لأعيش تجارب أخرى وأتعرّف على نساء أخريات حتّى أجد تلك التي تجعلني أجري وراءها وأتوسلها لتتزوّجني حتى أقيّدها إلى جواري إلى الأبد.. لكنني كنت مغفلًا لأن تلك الحسناء كانت أمامي طوال الوقت، بل قطعة منها تسكن جسدي.. ولم أتفطن إلى ذلك إلا بعد رحيلها. أمضيت أسابيع وشهورًا وأنا أحاول إقناع نفسي بأنني اتخذت القرار الصّواب حتى لا أظلمك معي. إلا أنني كنت أفتقدك كل يوم، في المكتب، في الشقة، في السيارة، في الشارع.. في كل مكان كانت تنقصني ضحكتك المرحة وروحك الذكية اللبقة. افتقدت شريكتي في العمل وأيضًا صديقتي التي تقف إلى جانبي في كل ظرف.. وخصوصًا حبيبتي التي تركت لمساتها في كل مكان من حياتي اليوميّة، حتى أنني لم أقدر على محو أي منها. اكتشفت أنني ظلمتك وظلمت نفسي بذلك البعاد القسري. لذلك وجدتني وبدون شعور مني أفكر في الزّواج.

كانت تستمع إليه دون مقاطعة وشيء ما في قلبها يتحرّك. كانت تنتظر جملته الموالية بفارغ الصّبر. تكذب على نفسها إن نفت أنها انتظرتها وتخيّلتها مرّات عدّة في وحدتها المؤلمة. حتى بعد مرور تلك الشهور على هجره القاسي، كان لكلماته النابعة من الصّميم تأثيرها. التمعت عيناها وهي تسمعه يقول:

- رنيم.. هل تتزوّجينني؟

رنت إلى الخاتم الماسيّ الذي كشف عنه الغطاء أمام عينيها وتأملته بنظرات مأسورة. كانت ماسات حقيقية، وكان اختياره موفقًا. كان كل شيء من حولها مثاليًا ولم يكن هناك أنسب من رجل فرنسيّ ليلعب دور البطولة في ذلك المشهد الرّومانسي بامتياز. مدّت أصابعها باتّجاه العلبة كأنّها مسيّرة. تريد ذلك الخاتم من كلّ قلبها. توقّفت كفّها عند منتصف الطريق وكأنّ رغبة داخليّة أخرى تفوّقت على انجذابها الآنيّ للبريق الماسيّ. رفعت عينيها إلى وجه ميشال الذي كان يرقبها بنظرات ملؤها الأمل والرّجاء. تأمّلته في حيرة وذهول. لوهلة أصابها الذعر. لم تكن في كامل وعيها، كأنّها في حلم يقظة بالفعل. وهل هذا الرّجل هو رجل أحلامها المنتظر؟

لكنه.. لكنه الشخص الخطأ!

بشكل ما تغيّرت مواصفات الرّجل المثالي لديها. لم يعد يشبه الشاب الأوروبي ممشوق القوام ذا العيون الملونة. ربّما أصبح يشبه أكثر شابًا عربيًا مشوّه الجسد يرقد خلف قضبان الزنزانة. في لحظات، سحبت كفّها وقد تمالكت نفسها. قالت في

هدوء:

- لكنّني مسلمة.

نظر إليها في استغراب. ما الذي دهاها؟

- أعلم أنّك مسلمة. أنت كذلك منذ عرفتك.

هزّت رأسها وكلمات ياسمين تتردّد في رأسها:

- لكنّ المرأة المسلمة لا يمكنها أن تتزوّج من رجل غير مسلم.

حدّق فيها في عدم استيعاب. ألم تكن هي التي أوجعت رأسه بحديثها عن الزواج ليلًا نهارًا منذ أشهر قليلة؟ قال محاولًا سبر أغوارها:

- تريدين منّي التحوّل إلى الإسلام؟ هل هو اختبار إضافيّ لاكتشاف قيمتك عندي؟

قالت ببساطة وهي تهزّ رأسها:

- ليس اختبارًا.. إنّها الحقيقة. لا يمكنني أن أتزوّجك وأنت على غير الإسلام. لم أطلب منك التحوّل إلى الإسلام لأنني أعلم أنك لن تفعل.. لكنها ملاحظة أبديتها بشأن طلبك.

هتف على الفور في تحدٍّ متهوّر:

- ماذا لو فعلتها؟

- فعلت ماذا؟

- ماذا لو أسلمت؟ هل تتزوّجينني حينها؟

ابتسمت في هدوء وهي تقول:

- أنت لم تفهم بعد. ألم أقل لك إنني تغيّرت؟ لو كنت رنيم التي عرفتها في مرسيليا لكنت الآن أقفز من الفرح وأدور حول نفسي في سعادة. لكن حتّى تلك الحركات لم تعد تستهويني. لقد تغيّرت يا ميشال. حياتي تغيّرت، شخصيّتي تغيّرت.. حتى مواصفات الرجل المثاليّ في نظري تغيّرت. لم تعد أنت الشخص المناسب. لا أريد منك تضحيات أو المرور باختبارات. استأنف حياتك بعيدًا عني واتركني في حالي.

ثم وقفت وهي تأخذ حقيبتها وقالت في امتنان غير موارب:

- شكرًا على اللحظات الممتعة.. ظننت أنني في حلم.

دون أن تنتظر ردّه انطلقت لتقطع الأمتار التي تفصلها عن الدّرج بخطوات خفيفة كأنها تطير. حين دخل النادل حاملًا أطباق العشاء كانت هي تنزل الدرجات بأقصى سرعتها، لتبتعد أكثر ما يمكن عن ذلك المكان. تركته يقف مصعوقًا وسط القاعة الفارغة والخاتم الماسي يلتمع في العلبة بين يديه. ركضت وقوّة خفية تدفعها. لقد تخلت للتوّ عن حلم طفولتها ومراهقتها وبداية شبابها. إنّها تعي ذلك جيدًا.

بعض الأحلام نتمناها وننتظرها بترقب ونفاد صبر.. وحين تصبح منا قاب قوسين أو أدنى ندفعها بلا ندم، لأننا ارتفعنا بأحلامنا درجة ورفعنا هممنا درجات، فما عادت أحلام الماضي تكفينا وترضينا.

(29)

عقدة الذنب

عبرت ميساء وزهور الرّواق المؤدي إلى غرف المرضى في هرولة مرتبكة. كان هيثم يتقدّمهما بخطواته الواسعة في حين كانتا تحاولان مسابقته حتّى لا تفقدا أثره. توقف أخيرًا على بعد أمتار قليلة من الغرفة التي أعطتهم الممرّضة رقمها منذ حين. تسمّر ثلاثتهم وهم يلمحون رجل الشرطة الذي وقف عند الباب. بالدّاخل، كان يتمّ التحقيق مع ياسمين بشأن حادثة الانتحار. مرّت دقيقة انتظار مريرة قبل أن يفتح الباب ويخرج شرطيان بزي رسميّ يرافقهما طبيب بإزاره الأبيض. تبادلا بضع كلمات مع الشرطي الثالث الذي كان يقف خارج الغرفة، ثم ابتعد جميعهم مغادرين. تنهّدت زهور وهي ترى رجال الأمن ينصرفون. كانت تلك علامة مطمئنة. توجهت على الفور إلى غرفة ياسمين تتبعها ميساء، في حين تأخر هيثم عنهما وحثّ الخطى ليلحق بالطبيب الذي غادر الغرفة للتوّ.

كانت ياسمين في غاية الشحوب. عانقت ميساء وزهور في حبّ وقد سرّتها زيارتهما غير المتوقعة. كانت دموعها على أعتاب جفونها منذرة ببكاء قريب بعد حصّة الاستجواب التي تعرضت إليها. وكأن ميساء قد أحسّت بضعفها فجلست إلى جوارها على طرف السرير واحتضنتها. همست ياسمين بصوت مختنق من العبرة:

- أنا متعبة.

انسابت العبرات على وجنتيها في هدوء منفسة عن كلّ الضّغط الذي تراكم في صدرها. سألتهما فجأة:

- كيف عرفتما أنني هنا؟

قبل أن تردّ إحداهما، تعالت دقات على باب الغرفة. مسحت ياسمين دموعها بسرعة قبل أن تأذن للقادم الجديد. تقدّم هيثم إلى داخل الغرفة في حرج. خفض عينيه بسرعة بعد أن وقعت عيناه على وجهها الذابل. كانت مختلفة بنظراتها المنكسرة وعلامات البكاء الواضحة في عينيها. الطبيب قال إنّها في حاجة إلى راحة إجباريّة لمدّة شهرين. إجازة مرضيّة ملزمة علّها تشفى من حالة الانهيار.

- كيف حالك؟

- بخير.

ردّت في حرج وهي تتجنّب النّظر إليه. ارتفع رنين هاتف ليقطع الصّمت الذي خيّم على الجميع. أخرج هيثم هاتفه وطالع الشاشة في ضيق قبل أن يستأذن خارجًا. ما أن أغلق الباب وراءه حتى فتح الخط. جاءه صوتها على الفور:

- هيثم أين أنت؟

رد ببرود كبح اندفاعها الشاعري:

- أنا في المستشفى.

- آه، من أجل ياسمين؟ كيف حالها؟
- إنها بخير. تلزمها بعض الرّاحة.
- طيّب.
مرّت فترة من الصّمت قبل أن تهمس لورا من جديد:
- هل ستأتي إلى الشركة اليوم؟
زفر في ضيق وهو يقول:
- لا أدري.. ربما.
كان ينوي الذهاب إلى المكتب بعد أن يعود بوالدته وميساء إلى البيت، لكنه لم يرد إخبارها. ليس مضطرًا إلى إعطائها تقريرًا مفصّلًا بحركاته وسكناته. وإصرارها على ملاحقته صار يزعجه. أنهى الاتصال وتنهّد بقوّة. هل هو مخطئ فيما فعله؟ هل جعلها تتعلق به أكثر من اللازم؟ كان يريد الزواج بها وما زال، لكنّ ما يحصل بينهما هذه الفترة لا يمتّ إلى مخططاته بصلة.
انتبه من أفكاره حين سمع وقع أقدام تقترب. رفع رأسه ليلمح رجلين يتقدّمان في الممرّ. وقفا غير بعيد عنه وأحدهما يقول في اندفاع غاضب:
- ألم أقل إن تلك الفتاة لن تجلب لنا سوى المتاعب؟ كنت تريد منها أن تدرس ظاهرة الانتحار فها هي تتسبّب في حالة جديدة.
قاطعه دافيد محاولًا تخفيف انفعاله:
- لكنّ روزلين أقدمت على الانتحار منذ أسبوعين وكان من المتوقع أن تكرّر المحاولة.
هز باتريك رأسه علامة الرفض:
- حالة روزلين كانت مستقرّة وتحت المراقبة. كان بالإمكان السّيطرة عليها ومعالجتها حتى تمرّ الأزمة. لكن طالبتك الغبيّة وضعت بين يديها الأدوات التي تمكنها من إنهاء حياتها لتعطي الصّحافة المادّة اللازمة للتشهير بالشركة من جديد.
زفر دافيد وهو يقرّ ضمنيًا بصحّة وجهة نظر باتريك، ثم قال في قلق:
- يجب أن نمنعها من تقديم أيّ تصريحات للصّحافة. إنّها قادرة على توريطنا بكلّ براءة.
ثمّ أشار إلى غرفة ياسمين وهو يقول:
- حسن.. ها هي الغرفة.
تقدّم هيثم تلقائيًا ليقف أمام الباب ويقطع عليهما سبيل المرور. فوجئ به الرّجلان وهو يسدّ الطريق أمامهما. لكنّه بادرهما على الفور موضحًا وهو يحدج باتريك بنظرة صارمة:
- الرجاء الهدوء من فضلكما. المريضة في حالة صدمة وتلزمها الرّاحة والابتعاد التّام عن الضغوطات والانفعالات. إن كان أحدكما ينوي الشجار أو الصراخ فليفعل ذلك بعيدًا.
امتقع وجه باتريك في حين التفت دافيد إليه:
- من الأفضل أن تبقى هنا. سأطمئن على حالتها وأعود.

ابتسم هيثم في رضا ثمّ قرع الباب برفق. دخل وأغلق الباب خلفه ثم قال:
- ياسمين، هناك رجل من الشركة يود رؤيتك. هل تسمحين له بالدخول؟
شحب وجه ياسمين وهي تتذكر الشركة وروزلين والبحث. همست بصوت مرتجف:
- من يكون؟
- لحظة.
أطلّ هيثم من فتحة الباب وسأله:
- الاسم الكريم؟
أجاب دافيد من وراء الباب:
- أنا دافيد.
أخفت وجهها بين كفيها في اضطراب وقد تعرّفت على صوت رئيسها في العمل. كيف يمكنها أن تواجه دافيد الآن؟ إنّه المشرف على بحثها الفاشل. كيف تقابله بعد أن تسبّبت في هذه المصيبة؟ لكنّ هيثم أغلق الباب مجدّدًا وقال بلهجة مطمئنة:
- ياسمين أنت الآن في إجازة مرضيّة. يمكنك أن ترفضي رؤية أيّ كان من الشركة. هذا حقك.
رفعت رأسها إليه كطفلة صغيرة تصدّق كل ما يقول له مرشدها. ثمّ همست في ارتباك:
- دعه يدخل.
فتح هيثم الباب من جديد وأفسح المجال لدافيد وهو يقول بلهجة حازمة:
- في يدك خمس دقائق للزّيارة. وبدون أيّ كلمة عن الحادثة أو عن العمل.
هزّ دافيد رأسه في انصياع وتجاوزه إلى داخل الغرفة. طالع هيثم باتريك الذي كان يتابع الموقف في صمت بنظرة باردة، ثم أغلق الباب دونه ليتركه وحيدًا في الخارج. حدّق باتريك في الباب المغلق وهو يغلي غضبًا. لكن قامة هيثم الفارعة وجسده الرياضي جعلاه يحجم عن الإقدام على أي عمل متهوّر.

****

استيقظت رنيم مبكرة ذلك الصباح. خرجت من غرفتها على أطراف أصابعها وأخذت قطعتين من الكعك تناولتهما في طريقها إلى المكتب. لم ترد أن تطيل المكوث في الشقة حتّى لا تضبطها ياسمين وأمارات الخيانة مرتسمة على وجهها. هل للخيانة شكل مميّز يُرى رأي العين؟ تكاد تجزم بأنّ عينيها ستفضحانها لا محالة، خصوصًا أمام ياسمين. كثيرًا ما كانت ياسمين تنجح في استشفاف خوفها وقلقها، ولسانها العذب ذاك بلسم كثيرًا ما شفى جراحات نفسها، بتلك المَلَكة العجيبة التي لا يملكها غيرها. فهل تعجز عن ضبط خطوط الخيانة الفاضحة؟
في الليلة السّابقة، تسكعت لبعض الوقت في الشوارع الباريسيّة قبل أن تقرّر أخيرًا أن الوقت قد حان للعودة إلى الشقة. حين فتحت الباب بهدوء كانت غرفة الجلوس غارقة في الظلام وباب غرفة ياسمين مغلقًا. تسللت دون أن تصدر صوتًا وقد توقعت أن ياسمين قد أوت إلى فراشها بالتأكيد. من حسن حظها أنها لم تنتظرها على العشاء ولم تطاردها باتصالاتها طوال السهرة، مع أن ذلك يُعدّ غريبًا بالنسبة إلى طباع ياسمين التي تعرفها. منذ إقامتها معها وهي تحشر نفسها في حياتها بدون

استئذان باسم المشاركة الوجدانيّة، وتهتمّ بكلّ ما يخصّها باسم حقّ الجوار. تذكّرت أنّها بدت منشغلة حين رأتها صباح الأمس. يبدو أنها قد انهمكت في دراسة حالة الانتحار تلك ونسيت أمرها. تنهّدت وهي تفكر.. إلى متى ستستمر في تجنبّها؟

كانت تعبر الرواق الذي يوصلها إلى غرفة عمر بالمستشفى وهي تمسك بهاتفها. بعد يوم من التفكير المضني قرّرت المواجهة. ليس مواجهة عمر أو ياسمين بالحقيقة التي كانت تدركها وحدها، لكن مواجهة كليهما من جديد وكأنّ شيئًا لم يكن. نعم، كان ذلك قرارها. عليها أن تنتهي من هذه القضية أوّلًا. تخاف إن هي اختارت المكاشفة الفوريّة أن تحملها كرامتها الموجوعة إلى التخلي عن القضية. وإنقاذ عمر أصبح الأولوية المطلقة، بغضّ النظر عن وجود امرأة أخرى في حياته. ستقوم بواجبها كمحامية وتترك مشاعر المرأة جانبًا. كان ذلك خيارها.

رغم فرارها من الشقة قبل استيقاظ ياسمين فإنها ذهبت بقدميها إلى عمر. ربما تكون مواجهته أيسر، لأنّه لا ينظر في وجهها. ولأنّ الأحاديث العملية تشغل المساحة التي تفصلهما. لا يمكنه أن يتفطن إلى تغيّرها كما تفعل ياسمين.

اتّصلت للمرة الألف بالبروفيسور سامي كلود ثمّ زفرت وهي تغلق الخط بعد أن تركت رسالة صوتيّة جديدة على المجيب الآليّ. دخلت إلى الغرفة في هدوء وهي تحبس أنفاسها. بقدر ما استعدّت إلى ذلك اللقاء وهيأت نفسها لتمثيل اللا مبالاة بقدر ما اهتزت ثقتها وهي تطالع ابتسامته التي لم تتعوّد عليها. بادرها عمر باهتمام:

- كيف أنت اليوم؟ هل ذهبت أوجا ع رأسك؟

فوجئت بسؤاله. لم تكن تتوقّع منه اهتمامًا بصحّتها. كما أن اهتمامه ذلك جاء في وقت غير مناسب. في وقت كانت هي تحاول فيه السّيطرة على عواطفها. قالت في لا مبالاة:

- أنا بخير. شكرًا لسؤالك.

صارت تفكر كثيرًا مؤخرًا.. أكثر من اللازم. مثل مراهقة صغيرة تدرس تصرفات الشّابّ الجالس على بعد عدّة أمتار أمامها وتُؤوِّل كلماته وحركاته إلى تلميحات وإشارات. لكنّ الفرق هو أنّها لم تعد مراهقة والشاب الذي أمامها مثقل بهموم تغنيه عن عبث المراهقين، فضلًا عن اهتمامه بامرأة أخرى. قالت مقاومة المرارة التي تزحف إلى حلقها:

- اتصلت بتقني الصيانة الذي اهتم بإصلاح جهاز كريستوف.. وللأسف تصريحاتهما متطابقة.

لم تكن المعلومات المتوفّرة حتّى ذلك الحين مبشّرة بالخير. لكن تبقى الفرضيّات مفتوحة. ربّما كان كريستوف قد تعمّد تحطيم جهازه لتوريط عمر لسبب ما. وربما يكون هناك شخص ثالث مجهول الهويّة له مصلحة في سرقة أبحاث كريستوف وتوريط عمر.. قالت أخيرًا بعد أن شرحت له الاحتمالات الممكنة:

- فكر جيدًا، هل هناك شخص في الشركة قد يضمر لك الشر إلى درجة توريطك في قضية كهذه؟

هز عمر رأسه في حيرة:

- كما أخبرتك سابقًا، علاقاتي محدودة في الشركة. لا أدري إن كنت قد أسأت لأحد ما دون أن أدري.

أضاف بعد ثوانٍ من التفكير وابتسامة شاحبة على شفتيه:

- الوحيدة التي توقعت أن تحقد عليَّ نوعًا ما هي كارولين، لكنّها وبشكل غريب كانت أكثر من وقف إلى جانبي في أزمتي.

عقدت رنيم حاجبيها في شك:

- كارولين؟ الشقراء التي كانت عندك البارحة؟ لماذا قد تحقد عليك؟
- كانت هناك محاولات منها للتقرّب منّي.. لكنّني صددتها بنوع من الحدّة. ظننت أنّها لن تغفر لي ذلك. لذلك فوجئت حين لمحت تأثرها من أجلي وحرصها على مساعدتي.
استمعت إليه رنيم في انتباه ثمّ قالت فجأة:
- لماذا لم يرد اسمها ضمن الشهود؟ كان يجب أن ندعوها للشهادة.
- هل تعتقدين ذلك؟
- دعني أحاول الاتصال بها.
خرجت من عنده وقد وطّنت العزم على سبر أغوار كارولين. دون تردّد، أرسلت إلى التحرّي الخاصّ تطلب كلّ المعطيات الممكنة عن كارولين وعنوان إقامتها في باريس. كانت رغبة النبش في ملفاتها قد راودتها منذ رأتها تتهادى في غرور عبر ممرّ المستشفى. لم تطمئن أبدًا إلى حومان تلك الفرنسيّة الشقراء حول عمر. وربّما تفوقت غريزة المرأة في ذلك على حدس المحامية.

****

نظرت ياسمين إلى هاتفها للمرّة العاشرة في نفاد صبر. كانت تنتظر ميساء التي وعدتها بالمجيء لترافقها إلى شقتها. الطبيب المراقب لحالتها سمح لها بالمغادرة بعد أن أوصاها بالتزام الرّاحة التّامّة في الشّهرين المقبلين. كانت تتلهف لمغادرة المستشفى التي تثير أجواؤها في نفسها الكوابيس. منذ صغرها كانت تكره الطبّ وترهب الأطبّاء. كبرت وكبر معها ذلك الرّهاب الذي يجعلها تتحمّل الألم وتكتمه حتّى لا تصحبها والدتها إلى عيادة أو مصحّة. لكنّ الحوادث الأخيرة التي عاشتها في تلك المستشفى الباريسيّة تفوّقت بمراحل على مخاوف الطّفولة السّخيفة.
كانت ميساء قد قضت معها جزءًا من نهار الأمس. استجابت لرجاء عينيها الصّامت، فتركت جامعتها مبكّرة لتتفرّغ إليها. حين انصرفت في المساء، أصرّت عليها ألا ترحل من المستشفى حتى تكون هناك. لكنّ ياسمين كانت تطالع شاشة الهاتف وتنتظر أن يظهر اسم آخر.
رنيم. كانت تعتقد أنهما أصبحتا مقرّبتين خلال الأشهر التي جمعتهما في الشقة الباريسيّة. مقرّبتين على الأقل بشكل كافٍ لتسأل عنها وتهتمّ بشأنها في ظروف كهذه. ألم تقلق عليها رنيم؟ ألم تلاحظ غيابها في الليلة الماضية؟ ألم تفكر في الاتّصال بها؟ ألا يهمّها أمرها؟ كانت تشعر بخيبة كبيرة تزيد من وطأة خيبتها القائمة.
- أنت جاهزة؟
وقفت من مكانها حين أطلت عليها ميساء. ابتسمت وهي تأخذ ذراعها:
- هيا بنا.
التقطت حقيبتها (التي كانت سبب مأساتها) في شيء من الانكسار وتقدّمت في اتّجاه الباب مطأطئة الرأس. ما أن أصبحتا في الممرّ حتى شدّت أصابعها بقوّة على ذراع ميساء تعصرها. تأوهت ميساء وهمست:
- ما الأمر يا عزيزتي؟

عضّت ياسمين على شفتها السّفلى وهي تسير إلى جوارها ملتصقة بها. كانت تشعر بالأعين تلاحقها في ممرّ المستشفى. في السّابق كانت تعزّي تلك النّظرات إلى مظهرها المختلف لكنّها اليوم تقرأ في الأحداق نعوتًا جديدة غير "المتخلفة" و"المعقدة" و"المنغلقة".. صفات تؤلمها أكثر من سابقاتها من نوع "الغبيّة" و"المجرمة" وحتّى "الإرهابية". أحسّت بميساء تضغط على ذراعها برفق. رفعت رأسها إليها فألفتها تبتسم في حنوّ وقالت:

- لا تهتمّي بما يفكر به الآخرون.. لا ذنب لك فيما حصل.

اغرورقت عيناها بالدّموع مرّة أخرى وهزّت رأسها في امتنان. لم تحسّ بالضعف من قبل بقدر ما تحسّ به الآن. ربّما لأنّها تشكّ في داخلها بأنّها مذنبة على عكس ما تؤكّده ميساء. ربّما لأن إحساسها بإجرامها تجاه روزلين ملأ كيانها سوادًا وغطّى على كلّ احترامها لنفسها.

****

ما أن تخطت مدخل المكتب حتى فوجئت بكل من فيفيان وجورج والسكرتيرة يقفون عند آلة صنع القهوة في اجتماع حميميّ غير معهود. استداروا باتجاهها في ترحيب بالغ ومثير للشكوك. رفعت حاجبيها في استغراب ثمّ ابتسمت دون اهتمام وهي تحيّيهم. توجّهت إلى مكتبها دون أن تكلّف نفسها عناء التوقف عندهم. لم تكن بنفسها رغبة في الحديث عن سهرة الأمس أو معاتبة جورج على توريطها. لاحقتها فيفيان وهي تناديها في حماس:

- رنيم إلى أين؟ كنّا ننتظرك.

التفتت إليها في استغراب أكبر:

- تنتظروني؟! ما الأمر؟

باغتتها فيفيان وهي تمسك بكفّها في حركة مفاجأة ثمّ هتفت في دهشة:

- أين خاتمك؟

ثم أردفت بسرعة وهي تغمزها في دهاء:

- هل تخفينه عنا؟ لا تخافي لن نحسدك على سعادتك.

ابتسمت رنيم في برود وهي تجيب:

- ليس هناك خاتم يا عزيزتي. من ادّعى غير ذلك؟

بهتت فيفيان التي كانت واثقة من معلوماتها. ميشال نفسه أراها الخاتم الماسيّ وأفضى إليها بتفاصيل خطة الليلة الماضية. هل يكون قد أجّل التنفيذ إلى وقت لاحق؟ أم تراها رنيم..؟

أكدّت رنيم ظنّها الأخير وهي تقول في هدوء مستفز:

- لديّ عمل كثير.. أستأذن الآن.

تابعتها بنظراتها في حقد متزايد وهي تبتعد في اتجاه مكتبها. يجب أن تكسر أنفها المتعجرف ذلك يومًا ما. هل حسبت نفسها أميرة شرقيّة بالفعل؟ ميشال الذي لم يكن يفكر يومًا بالزواج وجد نفسه غارقًا في الرومانسيّة وهو يعدّ مخططًا دقيقًا ومدروسًا لليلة الأحلام تلك من أجلها. لم يفعل رجل ذلك من أجلها هي أبدًا وها هي قد اقتربت من الأربعين دون أن يكون في

حياتها أدنى مخطط لزواج أو ارتباط أو إنجاب طفل ما. ورنيم الطفلة الشقية المدللة ترفس بقدميها فرصة من ذهب دون تردّد أو اعتبار لمشاعر الرّجل. لم تكن هي لترفض لو أن ميشال تقدّم إليها.

****

أوقف هيثم السيارة أمام المبنى الذي ظهر عنوانه أمامه على الورقة. كانت والدته قد اتصلت به ذلك المساء وطلبت منه أن يمرّ لاصطحاب ميساء التي رافقت ياسمين إلى شقتها. كانت الشمس قد غابت منذ نحو نصف السّاعة ولم تكن زهور تريد لميساء أن تركب وسائل النقل العامّة وحدها في المساء. تأفّف في داخله. كانت علاقته بميساء سيّئة مؤخرًا. قصّته مع لورا ثم رفضه لياسمين كل ذلك جعلها تتخذ منه موقفًا صارمًا. لم يعد التّواصل معها سهلًا وذاك يحمّله عبئًا إضافيًا لم يعد يتحمّله. تنهد قبل أن يخرج هاتفه ويكوّن رقمها. انتظر للحظات وهو يستمع إلى الرّنين من الجانب الآخر، ثمّ جاءه صوت مجيبها الآلي. زفر وهو يغلق الخطّ في انزعاج. ها أنّها قد نسيت هاتفها على الوضع الصّامت من جديد. أوقف المحرّك ونزل من السيارة. ربّما عليه أن يذهب إليها.

غادرت رنيم محطة المترو بخطى متمهلة. لم تكن تستعجل العودة إلى الشقة. لكنها لا تملك خيارات كثيرة. لا شك أنّ ياسمين قد انتبهت لغيابها وربّما بدأت بعض الشكوك تراودها. إن كانت تفرّ من لقائها حتى لا تفضحها نظراتها وحركاتها، فإن اختفاءها ذاته مثير للرّيبة. كانت قد اقتربت من مبنى إقامتها حين توقفت سيارة رياضيّة صغيرة قبالته. لم تعر الشّابّ الذي نزل منها أدنى اهتمام وتابعت طريقها بخطوات متّزنة. لمحته وهو يتقدّم في اتجاه عمارتها ويقف أمام بابها. بدا لها أنّه يعاين لوحة الأرقام في المدخل. تلك اللوحة الإلكترونية التي يرقن عليها الرّاغب بالدخول رقمًا سريًا فيمكنه من فتح الباب الخارجيّ للعمارة. بعد لحظات رأته يبتعد عن اللوحة ويقف جانبًا وهو ينظر إلى هاتفه. عقدت رنيم حاجبيها في شك. لم يكن وجهه مألوفًا وكان من الواضح أنّه لا يعرف الرّقم السّرّيّ. ومن الواضح أيضًا أنه يماطل منتظرًا أن يفتح الباب شخص آخر.

تمهلت في سيرها وقد تسارعت نبضاتها. بشكل غريزيّ امتدّت كفّها إلى داخل حقيبة يدها لتتحسّس قنبلة الغاز التي اقتنتها حين تسلمت قضيّة بعينها في مرسيليا. موكلتها آنذاك كانت شابّة تسكن بمفردها والمتّهم رجل تبعها إلى شقتها حين عودتها إليها مساءً. اقتفى خطواتها في حذر وحين فتحت باب الشقة دفعها داخلها واقتحم المكان عنوة ليقوم باغتصابها. بعد تلك القضية صارت تنتبه أكثر إلى الحوادث التي توردها الجرائد في قسم "المتفرقات" عن عمليات الاقتحام الليلية والسّرقات بيد مسلحة. كل تلك الحوادث تبدأ حين يتمكن شخص مختلّ القيم من تجاوز حواجز المراقبة والحماية ليجد السبيل مفتوحًا أمامه لتحقيق مآربه الدنيئة.

أخذت نفسًا عميقًا واستجمعت شجاعتها. هل يكون الأوان قد حان لاستعمال قنبلتها؟ في نهاية الأمر احتمال أن يكون الشاب مجرمًا ضئيلٌ جدًا. قد يكون مجرّد زائر نسي أن يأخذ الرّقم السّرّيّ من أحد السكان، لكنّ الحذر واجب.

كان هيثم ما يزال يقف مكانه حين وصلت إلى المدخل. تجاهلته وكوّنت الرّقم على اللّوحة ثمّ دفعت الباب الذي فتح بشكل آليّ. قبل أن ينغلق الباب خلفها كانت كفه قد امتدت بسرعة لتوقف الدّفّة. التفتت إليه في تحفز فهتف على الفور:

- شكرًا.

ثمّ أضاف موضّحًا:

- كنت أنتظر شقيقتي لكنّها لا تردّ على هاتفها.

هزّت رأسها في تفهّم وتقدّمت في هدوء. في نهاية الأمر لا يبدو ذا شكل مريب. صحيح أن قامته الفارعة وعضلاته المفتولة تثير الرّهبة. لكنّ ملامحه الهادئة كانت مطمئنة. وقفا معًا أمام المصعد. سبقته رنيم وضغطت على زرّ الاستدعاء ثم وقفت تنتظر. لم يكن ينظر إليها بل بدا مشغولًا بهاتفه. ربما يكون صادقًا في حديثه عن شقيقته. دخلا المصعد معًا فضغطت رنيم على رقم طابقها. حين لاحظت عدم تحرّكه سألته بتلقائية:

- أيّ طابق؟

حانت منه نظرة إلى الرّقم المضيء على اللوحة الإلكترونية وقال على الفور:

- الطابق الثالث.

سرى في أوصالها توتر مفاجئ. كانت هي قد ضغطت على الزّرّ الثالث للتوّ. حين توقف المصعد عجّلت بالخروج متجنبة النظر إلى الخلف. كانت تريد الوصول إلى الشقة بأسرع ما يمكن قبل أن يجد الوقت لفعل أيّ شيء مهما كان ما ينوي فعله. لكنّها لم تكن تجهل أن الممرّ ليس شديد الطول وأن بإمكانه اللحاق بها بخطواته الواسعة في لمح البصر. حين وقفت أمام باب الشقة حانت منها التفاتة سريعة إلى الخلف، فما راعها إلا أن رأته ما يزال يتبعها. بسرعة شديدة صعدت علامة الإنذار في رأسها إلى مستواها الأقصى. كانت شقتها هي الوحيدة الواقعة في تلك الجهة من الممرّ وهذا الشاب لا يمكن أن يكون شقيق ياسمين. تذكر جيدًا أنّها حدثتها عن مراهق في المدرسة الثانوية. لذلك فإنّ كذبه بخصوص شقيقته واضح. فتحت حقيبتها بتأنٍّ وتظاهرت بإخراج المفاتيح وبحركة سلسة تسللت أصابعها إلى قنبلة الغاز وأخذت نفسًا آخر.

نظر هيثم في القصاصة التي تحمل العنوان من جديد ثم رفع رأسه بحثًا عن الشقة الرابعة. انتبه إلى أنّ الفتاة ذات الملامح العربيّة التي رافقته في المصعد كانت تتقدّم في الاتجاه الذي يقصده. تذكر أن ميساء تحدّثت عن شريكة لياسمين في السّكن. ربّما تكون هي. على أي حال كانت تسير في الممرّ المؤدي إلى الشقة الرابعة.

- من فضلك.

كان يهمّ باستيقافها ليسألها عن ياسمين ويطلب منها استدعاء ميساء التي من المفترض أن تكون بالدّاخل، لكن قبل أن ينهي جملته فوجئ بها وهي تستدير بقوّة وتضغط على زرّ الإطلاق لينفجر الغاز المسيل للدّموع دفعة واحدة في وجهه. كانت خطوات قليلة تفصله عنها لذلك أصابه الغاز بشكل مباشر. في اللحظة الموالية كان صراخه المتألم يملأ أرجاء الممرّ وهو يرتمي على الجدار بعد أن فقد توازنه وكفه تضغط على عينه اليسرى.

بأصابع مرتجفة أخرجت رنيم مفاتيحها وأدخلتها في القفل في انفعال. خلال ثوانٍ كانت تدفع الباب بقوّة وتتجاوزه بأوصال مرتعدة تاركة هيثم يتلوّى في الخارج. ما أن أوصدت عليها باب الشقة حتى تنهدت في ارتياح. إنّها في أمان الآن. ما الذي ينبغي عليها فعله؟ هل تبلغ الشرطة؟ قبل أن تفكر في الخطوة الموالية فتح باب الغرفة الداخلية وظهرت ياسمين مفجوعة تتبعها ميساء. هتفت ياسمين في قلق:

- ما الذي يحصل؟ ما هذا الصراخ؟

- لن تصدّقي!

كانت رنيم تشعر بالإثارة وهي تسرد على مسامعهما تفاصيل المغامرة التي عاشتها منذ حين. ما أن أنهت روايتها حتى سارعت ميساء لتطلّ من العين السّحريّة وقلبها يحدّثها بأمر ما. مجرّد أن تبيّن لها وجه الشاب المنهار على الأرض حتى شهقت في جزع وبادرت إلى فتح الباب. أوقفتها رنيم بحركة حادّة:

- أنت مجنونة؟ ماذا تفعلين؟ يجب أن نستدعي الشرطة.

لكن ميساء التي تملكها جزع حقيقي دفعتها عنها بقوّة وهبّت إلى الخارج. هتفت وهي تنحني إلى جوار الشاب الذي كان يتنفس بصعوبة:

- هيثم؟ أنت بخير؟

امتقع وجه رنيم حين سمعت الاسم. إذن هذا هو هيثم؟ يا للورطة! همهمت في ارتباك وهي تنقل نظراتها بينهما:

- كيف لي أن أعرف؟ ظننته يتبعني و...

قاطعتها ياسمين في قلق:

- هل نطلب الإسعاف؟

هزّت رنيم كتفيها في استهانة وهي تقول:

- إنه مجرد غاز سيختفي تأثيره بعد قليل.

لكن ميساء التي كانت تجثو على الأرض إلى جانبه هتفت وهي تدسّ كفّها في جيوب سترته تبحث عن شيء ما:

- ليس بالنّسبة إلى مريض الرّبو.

بعد لحظات كانت تخرج آلة التنفس اليدويّة. وضعتها في فمّ هيثم الذي كان يمرّ بأزمة حادّة وأخذت تضغط المحلول داخل حلقه في توتّر، حتى استردّ أنفاسه. ساعدته ميساء على الوقوف وأسندته حتى ارتمى على أريكة غرفة الجلوس، بينما كانت كفه تغطي عينه اليسرى التي كانت محمّرة من الالتهاب.

لم تستطع رنيم أن تكتم ابتسامة تسللت إلى شفتيها، همست في خفوت:

- إنّه يستحق ذلك على أيّ حال.

لم يصل همسها إلا إلى ياسمين التي كانت تقف غير بعيد عنها، لكنّها لم تلق تعليقًا ساخرًا كما توقعت، ولم يبد عليها أيّ أثر للمزاح أو الاستمتاع، بل ابتعدت باتّجاه المطبخ وهي تقول:

- سأحضر كمّادة باردة.

تبعتها رنيم حتّى صارتا بمنأى عن ميساء وشقيقها. قالت من جديد:

- لم أقصد أن أؤذيه لكنّه يستحق ذلك من أجل سخافته في السّابق.

انتظرت مرّة أخرى أن تبدي ياسمين ملاحظة متواطئة فتضحكان معًا. لكنّها بشكل ما لبثت منيعة أمام دعاباتها. راقبتها في استغراب شديد وهي تخرج مكعبات الثلج في صمت وتعكف على تحضير الكمّادة متجاهلة إياها، ثمّ تعود في اتجاه ضيفيها دون أن تعلق بكلمة واحدة.

لم تكن رنيم تستوعب تصرّف ياسمين البارد، لكنّها عادت لتقف إلى جوارها في غرفة الجلوس وهي تحاول التّصرّف بشكل

طبيعيّ. أليس ذلك ما تفعلانه في العادة؟ كلّ كلمة تصدرها إحداهما تجد صداها عند الأخرى، كأنّهما في تخاطب روحيّ؟ لماذا تبدو الاتّصالات معطّلة ذلك اليوم؟ كانت تجاهد حتى تبدو مسترخية ومنطلقة كعادتها. لم يكن ذلك يسيرا وياسمين لا تسهّل عليها المهمّة على الإطلاق.

قالت ميساء أخيرًا وهي تعاين مقلة شقيقها المحمّرة:

- هل ستكون قادرًا على السّياقة؟

هز رأسه علامة الإيجاب وهو يغمض عينه ويفتحها بحركة متكرّرة، ثم قال في غيظ:

- لو كنت رددت على هاتفك لما حصل شيء من هذا.

شحب وجه ميساء وهي تمتم بكلمات اعتذار، في حين قالت ياسمين بصوت لم يغادره الضعف:

- أنا آسفة، لقد أخّرتها. كانت تساعدني على تسجيل مواعيد الدّواء.

انتبهت رنيم في تلك اللحظة إلى سحنة ياسمين المتغيّرة. هكذا إذن. كان يجب أن تلاحظ منذ البداية شحوب بشرتها وغياب الابتسامة التي لا تكاد تفارق محيّاها في العادة، لكن يبدو أن الأمر قد وصل إلى العقاقير والأدوية.

قال هيثم مخاطبًا ميساء وهو يقف من مكانه في استعجال:

- حسن يجب أن نذهب الآن.

ثم أضاف بلهجة أكثر ليونة مخاطبًا ياسمين:

- انتبهي لنفسك جيّدًا.. ولا تنسي تعلميات الطبيب بالرّاحة التامة.

ثم دفع ميساء أمامه بخفة لتسبقه باتجاه الباب. رافقتهما ياسمين إلى الخارج ثم عادت أدراجها باتجاه غرفتها. سارت في خطّ مستقيم متجاهلة رنيم عمدًا. كانت تعاقبها على اختفائها منذ الأمس. لحقت بها رنيم في جزع وشدّتها من ذراعها لتوقفها وهي تقول في اهتمام:

- ما الأمر؟ ما قصّة الأدوية التي تأخذينها؟ ولماذا الرّاحة التامة؟

سحبت ياسمين ذراعها وحدجتها بنظرة عتاب طويلة ارتجفت لها أوصال رنيم.

- هل يهمّك أن تعرفي؟

بهتت من لهجتها الغريبة ونظراتها النّافذة المربكة.

- هل لديك شك في ذلك؟ لماذا تعاملينني كأنّني شخص غريب اليوم؟ ما الذي حل بك؟

فوجئت بالدّموع التي اندفعت من عينيها بغزارة، كأنّها قاومتها طويلًا وما عادت بها قدرة على كتمانها. سحبتها رنيم إليها، ساعدتها على الجلوس واحتضنت كتفيها مواسية، وهي لا تدري سببًا لبكائها. همست ياسمين أخيرًا بصوت مختنق:

- كنت الشخص الوحيد الذي انتظرت زيارته في المستشفى، إن لم يكن لصداقتنا فلحقّ الجوار.

انعصر قلب رنيم بشدّة في صدرها. كل ما فكرت به البارحة هو أن تفرّ من رؤيتها، لم يخطر ببالها أنّها قد تمرّ بأوقات عصيبة وتحتاج إلى وجودها إلى جانبها. ليس لحقّ الجوار فقط، بل بحقّ كلّ الأوقات التي جمعتهما في هذه الشقة، بحقّ كلّ فنجان شاي وكلّ قطعة كعك تقاسمتاها، بحقّ كلّ جلسة متواطئة استمرّت إلى ساعات الصّباح الأولى، بحقّ كلّ ضحكة رسمتها على

وجهها بعد يوم عمل مجهد. كانتا أكثر من جارتين بكثير. ومن حقّ ياسمين أن تعاتبها بحقّ كلّ ذلك.

- أنا آسفة، اغفري لي تقصيري.

كانت تعتذر من أجل غيابها وقت الحاجة، ولأسباب أخرى تجهل ياسمين كل شيء عنها، أشياء لم يكن المجال يسمح أبدًا بذكرها، وربما تعتذر أيضًا لأنها قرّرت للتوّ أن تنفيها في مكان قصيّ من ذاكرتها إلى أجل غير مسمّى.

(30)

طوق النّجاة

استلقت على ظهرها في إعياء. أغمضت عينيها محاولة الاسترخاء. تحتاج قسطًا من الرّاحة.. الرّاحة. أنّى لها بالرّاحة وضميرها الموجوع ينتفض فرقًا في كل ثانية مع مشهد المشنقة الذي لا يفارق خيالها في كل لحظة من لحظات الليل والنهار؟ نفس اللقطة تتكرّر في ذهنها منذ الحادثة في إلحاح مزمن وتستعيد معها نفس الإحساس المزلزل بالرّعب بنفس درجة القوّة والتأثير.

أخفت وجهها بين كفيها في محاولة مضنية للنسيان أو التناسي. لم تكن الوحدة تسعفها. فتحت عينيها ونظرت إلى السّاعة. لماذا تأخرتِ يا رنيم؟ تنهّدت وهي تنهض من مكانها. تقضي ساعات اليوم بين السّرير والأريكة. تجلس ثم تستلقي.. تستلقي ثم تجلس. تشاهد برامج التلفاز دون تركيز وتفتح كتبًا لا تكاد تلتقط من صفحاتها سوى كلمات مبعثرة. تتلو بعض الآيات القرآنية فتسكن ويهدأ روعها، ثم تستيقظ من أحلام اليقظة أو المنام على نفس المشهد المفزع.

تناولت هاتفها وكوّنت رقمًا. كانت تحتاج إلى تبديد وحشتها. ولم تكن الأرقام في ذاكرة هاتفها كثيرة.

تعالى رنين الهاتف بشكل مزعج بينما كان أفراد العائلة مجتمعين على مائدة العشاء. أخرج هيثم هاتفه من جيبه تحت نظرات والدته المتفحّصة. عقد حاجبيه في انزعاج وهو يطالع الرّقم الظاهر على الشاشة ثم ضغط على زرّ التجاهل قبل أن يحوّل الجهاز إلى الوضع الصّامت ويعيده إلى جيبه. لمح الابتسامة الرّاضية التي تسللت إلى شفتي زهور. لن يعتكف كعادته في غرفته للرّدّ على اتصالها. كانا قد تشاجرا ذلك اليوم.

لم يعد يفهمها. يقرّ بحقّها في استعجال الارتباط، فهو أيضًا لا يرضى باستمرار علاقة غير واضحة المعالم إلى أجل غير مسمّى. لكنّه سبق وشرح لها ظروفه وترقبات عائلته. وهي بدأت تبدي تلكؤًا في تعلم الدّين في الفترة الأخيرة. أصبحت تتململ من الشروط المطلوبة وتستعظمها. تراجعت عن وعودها السّالفة وصارت تعزف على أوتار جديدة.. يلزمها وقت لتقتنع وتطبّق، وتطالبه بـ"وقفة رجل" أمام أهله، بأن يتحدّاهم ويثبت حبّه لها.. تتّهمه بالتخاذل والتهاون والتلوّن، بأنّه لم يعد على سابق عهده معها.. تطارده بالاتصالات طوال والنهار وتظهر أمامه في أوقات غير متوقّعة وفي أطر غير مناسبة ويجنّ جنونها حين يصدّها أو يتهرّب منها.

- بنيّ، لماذا توقفت عن الأكل؟

انتبه حين جاءه صوت والدته. ابتسم وهو يقول مطمئنًا:

- شكرًا، لقد شبعت.

نظرت إليه في شكّ. لم تكن شهيته مفتوحة ذلك المساء، والاتصال الأخير أجهز على ما تبقى منها. لم تكن تجهل هويّة المتصل. لكنّها لم تكن تملك أن تفعل أكثر مما فعلت. لا تريد لفترة التوتر التي شملت العائلة كلها أن تعود مجدّدًا. يعرف رأيها جيّدًا في

فتاته تلك. وهو أصبح رجلًا الآن. لا يمكنها أن تملي عليه تصرفاته أو توبخه كما تفعل مع وائل الصغير.

ارتفع رنين الهاتف مجدّدًا، لكنّه لم يكن هاتف هيثم هذه المرّة. وقفت ميساء من مكانها مهرولة وهي تهتف قبل أن تتوارى خلف باب غرفتها:

- لا شك أنّها ياسمين.

دون شعور منه رفع هيثم كفه ليلمس عينه اليسرى التي ظلت تحرقه طوال اليوم بين الفينة والأخرى. عقد حاجبيه في ضيق. لم تكن ذكرى حادثة الأمس تثير روح الدّعابة في داخله. كان موقفًا سمجًا سخيفًا ومزعجًا. ليس لأنّه تعرض إلى اعتداء بالغاز للمرّة الأولى في حياته، وليس لأن المعتدية فتاة. ليس لأيّ سبب من هذه الأسباب. فقط لأنّه اضطر إلى استعمال آلة التنفس البغيضة تلك. وأمام من؟ أمام ياسمين وجارتها غريبة الأطوار. منذ سنوات ومرضه يسبّب له الإحراج. بعد مرور فترة الطفولة التي تجعل الولد يشعر بالتميّز باختلافه حتّى وإن كان يختلف بالمرض، لم تكن له ذكرى واحدة طيّبة مع آلة التنفس. حين كبر أصبح يحاول إخفاء حقيقة مرضه عن رفاقه. وبفضل العلاج والرياضة كانت أزماته التنفسية تتناقص وتتقلص، وكان يأمل أن يصبح يومًا ما شخصًا كامل العافية. حين أخبره الطبيب بأنّه قد يأتي يوم يستغني فيه عن الآلة بصفة نهائيّة، أصبح يحلم كل ليلة بأن يكون اليوم الجديد هو ذاك اليوم. لم يكن يعلم عن مرضه سوى عدد قليل من المحيطين به ولم يكن يمتعه إضافة شخصين جديدين إلى القائمة.

- كيف حالها؟

بادرت زهور ميساء بالسّؤال ما أن رأتها ترجع لتستعيد مكانها على المائدة.

- مسكينة.. إنها تشعر بالوحدة طوال النهار. جارتها في السّكن تغيب طوال اليوم في العمل. إنها محامية. تصوّري أنّها لم ترجع إلى الشقة بعد!

هزّت زهور رأسها في تعاطف. في حين تكلم العم عبد الحميد بلهجة عتاب:

- لماذا لم تأتوا بها للبقاء معنا في فترة نقاهتها؟ إنها بحاجة إلى من يرعاها ويهتمّ بصحتها. أهذا حقّ فاطمة عليك؟

هزّت زهور رأسها في حرج ثم هتفت وقد راقت لها الفكرة:

- معك حق. كان يجب أن أفكر في ذلك.

صفقت ميساء في حماس وهي تقول:

- سآخذ إجازة من الجامعة لأكون معها في البيت.

حدجتها زهور بنظرة صارمة:

- وجود ياسمين لن يكون وسيلة للتّهرب من الدروس يا بنت. لا تنسي أن الاختبارات اقتربت.

لوت ميساء شفتيها في احتجاج، في حين التفتت زهور إلى هيثم وسألته في لهجة خاصّة:

- هيثم، ما رأيك؟

التفت إليها في ارتباك:

- رأيي؟ في ماذا؟

- في إقامة ياسمين بيننا حتى تتعافى. هل يضايقك ذلك؟
هزّ كتفيه متظاهرًا بعدم اكتراث:
- إن كنتم ترون ذلك مناسبًا فلا مانع لديّ.
لم يكن يدري ما الذي يستشعره لمجيئها على وجه الدّقة. حين أتت للبقاء بينهم لبضعة أيام منذ شهور ضايقه وجودها. لم يعد بإمكانه التبسّط والمزاح كالعادة. صار يتناول عشاءه بمفرده في المطبخ ويستأذن كلما دخل البيت أو أراد الخروج من غرفته. لم يكن وضعًا مريحًا بالكامل. وهو يعلم أنّ الوضع سيكون مشابهًا هذه المرّة أيضًا، فضلًا عن كون البنت تمرّ بأزمة نفسية تتطلب معاملة خاصّة. لكنّه بشكل ما لم يكن متضايقًا مثل المرّة الماضية. بشكل غريب لم تضايقه فكرة اقتحامها لعالمه من جديد.. بقدر ما ضايقته نظرة الشفقة في عينيها مساء أمس.

****

- آتي إلى بيتكم؟
فوجئت حين تلقت اتصال ميساء الجديد بعد نصف ساعة من اتصالها بها. لا شك أن موضوعها قد طرح على مائدة العشاء وتدارسه أفراد العائلة قبل أن تعود إليها ميساء بهذا الطلب.
- نعم، هذا هو الحل الأمثل. ستكونين مرتاحة جدًّا معنا.
- لكن...
تردّدت ياسمين للحظات؛ حين اتصلت بها لم تكن تفكر في هذا الحلّ. لم تكن تطلب منها الكثير، فقط زيارة من حين إلى آخر. تعلم أنّها بحاجة بالفعل إلى رفقة متواصلة. لكن...
- سنكون جميعًا سعداء بوجودك بيننا.
- دعيني أفكر.
هتفت ميساء في إلحاح:
- لا تفكري كثيرًا. سأمرّ عليك مساء غد مع هيثم حين ينهي حصّته المسائية.
تنهدت وهي تقول في استسلام:
- حسن إذن.
في تلك اللحظة سمعت وقع خطوات رنيم في الرّدهة. ها قد رجعت أخيرًا. لم تكن قد وصلت إلى باب غرفتها بعد حين سمعت ضربات خفيفة عليه. فتحت الدّفة لتجد وجه رنيم المبتسم أمامها.
- كيف أنت اليوم؟
هزّت ياسمين رأسها لتقول عكس ما تنطق به سحنتها الباهتة:
- أنا بخير.
طالعتها رنيم بنظرة متفحّصة ثم قالت في اعتذار:
- آسفة لتأخري؛ كنت مشغولة جدًّا اليوم! كان يجب أن أتحضّر جيّدًا لجلسة الغد.

وضعت أكياس مشتريات على المنضدة وهي تضيف:

- أنت لم تطبخي أليس كذلك؟ لقد طلبت وجبة لشخصين من المطعم.. ومن الآن فصاعدًا لن يكون هناك طبخ! هل سمعتِ؟ الطبيب أمرك بالرّاحة التامّة.

ابتسمت ياسمين وهي تقول بصوت واهن:

- لكن إن لم أفعل شيئًا فكيف أشغل وقتي؟ إنني أحسّ بوحدة فظيعة حين أقضي اليوم بمفردي.

سكتت رنيم متفكرة. إنها على حق حتمًا. الفراغ مرهق أيضًا. قبل أن تعلق همست ياسمين مردفة:

- على أي حال، سأذهب لقضاء بضعة أيام في منزل ميساء.

نظرت إليها رنيم مبهوتة. لم يخطر ببالها أن تفكر ياسمين بترك الشقة. لم يكن الافتراض واردا منذ أيام قليلة، لكن يبدو أن الأمور تغيّرت بسرعة بينها وبين هيثم وجعلت الحواجز الماضية تختفي. يبدو أنّ موقفه الرجولي في المستشفى والذي حدّثتها عنه ياسمين بكثير من التأثر كان له دوره في قرارها. تذكرت حينها أنها مدينة له باعتذار. كانت تعتقد أحقيتها بالانتقام بعد أن أطلقت الغاز في وجهه، لكنها تدرك الآن أنه قد كفّر عن ذنبه في وقت سابق.

ربما كان ذلك أفضل. تعلم أن ظروف عملها لا تسمح لها بالبقاء المستمرّ إلى جانب ياسمين، وهي بالتأكيد في حاجة إلى الرّفقة والرّعاية. تمنّت لو كان بإمكانها الإلحاح عليها حتى لا تذهب. لكنّها تدرك أنّه سيكون طلبًا أنانيًّا للغاية، وهي قد استنفدت رصيدها من الأنانية لشهور مقبلة. ابتسمت وهي تغالب مشاعرها المتضاربة وقالت في حنوّ:

- إن كان ذلك أفضل لك فلا مانع لديّ.

لا يهمّ الآن، لا يهمّ. ربما تكرهها لاحقًا، لكنّها لا تستطيع مواجهتها الآن. حياة عمر في الميزان وصحّة ياسمين أيضًا. ألم يقل الطبيب إنها يجب أن تتجنّب الانفعالات القويّة؟ في تلك اللحظة لم تكن واثقة من صدقها مع نفسها. هل كانت تضحي من أجل إنقاذ كليهما؟ أم كانت تعطي نفسها مهلة إضافية فربما يقضي الله أمرًا لم يكن في الحسبان؟ لكنّها كانت تدرك حتمًا أنّ الحقيقة التي تُحبس طويلًا في الظلام تجعل مَن سجنها ظلمًا يدفع الثمن غاليًا حال خروجها إلى النور.. وتصفي حساباتها وحدها، دون أن تلجأ إلى المحاكم.

(31)

العائد

- سيّدي هلا عرّفت نفسك؟

تنحنح الشرطيّ ذو الزيّ الرّسمي وقال بصوت واثق:

- العقيد إيريك جاربيال. كنت قائد الفرقة التي داهمت شقة المتهم بعد الحادثة.

- أخبرنا عمّا حصل آنذاك؟

- حين وصلت مع شريطيّين آخرين من رجال الفرقة، أردنا التأكد أوّلًا من خلوّ المكان.. طرقنا باب الشقة فجاءنا ردّ من شخص بالدّاخل. لكن ما أن علم بهويّتنا حتّى امتنع عن فتح الباب أو التّجاوب معنا. لذلك اضطررنا إلى كسر الباب واقتحام المكان.

- هل تمكنتم من استجواب الشخص الموجود داخل الشقة؟

- لا يا سيدي. حين تمكنا من دخول الشقة كان الرجل قد هرب.

- هرب؟ كيف ذلك؟

- قفز من النافذة يا سيّدي. الشقة واقعة في الطابق الثاني.

- هل يمكنك تقديم وصف تقريبي لهذا الشخص؟

- لقد لمحته لثانية واحدة حين كان يهمّ بالقفز. كان شابًا في نحو الثلاثين، يبدو أنه أصيل أحد بلدان شمال إفريقيا.

سأله المدّعي العام في اهتمام:

- هل يمكنك التعرّف عليه إن احتجنا إلى ذلك؟

أومأ الشرطي برأسه في تأكيد:

- نعم سيدي. أعتقد ذلك.

التفت المدّعي العام إلى منصّة المحلفين وهو يقول:

- الأبحاث ما زالت جارية للقبض على هذا الشخص الذي نعتقد أنه شريك للمتهم في عملية التفجير.

وقفت رنيم وهتفت في حزم:

- أعترض سيدي الرئيس. هذه تأويلات باطلة لا دليل عليها!

نظر إليها المدّعي العام بتحدٍّ وهتف بدوره:

- هذا ما ستثبته التحقيقات.

- اعتراض مرفوض.

ضرب القاضي الطاولة بمطرقته وهو ينطق بتلك الكلمات، في حين شدّت رنيم على قبضتها في غضب وزمّت شفتيها في

صمت. تنهدت وهي تستمع في ضيق إلى استنتاجات المدّعي العام المكبّلة، وما أن أنهى عرضه وعاد إلى مكانه حتى وقفت استعدادًا للاستجواب. همست مخاطبة عمر في مرارة واضحة:

- لست قادرة على تحقيق المعجزات.. لكنني سأفعل ما بوسعي.

تابعها عمر بنظرات قلقة وهي تتّجه إلى وسط القاعة.

- سيّدي العقيد جابريال، حين فتشتم الشقة، هل عثرتم على أيّ دليل يدين موكّلي؟

همهم الرّجل في تفكير، فأضافت رنيم بسرعة مغيّرة السؤال:

- طيّب هلا أخبرتني كيف وجدتم الشقة؟ أيّ نوع من الشقق هي؟ هل تشبه وكر عصابة تخطط لعمليات ارهابيّة؟ هل كانت هناك ملفات، منشورات، أدوات تدريب، أو أيّ وثيقة أو أجهزة تدل على انتماء موكلي إلى أي مجموعة كانت؟

- ربما كان المتهم حذرًا بما فيه الكفاية ليخفي أو يتخلص من كل الأدلة الممكنة.

- ماذا عن الشخص الآخر؟ هل كان هناك في الشقة ما يدل على إقامة شخصين؟ سريران مثلًا، فرشاتا أسنان؟ ملابس من مقاسات مختلفة؟

قال العقيد في تماسك محافظا على ملامح محايدة:

- حسب المعاينة، كلّ شيء في الشقة يشير إلى إقامة شخص واحد فيها.

وقف المدّعي العام وهو يهتف بحدّة:

- لكن هذا لا ينفي إمكانيّة أن يكون الشّخص الثاني مجرّد زائر.. في حين يكون مقرّ العصابة في مكان آخر.

قالت رنيم في حدّة واندفاع:

- لماذا لا يمكننا اليوم أن نصدّق أنّ هناك طيبة ومشاعر إنسانيّة نبيلة في أشخاص من حولنا؟ لماذا نجد صعوبة إلى هذه الدّرجة في تقبّل رواية موّكلي؟ لقد أشفق على ذلك المشرّد وقام بإيوائه بضعة أيّام. فهل يتحوّل سلوكه الإنساني الكريم إلى لعنة تطارده؟ هل كان ذنبه أن تعرّض لحادثة أليمة تاركًا شخصًا مجهول الهويّة في شقّته؟ هل كان ذنبه أن يكون ذلك الشخص مسكونًا بالخوف من الشّرطة فيقفز من نافذة الشقة ويختفي؟ دعني أخبرك سيّدي.. وفّروا جهودكم، فلن تسفر أبحاثكم على إثبات علاقة موكلي بأيّ تنظيم إرهابي، أو جماعة من أيّ نوع كانت!

زفرت وهي تعود إلى مكانها، في حين غادر الشاهد المنصّة. قبل أن يظهر الشاهد الموالي، دخل الحاجب الثاني القاعة مستعجلًا وهرول إلى منصّة القاضي مقاطعًا سير الجلسة. بعد لحظات سرت همهمة مرتبكة في القاعة مع ارتفاع أصوات صاخبة في الخارج، كانت أصداؤها تصل إلى أسماع الحاضرين. أمام الفوضى العامّة التي غزت المكان، ضرب القاضي بمطرقته على الطاولة وهتف:

- سترفع الجلسة لأسباب أمنيّة. أرجو من الجميع إخلاء القاعة في هدوء.

اشرأبت رنيم بعنقها محاولة استشفاف ما يحصل، لكنّ الجلبة من حولها حالت دون ذلك. هتف عمر في قلق وهو يراها تقف مبتعدة:

- أين تذهبين؟

أشارت إليه بكفها بعد أن لمحت مرافقه يتقدّم باتجاهه:
- سأنظر ماذا يحدث وألحق بك إلى المستشفى.
حين وصلت رنيم إلى الرّواق الخارجي اتسعت عيناها في ذهول من غرابة المشهد. كانت مجموعة من الرّجال ذوي الملامح العربيّة قد هاجمت رجال الحراسة وتشابكت معهم بالأيدي. تعالى الصّراخ والهرج، وخرجت الهراوات من مكامنها لتنهال على أجساد المقتحمين المتدافعة. ومن حين إلى آخر كانت تميّز الهتافات المزمجرة الصّاخبة.. "الله أكبر".
هرولت في اتجاه المخرج الجانبيّ الذي هيأته فرقة الحماية لتسريب المحلفين والقاضي وكل من كان بالقاعة قبل أن يقتحمها المعتدون الغرباء. زفرت في ارتياح حين أصبحت في منأى عن الأجواء الفوضويّة وسرحت بنظراتها في ذهول. يبدو أنّ أبعاد المسألة آخذة في التّوسّع بقدر يفوق بمراحل إدراكها وسيطرتها، ولن تستغرب تبنّي جماعة إسلاميّة محليّة ما لقضيّة موكّلها في القريب!

****

سار عمر إلى جوار مرافقه في تؤدة متوكئًا على عكازيه اللذين أصبحا يعوّضان الكرسيّ المتحرّك. استقلّ سيّارة الشرطة المتوقفة في فناء المحكمة الخلفي، وسرح مع أفكاره متجاوزاً فضاءها الضيق ذا النوافذ المعتمة التي تمنع عنه صور العالم الخارجيّ. في مجلسه ذاك، كانت تصله أصوات الشارع المميّزة فتهبه تسلية يومه التي ينتظرها مع كلّ زيارة إلى المحكمة في شوق. انزوى في ركنه الصّغير في استسلام دون أن يثير فيه التّماس السمعيّ المجرّد مع الحياة الماضية دونه أيّ هواجس بشأن حريّته المسلوبة. كان يعيش اللحظة بشغف، وكأنّ تلك الأصوات هي غاية ما يأمله من حريّة. كيف وصلت بك الحال يا عمر إلى الرضا بالفتات؟ شيء ما انكسر في داخله في تجربة الحبس تلك. جزء من كرامته قد سلب. انخفض سقف طموحاته حتى اقتصر على إثبات براءته، ولو بعد دهر.
انتبه حين توقفت السيّارة بعد أن قطعت مسافة بدت له أقصر من العادة. هل وصل بتلك السّرعة إلى المستشفى؟ أم أنّ استغراقه المستميت قلّص إدراكه للزمن؟ نزل من السيّارة بمساعدة الشرطي المرافق ليطل على مبنى غريب. لم يكن ما يواجهه مبنى المستشفى الذي تعوّد عليه. توكأ على العكازين وتقدّم برفق في اتجاه البوابة دون أن يجرؤ على السّؤال. لم يتطلب منه الأمر الكثير من التفكير ليدرك إلى أي مكان يمضي به مرافقه.
بعد أن اجتاز البهو الضيّق وجد نفسه في ممرّ مظلم كئيب تحفّه الأبواب الحديديّة من الجانبين. سبقه الشرطي وفتح الزنزانة الأخيرة ثم أفسح له المجال. خطا عمر إلى الدّاخل وهو يعرج بشكل واضح. ألقى نظرة قلقة على المكان الضيّق والخالي من كل قطع الأثاث عدا مقعد خشبي ينبت من الجدار ويمتدّ على أحد جوانبه. حين أغلق الحارس البوّابة وابتعدت خطواته، أيقن أنّه قد وصل إلى مسكنه الجديد. اتخذ مجلسًا على طرف المقعد واتكأ بظهره على الجدار محاولًا تخفيف آلام المفاصل التي ما تزال تهاجمه من حين إلى آخر. لم يكن يعلم كم سيطول مكوثه هناك. لكن من المؤكد أن الظروف ستكون مختلفة. لن تأتي ممرضة للاطمئنان عليه كل بضع ساعات ولن يحصل على الحبوب المسكنة بسهولة. أغمض عينيه وهو يزفر في ضيق. لك الله يا عمر! لك الله!
مضت دقائق ثقيلة ساكنة. كان قد تعوّد الوحدة في غرفة المستشفى، لكنّ جسده لم يتعوّد على الخشب الصلب ولم يكن من

المتاح أن يجد وضعيّة مريحة لأطرافه وظهره.. هل سيكون بوسع رنيم أن تفعل شيئًا من أجله؟ ابتسم في تهكم. وهل بإمكان متهم بتفجير إرهابيّ أن يحصل على امتيازات في سجنه؟ فليحمد الله على فترة العلاج التي قضاها في العناية الطبيّة. أمّا فترة النقاهة فلن تكون فترة راحة على ما يبدو.
فتح عينيه حين تناهى إليه صوت خطوات صاخبة في الممرّ، ثمّ لمع مفتاح معدنيّ في الظلام وأصدر صريرًا مزعجًا وهو يدور في قفل الزنزانة من جديد. وبصفة مفاجئة، فتحت البوابة على مصراعيها لاستقبال وافدين جدد. تابع في انتباه حركة الشبان الذين تقدّموا في نظام إلى الدّاخل ولاحظ على ضوء مصباح الممرّ ذي الإنارة الخافتة أنّ معظمهم كان ملتحيًا ويلبس قميصًا طويلًا أبيض وقد ظهرت عليهم آثار أتربة وغبار. فكّر في شيء من السّخرية بأن إدارة السّجن تعمّدت زجّ كلّ الموقوفين من أصول عربية في زنزانة واحدة حتى لو خصّصت شبرًا واحدًا لكل منهم. وبسرعة احتلت المجموعة المكان وتربّع بعضهم إزاء بعض كأنّهم متعوّدون على تلك الظروف ذات الرفاهيّة المحدودة، فانكمش عمر على نفسه في ركنه وقد أصابه إحساس بالاختناق من روائح العرق والغبار التي غزت المكان. بسرعة، انتظمت صفوفهم في حلقات وارتفعت أصواتهم بأحاديث مختلفة متفرّقة، وكأنّهم لا يكترثون البتة بمكان الجلسة وظروفها.
- دكتور عمر؟
التفت مشدوهًا حين ناداه أحدهم. نظر إلى الشاب الغريب الذي اقترب منه زحفًا. تأمّله للحظات محاولًا تذكر الملابسات التي جمعتهما وما لبث أن هتف في ذهول:
- نادر؟ ماذا تفعل هنا؟
لا يدري كيف ظهر أمامه وكأنّما قد انشقّت عنه الأرض فجأة. لم يكن المشرّد نفسه الذي اعترض طريقه منذ بضعة أشهر بسحنته الشاحبة وثيابه المتّسخة. بدا أوفر صحّة وأنظف هندامًا بقلنسوّته وجلبابه الناصعين. ارتمى عليه معانقًا في حرارة ومودّة أحسّ لها عمر ألمًا موجعًا كتمه بصعوبة حتى لا يكدّر صاحبه. جلس نادر إلى جواره في ارتباك وهو يطالع شكل عمر المتغيّر ثم قال:
- ما الذي حلّ بك يا دكتور؟ وما الذي جاء بك إلى هذا المكان؟
- تلك قصة طويلة.
- أن يصل رجل مثلي إلى السّجن فهذا لا يثير عجب أحد. أما أنت يا دكتور، فلا شك أن قصّة عجيبة وراء وجودك هنا!
ابتسم عمر في مرارة ثمّ أخذ نفسًا عميقًا قبل أن يشرع في سرد تفاصيل ما حصل معه في الأشهر الماضية. استمع إليه نادر في انتباه ودهشة شديدين قبل أن يقاطعه في ذهول:
- هل تصدّق أنّني جئت مع "فرقة الفرسان" لمساندتك، وأنا لا أعلم أنّك أنت!
- فرقة الفرسان؟!
- نعم، هؤلاء هم. جماعة خيّرة من المسلمين الملتزمين، آووني واهتمّوا بي بعد أن فررت من شقّتك وعدت مشرّدًا من جديد. وجدوا لي عملًا.. أنا الآن أدرّس العربيّة! وما عدت خارجًا عن القانون، فقد حصلت على أوراق ثبوتيّة وإقامة قانونيّة. هم يهتمّون برفع كلمة الإسلام، ولا يتركون مسلمًا في ضيق دون أن يمدّوا إليه يد المعونة.. لذلك خرجنا اليوم لنحتجّ أمام قاعة

المحكمة ونعترض على المحاكمة غير العادلة التي يتعرّض لها المتّهم في تفجير شركة الكيميائيّات.. الذي هو أنت! ما زال الخير في الدّنيا يا صاحبي، وجميلك الذي غمرتني به سيُردّ إليك ولو آجلا.. شخص نقيّ ذو يد بيضاء مثلك سيجد حتما من يهتمّ لنصرته بتسخير من الله وحده.

ألقى عمر نظرة شاملة على المجموعة التي تشاركه الزنزانة وقد ملأه الشكّ. هل كان يحتاج حقًّا إلى حركة احتجاجيّة تسانده؟ أن تصبح حالته قضيّة رأي عام، هذا أمر جيّد ولا شكّ. لكن هؤلاء الشّباب واضحي الانتماء والمرجعيّة، قد يورّطون أنفسهم بالتّدخّل، بل أدهى.. قد يستغلّهم النّائب العامّ لإثبات تهمة "التنظيم الإرهابيّ" وقد قدّم إليه "الشّركاء" على طبق من ذهب!

على الجانب الآخر من الغرفة جلس رجلان يلبسان بزات رسميّة يتابعان في انتباه ما يحصل داخل الزنزانة. كان الجدار العازل يسمح لهما بالرؤية من جانب واحد دون أن يتفطن أحد النزلاء إلى وجودهما. لم تكن الجلبة الطاغية تسمح لهما بتمييز حوار الرّجلين بين الأحاديث المتداخلة، لكن ذلك لم يمنع أحدهما من الابتسام في ظفر وهو يقول لصاحبه:

- أرأيت؟ ألم أقل لك أنّ شركاءه سيحاولون الوصول إليه بطريقة أو بأخرى؟

هزّ الآخر رأسه في تأييد وهو يعبّر عن إعجابه بفكرة زميله:

- لم أعتقد أنهم قد يقدمون على مساندته بصفة علنية معرّضين أنفسهم للخطر!

- سأطلب من العقيد جابريال المجيء.. فربما أمكنه التعرّف على الرّجل الذي فرّ من شقّة المتّهم ليلة الحادثة.

****

جرت رنيم عبر ممرات المستشفى في اضطراب. ما أن وصلت إلى مكتب الاستقبال حتى هتفت بالموظفة وهي تلهث:

- ما الذي حصل لنزيل الغرفة رقم 112؟

رفعت الموظفة رأسها بهدوء وألقت عليها نظرة باردة ثم قالت ببطء يكاد يكون متعمّدًا:

- تقصدين المتهم في التفجير الإرهابيّ؟ لقد تمّ نقله إلى السجن المدنيّ.

حدّقت فيها رنيم في ارتباك. السّجن المدنيّ؟ كانت تعلم أنّهم سينقلونه لا محالة. لكنها تمنّت أن يتأخر ذلك إلى حين صدور الحكم في القضيّة. حكم لصالحه يعفيه من كل السّجون. لكنّ قرار اللجنة الطبية كان مختلفًا. حثت خطواتها في اتجاه المخرج وقد أدركت أنّ تعقيد القضية قد ازداد في ذلك اليوم درجة إضافية.. وربّما درجات. لا يدرك المرء أن الأمور قد تصبح أكثر سوءًا مما هي عليه إلا حين تسوء أكثر بالفعل. بترت اندفاعها فجأة حين لمحت وجهًا مألوفًا. غيّرت وجهتها على الفور وانطلقت على إثر المرأة التي كانت تتقدّم بسرعة. لحقتها عند المصعد. ما أن أصبحت على قيد مترين منها حتى هتفت مستوقفة:

- الدكتور عمر ليس هنا.

التفتت إليها كارولين في دهشة. تبادلتا نظرات متوترة للحظات قبل أن تردف رنيم:

- جئتِ من أجل الدكتور عمر أليس كذلك؟

هزت كارولين رأسها علامة الإيجاب وهي تطالعها في حذر. أمام صمت مخاطبتها أضافت رنيم:

- لقد تمّ نقله إلى السّجن المدنيّ.

هتفت كارولين في جزع حقيقي:

- السّجن المدنيّ؟! لماذا؟

سألتها رنيم من جديد وهي تتفحّص ملامحها عن كثب:

- هل تهتمّين لأمره؟

كانت إجابتها تلقائية، دون تفكير:

- طبعًا أهتم!

- هل تعتقدين أنه بريء؟

- أليس كذلك؟

تنهدت رنيم وهي تقول في حزم:

- هذا ما أعتقده وأحاول إثباته، لكن هناك من يحاول إغراقه بشتى السّبل.

ابتسمت كارولين وهي تقول في امتنان صادق:

- لكنك تبلين بلاءً حسنا. شاهدت مرافعاتك.. ستنجحين.

زفرت رنيم ثمّ همست بلهجة محمّلة بالرجاء:

- إن كنت تعرفين أيّ شيء يمكنه أن يفيدنا في القضية فأخبريني به الآن.. أرجوك.

أشارت كارولين بكفيها في توتر:

- أنا لا أعرف شيئًا.. لم أكن هناك يوم الحادثة.

قبل أن تعلق رنيم ارتفع رنين هاتفها المحمول. نظرت إلى اسم المتصل ثم التفتت إلى مخاطبتها في تردّد. كان يجب أن تردّ على ذلك الاتصال. قالت أخيرًا منهية الحوار:

- حسن إذن. إن تذكرت أيّ شيء يخصّ القضية اتصلي بي. هذه بطاقتي الشخصيّة.

أخذت منها كارولين البطاقة وأومأت برأسها. ثم ابتعدت بخطى مسرعة كأنها تفرّ فرارًا. ربّما تلقي بها في أقرب سلة مهملات، وربما ترميها في قاع حقيبة يدها وتنسى أمرها إلى الأبد. لم تكن رنيم تعوّل بشدّة على اتّصالها. زفرت بقوّة ثم ضغطت على زرّ الرّد:

- ما الأمر؟

- ظهر الشاهد المنتظر.

(32)

خارج الشرنقة

وضعت حقيبتها الصغيرة على الأرض أمام السّيارة الرّياضية ثم صعدت لتجلس على أحد المقاعد الخلفيّة. اهتمّ هيثم بوضع الحقيبة في صندوق السّيارة، في حين التفتت إليها ميساء وهتفت في مرح:

- سعيدة لمجيئك.

بادلتها ياسمين الابتسامة في صمت. ربّما لم تكن مستبشرة بنفس الدّرجة بهذا الانتقال، لكنّه الأفضل لها في الظروف الرّاهنة. حياة العائلة المليئة بالنشاط خير من وحدتها القاتلة في الشقة الخالية. وإن كانت تفرض الأولى على نفسها فرضًا بدون حماس، فإنها ذاقت عذاب الثانية بما يكفي في الأيام الماضية، حتى ما عادت في كيانها ذرّة تحمّل. كلما تصاعدت تلك الأفكار إلى رأسها همّت بالبكاء، وها هي الدّموع على أعتاب عينيها من جديد، تنفر بشكل لا يقاوم.. ولم تكن هناك إلا ثرثرة ميساء الغزيرة لتنتشلها من عالمها الدّاخلي الذي تغوص فيه بشكل لا إرادي كلما سكنت الأصوات من حولها. تُرغم نفسها على التركيز معها ومتابعة أحاديثها. تتشبّث بذلك الخيط الرفيع الذي يصلها بالواقع حتى لا تسقط من جديد في ظلمة الهواجس التي تنسج حول روحها شرنقة متينة تزداد ضيقًا بها يومًا بعد يوم.

- تريدين التوقف في مكان ما قبل الذهاب إلى البيت؟

كانت السّيارة قد توغلت في الشوارع الباريسيّة المتخمة بالعربات وقد غدا التجوال فيها ضربًا من ضروب المغامرة وقت الذروة. وبدا أن أحدًا من الركاب لم يكن يستعجل الوصول إلى نقطة النهاية.

- إن كنت لا تمانعين، يمكننا التوقف في الطريق لبعض النزهة.

لم تكن لدى ياسمين أيّ رغبة تذكر. كانت مستسلمة بالكامل لمخططات مرافقيها.. وكانت تجد راحة في الاستسلام لمنسوب الكلمات المرتفع الذي يتدفق من شفتي ميساء وللأصوات المبهمة لنشرة إخبارية محلية تتسرّب من راديو السيارة. كانت تلك الفوضى التي تغمر رأسها تسليها. فوضى جميلة ومسرّية تمنع عقلها من التفكير.. وبشكل ما كانت تأنس شلل عقلها المؤقت. كانت في حاجة إلى تلك الاستراحة القسرية.

- وصلنا.

انتبهت حين توقفت عجلات السّيارة في شارع ضيّق. نظرت حولها في تشوّش. لم يكن المكان مألوفًا. لم يصلوا إلى منزل الخالة زهور بعد. نزلت خلف ميساء في ارتباك. استسلمت لكفها التي سحبتها في حماس في اتجاه تعرفه. بعد لحظات، كان ثلاثتهم يدخلون غرفة مصعد زجاجي، لم يكن يصعد إلى طوابق داخل بناية ما، إنّما يتسلق هضبة "مونمارتر" * في الهواء الطلق متيحًا لركابه فرجة ممتعة على أزقة الحيّ الضيقة المتعرجة والمترعة بدكاكين تبيع التذكارات الباريسية. اقتربت ياسمين من الواجهة البلوريّة وتركت نظراتها تسرح إلى البعيد لثوانٍ قليلة. كانت تخاف المرتفعات والبنايات العالية، لكنها كانت تشعر

بالخفّة في تلك الغرفة المنزلقة.
جرّتها ميساء خارج المصعد وهي تسألها:
- هل جئت إلى "مونمارتر" من قبل؟
هزّت رأسها علامة النفي ونظراتها تتوقف عند بناء ناصع البياض ينتصب في شموخ أمامها، مالئًا المساحة البصريّة فوق الهضبة. بشكل ما ذكّرها بصور شاهدتها في وقت ما على شاشة التليفزيون للقصر الهندي المشهور "تاج محل".
بعد أن ألقوا نظرة سريعة على البناية المتربّعة على المرتفع، ولوها ظهورهم وتوجهوا إلى الدّرجات الحجرية العريضة التي تمتدّ حتى أسفل الهضبة حيث ركبوا المصعد، في حين تؤدي العلوية منها إلى مدخل كاتدرائية "القلب المقدس" التي حسبتها ياسمين للوهلة الأولى نسخة من "تاج محل". بعد دقائق قليلة، تمكن ثلاثتهم من إيجاد موقع مناسب فوق المساحة المعشوشبة التي كانت تموج بالخلق في ذلك الوقت من النهار. جموع من السياح ومن الباريسيين المختنقين بنسق حياة محمومة الوتيرة يلجؤون إلى ذلك الحيّ الهادئ أصيل المعالم ليملؤوه صخبًا، حيث هناك متسع لهموم وأحلام الجميع.

* Montmartre: حي سياحي يقع في أعلى نقطة للتضاريس الطبيعية في باريس، في الدائرة 18 للمدينة.
** Sacré Cœur: من أهم الكتدرائيات الباريسيّة، تم تشييدها بين سنتي 1875 و1891.

قال هيثم وهو يشير إلى الأفق البعيد:
- أحبّ هذا المكان لموقعه المميّز وللمنظر الممتع والمريح للأعصاب الذي يتيحه للزوّار.. انظري، باريس كلها تحتك. المباني الشاهقة تبدو ضئيلة ومتناهية الصغر، والسماء تبدو أوسع وأكثر إشراقًا.. من هنا يمكنك مشاهدة معظم المعالم الباريسية المشهورة. على اليمين برج إيفل، وتلك البناية العالية هي برج "مونبارناس" *، أعلى بناية في باريس على الإطلاق.. على شمالك ترين "البانتيون" ** المخصّص لتكريم الشخصيات الفرنسية التي تركت لمسات مميزة في تاريخ البلاد، وغير بعيد عنه هناك بناية تشبه في شكلها الخارجي مصفاة بترولية بأنابيبها الضخمة الملونة، هل ترينها؟ ذلك هو مركز "جورج بومبيدو" *** للفن والثقافة.
كانت تستمع إليه في انتباه وهو يعرّفها بمختلف المباني المشهورة التي يزخر بها قلب المدينة حين راودها تساؤل غريب. ترى هل يصطحب لورا إلى هنا ليتفرّجا معًا على باريس من علٍ؟ ظهر وجه لورا في رأسها فجأة. كانت آخر من اتّصل بها يوم الحادثة. غادرت الغرفة لتتلقى اتصالها، وحين عادت صدمتها الفاجعة. أحسّت بألم في رأسها. بشكل مذهل كانت كل فكرة مهما كانت بسيطة وغير ذات أهميّة تأخذها إلى مأساتها، دون أن تدري. كيف قادها التأمّل في هذا المشهد الخلاب إلى ذلك اليوم وتلك الواقعة؟ جاهدت حتى تعود إلى التركيز مع كلمات هيثم:
- على بعد شوارع قليلة، هناك ساحة صغيرة مليئة بمقاهٍ من نوع خاص.. هناك يجلس رسّامون يأتون من أماكن مختلفة من العالم ويعرضون على المارّة وروّاد المقاهي رسم وجوههم بمحاكاتها أو بتقنية الكاريكاتير.. هذه السّاحة تعتبر موطن الفنّ المعاصر وقلب مونمارتر النابض. فهناك كان يقيم بيكاسو، وفي تلك السّاحة كان يرسم ويعرض لوحاته.

* Montparnasse: حي باريسي ينسب اسمه إلى جبل يوناني كانت تسكنه حسب الأساطير الإغريقية "حوريات الإلهام"
** Panthéon: مبنى أثري يجمع رفات شخصيات وطنية فرنسية. يقع في قلب الحي اللاتيني ويرجع تشييده إلى القرن الثامن عشر. تحمل واجهته عبارة منحوتة

نصّها: الوطن ممتن للرّجال العظماء.
*** Georges Pompidou: الرئيس التاسع عشر لفرنسا من 1969 إلى 1974.

كانت ميساء قد غادرت مجلسها بين ياسمين وهيثم وابتعدت بضع خطوات. تابعتها ياسمين بعينيها وهي تنحني على المرقب المنتصب في أعلى الهضبة في متناول السيّاح وتضع قطعة نقدية في الثقب المخصّص لذلك. همست دون أن تلتفت إلى هيثم الذي كان يفصله عنها متر واحد ونظراتها تشرد في الفضاء الفسيح بلا وجهة:

- كيف حال لورا؟

ظهر الارتباك على هيثم وتحوّلت نظراته على الفور إلى شقيقته. بدا أن الاسم المحظور لم يصل إلى مسامعها، فقد تابعت استكشافها للأفق دون أن تلتفت إليهما. قال بسرعة وهو يخفض صوته:

- إنها بخير، لا تقلقي بشأنها.

هزّت رأسها في صمت. تتفهم إجابته المقتضبة. لا شك أنه لا يريد الاسترسال في الحديث عنها بالقرب من ميساء. ما يزال الموضوع يثير الخلافات بين أفراد العائلة. همست مجدّدًا بلهجة حزينة:

- هلا اعتذرت منها بدلًا عنّي؟ لم يعد بإمكاني أن أتابع اللقاءات معها.

في تلك اللحظة، التفتت إليها ميساء وهتفت:

- ياسمين، تعالي وألقي نظرة!

وقفت ياسمين على الفور دون أن تنتظر ردًّا من هيثم وانضمّت إلى ميساء أمام عدسة المرقب. أطرق هيثم في تفكير. هل كان عليه أن يخبرها بحقيقة الوضع؟ ربّما كان مخطئًا منذ البداية بإقحامها في هذا الموضوع؟ مهما كان الأمر، ليس من حقه الآن أن يضيف همومًا إلى همومها.

****

نقرت على باب الغرفة بلطف وانتظرت للحظات قليلة. كان الظلام مخيّمًا على المكان حين وصلت، لكنّها أرادت أن تتأكد. دفعت دفّة الباب ببطء وأطلت على داخلها.

- ياسمين؟

نادت بصوت هامس. كانت تعلم أنّه لا أحد هناك، لكنّها دخلت. جالت نظراتها في أنحاء الغرفة في صمت حزين. ياسمين ذهبت. كانت تعلم أنّها ستغيب لوقت قصير ثمّ ترجع، لكنّها كانت تحسّ لرحيلها وجعًا غريبًا في صدرها. لأنّها ستفتقد روحها الحانية التي تملأ المكان دفئًا؟ أم لأنها تخفي عنها سرًّا ترزح بمفردها تحت وطأته ولا تجد من يقاسمها ثقله؟ مهما كانت أسباب ألمها فالأكيد في تلك الليلة هو أنها لن تقصّ تفاصيل يومها على أحد، ولن يشاركها أحد في التفكير في الترتيبات اللازمة للجلسة المقبلة.

وقفت أمام مرآة ياسمين وطالعت وجهها خلالها. من أنت؟ مرّرت أصابعها على ملامحها ببطء، كأنّها تقرؤها على طريقة "برايل". منذ يومين، لم تتعرّف إلى نفسها في عيني ميشال. ولن يكون من المجدي أن تبحث عنها في عيني ياسمين الآن لأنّ الصورة التي ستراها مغلوطة، أجمل بكثير من الحقيقة، بقدر حسن الظنّ الذي تنطوي عليه صاحبتها.

ابتعدت عن المرسى وشقّت العباب بلا وجهة، واليوم فقدت بوصلتها وما عاد بإمكانها الرّجوع إلى نقطة البداية، حيث رنيم القديمة التي كانتها في مرسيليا، ولا الوصول إلى الضّفة الأخرى التي انجذبت إليها بقوّة مغناطيسيّة لا تدركها، حيث رنيم جديدة تتولّد من شرنقة تجربتها الباريسيّة. تاهت منها ذاتها في خضم التجربة، فلا هي تطهّرت تمامًا من حياة النزق الماضية ولا عاد بإمكانها الرّجوع إليها القهقرى. من أنت؟ ماذا أصبحت اليوم غير كيان تائه لا يشبه شيئًا؟

زفرت وهي تنحني على الوسادة. استكان رأسها على سطحها وانسبات عبراتها في هدوء. بين عينيها كانت ترى وجه ياسمين الذي أذهبت هالات الألم السّوداء نضارته، ووجه عمر الذي رحمته نيران الحريق ولم ترحمه آهات لياليه المسهدة. أيّ قدر جعلها تقف بينهما في محنة شديدة؟! رغم محاولاتها المضنية لا تنسى النظرة التي تألّقت في عيني عمر وهو يتحدّث عن ياسمين. كلمات الثناء الوحيدة التي سمعتها منه كانت موجّهة إليها. كان بإمكانها أن تحدّثه عنها، لكنها لم تفعل. وكان بإمكانها أن تحدّث ياسمين عنه، لكنها لم تفعل. ولعلها.. لن تفعل، في وقت قريب. لأنها ساعة إعلان الحقيقة ستفقد شخصين عزيزين غيّرا حياتها إلى الأفضل. ولأنها لا تريد فقدهما، كذبت. وربّما تستمر في الكذب إلى أجل غير مسمّى. ربّما إلى حين تسترجع مناعتها.

أغمضت عينيها وهي تحسّ بوجع كبير يجتاح جسدها. تشعر بالحاجة إلى إغفاءة فوريّة تسحبها إلى فضاء اللا شعور، لكن ألمها الجسدي يبقيها مستيقظة دون إرادة منها. هناك في بطنها قطعة من العذاب تشتعل. ظنّت أنها أمرها قد قضي، لكنها أخطأت التقدير.

الألم يعاودها الآن شبيهًا بما بعد الجراحة الأولى. يذكرها بعذابات فاتت وأسدلت عليها السّتار، وبعذابات الحاضر التي تطاردها بإلحاح مزمن. للحظات تشابكت الأمور واختلطت عليها. لم تعد تميّز بين ألم روحها ووجع جسدها. أو لعل طوفان الندم الذي أغرقها كان مهيمنًا إلى درجة التغطية على العناء الجسدي لفترة وجيزة. لكنها الآن تدرك مصدر أوجاعها. تدرك أنّها لم تعط لجسدها فرصة النقاهة بالكامل. تشعر بانجرافها إلى قعر الغيبوبة الذي كانت تتوق إلى لقائه منذ قليل. ربما استجاب الله لدعائها بشكل فوري. هل أخطأت بتمني ذلك الخلاص الآني؟ صرّت على أسنانها بقوّة وعصرت عينيها في مقاومة مستميتة.

فجأة سمعت هاتفها يرنّ. إنّه يرقد هناك في حقيبتها، لكنّها غير قادرة على الوصول إليه. مدّت أصابعها التي لم تستطع منعها من الارتعاش، لكنها ما تزال بعيدة. شدّت عضلاتها مستنفرة بقايا طاقتها وغطست بكفها داخل الحقيبة. الرّنين ما يزال متواصلًا بنفس النّغمة. الصّوت يزداد وضوحًا وأصابعها تبحث عنه بعصبية داخل الحقيبة. لقد اقتربت. ما أن لامست سطحه المعدني البارد حتى عاد إليها الأمل. انقضت عليه في لهفة وضغطت على زرّ الرّدّ دون انتظار. قبل أن يصلها صوت مخاطبها همست بصوت لاهث متعب:

- اطلب الإسعاف.. أرجوك.

****

كانت تجلس القرفصاء. ظهرها يلامس جدارًا باردًا وجذعها ينحني إلى الأمام في تقوّس. الغرفة قارسة وخالية من كل متاع، يعمّها البياض. لم تكن ترى أي منفذ خلال جدرانها الناصعة. مكعّب مغلق أبيض. لم تكن تدري كيف وصلت إلى هناك.

انكمشت على نفسها في ركن قصيّ. تجمّدت في مكانها وعيناها الصغيرتان المرعوبتان تتحركان في اضطراب. تسمع وشوشة خافتة تناديها، مثل فحيح عميق يقتحم عزلتها ولا تدرك له مصدرا.
فجأة، خطر ببالها الموت. هل يمكن أن تموت بتلك البساطة؟ وهذا المكان البارد الكئيب عديم المنافذ، هل يمكن أن يكون قبرًا؟ أضافت تلك الأفكار ذعرًا إلى ذعرها. كانت شابة. كانت طموحة ومليئة بالحيويّة. كانت في صحّة جيّدة.. قبل تلك العمليّة المشؤومة. فهل تموت فجأة وبدون مقدّمات؟ لم يكن الاحتمال واردًا في ذهنها. كانت ترى الحياة أمامها كالطريق الطويل التي لا يُرى آخرها.. وهي كانت في بدايتها. لديها أحلام ومخططات للمستقبل، وأخطاء يجب أن تصحّحها، واعتذارات عليها أن تقدّمها.. وتوبة إلى الله، ما زالت تؤجلها. ارتجفت أوصالها حين وصلت إلى ذلك الحدّ. هل فات الأوان؟ هل فات الأوان؟
- كيف حالها الآن؟
همس جورج بصوت خفيض مخاطبًا الممرّضة حين أنهت تثبيت الأنبوب المزوّد بالسّائل المغذي إلى وريد رنيم. أجابته بنفس الصّوت الخافت مراعاة لسبات المريضة القسري:
- حالتها مستقرّة الآن. لكنها بحاجة إلى الكثير من الرّاحة.
هزّ جورج رأسه موافقًا ثم زفر في ضيق. كان اتصاله بها ذلك اليوم محض صدفة، ولم يكن بإمكانه أن يتخيل لوهلة واحدة أن يجدها على تلك الحالة. صوتها عبر الهاتف كان ينطق بالضعف والألم، والكلمات القليلة التي تجاوزت شفتيها قبل أن ينقطع الصوت مع تدحرج هاتفها إلى الأرض كانت كافية ليصل قلقه إلى مستوياته القصوى. لكن لم تكن بيده حيلة. كان عليه أن يعود أدراجه إلى المكتب ويبحث عن عنوانها بين أوراقه المتداخلة ومن ثمّ الاتصال بالإسعاف. حين وصل إلى شقتها، لم تكن سيارة الإسعاف هناك. من حسن حظها أنها تركت باب الشقة غير موصد. اهتدى إليها بسهولة حين رأى الضوء المتسرّب من الغرفة التي كان بابها نصف مفتوح. حملها بين ذراعيه وهرول في اتجاه المخرج. حين صار في الشارع سمع صفارات سيارة الإسعاف وهي تقترب.
انتبه من أفكاره حين سمع أنينها وهي تتململ في رقدتها. وقف من مجلسه على المقعد القريب من النافذة وهرول إليها. كانت تشدّ بقبضتها بقوّة على الملاءة البيضاء وتعصر عينيها بألم واضح. هتف في قلق وارتباك:
- رنيم.. هل تسمعينني؟
خفتت حركتها رويدًا رويدًا وإحساسها بالدّفء يرتفع. لم تعد تشعر بالصقيع ينخر عظامها. إنها تسمع أنفاسها هادئة منتظمة الآن. شيء من الارتياح ينساب عبر وريدها ويعبر إلى ثنايا جسدها في هدوء وطمأنينة. فتحت عينيها أخيرًا وشعور غريب يراودها. مزيج من الفرح والدّهشة والحيرة. كان حلمًا؟ بل كابوسًا! لم تكن قد استوعبت ما يحصل معها بعد. لكن ما أن وقعت عيناها على جورج حتى رتبت الأحداث في ذهنها تلقائيًا.. منذ الاتصال الهاتفي. ابتسمت وهي تطالع منقذها. إنها أفضل حالًا الآن.
اقترب منها جورج وقال في ارتياح:
- حمدًا لله على سلامتك.
استمعت بفكر سارح إلى توصيات الممرّضة التي انصرفت بعد أن وعدت بمرور الطبيب "من جديد" بعد أقل من ساعة. هل

فقدت الوعي لوقت طويل؟ فاجأها جورج وهو يقول بلهجة غريبة:

- هل كنت أنت من تبرّع بكليته لميشال؟

أزعجها السؤال بقدر ما آلمتها الذكرى. تلك العملية المشؤومة. كان عليها أن تفكر أكثر قبل أن تقدم عليها. لكن جورج، هل قاده تفكير منطقي بحت إلى ذلك الاستنتاج؟ أجاب على تساؤلها الصّامت في جملته الموالية:

- الطبيب انتبه إلى غياب الكلية في معاينته.

ابتسمت في شحوب دون أن تعلق. كانت فورة عاطفة ومجازفة مراهقة. لكنّه يبقى عملًا إنسانيًا.. حاولت إقناع نفسها بتهكم. احتمال التوافق بينها وبين ميشال جينيًا كان ضئيلًا، لكنها دون كل المحيطين به كانت الشخص المناسب. لو كانت مكانه في حاجة إلى كلية لتمنّت أن يتهوّر أي شخص غريب ويتبرّع لها بكلية سليمة. تذكّرت أن تسأله:

- ماذا قال الطبيب؟

بدا عليه التّردّد. لم يكن يريد أن يكون من يحمل إليها الخبر:

- فشل كلويّ.

شردت نظرات رنيم في ذهول. كليتها الوحيدة المتبقّية لا تعمل بشكل جيّد؟ وهبت ميشال الكلية السّليمة واحتفظت بالسّقيمة؟ يا للسّخرية! لا عجب أنّ آلامها تدوم منذ العمليّة الأولى، وهي تعزّيها إلى تأثير الجراحة. كيف عساها تتقبّل هذا الخبر؟

استدرك جورج مهوّنًا:

- المرض في طوره الأوّل، ويمكن الشفاء منه بجلسات التّصفية.

فاجأته رنيم وهي تقول في جلد:

- الحمد لله على كلّ حال.

لم يملك أن يعلّق بكلمة. أيّ عبارة شفقة أو مواساة كانت لتسيء إلى الصبر الذي أبدته أمام المصاب. راقبها وهي تشرد من جديد إلى حيث لا يدري. بعد صمت قصير، قال وهو يلتقط حقيبة كانت على كرسي قريب ويضعها فوق المنضدة إلى جوارها:

- مررت بشقتك هذا الصباح. حين قال الطبيب أنّك ستبقين هنا لبعض الوقت فكرت بأنك ستحتاجين بعض أشيائك.

شكرته بإيماءة من رأسها فتنهد جورج وهو يضيف:

- حسن آنستي، أنت الآن في إجازة مفتوحة.

همّت بالاعتراض، لكنها اصطدمت بملامحه الحازمة:

- لقد أهملت صحّتك بما يكفي. إقامتك في المستشفى ستستمرّ إلى أن يعلن الطبيب أنّك قادرة على استئناف حياتك العمليّة. اتفقنا؟

- ماذا بشأن القضية؟ يجب أن أواصل العمل عليها! لا يمكنني أن أتخلى عنه الآن.. أرجوك!

تفرّس في وجهها في عجب وتأثر. سألها في شك وكلمات المدّعي العامّ ترن في رأسه:

- هل تهمّك القضية إلى هذه الدّرجة؟

هزّت رأسها بقوة علامة الإيجاب، فقال بلهجة قاطعة:

- حسن، سأهتمّ بأمرها إذن. كنت سأعيدها لفيفيان في فترة تغيّبك، لكن إن كنت حريصة على متابعة العمل عليها، فسأعوّضك لفترة. ماذا قلت؟

سألته في ارتياب:

- لكنّك غير مقتنع باعتماد البراءة!

ابتسم مطمئنًا:

- قلت إنني سأعوّضك، وذلك يعني أنني سأعمل بالطريقة التي تريدين. أعطني تعليماتك وسألتزم بها.

تضرّج وجهها وهي تبتسم في ارتياح، ثم قالت بسرعة:

- أمهلني بضعة أيام ريثما أعيد ترتيب أوراق القضية وأكتب تقريرًا مفصّلًا يساعدك على الإحاطة بكل المعطيات التي بحوزتي.. لم أكن أعتقد أنني قد أسلم القضية لشخص آخر يومًا ما، لذلك فإن ملفاتي تعمّها الفوضى.

- خذي وقتك. ولا ترهقي نفسك.

- تركت بعض الملفات في المكتب.. وأخرى كانت عندي في الشقة. لعلها بقيت حيث وجدتني، فوق السرير.. هل يمكنك إحضارها لي في أقرب وقت؟

هزّ رأسه موافقًا ثم توجّه نحو الباب بعد أن أعاد على مسامعها توصياته بالرّاحة والالتزام بالعلاج. كان يهمّ بالانصراف حين استوقفته كأنها قد تذكرت شيئًا:

- في الغرفة الثانية، ستجد كتابًا صغيرًا مزخرفًا فوق المنضدة. هلا أحضرته لي؟

كانت تلك هدية ياسمين إليها في أيامهما الأولى معًا في الشقة. تذكرته فجأة بعد أن سهت عنه لوقت طويل. ربما آن أوان العودة إليه؟ سرت في جسدها رعشة باردة وهي تذكر كابوسها. ربما كانت فرصة جديدة. لن تفرّط فيها هذه المرّة.

أومأ جورج مبتسمًا ثم ابتعد ملوّحًا. تنهّد حين أصبح وحيدًا في الشارع وعاد بذاكرته إلى الوراء.. إلى سبب اتصاله بها ذلك المساء. اتصال المدعي العامّ كان أشبه بالتهديد. القضية أصبحت في حكم المنتهية. المعطيات الجديدة حسمت الأمر. هذا ما قاله الرّجل بلهجة الواثق المتعالي. كرهه في تلك اللحظة. وربما كان إحساسًا متبادلًا، ربّما كره المدعي العامّ اللحظة التي فكر فيها بوضع الدّفاع في عهدته. لم يكن يتصوّر أن يلقى خصمًا صعب المراس متمثلًا في شخصية رنيم المندفعة والصلبة. وعدها بإكمال عملها، وسيفعل ما بوسعه. أصبحت لعبة تحدٍّ مسلية بالنسبة إليه. لعبة تعيد إلى عمله المضني المتعة التي يفتقدها. متعة البدايات.

في غرفة المستشفى، أطرقت رنيم للحظات متفكرة. لم تمنعها نشوة الاستفاقة والعودة إلى الحياة من استعادة لحظات البرودة القارسة التي مرّت بها. هل كانت على وشك الموت؟ عاد جسدها إلى الارتجاف ممّا جعلها تُحكم ضمّ اللحاف إليها. لم تكن قادرة على التفكير.. لكن العبرات أخذت تتساقط من عينيها تباعًا في صمت خاوٍ، كخواء روحها في تلك اللحظة. لم تفكر في الموت حين وقعت وقعتها الأولى في مرسيليا. كان الحب واليأس يشغلانها. وربّما تمنّت أن تغادر دنيا لا يكون فيها ميشال لها ومعها. كانت حياتها فارغة وتفكيرها سطحيًا. كانت تعيش اللحظة بكل جوارحها وتتخذ كل آهة حجمًا خرافيًا في نظرها يفوق قيمتها الحقيقية. كانت تافهة ومحدودة الإدراك. الآن أصبحت متيقنة من شيء وحيد. مهما بدت تائهة وضائعة فهي لا تريد

العودة إلى ما كانت عليه؛ إنّها تتلمّس الطريق مثل الأعمى، لكنّها تتقدّم في الوجهة الصّحيحة. ستصل إلى الضفة الأخرى حيث الأمان، ولو بعد حين. في الانتظار، ستستمرّ في المحاولة، وستكفّر عن ذنوبها واحدًا تلو الآخر.

ربّما كانت اللحظة التي أدركت فيها تغيّر نظرتها إلى الأمور هي اللحظة الفاصلة في مسيرتها الشخصيّة. تكّة موسيقيّة، تسمعها وحدها، ترنّ في وعيها فجأة لتعلن مرورها إلى مرحلة أخرى. لم يكن تغيّرا آنيا انبثق من العدم، بل تدرّجا داخليا بطيئا نحو استقرار مرتقب. نما في أعماقها حتّى مرحلة النضج ثمّ طفا على السّطح حيث أصبح مكانه الطبيعي، فتتحوّل القناعات الخفيّة التي ترسّبت طبقاتها واحدة إثر الأخرى في عقلها الباطن إلى أفعال ومواقف.

أسندت رأسها على خلفية السّرير ثم تناولت هاتفها. هناك أمر أخير عليها أن تنجزه قبل أن تخلد إلى راحة حقيقية. طلبت رقمًا دوليًا ثم أخذت تنتظر الرّدّ بتوتر. هتفت ما أن جاءها الجواب:

- أبي، كيف حالك؟ أنا بخير، لا تقلق بشأني.. كنت أقصدك في خدمة.

عضّت على شفتها السفلى حين جاءها ردّه البارد:

- تحتاجين إلى المزيد من السّيولة؟

ترددت لثانيتين قبل أن تقول في اقتضاب:

- أحتاج خمسين ألفًا.. اعتبرها سلفة. سأردّها لك في أقرب فرصة.

جاءها صوته حاملًا علامات استغراب واضحة:

- خمسين ألف جنيه؟

- بل خمسين ألف يورو.

لم تخف عليها صدمته وهو يقول في شك:

- تريدين سيارة؟

ازدردت ريقها بصعوبة وهي تتمتم في ضيق:

- ليس بالضبط.. أرجوك لا تسألني بما سأفعله بها. لكنّني أحتاجها بشكل ضروري. هل يمكنني الاعتماد عليك؟

وضعت السماعة بعد أن وعدها في التفكير بالأمر. فعادت إلى الاستلقاء في إعياء. بعد لحظات، وجدت في نفسها القوّة فامتدت ذراعها لتتناول الحقيبة التي وضعها جورج على المنضدة. أخذت تخرج محتوياتها في دهشة وهي تقلب قطع الملابس الغريبة التي لا تذكر أنها ارتدتها من قبل. ثم ما لبثت أن انفجرت ضاحكة. لا شك أن ياسمين ستفتقد بعضًا من حاجياتها هذه الأيام.

(33)

علبة الشوكولاتة

فتحت ياسمين عينيها ببطء. حدّقت في سقف الغرفة للحظات ثم ابتسمت. مضت ليالٍ كثيرة منذ نعمت بليلة نوم هانئة كهذه. بعد تناولها منقوع أعشاب دافئة من تحضير خالتها زهور، أحسّت بخمول في أعصابها ووجدت النّوم يتسلل إلى جفونها بسهولة ويسر. رفعت رأسها وألقت نظرة على المكان المجاور لها على السرير. كانت ميساء قد اختفت. هل نامت أكثر مما ينبغي؟ تمطت ببطء وتمهل ثم وقفت من مكانها. رتّبت السرير بهدوء وهي تحسّ بنوع من الرّاحة النفسيّة تتخللها ذلك الصباح. بشكل ما كانت تشعر بتحسّن. لعله تأثير المناخ العائلي الدّافئ. خرجت إلى الرّدهة فقادتها رائحة الخبز المحمّص المتسللة من الباب الموارب إلى المطبخ. ابتسمت وهي تطالع زهور التي جلست تحتسي قهوتها الصباحية وتتصفح جريدة الأمس.

- يبدو أنّني نمت كثيرًا.

بادلتها زهور الابتسامة وهي تدفع إليها بشرائح الخبز السّاخنة وعلبة المربى منزليّة الصّنع.

- صحّة وعافية يا حبيبتي. أنت بحاجة إلى الرّاحة.

سألتها ياسمين في شيء من الحرج:

- ميساء ذهبت إلى الجامعة؟

هزت زهور رأسها علامة الإيجاب وهي تقول كأنها فهمت مرادها:

- الجميع انصرفوا لأشغالهم. ليس في البيت غيرنا. ما رأيك في الخروج للنّزهة بعد الفطور؟

كانتا تتمشيان بهدوء ورويّة في "حقول مارس" * المعشوشبة التي تمتد خلف "برج إيفل" الشاهق حين بادرتها زهور متسائلة:

- هل اتصلت بفاطمة؟

* **Champs de Mars: واحدة من أكبر المناطق الخضراء في باريس تقع في الدائرة العاشرة بين برج إيفل و المدرسة العسكرية. سميت الساحة بهذا الاسم** نسبة إلي مارس إله الحرب عند الرومان، حيث صممت في 1751 لتكون مجالا للتدريبات العسكرية، قبل أن تتحول إلى حديقة. وقد شهدت الساحة كلا من أحداث الثورة الفرنسية واحتفالات التحرير.

هزّت رأسها علامة النفي وهي تطالع البرج في شرود. بدا كئيبًا وبشعًا عن قرب بأعمدته المعدنية الرّمادية المتشابكة. يختلف كثيرًا حين يضيء بآلاف المصابيح الصغيرة في المساء بشكل مبهج. كانت تراه كذلك من نافذة شقتها، ولم يخطر ببالها أن يكون المعلم الباريسيّ الأذيع صيتًا والذي شيّد في الذكرى المائة للثورة الفرنسية مخيّبًا للآمال بتلك الصفة. ربما كان مزاجها السّيء يجعلها تبالغ؟ تساءلت في سرها في حين واصلت زهور:

- أعلم أنك لا تريدين شغلها بأمرك، لكنها بدت متحيّرة حين اتصلت بي مساء أمس. أخبرتها أنك منهكة بالعمل وتأوين إلى الفراش باكرًا.. لكنها لن تطمئن حتى تسمع صوتك. فهلا فعلت؟

هزّت رأسها علامة الإيجاب، وشبح ابتسامة يظهر على شفتيها. كانت زهور تريد أن تسري عنها بعض الشيء، لكن شعورًا

بالاختناق كان يغلبها. التفتت إليها وهي تقول في حرج:

- هلا انصرفنا؟

- كما تشائين.

لم ترد إحباطها.. لكن صدقًا، اختيار هيثم لهضبة مونمارتر كان أكثر توفيقًا. همست وهي تتفقد حقيبتها:

- أظنني أحتاج المرور إلى الشقة.. لقد نسيت أقراص الدّواء.

بعد ثلث الساعة كانتا تتجاوزان مدخل العمارة. وقفت زهور في غرفة الجلوس تنتظر في حين غابت ياسمين خلف باب غرفتها. لبثت تحدّق في دهشة في أشيائها المبعثرة في فوضى. هل أمضت رنيم الليلة هنا؟ أخذت الأقراص التي كانت على منضدتها ثم عادت لتتأمل كومة الأوراق التي استقرّت فوق السّرير في استغراب. ما الذي جاء بها إلى هنا؟ أخذت تتصفح الأوراق الكثيرة التي امتلأت بخربشات متداخلة وما لبثت نظراتها أن توقفت عند اسم مألوف.. البروفيسور "سامي كلود" وقد رسمت تحته سطور عدّة بقلم أحمر. رفعت حاجبيها في دهشة. ماذا يفعل اسم والدها في أوراق رنيم؟ هل طلب منها أن تهتمّ بأمر ما من أجله؟ عادت لتتصفح الأوراق بفضول متزايد. لكنّ مفاجأتها كانت أكبر هذه المرّة وهي تحدّق في غير استيعاب في النسخة المصوّرة من بطاقة هوية رجالية. تسمّرت في مكانها وتصلبت عضلاتها في حين غاصت نظراتها في الصّورة غير مصدّقة، ووجيب قلبها يتصاعد بشكل لا سيطرة لها عليه. قرأت الاسم المصاحب في لهفة، فأحسّت لوهلة بالأرض تميد تحت قدميها. تشبثت بحافة السّرير حتى تسترجع توازنها وشريط طويل من الأحداث والأخبار يتسارع في ذهنها. كانت المفاجأة تفوق طاقتها. جلست هذه المرّة على طرف السرير وهي تحاول عبثًا ترتيب أفكارها. الدكتور.. عمر الرّشيدي؟ هو لا غيره؟ أخفت فمها بكفها لتمنع صرخة مكتومة من تجاوز شفتيها.

- ياسمين.. هل انتهيت؟

جاءها صوت زهور تستعجلها فأيقظها من الدوّامة التي سقطت فيها. هتفت بصوت مختلج:

- أنا.. أنا قادمة.

وقفت من مكانها في اضطراب وهي لا تعي ما تفعله. بأصابع مرتجفة تناولت الورقتين، تلك التي تحمل اسم والدها والأخرى التي تحمل صورة صديق المترو الغريب، ودسّتهما في حقيبتها ثمّ هرولت لتغادر المكان برفقة زهور. ستعيدهما فيما بعد، بعد أن تستوعب ما يحصل من حولها.

****

دخلت غرفة ميساء مدّعية التّعب وطلبت الاختلاء بنفسها لبعض الوقت. كانت قد تناولت الغداء مع خالتها زهور في أحد مطاعم الحيّ اللاتيني التي ترتفع على واجهاتها يافطات عربية وفرنسية تحمل كلمة "حلال". تمشتا قليلًا على ضفاف نهر السّين، قبل أن تعلن ياسمين سأمها من جديد فقفلتا راجعتين. عبست زهور وهي تغادر الغرفة لتتركها وحيدة واتجهت إلى مطبخها لتحضير وجبة العشاء. لم يكن شكلها يدعو إلى الاطمئنان. بدت ساهمة طوال النزهة، لكنّ مزاجها الصباحي المُرضي انقلب بشكل مفاجئ بعد مرورها على شقتها. أصبحت تشك أن ذلك المكان يدفعها إلى الاكتئاب بطريقة يصعب عليها تفسيرها.

بتركيز شديد أخرجت ياسمين الوريقات التي اختلستها من دفاتر رنيم وأخذت تحملق فيها محاولة استشفاف الرّابط بين

والدها والدكتور عمر وقضية تفجير شركة الكيميائيات. تناولت هاتفها وطلبت رقمه الخاصّ ولبثت تنتظر. لمفاجأتها، جاء ردّه منذ المحاولة الأولى. بدا كمن يتوقع اتصالاً حين قال بهدوء غريب:

- كيف حالك ياسمين؟ كنت بانتظارك.

رفعت حاجبيها في دهشة. فكرت في شرود، هل يكون باتريك قد بلغه بما حصل معها؟ ارتفعت نبضات قلبها وهي تنتظر ملاحظته التالية، لكنه قال ببرود كأنه يستعجلها:

- هات ما عندك.

أحسّت بدموعها تتجمّع في مقلتيها من جديد والألم يعتصر قلبها. إن كان يعلم بما مرّت به فلماذا لم يتصل بنفسه؟ لماذا اكتفى بانتظار اتصال منها؟ هل من المفترض أن يتصرّف الوالد بتلك الطريقة؟ لا تظنّ. هزّت رأسها بقوّة لتمنع عبراتها من التسرّب. لم تكن تتصل به للحديث بذاك الموضوع، ولن تحيد عن مسارها. سألته بصوت مرتجف محاولة المراوغة:

- هل تذكر شركة الكيميائيات.. تلك التي حصل بها الانفجار منذ شهور؟

تجلت في صوته المفاجأة وهو يردّ في فضول:

- ماذا بشأنها؟

حاولت أن تحافظ على ثبات صوتها وهي تتابع:

- هل تعرف شخصًا يُدعى عمر الرّشيدي.. يعمل بتلك الشركة؟

مرّت لحظات من الصّمت كأنّ البروفيسور يحاول خلالها تذكر أمر ما، ثم أجاب بلا مبالاة:

- لا أعتقد.. لا أذكر أحدًا بهذا الاسم.

ألحّت بقوّة:

- حاول أن تتذكر.. إنه دكتور شابّ يقترب من الثلاثين.. التحق حديثًا بالشركة، ويعمل في مجال الطاقات النظيفة.

عاد الصّمت ليحل للحظات إضافية قبل أن يهتف متذكرًا:

- آه.. نعم، عرفته.. رأيته مرّة حين كنت أزور البروفيسور دانيال في مكتبه. حدّثني عن بحث جديد وطلب رأيي فيه.. لكن، ما شأنك أنت به؟

قاطعته في لهفة متجاهلة سؤاله:

- إذن أرسل إليك بحثه؟

- آه، نعم. لكن انشغالي في الفترة الماضية منعني من الاطلاع عليه. هلا أخبرتني ما الأمر؟

تنهدت بقوّة ثم أردفت:

- هل يمكنك أن تشهد بهذا أمام المحكمة؟

- أمام المحكمة؟

- نعم، الدكتور عمر يحتاج إلى شهادتك. بعض زملائه يتهمونه بسرقة ملف الأبحاث. لكن شهادتك ستثبت عكس ذلك.

سألها مرّة أخرى في شك:

- لكن ما شأنك أنت بالأمر؟

ازدردت ريقها بصعوبة وهي تتمتم في حذر:

- أفعل هذا من أجل رنيم.. زميلتي في السكن. فهي.. فهي.. محامية الدكتور عمر.

- طيب سأنظر في الأمر.

طاردته في إصرار:

- عدني بأنك ستفعل. أرجوك. هل عدت من سفرك؟ متى يمكنك المجيء إلى باريس؟

أجابها في تسليم:

- حسن، حسن.. سأفعل.

بعد صمت قصير متوتر سألها في شك حذر:

- ألم تتصل بك إيلين هذه الأيام؟

فوجئت بتغييره للموضوع بسرعة. لم يكن من عادة إيلين الاتصال بها.

- لا، لم تفعل.

- وباتريك؟ هل ما زال يضايقك في الشركة؟

تردّدت للحظات. إذن هو لم يكن يعلم بشأن انقطاعها. وهي التي حسبته يريد الاطمئنان عليها. أجابت متصنعة اللا مبالاة وهي تتجنّب إخباره عن مرضها:

- لا، لم يفعل. كل شيء على ما يرام.

عاد السكون ليخيم على المكالمة لبعض الوقت، ظلت ياسمين خلالها تتساءل في حيرة عن سبب توقعه اتصالًا منها، قبل أن يستطرد كمال في شيء من الضيق:

- إذن أنت لا تعلمين؟

- أعلم بم؟

- بأنني.. غادرت المنزل.. أنا وإيلين.. سننفصل.

- تنفصلان؟

تمتمت في دهشة. حين لم تجد منه جوابًا أضافت في قلق:

- ماذا عن ريّان وسارة؟ هل فكرت بهما؟

كانا أول من خطر ببالها. هتف في شيء من الحدّة:

- إنهما راشدان الآن. إن أرادا البقاء مع والدتهما فلهما ذلك.. وإن أرادا المجيء معي فبيتي مفتوح لهما. لكن إيلين.. لم يعد هناك مجال لاستمرار ما بيننا.

هل هذه طريقته في الاهتمام بالأمر؟ كانت تريد أن تلومه وتعاتبه. زواجان، انفصالان وثلاثة أطفال مشرّدون. ربّما كانت هي أصغر من ريان وسارة بكثير حين تخلى عنها فلم تشعر بغيابه، لكن الأمر قد يبدو أصعب على أخويها لأنه كان قريبًا منهما

لفترة أطول. لا، لم يكن الأمر كذلك.. بالتأكيد شعرت بغيابه. ما أن وصلت إلى سنّ الإدراك وتبيّنت أنّ عائلتها منقوصة من عنصر أساسي وطبيعي في كل أسرة. نشأتها بدون أب إلى جانبها لا يمكن أن يكون أمرًا عاديًا وإن سكتت عنه في استسلام طيلة السنين الماضية. لذلك كانت تشعر بالأسى من أجل أخويها.. ومن أجل إيلين. زوجة أخرى يتخلى عنها البروفيسور سامي كلود.

خرجت لتجلس إلى زهور بذهن غائب. أنبأتها بكلمات مقتضبة عن طلاق والدها وإيلين المرتقب، ثمّ سرحت في الفراغ غير مستجيبة لمحاولات زهور لمجاذبتها أطراف الحديث. راقبتها هذه الأخيرة في قلق متنامٍ. تبدو أسوأ من الأمس. ماذا يمكنها أن تفعل لتسرّي عنها؟

- ترافقينني إلى المتجر؟ أحتاج بعض البهارات.

هزّت رأسها علامة النّفي وهي تشعر بشيء من الضّيق:

- سأستلقي قليلًا في الغرفة. أشعر ببعض التعب.

عادت أدراجها إلى الغرفة وتمدّدت على السرير. لم تمض بضع دقائق حتى سمعت باب المنزل يغلق مع مغادرة زهور. زفرت بقوّة وهي ترفع ذراعيها خلف رأسها. إنّها تفكر بأشياء كثيرة اليوم. انفصال والدها عن إيلين.. سارة وريان، كيف يشعران؟ ملف الأبحاث، قضية التفجير الإرهابي.. رنيم والدكتور عمر. عمر.. هذا هو اسمه إذن. أخيرًا وضعت اسمًا على ذلك الوجه الحبيب. ووجدت وجهًا لذلك المتّهم المجهول الذي طالما حدّثتها عنه رنيم. زمّت شفتيها في ألم. لم يكن اكتشافًا مبهجًا. تقلبت على جانبها الأيمن ثم تناولت هاتفها. ربما عليها أن تسأل عن أحوال أخويها. لا شك أنهما يقضيان أوقاتًا عصيبة هذه الأيام.

- سارة، كيف حالك؟

فوجئت حين وصلها صوت سارة الباكي وهي تتكلم بصعوبة بين دموعها:

- ياسمين.. هذه أنت؟

هبّت جالسة في توتر وهي تحاول تهدئتها:

- سارة عزيزتي.. هوّني عليك.

لكن نشيج سارة كان يرتفع أكثر وصوتها يتهدّج أكثر:

- ماما يا ياسمين.. ماما.

- إيلين؟ هل هي بخير؟

- إنّها بالمستشفى.. في العناية المركزة.

- ما الأمر؟ ما الذي حصل لها؟

- لقد.. لقد.. حاولت الانتحار.

شحب وجه ياسمين بشدّة مع كلمتها الأخيرة وتصلبت أصابعها على جهاز الهاتف في حين اتّسعت عيناها في عدم تصديق. إنه كابوس. كابوس حقيقي.

****

قفزت ميساء داخل السيارة في مرح وهي تهتف:

- شكرًا لمجيئك.

لم يكن هيثم يمرّ لاصطحابها من الجامعة كل يوم. كثيرًا ما كانت دروسها تنتهي في وقت مبكر قبل انتهاء يوم عمله، فتركب المترو العمومي. أمّا حين تتأخر دروسها، فتتصل به كي يعودا إلى البيت معًا، رغم ما يسببه له ذلك من إطالة للمسافة ومن تورّط في الزّحام الباريسي. ألقت ميساء نظرة على المقعد الخلفي حيث تكدّست بعض الأكياس وهتفت في فضول:

- ما كل هذا؟

ابتسم هيثم وقال في هدوء:

- بعض المشتريات.

مالت ميساء إلى الخلف لتعاين محتوياتها:

- هل طلبت منك أمي التسوّق من أجل العشاء؟

هزّ رأسه نافيًا في صمت متحفظ، أثار استغراب ميساء وفضولها أكثر. فتحت الكيس الأول وتناولت علبة شوكولاتة وهتفت في سرور:

- هل أتناول واحدة؟

حدجها هيثم بنظرة حازمة وهو يقول:

- ليست لك. إن سمحت لك ياسمين، خذي واحدة منها.

شهقت ميساء في صدمة:

- إذن كل هذا من أجل ياسمين؟ وأنا أختك الحبيبة، أليس لي نصيب؟

كست وجهه حمرة قانية مع احتجاجها الطفولي. قال مداريًا ارتباكه وهو يتجنّب النّظر إليها:

- الشوكولاتة تساعد على تهدئة الأعصاب.. وياسمين تحتاجها في ظروفها الحالية.

تظاهرت ميساء بالتعب وهي تلقي برأسها على مسند مقعدها وتهمس متأوّهة:

- وأنا أيضًا مرهقة من الجامعة وأعصابي تالفة.

حدجها بنظرة ساخرة ثم ابتسم في هدوء ولم يعلق. حين توقفت السّيارة أمام منزل العائلة، حملت ميساء الأكياس وصعدت السّلّم على عجل. توقفت فجأة أمام الباب المغلق والتفتت إلى هيثم الذي كان يصعد الدّرجات في هدوء وراءها. قالت في دعابة غير بريئة:

- هل أعطي ياسمين الأكياس أم أدعك تفعل؟

رماها بنظرة مصطنعة الصّرامة دون أن يتكلم وتجاوزها ليفتح الباب. حين دلفا إلى البهو بدا المنزل هادئًا على غير العادة.

دارت ميساء على الغرف بسرعة ثم رجعت لتقول في حيرة:

- يبدو أن أمي وياسمين خرجتا في مشوار ما.

في تلك اللحظة، فتح الباب الخارجي وظهرت زهور. بادرتهما في ترحيب:

- جيّد أنكما وصلتما مبكرًا. كنت قلقة على ياسمين التي بقيت وحدها.
هتفت ميساء في استغراب:
- ياسمين بقيت وحدها؟ أين هي إذن؟
تبادل ثلاثتهم نظرات قلقة ثم ركضت ميساء في اتجاه الغرفة من جديد. عادت هذه المرة وهي تمسك بقصاصة ورقيّة. هتفت في انفعال وهي تمدّ بها إلى والدتها:
- انظري ماذا وجدت على المنضدة: "اضطررت إلى السفر إلى ليون لأمر طارئ. لا تقلقوا بشأني".
صرخ هيثم في عدم تصديق:
- سافرت إلى ليون!
عقدت زهور حاجبيها في تفكير وهي تقول:
- أخبرتني اليوم أن والدها وزوجته على وشك الانفصال.. ربما كانت قلقة على أخويها؟
صرخ هيثم مجددًا في انزعاج:
- وهل يتطلب منها ذلك السّفر فجأة إلى ليون دون إعلام أحد وهي في حالتها تلك؟
أشارت زهور إلى ميساء في استعجال:
- اتصلي بها أرجوك، اتصلي بها.. إنه خطئي، ما كان عليّ أن أتركها بمفردها في البيت.
تناولت ميساء هاتفها وكوّنت رقم ياسمين، في حين أشاح هيثم بوجهه في عبوس، تناول أكياسه من الأرض ثم وقف مغادرًا الرّدهة وسار في عصبية باتجاه غرفته. استوقفته زهور في تساؤل:
- ماذا سنفعل بشأن ياسمين؟
استدار بقوّة وانفجر غاضبًا:
- وماذا تريدين منّي أن أفعل؟ إن كانت الآنسة لا تهتم بصحّتها ولا تستشير أحدًا ولا تضع اعتبارًا لأحد في هذا البيت، فهل تتوقعين منّي أن أهتم؟ فلتحل مشكلاتها بنفسها بعيدًا عنّا، إن كان هذا ما تريده.
قاطعته زهور في دهشة:
- هيثم، لماذا كل هذا الانفعال؟ ياسمين تمرّ بأزمة نفسية، ويجب أن نفعل ما بوسعنا لمساعدتها. منذ دخلت هذا البيت أصبحت واحدة منا، وكل ما يهمّها يهمّنا.
زفر في حدّة وهو يصرّ على أسنانه. ربّما انفعل أكثر ممّا يجب. ربّما كان غضبه مبالغًا فيه. ربّما ترك العنان لمشاعر صبيانيّة سخيفة غطت على تفكيره العقلاني. مسح على وجهه بكفه ثم قال محاولًا استرجاع هدوئه:
- وماذا بوسعنا أن نفعل؟ لقد ذهبت وانتهى الأمر.
- نلحق بها.
نظر إليها في احتجاج ثم قال محاولًا الحفاظ على هدوئه:
- أنا آسف. لست ذاهبًا إلى أي مكان.

لماذا عليه أن يقطع كل تلك المسافة إلى ليون ليلحق بها؟ لقد غادرت بكامل إرادتها، وهي على اكتئابها وتأزمها ليست مختلة عقليًا ولا ناقصة المدارك. يمكنها أن تتصرّف بمفردها، وحين تدرك حاجتها إليهم ستتصل وتطلب المساعدة، أليس كذلك؟

في تلك اللحظة هتفت ميساء:

- ياسمين، أين أنت؟

كانت تحاول منذ دقائق الاتصال بياسمين وبدا أن مشكلة في الإرسال تمنع حصولها على الخط. تعلقت أعين زهور وهيثم بوجه ميساء، ولبثا ينتظران ما تسفر عنه المكالمة.

جاءها صوت ياسمين مبحوحًا ومختنقًا:

- أنا في القطار. سيغادر الآن.

- أنت تبكين؟

لم تستطع إخفاء آثار الدموع في صوتها وهي التي استسلمت للبكاء ما أن اتخذت مجلسًا في القطار وتدارت عن أعين بقيّة المسافرين. حاولت أن تتماسك وهي تقول:

- لا تقلقوا بشأني. سأقضي بضعة أيّام مع أخويّ ثم أعود. زوجة أبي حاولت الانتحار. إنّها في المستشفى الآن تحت العناية المركزة.. وأبي مسافر، لذلك فإنّهم في حاجة إليّ.

- حاولت الانتحار؟

تلك الكلمة كانت كفيلة بشحن الجوّ بعلامات الإنذار القصوى. الانتحار من جديد. بدا أن الوضع أخطر مما توقع أيّ منهم.

أنهت ميساء المكالمة ثم هتفت بسرعة وارتباك:

- زوجة والدها حاولت الانتحار.. وهي تبدو منهارة بالكامل.. أنا قلقة عليها.

دون تفكير التفت هيثم إلى والدته وقال في جديّة:

- هل أنت جاهزة؟ يجب أن نغادر على الفور حتى نصل قبل حلول الظلام.

أومأت زهور برأسها موافقة ثم خاطبت ميساء بلهجة آمرة:

- ميساء، اتصلي بوالدك وأعلميه أرجوك. سيتفهم الوضع بالتأكيد.

هتفت ميساء في احتجاج وعلى وجهها علامات القلق:

- أريد أن أذهب أيضًا.

حدجتها زهور بنظرة صارمة وهي تقول:

- وائل سيرجع قريبًا، يجب أن يجد أحدًا في البيت. حضري طعام العشاء ولا تغادري المنزل أبدًا حتى يرجع أخوك وأبوك، فهمت؟

هزت رأسها في تسليم دون اقتناع وسارت في إحباط باتجاه غرفتها. استوقفها هيثم فجأة. التفتت إليه مستفسرة فبوغتت بالكتلة التي طارت من بين يديه باتجاهها. تلقفتها بحركة مرتبكة ونظرت بين يديها في دهشة لتتأمل علبة الشوكولاتة. ابتسم هيثم في تهكم خفيف وهو يقول:

- إنها لك.

(34)

المواجهة

ركضت ياسمين عبر ممرّات المستشفى وهي تقاوم العبرات. كفاها ما بكت في القطار طيلة الساعات الفائتة. لم تكن تبكي خوفًا على إيلين أو شفقة على أخويها، لكنّ الحادثة أعادت إلى ذهنها كل الذكريات المكبوتة منذ ذلك اليوم العصيب في قسم الصّحّة النفسيّة بالمستشفى الباريسيّة. كانت صورة قدمي روزلين المتدليتين من السّقف تظهر أمام عينيها بوضوح أكبر يزداد كل لحظة حتّى تكاد لا ترى غيرها. جاهدت حتّى تحافظ على تركيزها وهي تقرأ اللافتات على الأبواب وتبحث عن الغرفة المنشودة.

توقف اندفاعها فجأة وهي تلمح سارة وريان يجلسان على مقاعد الانتظار في مدخل قسم العناية المركزة.. لكنّ ما أوقفها هو وجود شخص ثالث إلى جوارهما. شخص لم تحسب حسابًا لوجوده في هذا المكان في ظل هذه الظروف. باتريك. أحسّت بنظراته تحرقها وهو يرفع عينين متعبتين ليرمقها في ازدراء لخّص كل مخاوفها.

- ما الذي جاء بك؟ هل تشمتين؟

كلمة واحدة إضافيّة منه كانت لتدفعها إلى نوبة بكاء جديدة. تشمت؟! هل هو جادّ فيما يقول؟! تجاوزته وهي تحبس أنفاسها واتجهت إلى سارة تحتضنها. وبدا أن علامات انهيارها الواضحة جعلته يحجم عن المزيد من البذاءة التي لا داعي لها. جلست بين أخويها تربت على كتفيهما محاولة أن تكون ذات نفع، لكنّها وجدت ريان يقول في ثبات مطمئنًا إياها:

- ستنجو يا ياسمين.. ستنجو.

هل بدت في حاجة إلى من يواسيها أكثر منهما؟ هل كانت حالتها مزرية إلى تلك الدّرجة؟ مسحت وجهها بطرف وشاحها وتركت سارة تريح رأسها على صدرها. لبثتا متعانقتين في صمت لبعض الوقت بينما كانت أصابعها تسرح بين خصلات شعر سارة الملساء. لم يحاول باتريك مضايقتها مجدّدًا. ربّما احترامًا لابني شقيقته. وربّما لإحساسه بالضعف وإيلين ترقد في حالة حرجة خلف الجدار الذي يتكئ عليه.

لم تدر كم مضى عليها من الوقت وهي تجلس في غرفة الانتظار حين تناهى إليها وقع خطوات مسرعة تقترب. حين رفعت رأسها لم تصدّق ما رأت. كانت زهور تجري في اتجاهها في لهفة. وقفت لاستقبالها في ذهول وعانقتها في امتنان. ثم ما لبثت أن لاحظت هيثم الذي كان يقف غير بعيد عنهما وعلى وجهه علامات الاستياء. تمتمت في ارتباك:

- لم يكن عليكما المجيء.

تكلمت زهور في حرارة:

- كيف يسعنا أن نتركك تواجهين هذا الموقف وحدك يا صغيرتي.

ثم تحوّلت نظراتها إلى الثلاثة الآخرين الذين كانوا يتابعون المشهد في فضول ممزوج بالاستغراب. تمّت عملية التعارف بسرعة

بمساعدة من ياسمين، في حين تبادل هيثم وباتريك نظرات طويلة معبّرة لكنّ أحدًا منهما لم يعلق على لقائهما السّابق في المستشفى الباريسيّة. بعد لحظات جاء الطبيب فوقف الجميع لملاقاته في ترقّب ونفاد صبر.

- وضعها مستقرّ. قمنا بغسيل معدتها للتخلص من آثار التسمّم. ستنام الآن بمفعول المخدّر حتى الصّباح. لذلك لا داعي لبقائكم هنا طوال الليل. بإمكانكم المغادرة وأخذ قسط من الرّاحة.

تنفس الجميع في ارتياح. وكانت ياسمين أكثرهم ابتهاجًا. اكتشفت في تصريح الطبيب كيف حاولت إيلين إنهاء حياتها. لا شك أنها ابتلعت كميّة من الأدوية. جعل ذلك الاكتشاف جزءًا من صورة روزلين يختفي من لا وعيها. لم تكن هناك ساقان إضافيتان تتأرجحان من السقف.

تكلم باتريك أخيرًا بعد أن انصرف الطبيب مخاطبًا القادمين الجدد بلهجة باردة محايدة:

- أدعوكم لقضاء الليلة في منزل إيلين.. كان لطفًا منكم المجيء إلى هنا لمشاركتنا المصاب.

عبست ياسمين ولم تعلق. لم تكن تنتظر منه دعوة لقضاء الليلة مع إخوتها في منزل والدها! كما أنّه من حقها دعوة خالتها زهور وابنها للانضمام إليها. هزّ هيثم رأسه شاكرًا ومرحبًا بالدّعوة. لم يكن ذلك جزءًا مما خطط له في طريقه إلى ليون. كان ينوي استئجار غرفة في نزل قريب له ولوالدته، لكنّ لقاءه بباتريك جعله يغيّر رأيه. لم يكن من المناسب لياسمين أن تبيت في منزل واحد مع طفلين ورجل غريب، وفي نفس الوقت لا يمكن لأحد أن يمنعها من البقاء مع أخويها وهما في أمسّ الحاجة إلى الرّعاية. حتى إن فكر بالعكس فوالدته لم تكن لتتركه يفعل. لذلك كانت الدّعوة مناسبة.

تناول الجميع طعام العشاء معًا في غرفة الجلوس. وجبة خفيفة حضرتها زهور بما توفر في المطبخ. كانت إيلين أكثر ولعًا بالأكلات المعلبة والجاهزة، لذلك لم يكن المجال مفتوحًا للكثير من الابتكار. أخذ ريان حصّته وصعد إلى غرفته مبكرًا، وكانت تلك طريقته في الإعلان عن رفضه لكلّ شفقة أو تعاطف. في حين اكتفى باتريك بلقيمات قليلة ثم استأذن للخروج إلى الحديقة، حيث شرع في التهام سجائره المعطرة الواحدة تلو الأخرى. إثر ذلك صعدت ياسمين رفقة سارة إلى غرفتها لتساعدها على النّوم بعد أن أبديتا شهيّة ضحلة. حين نزلت ياسمين مرّة أخرى كانت السّاعة قد اقتربت من منتصف الليل. جلست في المطبخ مسندة رأسها على المائدة وهي تتابع بنظرات ساهمة زهور التي كانت تغسل الأواني وتنظف المكان من آثار تدخلها ذلك المساء. همست أخيرًا بصوت ضعيف كأنها تفكر بصوت عالٍ:

- حين ينتهي كل هذا.. حين تسترجع إيلين عافيتها وتعود إلى البيت.. سأرحل إلى تونس.

التفتت إليها زهور وبدت عليها علامة المفاجأة:

- ترحلين؟!

قبل أن تردّ، سمعت خطوات في الرّدهة. كان هيثم الذي ملّ من مشاهدة التليفزيون وحيدًا قد اقترب من باب المطبخ. قالت ياسمين بنفس الهدوء متجاهلة وجوده:

- سأكون أفضل هناك.. لم تكن تجربتي في فرنسا موفقة على أي حال.

جاءها صوته من خلفها متسائلًا في برود:

- ماذا عن رسالة الدكتوراه؟

التفتت لتلقي عليه نظرة عابرة ثم أجابت في لا مبالاة:
- إن تواصل الأمر بهذا الشكل فأظنني سأصاب بالجنون قبل أن أحقق شيئًا في ذلك البحث.
- لم أكن أعلم أنك ضعيفة بهذا الشكل.
رفعت رأسها لتواجه نظرة تهكم قاسية في عينيه.
- هيثم!
زجرته زهور في استياء. لكن لم يكن هناك مجال للتراجع. لبثت كلماته عالقة في هواء الغرفة قبل أن تهتف ياسمين بصوت مخنوق:
- ماذا تتوقع منّي؟ لست قادرة على فهم هذا المجتمع أو الاندماج فيه.. فضلًا عن التأثير عليه. فكيف تراني أتمكن من إنهاء هذا البحث الذي يكاد يقضي عليّ وهو في بدايته؟
لم تكن ردودها بالقوّة التي عهدها فيها كلما كانت بينهما مشادّة كلاميّة. بدا أنها قد غرقت في الضعف لأسابيع مضت ووهنت القوة الكامنة في أعماقها. لم تعد لديها الطاقة الكافية لتصطدم معه في جدال جديد. ربّما كانت ضعيفة حقًّا. ربّما لم تكن في مستوى الطموحات التي رسمتها في بداية المشروع. حبست عبراتها حتى لا تبكي من جديد، لكنّه لم يرحمها. قال بنفس القسوة المقصودة:
- هذا هراء. كلام فارغ. تتحدّثين عن فهم المجتمع والاندماج فيه؟ لا تكوني سخيفة. لا يمكنك أن تندمجي مهما حاولت.
تمتمت في هدوء:
- ألم تكن أنت من تحدّث عن ذلك؟ حسن، لقد أقنعتني.
هتف في حدّة لاذعة:
- كنت أستفزّك. ألم تفهمي ذلك؟ الاندماج؟ دعي عنك تلك الكلمات الجوفاء التي يتشدّق بها الفرنسيون وهم لا يعنونها على الإطلاق. حتى بالنسبة إلى من وُلد ونشأ على الأراضي الفرنسيّة ودخل مدارسها وخالط أهلها لعقود، ليس الأمر تلقائيًّا ولا يسيرًا. لكي تندمجي يجب أن تكوني بيضاء البشرة، زرقاء العين وشقراء الشعر.. وأن تفعلي كل ما يُطلب منك ويفترض بكل فرنسي أصيل أن يفعله: تسهرين وترقصين، تصاحبين وتشربين الخمر.. ومع ذلك يمكنك أن تنتظري لوقت طويل حتى تحصلي من هذا المجتمع على شهادة حسن سيرة! لذلك فإن الاندماج الذي تتحدثين عنه هو مجرد وهم. مجرد كونك مسلمة يعني أنك لن تسمحي لنفسك بالذوبان في مجتمع لا دين له.. بل من واجبك ألا تفعلي! هنا تعيشين صراعًا بشكل يومي للبقاء والاستمرار وحماية ثوابتك. قد تمرّ عليك أوقات تترنحين فيها وتوشكين على السّقوط، لكن عليك مواصلة الطريق والحفاظ على احترامك لنفسك.. لأنّ تخليك عن هويتك يعني ضياعك. إن لم تكوني نفسك.. فلن تكوني شيئًا على الإطلاق!
كان يلهث وهو ينهي كلماته الأخيرة. وكانت أعين ياسمين وزهور شاخصة إليه في ذهول. وقبل أن تعلق إحداهما بكلمة، كان يأخذ نفسًا جديدًا ويندفع وقد أعطاه ما قرأه على وجهيهما من تأثير لكلماته السابقة شحنة من الطاقة الإضافية:
- لذلك لا تتذرعي بعدم قدرتك على الاندماج لتبرّري خوفك من مواصلة البحث الذي بدأته. هل ظننت أن النتائج ستقدّم إليك على طبق من فضة؟ إنّها دراسة اجتماعية وليست فرضًا مدرسيًّا! في البحوث العلمية تجرى التجارب في المختبرات، أما في

البحوث الاجتماعية فالتجارب تحصل في مكان آخر، احزري ما هو؟ المجتمع! لست في حاجة إلى تقمّص الدّور بل إلى دراسته. واختلافك يجعلك قادرة على معاينة ما لا يمكن رؤيته من الداخل. النظرة الخارجيّة والمحايدة هي ما يجب أن يقدّمه العلم، وأنت مؤهلة لذلك تمامًا. ومهما بدا ذلك قاسيًا، فربّما كان من حسن حظك أن تهيّأت لك الظروف لرؤية هذه التجارب عن قرب.. فبدل الغرق في الحزن والتعاسة كما تفعلين، من الأفضل أن تتماسكي وتستعيدي رباطة جأشك لتتمكني من استثمار الفرصة النّادرة التي أتيحت لك لتقدمي إضافة إلى العالم.

ثم أضافت بلهجة تشوبها سخرية خفيفة:

- وربما حلت مشكلة الانتحارات التي تؤرق الرأي العام الفرنسي على يديك.
- لقد نُعتُّ بالإرهابيّة!

قالتها بلهجة من يلفظ أعمق أسرارها الدّفينة خارج أسوار قلبها الحصينة.

- ولن تكون آخر مرّة.

لم تبد عليه الدّهشة مثلما توقّعت. واصل بنفس الهدوء:

- طالما كان هناك مرضى نفسيّون طلقاء في الشوارع، قد تتكرّر التّجربة. معك.. أو مع أيّ منّا. لذلك تعوّدي على نغمتها في أذنيك ولا تلقي إليها بالًا.

تكلمت زهور أخيرًا لتصرخ فيه:

- والآن هل انتهيت؟ هلا تركتها تستريح؟!

رفع كفيه معلنًا استسلامه دون كلمة إضافيّة. كان قد أفرغ جرابه ولفظ الكلمات المحتقنة في جوفه طوال الأيام الماضية. انسحب في هدوء إلى الرّدهة ومن ثمّ إلى الباب المؤدّي إلى الحديقة المظلمة. أحسّ بضيق تنفس مفاجئ. أخرج آلته ليبخ قدرًا من محتوياتها في حلقه، ثم أخذ شهيقًا عميقًا. زفر في ضيق وهو يسمع وقع خطواتها المرتبكة على الدّرج وهي ترتقي إلى الطابق العلوي. كانت الأصوات تتسرب إليه عبر الباب نصف المفتوح.

كان يجب أن يكون قاسيًا. هذه البنت في حاجة إلى بعض الصّدمات لكي تستيقظ. لن يتركها تستسلم إلى اليأس وتنجرف مع تيّار الألم الذي بات يبعدها عن مسار حياتها السّابقة. أين ذهبت ياسمين التي عرفها في لقائه الأول بها؟ أين ذهبت النّظرة المتحدية واللهجة الواثقة؟ تلك الياسمين لن يتركها ترحل وتترك المجال لأخرى عديمة الإرادة والعزيمة. لن يدعها تذهب إلى الأبد، فما زالت في خاطره مهمّات أخرى لم يعهد بها إليها بعد.

انتبه من أفكاره حين لمح باتريك يجلس في ركن مظلم على مقعد حجريّ عريض. هداه ضوء السّيجارة المشتعلة إلى مكانه. سار في اتجاهه دون تفكير واستجاب إلى دعوته الصّامتة للانضمام إليه في جلسته الكئيبة تلك. عرض عليه سيجارة فرفضها هيثم بابتسامة ساخرة وهو يقول:

- لا أريد أن أموت شابًا.

ابتسم باتريك بدوره وهو يلقي بالسيجارة على الأرض ويدهسها بقدمه في حركة ازدراء. لم يدر هيثم إن كانت كلماته قد أقنعته أم أنه قد اكتفى من السجائر الكثيرة التي أنهاها قبل مجيئه. ساد صمت ثقيل بينهما لم يحاول هيثم أن يقطعه. كان باتريك

من بادره قائلًا:
- أنا آسف بشأن ما حصل المرّة الماضية.. في المستشفى.
كان هيثم يدرك عمّا يتحدّث بالضبط. تركه يواصل دون أن يقاطعه.
- ليست لديّ مشكلة شخصيّة مع ياسمين.. بل هي قد تكون مدهشة في عملها حين تريد ذلك.
وافقه هيثم بهزّة خفيفة من رأسه فتابع في ألم:
- إن جعلها مسؤولة عما حصل مع روزلين يجعلني مسؤولًا بشكل ما عمّا حصل لإيلين، أليس كذلك؟
هزّ هيثم حاجبيه في دهشة. لم يكن يدري عمّا يتحدّث. أردف باتريك كأنّه يخاطب نفسه:
- كنت دائمًا أعتقد أنّه لا يستحقها وأنّها دفنت نفسها حيّة حين ارتبطت به.. كان يتركها باستمرار تهتمّ بالصغار مثل أم عزباء وحيدة ويسافر عبر العالم. كانت تمرّ بفترات من الوحدة والوحشة، فتمتنع حتى عن الشكوى إليّ رغم أنّني قريبها الوحيد.. لأنّها تعرف رأيي فيه منذ البداية. لذلك حين تعكر الجوّ مؤخرًا وكثرت المشاحنات بينهما، سعدت لأنها وجدت في نفسها الشجاعة لتصارحني بحقيقة الوضع. ولم أضيّع الفرصة.. حثثتها على طلب الطلاق! لم يفت الوقت لتبدأ حياة مختلفة بعد أن أفنت شبابها مع رجل لا يدرك قيمتها. كنت أفكر في بداية جديدة لنا جميعًا في باريس.. وضعت خططًا لتسليتها مع سارة وريان وتغيير جو الكآبة الذي أحاط بهم في الفترة الأخيرة. لكنها كانت تفكر بشكل مختلف تمامًا.. فكرت في الطلاق كسلاح أخير تسلطه عليه ليعود إليها. نوع من التهديد لا أكثر. ظنّت أنه سيشعر بالخطر ويخاف على استقرار عائلته فيسارع بمصالحتها. لذلك.. لذلك.. حين جاءتها أوراق الطلاق لتخط عليها إمضاءها أصيبت بصدمة.. لم تسر الأمور كما أملت.. اكتشفت متأخرة جدًا أنّها لم تعن له بقدر ما عنى لها، وكان ذلك طول الوقت.. طول الوقت كانت مخدوعة وواهمة.
تنهّد بعمق قبل أن يضيف في مرارة:
- لم أكن أعتقد أنّها تحبّه إلى تلك الدّرجة. تحبّ رجلًا يهملها ويحتقرها ويهجرها.. لكنّ حياتها معلقة بكلمة منه. أليس ذلك ضربًا من الجنون؟
سكت باتريك أخيرًا بعد أن لفظ كل ما يثقل كاهله وشردت نظراته نحو الفراغ.
- حسن. أنا لا أعرف والد ياسمين ولم ألتقه يومًا.. لكن لا أعتقد أنّني سأحبّه! لقد آذى ياسمين كثيرًا. طلق والدتها وهي طفلة لا تفقه شيئًا عن الأبوّة ولم يعتبر نفسه مسؤولًا عنها على الإطلاق وربّتها والدتها كأم عزباء وحيدة أيضًا.. وهذا لا يعجبني.
نظر باتريك إلى هيثم في دهشة كأنّه لم يتوقع منه تلك الكلمات. هزّ هيثم حاجبيه وهو يقول بشيء من السخرية:
- ماذا؟ هل توقعت أن أدافع عنه؟
ابتسم باتريك وهو يهزّ كتفيه:
- أعترف. لقد فاجأتني!
- لماذا؟ لأنني دافعت عن ياسمين سابقًا؟
- حسن. ظننت أن المسلمين يدافعون بعضهم عن بعض.
أكمل هيثم عنه بلهجة ودودة:

- مهما كانت الظروف، وحتى لو كانوا على خطأ.. هذا ما قصدته؟

واصل باتريك اعترافه:

- الرجال الشرقيّون لديهم نظرة دونيّة للمرأة. يعتبرونها عورة يجب تغطية جسدها بالكامل، ويحتجزونها في البيت لتربية الأطفال والاهتمام بالأشغال المنزليّة.. حتى من يتزوجون الأوروبيات منهم يحاولون إسقاط تقاليدهم المتزمّتة عليهنّ، ومهما بدا الرجل متحضراً ومتفتحًا فإن نزعته الشرقية تطفو على السّطح عاجلًا أم آجلًا.. وبما أنك رجل شرقيّ أيضًا فشككت بأن تفكر بشكل مختلف.

عقد هيثم حاجبيه في انزعاج، ثم ما لبثت أساريره أن انفرجت وهو يقول في مرح غير متوقع:

- وهكذا تكتمل النظرة السّوداوية! هل هناك ما يمكنني فعله لتغييرها؟

ثم أضاف بجدّيّة أكبر:

- حسن. هذا النوع من الرّجال موجود بالتأكيد.. وسلوكه هذا مستمدّ من بيئة وتقاليد وعادات بالية أكثر ممّا يرتبط بالإسلام. أنت تدرك هذا على الأقل؟

قال باتريك حائرًا:

- أعترف أنني لا أدرك الفرق!

سأله هيثم في اهتمام:

- أخبرني، ماذا تعرف عن الإسلام؟

انفجر باتريك ضاحكًا بشكل مفاجئ وهو يهتف:

- أرجوك، ليس هذا!

- ماذا؟

- مشكلتكم أيها المسلمون هي أنّكم لا تعترفون بحقّ الاختلاف. ما أن يسترسل بي الحديث مع أحدكم حتى أجده يحاول إقناعي بالإسلام!

ابتسم هيثم وقد أدرك ما يرمي إليه وقال مازحًا:

- ربّما لأنّ المسلمين الذين التقيتهم طيّبون وأرادوا بك خيرًا؟

- أنا في غنى عن طيبتهم وإسلامهم.

كانت لهجته حازمة. تمتم هيثم ملاحظًا:

- تبدو العقدة قديمة وراسخة.

- لم يساعد شيء على تحسين الوضع! لا تعتقد أنني أطلق أحكامًا جائرة. لقد عشت في طهران لبعض الوقت وراقبت الوضع عن قرب.

تمهل هيثم للحظات قبل أن يقول متفكرًا:

- ربما ليس المجتمع الإيراني هو المحيط الأمثل لإدراك الفرق، فالتقاليد هناك شديدة ومسيطرة.

- حسن، ماذا تقترح؟ تونس مثلًا؟

كانت نظرة متهكمة تظهر في عينيه. ابتسم هيثم وهو يهزّ كتفيه:

- لا أنصحك.. قد تشك لوهلة بأنّ البلاد تنتمي إلى الإسلام.

- ماذا إذن؟

لم يكن الخيار سهلًا وكانت تنقصه التّجربة للحسم. هل هناك بلاد في العالم تمثل الإسلام في أخلاقه واعتداله وعدالته وتقديره للمرأة؟ شعر بالعجز وبانتصار الآخر. قال أخيرًا في تسليم:

- حسن، لست خبيرًا بأحوال المجتمعات المسلمة كلها.. لكن البلاد العربيّة اليوم إجمالًا لا تطبّق إسلامها كما يجب، ولذلك فهي متخلفة كما ترى. أعلم أن الوضع لا يغري أحدًا بالانضمام.. لكنّ المسلمين الجدد يكونون أفضل حالًا، لأنّهم تلقوا الإسلام من مصادره. ومهما بدا ذلك غريبًا وغير منطقي، حاول ألا تحكم على الإسلام من تصرّفات المسلمين.. أو على الأقل لا تحكم من تصرفات أولئك الذين ينتمون إليه بالوراثة.

كانت الساعة قد تجاوزت الثالثة صباحًا حين وقف الرجلان ليدلفا إلى المنزل الدافئ بعد أن أصابتهما برودة الفجر اللاذعة.

ابتسم باتريك وهو يصافح هيثم شاكرًا:

- كنت أظنك متعصّبًا ومملًا.. لكن رفقتك كانت مسلية الليلة.

ابتسم هيثم وهو يقول بدوره مغيظًا إياه:

- لا أظنك ترغب بسماع رأيي فيك.. لأن الأمر لم يتغيّر كثيرًا.

****

نزلت ياسمين الدّرجات المؤدّية إلى الطابق الأرضي بخفة وحذر. مشت على أطراف أصابعها حتّى مدخل غرفة الجلوس وأطلت برأسها. لم يكن هناك أحد. كانت بعض الأغطية الصوفية المطويّة تستقرّ على جانب أحد المقاعد وبدا أنّها لم تستعمل تلك الليلة. لا شيء ما عدا ذلك. تنهّدت في ارتياح ثمّ انسحبت نحو المطبخ. كانت قد عرضت على زهور من باب كرم الضيافة أن تقضي الليلة في غرفة والدها وزوجته، حيث السّرير المزدوج الوحيد في المنزل، لكنّها رفضت وفضلت أن تنضمّ إليها في فراشها الأرضّي المكون من البطانيات والأغطية المحشوّة بالصّوف التي قامت بفرشها قرب سرير سارة في الطابق الثاني. لم تهتمّ لأمر باتريك فقد رأت أنه قد خدم نفسه بنفسه واستأثر بغرفة المكتب، حيث السرير الإضافيّ الذي تعودت أن تنام عليه خلال فترة إقامتها في ليون. وهكذا بقيت غرفة النوم الرئيسيّة خالية في غياب أصحابها. لم تحمل همّ هيثم الذي لم تر وجهه منذ مشادتهما تلك، لكنّها توقعت أن يحتل أريكة غرفة الجلوس؛ لم يكن هناك مكان آخر له على أيّ حال.

استغربت حين لم تجده في غرفة الجلوس. أين يمكن أن يكون قد نام إذن؟ خطر ببالها فجأة أن يكون قد غادر. هل يرحل ويترك زهور هنا؟ بدا ذلك ممكنًا، فهو بالتأكيد لم يحصل على إجازة. غادر باريس مساءً بعد دوامه ولم يتسنّ له الحصول على إذن. إن كان يريد الوصول إلى مكتبه قبل بداية الدّوام الصّباحي فلا شك أنّه قد سافر منذ ساعة على الأقل. ألقت نظرة فضولية على الطريق عبر النافذة، علها تلاحظ وجود سيارته أو تتيقن من غيابها. لكنّ شجيرات الحديقة الكثيفة لم تكن تسمح برؤية الكثير. عدا سيارة إيلين التي ظهرت في المرآب المكشوف وسيارة باتريك التي تسدّ المدخل، لم تلمح أي سيارة أخرى.

كانت السّاعة تشير إلى السّابعة إلا ربع حين دخلت المطبخ. نهضت مبكرة من مرقدها لتحضر طعام الفطور لسكان البيت الدائمين منهم والمؤقتين، بعد ذلك يذهبون جميعًا إلى المستشفى للاطمئنان على مصير المريضة. نامت نومًا متقلبًا في الليلة الماضية. غصبًا عنها ظلت تفكر في كلمات هيثم. هل كانت تغطي فعلًا عجزها عن مواجهة هواجسها وراء ستار الاندماج؟ هل ظنّت أن تعلُّلها بالظروف المجتمعية والمعطيات الخارجية سيجعلها أقل مسؤولية عن قرارها بالفرار؟

لكنّ ذلك لم يكن اكتشافها الوحيد. كانت تظنّ الأمر مختلفًا بالنسبة إلى هيثم وميساء. لقد ولدا هنا ونشآ هنا. دخلا المدارس الفرنسيّة وجيرانهما فرنسيّون وأصدقاء طفولتهما ومراهقتهما وشبابهما فرنسيّون أيضًا، فلماذا يبدو الأمر بتلك الصعوبة التي استشفتها في خطبة هيثم العصماء المشحونة بالألم؟ كانت تعتقد أنّها الوحيدة التي تلقى صعوبات في معترك المجتمع الغربي، لأنها وافدة جديدة ولأنّها لم تتعود الحياة الباريسيّة الصاخبة. ولأنّها لم تسمع ميساء تشكو يومًا من مشكلاتها مع الحجاب؟ ولأنّ هيثم سخر منها حين تحدّثا عن الاندماج في تلك المرّة؟ كانت تعلم أنّه استفزها. لقد وضّح ذلك حين جاءها إلى المكتب ليعتذر. ومع ذلك فقد استمرّت تعتقد أنه في مكانه الصحيح، كالسمكة الطليقة في رحاب البحر. ولا يمكن أن ينظر إليه أحد على أنه أجنبيّ دخيل، في بذلته الرسميّة الأنيقة ولهجته الباريسيّة الصّرفة.

انتبهت حين فتح الباب الخارجي مُصدرًا صريرًا معدنيًا قطع سكينة الصباح الصّافية. قفزت من مكانها وهرولت إلى الرّدهة. توقف اندفاعها فجأة حين قابلها وجه هيثم المتعب وهو يتجاوز العتبة إلى الدّاخل. بدا أنه لم ينم بعد. حيّاها ببساطة ثمّ قال هو يتوجه إلى غرفة الجلوس:

- لم يكن إيجاد المسجد سهلًا.. فاتتني صلاة الجماعة.

لم ينتظر ردًا منها واستمرّ في طريقه. تراجعت بدورها إلى المطبخ ولم تفكر في مغادرته مجدّدًا. لم يرحل إذن. انهمكت في طلي قطع الخبز المحمّص بالزّبدة والمربّى المعلبة في انتظار أن تدبّ الحياة مجدّدًا في المنزل. بعد دقائق قليلة نزلت زهور لتنضمّ إليها في إعداد الفطور. ثمّ تلاها باتريك. ألقى تحية مقتضبة ثم سار عبر المطبخ ليخرج إلى الحديقة عبر المنفذ الخلفي. تسلل عبق سجائره الصباحيّة عبر الباب نصف المفتوح ففتحت ياسمين النافذة لتهوية المكان. أخيرًا نزل ريان وسارة معًا، يدًا بيد، كأخوين متّحدين في المصائب وانضمّا إلى مائدة الطعام.

خرجت زهور لتلقي نظرة على غرفة الجلوس ثم عادت عابسة:

- هيثم يبدو مرهقًا. سأتركه ينام أكثر.. يبدو أنّه لم يسترجع قواه بعد رحلة السّيارة ليلة البارحة.

تدخل باتريك بشكل غير متوقع ليقول:

- لقد سهرنا نتحدّث إلى وقت متأخر.

أخفت ياسمين علامات المفاجأة التي ظهرت على وجهها لثانية واحدة، وسارعت بصبّ القهوة الممزوجة بالحليب في الكؤوس الفارغة. لم تكن تتخيّل أي نوع من الأحاديث يدور بين هيثم وباتريك. لكن يبدو أنهما انسجما بشكل غريب حتى مرّ الوقت دون أن يشعرا به؟ أم تراهما قضيا ساعات في الشجار؟ مسحت تلك الفكرة من رأسها سريعًا. لو كان الأمر كذلك لتناهت إليها أصواتهما العالية حتمًا. حسن ربّما فكرت بذلك حين تفطّنت إلى النظرات الغريبة التي تبادلاها في المستشفى. وربّما لأن مزاج كليهما مساء أمس كان ملتهبًا ومتأهّبًا لاستلام أول شرارة عابرة.

- ياسمين، انتبهي!

أفاقت من أفكارها على صوت سارة وقد أشارت إلى كأسها التي امتلأت بالقهوة وفاض السائل على جانبيها في سخاء. سارعت بمسح المائدة في ارتباك وتشوّش. إنّها تفكر كثيرًا مؤخرًا. عقلها يعمل بشكل مستمرّ ولا يترك لها مجالًا للرّاحة. غرقت مجدّدًا في أفكارها الكثيرة قبل أن يقول باتريك قاطعًا الصّمت الذي خيّم على الجميع:

- سنغادر مباشرة بعد الإفطار.

ثم أضاف بعد لحظة ليجيب على سؤال لم يطرحه أحد:

- لندع هيثم ينام بعض الوقت.

(35)

تغيير

فوجئ عمر حين ظهر ذلك الرّجل الغريب أمامه. وازدادت دهشته حين عرّف بنفسه على أنّه المحامي الذي سيتولى القضية من الآن فصاعدًا. محامٍ جديد؟ لا، بل صاحب المكتب ورئيس رنيم. ما الذي حلّ برنيم؟ شرح له جورج باقتضاب حالتها الصّحيّة وتفويضها له لينهي العمل مكانها. قال جورج بلهجة مطمئنة وهو يلمح علامات الانزعاج في عينيه:

- لقد شرحت لي الأستاذة رنيم كل شيء، وليس هناك من دا ع للقلق.

أراد عمر أن يصدّقه. لكن الأيام الماضية كانت ثقيلة ومرهقة. لم تظهر رنيم ولم يصله منها خبر طوال ثلاثة أيام. آخر لقاء جمعه بها كان بعد نقله إلى زنزانة منفردة. أعلمته بأنّه تمّ الإفراج عن فرقة الفرسان الذين اقتحموا المحكمة لتأييده، بعد أن وقّعوا تعهدًا بالابتعاد عن أعمال الشغب. ما عدا نادر، الذي يتمّ التحقيق معه. بشكل ما، تعرّف عليه العقيد جابريال بصفته الشاب الذي قفز من النافذة حال اقتحام الشرطة لشقة عمر. والآن يحاولون الحصول على اعترافاته بخصوص التنظيم الإرهابي الذي من المفترض أن ينتمي إليه كلاهما! تمنّى من كل قلبه أن يكون نادر ثابتًا ومقنعًا. لم يكن ينتظر منه شيئًا سوى أن يقول الحقيقة كاملة، ويردّ إليه جزءًا من جميله السّابق عليه. لم يعد مشرّدًا ولا خارجًا عن القانون.

رغم غياب رنيم غير المتوقع، لم يخطر بباله على الإطلاق أنها قد تتخلى عنه هذه المرّة. تلك الشكوك قد ولّت الآن وبات يثق فيها بالقدر الكافي ليعتقد أن أمرًا ما حبسها عن المجيء. فكّر أن بعض الظروف الشخصيّة قد تكون منعتها.. مرض أو طارئ ما، أو أنّها توصّلت إلى أمر بخصوص القضيّة وجدته أكثر أهميّة من المجيء لزيارته. فضّل التفكير في الاحتمال الثاني. لم يكن يريد الانغماس في مستنقعات الآمال الزّائفة، لكنّه لم يرد الاعتقاد بأنّها أصيبت بسوء. ما يزال بحاجة إليها.

جاءه جورج بالأخبار مفصّلة. استُجوب نادر بقسوة ولمدّة ساعات دون توقف على أمل أن يتفوّه بما يُدين عمر ويغرقه بصفة نهائيّة. لكنّ نادر كان ثابتًا بشكل مذهل. كرّر الرّواية نفسها مرّات ومرّات بكامل تفاصيلها مهما اختلفت الأسئلة الموجّهة إليه وتنوّعت الإستراتيجيات التي اتّبعها حاكم التحقيق.

- تحدّثت إلى حاكم التحقيق وبدا لي أنه لن يتمّ إقحام نادر في قضيّتنا. استمعوا إلى أقواله وتوصّلوا إلى أنه لا يمكن أن يكون شريكًا في التّفجير. من المفترض أن يخلى سبيله اليوم.

زفر عمر وأسدل جفنيه في تعب. حمدًا لله. كانت أيامًا عصيبة مرّ بها وشفتاه لا تفتران عن الدّعاء، فإمّا نجاة وإمّا كابوس أسود آخر.

- هناك المزيد.. حين قامت الشرطة بتفتيش مقرّ إقامة نادر، لم تعثر على أدلّة إدانة.. لكنّها وجدت بحوزته حقيبة ظهر سوداء مسروقة. هل تعني لك شيئًا؟

- ماذا؟

- الحقيبة. أعتقد أنّها تخصّك.

تذكر عمر بسرعة حقيبته التي فقدت من الشقة. الحقيبة التي تحوي ملف أبحاثه المفقود.

- الملف؟ هل وجدتموه؟

كانت اللهفة ونفاد الصبر واضحين في صوته. ابتسم جورج وهو يشير إليه بكفه مهدّئًا:

- نعم لقد وجدنا الملف. لكن دعني أكن صريحًا معك. لا يجدر بنا أن نعلّق عليه آمالًا عريضة. فالبروفيسور كريستوف نوارو ذكر أن ملفاته المطبوعة سرقت من مكتبه.

هتف عمر في حدّة:

- لكن الملف يحمل اسمي وبياناتي!

هز جورج رأسه متفهمًا.

- لا أريد إحباطك.. لكنّني أستبق حجج المدّعي العام. سيقول إنّه من اليسير تبديل الصّفحات الخاصّة بالبيانات، وأنّ ذلك لا يثبت شيئًا.

- يمكنني الاستظهار غيبا بمحتوى الملفّ بكلّ دقّة، وأراهن البروفيسور كريستوف إن كان قادرًا على القيام بالمثل!

- رويدك! هذا النّوع من التّحديات قد لا يكون في صالحنا إن كان البروفيسور كريستوف قد سبق له أن اطلع على محتوى الملفّ، كما يمكنه الادّعاء بأنّ شريكه الذي قضى -دكتور صامويل- هو الأدرى بالمضمون العلمي الدّقيق للبحث.. وبذلك يعيد إلى أذهان المحلّفين خسارته الإنسانيّة الفادحة بوفاة صديقه وتلميذه، ويستدرّ تعاطفهم بدل استثارة شكوكهم.

أضاف بعد لحظات وهو يشهد علامات التوتر على عضلات وجه عمر المشدودة:

- لقد وجدنا الملف.. وهذا جيّد. لكن علينا أن نجد الوسيلة المثلى لاستعماله لصالحنا. فليس من الحكمة أن نحرق ورقة رابحة ونحن لا نملك بعد ما نصدّ به ادّعاءات الطرف الآخر.

****

جلست ياسمين في عربة القطار. اتكأت على جانب المقعد وسرحت بنظراتها إلى الفراغ عبر النّافذة الزّجاجيّة. تأمّلت في شرود أشجار السّرول والصّنوبر الباسقة التي تحفّ سكة الحديد وتسابق القطار دون أن تسبقه، فتتهاوى في الفراغ حين يتجاوزها. مرّ أسبوع واحد منذ ركبت القطار في رحلة الذهاب. وها هي تقطع المسافة نفسها في الاتجاه المعاكس. لكنّ شيئًا ما تغيّر خلال تلك الأيام.. بل أشياء كثيرة.

تطلعت إلى هاتفها في نظرة تفقدية. لم تكن تنتظر اتصالًا، بل تتمنّى واحدًا. خلال الأسبوع المنصرم لم تتلق اتصالًا واحدًا من رنيم! آلمها كثيرًا أن تنساها. الغفران والتماس الأعذار كانا من مبادئها الرّاسخة. تعامل الجميع بتفهّم وتفترض حسن النّيّات. لكنّها وبشكل لا تستوعبه، كانت تميل إلى القسوة حين يتعلّق الأمر بعلاقتها برنيم. ربّما لأنّ صداقتها أصبحت تعني لها أكثر من أيّ صداقة عقدتها في الماضي. لذلك كانت تأمل أن تكون لها مكانة مماثلة في قلب رنيم. وماذا لو لم تكن صداقتها تعني لها الشيء الكثير؟ آلمها الخاطر وأرّقها، فانزوت في قوقعتها وآثرت عدم المبادرة بالاتصال بها. كانت الغلبة لكبريائها.

عوضًا عن اتصالات رنيم، كانت تتلقى بشكل شبه يوميّ اتصالات أخرى.. من طرف لورا. الاتصال الأوّل تزامن مع تغيّب هيثم عن عمله. اتصلت لتطمئن عليه لأن هاتفه كان مغلقًا. حين رجعت ذلك اليوم من المستشفى بعد زيارتها لإيلين لم تتمكن من إعلامه باتصالها. كان قد غادر إلى باريس. لم يكن من المفترض به أن يأخذ إجازة مطوّلة من أجل زوجة أبيها -التي ستصبح قريبًا طليقته- والتي لا تمتّ إليه بأيّ صلة قرابة. بل ربّما كان الأمر ليبدو غريبًا لو أنه تصرّف بطريقة مغايرة.

في مساء نفس اليوم، سافر باتريك بدوره بعد أن تمكن من التحدّث إلى إيلين التي غادرت غرفة العناية المشدّدة مع بقائها تحت المراقبة الطبيّة. في الأيام الموالية، استمرّ تدفق الاتصالات اليوميّة من باتريك ولورا لأسباب خاصّة بكلّ منهما. باتريك يتّصل على الهاتف الأرضيّ ويتحدّث غالبًا إلى ريان وأحيانًا إلى سارة للاطمئنان على صحّة إيلين ومعنويات المراهقيْن. في المرّات القليلة التي تولت فيها الرّدّ على الهاتف عاملها بأدب وسأل عن أحوالها. لم يعاود مزاجه السّيّء الظهور.

لورا كانت تتصل على هاتفها المحمول في فسحة الغداء. تبيّنت من ذلك أنّها لم تعد تتناول غداءها مع هيثم في ذلك المطعم. لكن تلك الاتصالات كانت تذكرها بحقيقة الوضع، أنّ هناك علاقة ما بينهما. مع أن فحوى حديثها كانت تتراوح بين الشكوى والتذمّر لأن الأمور لا تتطوّر بالقدر الذي تنتظره لورا. فلم تجد ياسمين غير الاستمرار في تصبيرها وتثبيتها، فلعل هيثم يخطط لأمر ما لا تعلمانه؟

بعد يومين غادرت إيلين المستشفى. كانت شديدة الشحوب، كأنّها عائدة من عالم الموتى. لا لم يكن ذلك مجازًا، فهي كادت تعبر الحدّ الفاصل بين الحياة والموت بالفعل. كانت ياسمين تتوقع حدّة وتحاملًا من إيلين عليها أو ربّما تصوّرت أن تنقم عليها لتصرّف والدها. لكنّ شيئًا من ذلك لم يكن. كانت في غاية الاستسلام كأنّ الأمر لم يعد يعنيها. نظراتها فارغة وشاردة معظم الوقت. لكنها أبدت الكثير من الحنان حين ضمّت ولديها إلى صدرها وأبقتهما إلى جوارها جزءًا من الليل. حين انفردت بياسمين ذات مساء، قالت وفي عينيها لمعة تصميم غريبة:

- سأجعل والدك يدفع الثمن غاليًا.. سأطارده في المحاكم وسيكون اسمي مرادفًا لأسوأ كوابيسه لوقت طويل.

لمعت العبرات في عيني ياسمين قبل أن تتدحرج برفق على وجنتيها وقالت مبتسمة:

- افعلي ذلك، افعلي.. لكن أرجوك لا تؤذي نفسك مجدّدًا.

في صباح اليوم التالي اعتذرت زهور لترجع إلى بيتها. لم تكن مضطرّة أبدًا للبقاء كلّ ذلك الوقت وهي بالكاد تعرف إيلين. لكنّها فعلت ذلك من أجل ياسمين بلا شك.

ورغم شديد امتنانها آثرت ياسمين أن تذهب إلى شقتها حال عودتها إلى باريس. أعلمت زهور يوم أمس بأنّها تنوي العودة بما أن باتريك قادم لقضاء عطلة نهاية الأسبوع مع شقيقته وربّما يأخذ إجازة تطول لأيّام إضافية، لكنّها لم تؤكد أنّها ستعود للإقامة عندهم. وزهور لم تسألها. هل حسبت أن الأمر محسوم ولا يدعو إلى اتفاق جديد؟ ربّما. لكنّها تدرك الآن أن ياسمين التي غادرت شقتها منذ أسبوع لأنّها غير قادرة على احتمال وحدتها وهواجسها، ليست ياسمين التي تركب القطار الآن وتشق طريقها نحو العاصمة الفرنسيّة.

كلّ شيء بدأ حين نعتها هيثم بالـ"ضعيفة" والـ"سخيفة" والـــ"جبانة". ربّما لم يقلها بالحرف الواحد، لكنّه قصدها. صفات لم تنكرها لحظتها، لكنّها ثارت عليها بينها وبين نفسها فيما بعد وهي تستعيد الكلمات مرّات ومرّات وتقلّبها على جميع وجوهها.

لم تكن يومًا كذلك ولا يجب أن تكون! ورغم اقتناعها بأنّها لم تستردّ صحتها النّفسيّة بالكامل لكنها باتت ترفض أن تظهر بالشكل الذي كشف عنه هيثم بدقة متناهية.

بدون تردّد، جذبت حقيبتها وسارعت بمغادرة رصيف القطار في اتجاه محطة المترو. رغم استيائها من رنيم لكنّها فضلت مواجهتها على مواجهة زهور وعائلتها. لا يمكنها اليوم أن تدرأ عن نفسها التهم سالفة الذكر، لكنّها ستثبت لنفسها وللجميع خلال فترة وجيزة أنّها قادرة على تجاوز الأزمة. وهكذا وطّنت العزم على خوض معركتها وحيدة.

دفعت باب الشقة ففوجئت بالظلام يلفها. عبرت الرّدهة حتى وصلت إلى غرفتها لتتخلص من حقيبتها الصغيرة. أضاءت المكان وألقت نظرة سريعة. كانت الفوضى نفسها التي عاينتها المرّة الماضية ما تزال حاضرة. إلا أن دفاتر رنيم التي كانت ملقاة على سريرها الأسبوع الماضي كانت قد اختفت. تذكرت حينذاك أنّها لم تُعد الورقتين اللتين اختلستهما. هل يشفع لها أنها أقنعت والدها بالتقدّم للشهادة في القضية؟ خرجت من غرفتها وطرقت في حذر باب غرفة رنيم. انتظرت لحظات دون فائدة. أين تكون في هذا الوقت من يوم السّبت؟ هل تمارس هوياتها المزمنة بالتّسوق؟ سارت عبر غرفة الجلوس حتى وصلت إلى المطبخ المفتوح. على المائدة كانت فناجين قهوة متسخة وفتات خبز محمّص تذكر أنّها تركتها هناك منذ أكثر من أسبوع. عقدت حاجبيها في شك وهي تعاين ترتيب المطبخ. لم يبد أن رنيم قد تناولت طعامها في الشقة طيلة الأيام الماضية. أو أنّ معجزة ما حصلت وغسلت الصحون بنفسها؟ فتحت الثلاجة وقلبت محتوياتها بنظرات متفحصة لترجح أحد الاحتمالين. كانت علب الطعام الجاهز التي اشترتها رنيم الأسبوع الماضي ما تزال موجودة، وتاريخ الصلاحيّة التي قاربت على الانتهاء يشهد على ذلك! هذه المرّة تركت كبرياءها جانبًا وسارعت لتتناول هاتفها. ليس الأمر مطمئنًا البتّة. كوّنت الرقم وانتظرت للحظات في قلق. حين جاءها صوتها هتفت على الفور:

- رنيم، أين أنت؟

****

جلس هيثم للحظات في السّيارة بعد أن أوقف محرّكها. لا يذكر أنّه تردّد من قبل وهو يهمّ بدخول بيته كما يفعل الآن. هل كان علمه بأنّها في الدّاخل هو السّبب؟ أعلمته والدته بأن ياسمين سترجع اليوم إلى باريس، لكنّها لم تكتف بمجرد إعلامه. طلبت منه أن يعتذر عن الكلام الذي قاله في حقها ذلك المساء في ليون. لوى شفتيه في امتعاض. لم يكن مقتنعًا بأنّ عليه الاعتذار. لكنّ طلب زهور بدا أشبه بالأمر منه بالاقتراح. ولم تكن لحظات التّردّد تلك إلا للبحث عن الكلمات المناسبة. لقد قال ما قاله وانتهى الأمر. ليس نادمًا أبدًا. ولعل إثارة الموضوع مجدّدًا ولو على سبيل الاعتذار سيحرجها وربّما ينكأ جرحًا يأمل أنه أوشك أن يندمل. سحب أكياس المشتريات التي أوصت بها والدته من المقعد المجاور وهو يسحب نفسًا عميقًا، ثم زفر بقوّة وهو يغلق الباب ويشغل نظام الإنذار الخاصّ بالسيارة. يا معين! تتالت خطواته متسلقة السلم المؤدي إلى البناية وهو يسأل الله أن يعينه على مزاج والدته ونفسيّة ضيفتها.

استقبلته ميساء عند الباب واستلمت منه الأكياس وهي تهتف في حماس:

- هل أحضرت علبة الشوكولاتة التي طلبتها؟

كانت تتعمّد تذكيره بعلبة الشوكولاتة التي اشتراها من أجل ياسمين منذ أسبوع وكانت من نصيبها في نهاية المطاف. لكنّ

الظروف تغيّرت في غضون أسبوع واحد ولم يعد بإمكانه أن يقدّم إليها الشوكولاتة بنفس البساطة التي بدا عليها الأمر حين فكر فيه أول مرّة. سترى في ذلك وسيلة للاعتذار وربّما أسوأ. محاولة استرضاء سخيفة لطفلة تنسيها قطعة من الحلوى غضبها! ولم يكن يريدها أن تشعر بأيّ من ذلك. ليست طفلة. لم يكن يراها كذلك. فكّر أن أي مبادرة قد تحصل منه الآن ستكون تشويهًا للمشهد الأصلي الذي راوده منذ أسبوع. مع أنّه لم يعد واثقًا تمامًا ممّا كان يفكر فيه منذ أسبوع.

حدج ميساء بنظرة باردة وهو يقول باقتضاب:

- لا.
- لكن لـماذا؟

تجاهل احتجاجها وهو يواصل سيره نحو غرفة الجلوس وعيناه تتفحصان المكان. لم يجد لها أثرًا في مجال بصره، لكنّه لم يجرؤ على السّؤال. ماذا لو ظهرت فجأة من المطبخ أو من الحمام؟ جلس في هدوء على الأريكة الخالية وعلق نظراته بالتليفزيون المفتوح دون غيره. كان وحيدًا في الغرفة يهز ساقه في توتر وينتظر. لكن ماذا ينتظر؟

ارتفع رنين الهاتف الأرضي ليخرجه من شروده. تلفت حوله في استطلاع. لم تظهر والدته التي بدا من الضجيج الصّادر من المطبخ أنها غارقة بين الطناجر والمقالي، ولم يبد أن ميساء اهتمّت، أو لعلها منسجمة في بعض الأحاديث مع ضيفتها؟ توجّه نحو الهاتف ورفع السماعة:

- ألو؟
- السلام عليكم.

كان يتوقع وجودها في الغرفة المجاورة، لذلك لم يتخيّل أن يسمع صوتها عبر الهاتف.

- ياسمين؟ كيف حالك؟

انتبه إلى أنه لم يردّ السلام. قبل أن يتدارك كانت تجيب:

- الحمد لله، أفضل من أيّ وقت مضى.

شعر بنبرة القوّة المتحدّية في كلماتها فابتسم. قال في اقتضاب:

- جيّد.

كأنّها أحسّت بابتعادها عن موضوع اتصالها سارعت تقول:

- هلا أخبرت خالتي أنّني لن أحضر اليوم؟
- خيرًا إن شاء الله؟
- إنّها جارتي في السّكن.. إنّها مريضة وعليّ أن أعدّ بعض الحاجيات من أجلها.
- صديقتك المتوحّشة تلك؟ تمنياتي لها بالشفاء العاجل!

قالها بتكشيرة جافّة كأنّه لا يعني ما يقول، فسمعها تضحك بخفوت ثم ما لبثت أن تماسكت. كأنّها تسترجع هي الأخرى تفاصيل تلك الحادثة حين هاجمته رنيم بقنبلة الغاز. لكنّ عينيه اتّسعتا دهشة. لقد ضحكت! كاد ينسى أنّها قادرة على الضحك. لا يدري لمن يحسب هذا الإنجاز، له أم لها. لكنّه إنجاز على أيّ حال. إنّها على طريق الشفاء. وجد نفسه يغتنم

الفرصة ويسأل مجدّدًا:

- تأتين غدًا إذن؟

- إن شاء الله.

وضع السماعة والابتسامة لم تفارق شفتيه. لا يذكر آخر مرّة تحدّثا فيها بهدوء دون اضطرابات جويّة. ربّما مرّت الأزمة؟ أطلت ميساء برأسها من الغرفة وحمّلقت فيه في استغراب ثمّ هتفت:

- من المتّصل؟

- إنّها ياسمين. قالت إنّها ستأتي في الغد.

أجابها بهدوء ثم سار في اتجاه غرفته قبل أن تطرح سؤالًا آخر لا حمل له بالرّدّ عليه. بعد أن أغلق باب الغرفة خلفه وقف شاردًا للحظات. منذ ثوانٍ قليلة أدرك السبب الذي جعله يشتري لها علبة الشوكولاتة ذلك اليوم.

****

هرولت ياسمين عبر ممرّات المستشفى وهي تحتضن علب الطعام التي عكفت على تحضيرها طيلة الصباح حتى لا تنزلق منها أو تتناثر محتوياتها. كثر تردّدها على المستشفيات في الفترة الأخيرة. بعد روزلين وإيلين وتجربتها الشخصيّة، ها هي تزور رنيم. طرقت على بابها بلطف وهي ترسم ابتسامة واسعة على وجهها:

- صباح الخيـــــــر.

هتفت بلهجة مرحة وهي تطل برأسها. وما لبثت ابتسامتها أن تقلصت حين انتبهت إلى الرجل الجالس قرب سرير رنيم وملفات كثيرة بين يديه. تطلع في اتجاهها للحظة ورنيم تصيح مرحّبة:

- تعالي ياسمين.. اقتربي. أقدّم لك جورج رئيسي في العمل. كنّا نحضر للجلسة القادمة. كدنا ننتهي. اجلسي أرجوك.

هزّت ياسمين رأسها في تفهّم ثمّ توجّهت نحو المنضدة في زاوية الغرفة وتشاغلت بترصيف العلب، في انتظار أن تنتهي رنيم من أشغالها. سمعتها وهي تقول بصوت عالٍ لتنبهها أنها مقصودة بالكلام وبنبرة لا أثر للحزن فيها:

- يبدو أنني محامية فاشلة! ما أن تنحّيت عن القضيّة حتّى بدأت البشائر تهلّ. وجدنا الحقيبة المفقودة وملف الأبحاث! ثم اتصل البروفيسور الذي حدثتك عنه، هل تذكرين؟ اتصل ليعلن رغبته في الشهادة في قضيتنا! اتصلت به عشرات المرّات وتركت الرسائل الصّوتيّة واحدة إثر الأخرى.. ولّما تملكني اليأس وتوقفت عن ملاحقته اتّصل من تلقاء نفسه، تصوّري!

عبّرت ياسمين عن فرح يداخله شيء من الدّهشة. لم يكن الخبر مفاجئًا لها، فوالدها وعدها بأن يشهد. لكنّها لم تكن تأمن أن ينسى وينساق في مشاغله الكثيرة ويضيع الوعد. لذلك سرّها أن يعجّل بالاتصال. علق جورج معترضًا:

- لولا إلحاحك الطويل ومثابرتك لما حصل شيء من هذا. إنّها النتيجة الطبيعية لجهودك الماضية، ولو لم تقطفي ثمارها بنفسك.

شكرته رنيم ثم أضافت بعد هنيهة لتشرح المستجدّات لياسمين:

- حين وجدنا الملف شك جورج في فائدته.. فبإمكان المدّعي العام الطعن في صحّته وافتراض تزوير الصّفحات التي تنسب البحث إلى صاحبه. لكن شهادة البروفيسور كلود ستحل المشكلة دون شك. وصول نسخة إلكترونية إليه من طرف الدكتور عمر

دليل واضح على ملكيته للعمل.. فالبروفيسور كريستوف نوارو كما تعلمين قال إنّ المختلس حطّم الجهاز بعد أن فشل في اكتشاف كلمة السّرّ الخاصّة به!

هزّت ياسمين رأسها علامة المتابعة وفي عينيها نظرة مهتمّة. كانت تكتم في صدرها صيحة فرح. تدرك أخيرًا أنّها قدّمت شيئًا ذا بال للدكتور عمر. شهادة والدها ليست مجرّد شهادة عابرة أو وثيقة حسن سير وسلوك، بل قد تكون المفتاح الرئيسي للحصول على البراءة. من يدري؟

غادر جورج المستشفى بعد أن جمع أوراقه واتّفق مع رنيم على بعض النّقاط المتعلقة وظلت هي إلى جوارها بقيّة ساعات الصّباح. تناولتا طعام الغداء معًا وهما تتنقلان بين الأحاديث دون التّطرّق إلى المواضيع الحزينة.

قالت رنيم وهي ترمق ياسمين بنظرة معجبة:

- تبدين في كامل لياقتك اليوم. أخبريني ما هو السّرّ؟

تفادت ياسمين الرّدّ وهي تعيد الكرة إليها:

- أنت أيضا متورّدة الوجنتين ومشرقة الوجه. يبدو أن نظام المستشفى ناسبك.

ضحكت رنيم وعلقت في مرح:

- أظنّ أن الإجازات الإجبارية ليست سيّئة في نهاية الأمر.

شاركتها ياسمين ضحكها المبتهج. كانت بالفعل "أفضل من أيّ وقت مضى"، رغم أنّ العبارة أفلتت منها على وجه التحدّي حين فاجأها صوت هيثم عبر الهاتف.

حين خرجت من عند رنيم فضّلت أن تتمشّى لبعض الوقت. كان الزّمان شتاء، وكان شتاء باريس الذي تختبره للمرّة الأولى فريدًا من نوعه. بين نفحات الثلج الخفيفة التي تنزل من السّماء ببطء وتؤدة بأشكالها المزخرفة المنحوتة بيد الخلاق المصوّر ثمّ تختفي طبقاتها البيضاء الرقيقة في غضون ساعات قليلة، فلا تجد لها أثرًا في الغد، وزخّات المطر الكثيفة التي تهطل فجأة فتجلد المدينة بسياطها وتغسل شوارعها النظيفة أصلًا، ثم تتوقف فجأة كما بدأت وتنحسر السّيول في لمح البصر وكأن مطرًا لم يكن، بين هذا وذاك كانت تمرّ أيّام تتجلى فيها السّماء بزرقة صافية عميقة لا تشوبها سوى لفافات قطن متفرّقة تتمثل سُحُبًا، حتى تكاد تجزم أنّ الطقس ربيع لولا البرد القائم الذي ينخر العظام ويتسلل عبر الكنزات الصّوفية والمعاطف السّميكة.

وكان يوم الأحد ذاك من هذا الصنف الأخير المغري بالتشمّس. سارت ياسمين في الشوارع شبه المقفرة محتمية بقفازيها وشالها الصّوفيّ على مهل. تتوقف أحيانًا للتأكد من الاتجاه عبر سؤال المارّة القلائل أو التطلع إلى خريطة ما للمدينة. ظلت تؤجل ركوب المترو كلما اقتربت من إحدى محطاته، حتّى وجدت نفسها تدخل سوقًا شعبية. ضاعت وسط الزحام. واكتشفت في شيء من الاستمتاع أنّ كل أهل البلاد لا شك تجمعوا في هذه السوق. نقلت نظراتها بين الوجوه. لمحت شابًا ذا ملامح عربيّة يساوم عجوزًا فرنسيّة تفاصله في سعر التفاح والبرتقال الذي يبيعه، فتختلط كلماته الفرنسيّة المعوجة بلهجته المصريّة الأصيلة. يمتدح بضاعته ويعلو صوته بخليط من اللغات يتعسّر على العجوز فهمه، فتضحك على مبالغته التي تدركها بالفطرة وتأخذ منه وتسلّم.

وهي تسير مبتعدة، فكرت ياسمين أنّها مختلفة عن البائع المصري. فرنسيتها طليقة ولغتها بليغة يسهل فهمها. ولعل الرجل رحل

عن بلده مضطرًا لضيق الحال. يعمل جاهدًا في بلاد غريبة لا يتقن لغة أهلها ولا يسهل عليه التواصل معهم لكنّه مضطرّ إلى كسب قوت يومه، ولعله يعول زوجة وأطفالًا. هل يشغل ذلك الرّجل نفسه بنظرة المجتمع الفرنسي إليه؟ هل يبات ليله أرقًا لأن أحدهم سخر من لهجته أو علق على لون بشرته الحنطي الذي لوّحته الشمس؟ هل يعدّ الأيام ويخمن كم يلزمه من الوقت ليعتبروه واحدًا منهم؟

ابتسمت في سخرية. "مشكلة مزيّفة". هذا ما كان ليردّده أستاذ الفلسفة الذي درّسها في المرحلة النّهائيّة من دراستها الجامعيّة. كل ما يحيد عن المهمّ هو بالتّأكيد مشكل مزيّف. هدفها الحصول على شهادة الدكتوراه ودراسة ظاهرة الانتحار. وفاة روزلين؟ مشكلة مزيّفة. كانت "حالة" تدرسها. حاولت الموت مرّة. أنقذوها فأعادت الكرّة. نجحت. اغتنمت خطأ فتاة مبتدئة. هذا ما كانته، فتاة مبتدئة. وهي لن تتجاوز هذه المرحلة إلا بالتعلم والممارسة. محاولة إيلين؟ مشكلة مزيّفة. لا علاقة لها ببحثها. لم تختر الموت بسبب ظروف العمل. ولن تعاود المحاولة. تعهّدت بذلك أمام ولديها. كانت لحظات يأس جارف، لكنّ العقل استعاد حضوره وسيطرته. ستتجاوز الأمر وتستعيد حياتها. وهي أيضًا، ستستعيد حياتها. حين تتجاهل كل المشكلات المزيّفة التي تعترضها.

حين وصلت إلى منزل زهور كانت قدماها متورمتين من المشي. لكنّ تلك الفسحة كانت ضروريّة. ممتعة ومريحة للعقل، رغم إرهاقها للجسد. تحسّ بصفاء نفسي جديد عليها. ولم يخف انشراحها على أحد. لكنّ أحدهم لم يطرح تعليقًا مزعجًا. جميعهم تعاملوا معها كأنّها لم تكن مريضة يومًا وهي لم تعترض. تلك الليلة نامت قريرة العين. ما أن وضعت رأسها على الوسادة حتّى غطت في نوم عميق.

في الصّباح التّالي، وهي تراقب ميساء تروح وتجيء في غرفتها وتستعدّ للذّهاب إلى الجامعة، همست بخفوت وهي تحتضن ساقيها بذراعيها وتريح ذقنها على ركبتيها:

- تعلمين، أخوك كان على حقّ. كنت ضعيفة وجبانة.

توقفت ميساء عن الحركة وتطلعت إليها في ارتباك ثمّ قالت ببطء:

- حدّثتني أمّي بما جرى.

أضافت وهي تتخذ مجلسًا بالقرب منها وتضغط على كفّها في ودّ:

- لا تدعي كلماته تحبطك.

هزّت رأسها علامة النّفي وابتسامة خفيفة تتسلل إلى شفتيها:

- بالعكس.. كلماته أيقظتني. كنت مستسلمة ويائسة. انجرفت مع التيّار دون مقاومة.. وكنت بحاجة إلى يدّ تهزني بعنف حتى أعود إلى رشدي.. أظنّني مدينة له.

قالت ذلك بابتسامة متألقة.

كان هيثم يهمّ بالخروج من البيت إلى عمله، لكنّه لم يكن يجد ربطة العنق التي يريد. توجه إلى غرفة ميساء ليسألها عنها، فهي كانت تهتمّ بترتيب الحاجيات في خزانته. كان يهمّ بطرق الباب حين تسلل إلى أذنيه حديث البنتين الهامس. لم يكن يقصد التنصّت، لكنّه توقّف هناك دون شعور منه، يستمع في اهتمام إلى بقيّة الحديث ووجيب قلبه يرتفع بنسق مرتبك.

سألتها ميساء في حذر:

- إذن لست غاضبة منه؟

هزّت ياسمين رأسها ببطء نافية:

- في البداية آلمتني الكلمات. لكنّني كنت غاضبة من نفسي أكثر.. لأنّني أدركت أنّه على حقّ.

ابتسمت ميساء وهي تقول:

- أمي لقنته درسًا قاسيًا بسبب ذلك.. وأظنّه رأى بعض الكوابيس منذ ذلك الحين.

ضحكت ياسمين في خفوت وهي تقول مازحة:

- حفظ الله خالتي. أعلم أنّني أستطيع الاعتماد عليها.

أطرق هيثم للحظات ثم ابتسم في رضا. ليس ذلك سيّئًا في نهاية الأمر. ابتعد عن غرفة ميساء في خطوات حذرة وانسحب بهدوء إلى غرفته. ليس بحاجة أكيدة إلى ربطة العنق تلك. يمكنه أن يضع غيرها. أما الكلمات القليلة التي سمعها، فهي كافية لتبقيه بمزاج جيّد طوال النهار.

(36)

سامي كلود

أمام قاعة المحكمة، صافح جورج البروفيسور سامي كلود بحرارة وهو يهتف في امتنان:

- أشكرك سيّدي على مجيئك في الوقت المناسب. شهادتك ستصنع فارقًا في القضيّة لا محالة.

ابتسم كمال وهو يهزّ رأسه في استحسان. لقد قام بواجبه لإنقاذ شخص يحتاج المساعدة. سار عبر الرّدهة المؤدّية إلى الفناء المفروش بالرّخام لمبنى المحكمة الشاهق وهو يشعر بالرضا. لم تكن المرّة الأولى التي يدخل فيها قاعة محكمة، فهو مسجل ضمن قائمة المحلفين المتطوّعين وسبق وتمّ استدعاؤه للتحكيم في بعض قضايا الجنايات. المزيد من الخطوات العمليّة التي تجعل منه مواطنًا صالحًا في نظر المجتمع. ألا يكفي أن يكون بروفيسورًا ذا مكانة علمية مرموقة؟ لا، لا يكفي. يفعل ما بوسعه ليكون مثالًا محترمًا يشار إليه بالبنان. مثالًا للنّجاح والاندماج.

كانت بداية اندماجه زواجه من إيلين. فرنسيّة صرفة. ثمّ تحصّل على الجنسيّة الفرنسيّة. مهلًا، لم يتقدّم بطلبها بصفته متزوّجًا من فرنسيّة. غروره كان يأبى عليه ذلك. اتّبع الخطوات التقليديّة. بطاقة إقامة لعشر سنوات، ثمّ طلب رسميّ معزّز بشهادات علميّة وتجربة مهنيّة لا يستهان بها. تقبّل بطاقة الهويّة الجديدة كحقّ مكتسب. فرنسا ستفخر بانتماء باحث متميّز مثله إليها. اغتنم الفرصة ليغيّر اسمه حينها. كانت لديه فسلفة خاصّة بالموضوع. لم تكن مسألة التّمسك بالجذور والافتخار بالانتماء العربي تعني له شيئًا. وكان يحتاج اسمًا أعجميًا ليتوّج مسيرته الحافلة ويضع ختم الجودة على سيرته الذّاتيّة. كان يدرك أنّ الأبحاث الصّادرة من مخابر أوروبيّة أو أمريكيّة تلقى قبولًا أكبر في كلّ أرجاء العالم، حتّى في البلاد العربيّة حيث يولون اهتمامًا كبيرًا إلى اسم المحاضر الزائر وبلده أكثر من محتوى بحثه ومحاضرته.

كان يعلم يقينًا أن الاسم الجديد لن يكون له أثر عمليّة تجميل تمحو ملامحه العربيّة ولون بشرته البرونزيّ، لكنّ الاسم مع الملامح يعطي انطباعًا عن انتماء لاتيني أو جنوب إيطالي. ولأنّ تغيير اسمه تزامن مع نقلة في مجاله المهنيّ، فإنه لم يعاني مما يتعرّض له بعض "الفرنسيّين الجدد" من سخرية وتهكّم. وهكذا عرف في ميدانه الجديد باسمه الجديد ولا شيء غيره. وحين يحصل ويلتقي ببعض معارفه القدامى الذين يعرفون حقيقة هويّته جدّ المعرفة، فإنّه يحرص على إلقاء تحيّة عابرة لا تسمح بالكثير من السّؤال والاستجواب.

وكانت تزوره من حين إلى آخر نوبات ندم. يتذكّر فاطمة فيراوده حنين إلى الماضي. لكنّه سرعان ما يمحو تلك الأفكار الدّخيلة ويستغرق في العمل حتّى يغرقها فتختنق وترحل عن وعيه. يخزّنها بعيدًا في اللا وعي رافضًا التّعاطي معها. فالطريق الذي مضى فيه ذو اتجاه واحد. لا يمكنه أن يقفل راجعًا بهذه البساطة. منذ اللحظة التي غيّر فيها اسمه وهويّته أصبح شخصًا آخر مختلفًا عن كمال. أصبح فردًا من عائلة كلود وعليه أن يتحمّل تبعات ذلك. مع الوقت، أصبحت نوبات الندم أقل حدّة وأخفّ وطأة. أصبح ينجح في ردّها بسهولة وسرعة. ازدادت مناعته ضدّ الماضي مع تقدّمه في السنّ وارتقائه في السلّم الاجتماعي

والمهنيّ. تقمّص الشخصيّة وتشبّع بها، حتّى صار الحديث بالعربيّة أمرًا عارضًا في حياته. يضعها في قائمة مميّزاته، كأنّها لغة أجنبيّة أخرى يضيفها إلى قائمة لغاته على السّيرة الذاتيّة، حتّى أصبح يتكلّمها بلكنة تبدو أجنبيّة. لولا زياراته المتواترة إلى تونس من أجل إدارة بعض الممتلكات، ربّما كان نسيها، مثلما ينسى المرء لغة أجنبيّة لم يستخدمها منذ فترة طويلة. ومع الوقت أصبح يشعر بحرارة تفور داخله كلّما جاء على ذكر الماضي. أليس كلّ ما يفعله اليوم ثورة على تلك الفترة؟ نجاحه وعمله واندماجه.. أليس كل ذلك ردًّا صافعًا أراد أن يواجه به فاطمة؟ فاطمة التي وضعته يومًا في مقياس تقييمها القيميّ وأسندت إليه علامة دون المستوى؟

في المرحلة الجديدة، لم تعد إيلين تلزمه. بعد سنوات العمل الجادّ والمضني يحتاج إلى بعض التّجديد في حياته. يحتاج إلى استرجاع عمره الذي انفرطت حبّاته على غفلة منه مثل عقد خرز. يحتاج إلى نفَس شاب يعيد إلى سهراته تألقها وبريقها. وكان اسمها "ساشا". شابّة روسيّة كانت ضمن بعثة طلابيّة حطّت بين جنبات فصله منذ سنتين. هل كان هو من اقتنصها أم هي من فعل؟ شدّت انتباهه منذ الوهلة الأولى، بنظراتها الجريئة ومبادراتها. كأنها تقول علانية: "لا أهتمّ بنظرة الآخرين". وهل يجب عليه أن يشعر بالخجل؟ لماذا لا يفكر أحد في فارق السّنّ حين يرتبط نجم سينمائيّ بشابة في عمر حفيدته؟ ثمّ أليس هو أحد نجوم المحافل العلميّة المحليّة والعالميّة؟ لماذا قد يحتاج إلى مباركة أحد إذن؟

ربّما كانت في مثل سنّ ياسمين أو تكبرها بقليل. لكنّها شعلة حقيقيّة. امرأة ناضجة ومثيرة. ليست فتاة غرّة مغمضة العينين مثل ابنته التي أبت أن تكبر. غرقت في المبادئ والمثاليات التي سقتها إياها والدتها وتجاهلت حقيقة العالم الماديّة المتحفّزة.

أخرجه رنين هاتفه من أفكاره. تطلع إلى الشاشة. ساشا. جاءت في وقتها.

- ساشا عزيزتي.. كنت أنتظر اتّصالك. هل أراك الليلة؟

في ثوانٍ معدودة، عاد شابًا ينضح حيويّة ويتّقد نشاطًا، يجيب في مرح ويرسل النّكات مسترسلة مثلما يتقبّلها. وعادت ذكرياته مع فاطمة لتنزلق إلى ركن بعيد من لا وعيه، حيث كان يخفيها منذ زمن طويل.

(37)

خارج الملعب

على مائدة العشاء، تصاعد رنين هاتف بإلحاح مزعج، وتجاهله صاحبه بنفس الإلحاح. انتظر توقّفه عن الرّنين ثمّ عدّله على الوضع الصّامت وأخفاه متجنّبًا النّظرات التي توجّهت إليه في فضول وتساؤل. لم تكن المرّة الأولى التي يتعرّض فيها هيثم لموقف محرج بسبب الاتصالات الغريبة التي تصله في أيّ وقت، وفي كلّ وقت. لكن اليوم كلّ شيء اختلف. إنّها النّهاية هذه المرّة. عليه أن يصمد لبعض الوقت ولن تتصل به بعد ذلك.

ما الذي جدّ؟ في ذلك الصباح، وضع حدًا لعلاقته بلورا. هكذا. دعاها لشرب فنجان قهوة في فضاء الاستراحة بالشركة، فطارت إليه كفراشة جذلة. لم يفعل ذلك منذ زمن. وطفقت تعبّر عن سرورها بعودة المياه إلى مجاريها بينهما بعد أن جافاها لفترة. صعّبت عليه المسألة. لكنّه قرّر أن يكون حاسمًا. قاطعها قبل أن تتمادى. يا بنت الحلال، الطريق بيننا مسدود. هنا تنتهي الرّحلة. أنا لست مناسبًا لك وأنت لست مناسبة لي. ننتمي إلى عالمين مختلفين بينهما برزخ لا يبغيان. بكت وتشبّثت به أكثر. اعتذر مخلصًا لأنه أخذ كل ذلك الوقت ليصارحها.

ما الذي جدّ؟ منذ أشهر قليلة كانت قضيّة لورا تشغله وتؤرّقه. مواجهات مع والدته وتشوّش في ذهنه طول الوقت. لم يعد شيء في حياته يسير كما ينبغي. ثمّ ظهرت ياسمين. شاركته رفع الحمل. اهتمّت بلورا وتعليمها الدّين فلم يعد هناك مسوّغ للقاءاتهما المتخفيّة. ثمّ وبشكل لم يدركه، أخذت تلك البنت تشغل حيّزًا من اهتمامه. طريقتها الطفولية المتهوّرة في تحدّيه، والشّرارات الكهربائيّة التي تنطلق في الجوّ كلما جمعهما فضاء واحد. تحدٍّ مسلٍّ أصبح لذيذًا مع الوقت. ولورا؟ كانت تحاصره بنزعتها التملكيّة حتّى ضاق بها ذرعًا. أين أنت؟ لماذا تأخرت؟ متى ستأتي؟ أصبح التواصل معها خانقًا. ولم تعد مستميتة في تعلم الإسلام كما بدت حين دخلت عالمه بحيويّتها المتدفّقة. حماستها تجاه كل شيء غدت باهتة، إلا في انتزاع إثباتات الحبّ منه. وببطء تسرّبت مشاعره تجاهها خارجه، متسللة على أطراف أصابعها. ليستيقظ يومًا ويعاين بمنتهى الدّهشة أنه لم يعد هناك مكان في قلبه للورا.

قطع رنين هاتف آخر تدفق أفكاره. لم يكن هاتفه. تطلعت ياسمين الجالسة على الطرف الآخر من المائدة إلى هاتفها في دهشة وهي تقرأ الاسم الذي ظهر على الشاشة. دون شعور منها ذهبت نظراتها إلى هيثم ثمّ ما لبثت أن وقفت مستأذنة لتغادر الغرفة. أحسّ هيثم في صدره وخزة لنظرتها تلك. لم يكن يجهل هويّة المتّصل. هل كان يتوقع اتصالها بها؟ لا يدري أي كلام ستصبّه لورا في أذني ياسمين الآن. لكنّ الخطأ يبقى خطأه وحده منذ البداية، وسيتحمّل تبعاته ردحًا من الزّمن حتى تنتهي لورا من حياته جملة واحدة.

- هيثم، ما الأمر؟

لم تخف تقلبات وجهه على زهور التي كانت تطالعه في قلق. رسم على شفتيه ابتسامة شاحبة وهزّ رأسه علامة النفي. لا

شيء، ليس هنالك ما يقلق. أو هكذا كان يرجو. لكنّ صبره كان محدودًا والجلوس إلى مائدة الطعام صار عقابًا لا قبل له به.

وقف وهو يقول:

- الحمد لله، شبعت.

أخذ طبقه وتوجه إلى المطبخ ليضعه في المغسلة. فوجئ بياسمين التي كانت قد أنهت اتصالها تقف وسط المطبخ. بدا عليها الارتباك وهي تراه يتقدّم نحوها. غمغمت في شحوب:

- إنّها لورا.

لم يكن بحاجة إلى توضيحها. سألها في ضيق:

- ماذا تريد؟

قالت وهي تعبث بهاتفها بين أصابعها في توتّر:

- تريد أن تراني.

هتف على الفور في حدّة مفاجئة:

- لا تذهبي إليها.

لم تردّ عليه ياسمين، بل تسمّرت في مكانها وهي تطالع شخصًا يقف وراءه. التفت هيثم ببطء ليلفي والدته تقف عند باب المطبخ وهي تحدجه بنظرة سابرة. لا شك أنها سمعت بعض كلامهما. التغيير الذي يقرؤه على وجهها لا يدع مجالًا للشك.

- ياسمين، أرجوك.. هلا تركتنا قليلًا؟

زفر هيثم وهو يضع الطبق على طاولة المطبخ ويجلس على الكرسي القريب. ها أن الاستجواب سيبدأ. استجابت ياسمين لطلب زهور وهرولت مغادرة الغرفة في صمت، فأغلقت هذه الأخيرة الباب ثم اقتربت من ولدها وهي تقول بلهجة عميقة قرأ اللوم بين طياتها:

- هل هي تلك الشابة مجددًا؟

قاطعها هيثم بسرعة وهو ينظر في وجهها بقوّة:

- أمي، لورا خرجت من حياتي بشكل نهائيّ.. لم يعد لها وجود بالنسبة إليّ!

طالعته بشيء من الدّهشة للحظات، ثم همست وقد ذهب عنها الاستياء والغضب:

- حقًّا؟

أومأ برأسه مؤكدًا وهو يقول بابتسامة خفيفة:

- نعم، صدّقيني.

سألته في تردّد:

- إذن.. فيم كنتما تتحدثان؟

هرش مؤخرة رأسه في ضيق وهو يقول:

- لورا انتهت بالنسبة إليّ.. لكنّها ما زالت تحاول العودة عبثًا. يلزمها بعض الوقت لتستوعب حقيقة الوضع.

- وياسمين؟

كانت تسأله في حذر وأمل. ابتسم وهو يرى النّظرة المترقبة في عينيها. قال مطمئنًا:

- دعيني أتصرّف هذه المرّة.

حدّقت فيه غير مصدّقة، لا تريد أن تخطئ التقدير. لكنّ النظرة في عينيه كان تدعوها إلى أن تصدّق. ابتسمت أخيرًا وقد ترقرقت العبرات في عينيها. أمسكت بكفه ثم همست بصوت حانٍ:

- حسن إذن، سأدع الأمر لك. حين تصبح جاهزًا خبّرني لنخطبها رسميًا.

قبّل كفها في امتنان، لكنه لم يستطع تجاهل إحساس غريب في صدره. هل تراها توافق؟

****

حثّت ياسمين الخطو نحو بوابة المطعم الذي باتت تعرفه جيّدًا. تجاهلت طلب هيثم بعدم لقاء لورا وتقدّمت في اتجاه المكان الذي اتفقتا عليه، وفي الموعد الذي حدّدتاه سابقًا. صرّت على أسنانها في حنق. هؤلاء الفرنسيّون الحمقى، هل ينتحرون مثلما يتنفسون؟ تذكرت كلمات لورا اليائسة على الهاتف. "سأضع حدًا لحياتي إذا تخلى عنّي". هل كانت جادّة في قولها؟ أم أنّه مجرد تهديد سخيف؟ مهما كان الأمر فهي لم تقدر على تجاهله، ليس وهي تنطق بكلمة "السّرّ" التي تقلب كيانها في لحظات الانتحار. ألم تصبح مسلمة الآن؟ وهل ينتحر المسلمون؟!

ما أن تجاوزت المدخل حتى لمحت كفًا تلوح لها من ركن المطعم البعيد. اتجهت نحو المائدة القصيّة المخصّصة لأربعة أشخاص والتي احتلت لورا أحد مقاعدها. حيّتها وجذبت كرسيًا لتجلس قبالتها. لكنّ نظرات لورا كانت معلقة على المدخل وراءها كأنها تنتظر شخصًا آخر. بعد ثانيتين هتفت في لهفة:

- ألن يأتي؟

- من تقصدين؟

- هيثم!

ثم أضافت وعيناها تتسعان ذهولًا:

- أنت لم تخبريه؟!

- أخبره بماذا؟

- بأنّني سأنتحر!

هزّت ياسمين رأسها وهي تقول في حزم:

- لقد طلبت رؤيتي وها أنا قد جئت. لم أعدك بأنني سأحضر هيثم معي.

ثم تابعت في رجاء:

- كما أن هيثم لم يهتمّ.. حاول منعي من المجيء. لكنّني هنا لأننا صديقتان.. ولأنّني أهتمّ لأمرك. انسي أمر هيثم الآن.

قاطعتها لورا وهي تضرب المائدة بقبضتها بقوّة وصرخت في جنون:

- كان يجدر به أن يأتي!كان يجدر به أن يهتمّ!

ثم أخفت وجهها بين كفيها قبل أن تنخرط في بكاء صامت تصاعد نسقه ليغدو مريرًا تتخلله الشهقات المكتومة. تكلمت بعد حين، حين هدأ نشيجها وتوازنت أنفاسها. قالت بصوت ضعيف مرتعش:

- آه، كم أنا غبية! ظننت أنه سيهبّ لإنقاذي.. كما فعل في المرّة الأولى. أعرف ولعه بنجدة الفتيات الواقعات في مأزق. هل تراه وجد فتاة أخرى يائسة استحوذت على انتباهه؟

عادت إلى البكاء من جديد وعادت ياسمين إلى تهدئتها. صرخت، استنكرت وشتمت. وحاولت ياسمين أن تفتح عينيها على الحقيقة. طريقها مع هيثم كان مغلق المنافذ منذ البداية، لأن عائلته لم تقبل بها. وهو حاول جهده، ثم انتهى إلى التسليم والرّضوخ. إن كانت تحبّه فعليها ألا تحمّله ما لا يطيق. ثم جرّبت التسلل إليها من منطق الكرامة. كيف تطارد رجلًا زهد فيها؟ عائلته لم ترحّب بها؟ في كثير من الأحيان لا يكون الحبّ وحده كافيًا لنجاح علاقة ما. استمرّت تحاججها وتطيّب خاطرها برهة من الزّمن، وبدا أنها لانت بعض الشيء وأخذت تستمع إليها في هدوء. قالت ياسمين وهي تلحظ باستحسان إصغاءها:

- انسي هذا الأمر الآن. ما رأيك في أن نقوم بنشاط مختلف، نغيّر الجو؟ هل زرت مسجد باريس الكبير؟ ما رأيك أن نتناول بعض الحلويات الشرقيّة ونشرب الشّاي الأخضر بالنّعناع في المقهى الملحق به، ثم نتجوّل في باحة المسجد وحديقته البهيّة؟ المكان ذو طابع معماريّ خاصّ كأنّه ينتمي إلى زمن غابر! وبعد ذلك نراجع بعض ما تعلمناه. سترين أن اللجوء إلى الله سيخفف عنك ويهبك المزيد من السّكينة!

سكتت لورا وكأنها تزن بميزان عقلها اقتراح ياسمين ثم قالت ببساطة:

- إيماني مضطرب هذه الفترة. دعوت الله أن يعيد إليّ هيثم، لكنّه لم يستجب.

ثم واصلت معتذرة:

- لا أريد أن أثقل عليك أكثر. إن كنت غير قادرة على الإصلاح بيني وبين هيثم فلا داعي لاستمرار لقاءاتنا. من الأفضل أن ينتهي كل شيء مرّة واحدة!

لاحظت الصّدمة في عيني ياسمين فاستطردت:

- لقائي بك سيذكرني به باستمرار لا محالة. وإن كنت سأطوي الصفحة فسأفعل ذلك مرّة واحدة.

ثم دون مقدّمات، وقفت من مكانها وتناولت حقيبتها بيدها وهي تقول في استعجال:

- يجدر بي الذهاب الآن. شكرًا لمجيئك.

قالت ذلك وهي ترسم ابتسامة مصطنعة، ثم ابتعدت بوجه يعلوه الوجوم.

(38)

ليلة مسهدة

اهتمّت رنيم منذ الصّباح الباكر بفرز حاجياتها وجمعها في الحقيبة التي أحضرها جورج؛ ستغادر المستشفى اليوم. خضعت لجلسات تصفية دم مكثّفة في الأيّام الماضية. أربع مرّات في الأسبوع لمدّة خمس ساعات في كلّ مرّة. كرهت الآلات والأسلاك التي تلفظها مثل خرقة بالية، فتتمدّد على سريرها بقيّة اليوم كجثّة هامدة. الطّبيب قال إنّها أصبحت أفضل حالًا. لقد تعلمت الدّرس. ستلتزم بحميتها، وإن عادت إليها الأعراض فلن تتردّد في مراجعة طبيبها. لكنّها اليوم لا يمكن أن تبقى معزولة عن العالم أكثر. لا يمكنها أن تجلس هنا في الانتظار في حين أن الجلسة النّهائيّة ستكون يوم غدٍ. لن تفوّت عليها ذلك مهما حصل.

سمعت طرقات على باب الغرفة. زائر صباحيّ؟ تساءلت من يكون، جورج أم ياسمين؟ لا أحد غيرهما يعلم بوجودها هنا. رفعت رأسها مبتسمة وتأهبّت لاستقبال زائرها.

- صباح الخير عزيزتي.

تسمّرت في مكانها في ارتياع وهي تحدّق في الوجه الذي طالعها.

- ما هذا الترحيب؟! ألست مسرورة برؤيتي؟!

قال ذلك في شيء من السّخرية الخفيفة. تمالكت نفسها وسارت في اتجاهه لتحتضنه مرحّبة.

- أبي.. أهلًا بك.. كل ما في الأمر هو.. أنك فاجأتني.. لم أتوقع.. رؤيتك هنا.

لم تتوقع مجيئه؟! لقد طلبت منه خمسين ألف يورو! لا شك أنه تساءل وقلب الأمور على وجوهها كلها ثم قرّر تفقد الوضع بنفسه. طبعًا بعد أن أخذ الوقت اللازم لتهوية جدول أعماله المزدحم وتخصيص مساحة زمنيّة لها. لا يمكنها أن تلومه. فلتضع اللوم على نفسها لأنها لم تكن مقنعة كفاية على الهاتف. قالت في ارتباك وتلعثم:

- كيف وصلت.. إلى هنا؟

كان يعقد حاجبيه في تجهم. قال في حدّة:

- ذهبت إلى شقتك فأعطتني موظفة الحراسة عنوان المكتب.. وفي المكتب أعلمني رئيسك بوجودك في المستشفى. والآن أخبريني، ما الذي يجري؟

ازدردت ريقها في قلق. لا يبدو أنّ جورج قد ثرثر معه كثيرًا. قال بشيء من اللين:

- من أجل هذا تحتاجين خمسين ألف يورو؟ لديك مشكلات صحّيّة؟

مشكلات صحّيّة؟ يبدو ذلك مناسبًا. ربّما أفضل من كل الأكاذيب التي فكرت بها. سيجنّبها هذا الخيار الحديث عن ميشال وعن عمر. عصفوران بحجر واحد. سكتت للحظات تحبك كذبتها وتدرس نتائجها. أحسّت ببعض الذنب لما تُقدِم عليه، لكنّها

فكرت أنّها وسيلتها الوحيدة للحصول على ما تريد دون استجواب دقيق قد تخرج منه خائبة. قالت في ثبات فاجأها هي نفسها:

- أجريت عمليّة زراعة كلية. قائمة الانتظار كانت طويلة وحصص غسيل الكلى الطويلة شبه اليوميّة كادت تفقدني صوابي. لذلك دفعت. فحصلت على واحدة بشكل سريع. هذا ما حصل.

حدّق فيها الرجل في ذهول.

- يا إلهي! رنيم.. هل كنت ستخفين هذا عنّا؟ ابنتي تمرض وتشتري كلية في السّوق السّوداء وأنا لا أعلم شيئًا؟ لو كنت أخبرتني لأحضرت المبلغ في وقت أسرع!

تمتمت:

- لم أرد إثارة قلق أحد.. ثمّ هناك صديق.. أعارني المبلغ، وسأعيده إليه.

هزّ رأسه موافقًا. ثم قال في حزم:

- حسن إذن. سآتي بالمبلغ لتعيديه إليه، ثمّ تذهبين معي.

- أذهب معك؟ إلى أين؟

قال ببساطة كادت تجعلها تقهقه:

- إلى البيت!

البيت؟ في ذاكرتها لم يكن هناك بيت. هناك مربّية وخدم وفضاء واسع غاب عنه أصحابه، بالكاد ترى ظلالهم خلاله لسويعات قليلة في الليل أو النهار. رمقته في شك، فأضاف مشدّدًا:

- أنت تحتاجين إلى فترة نقاهة طويلة وإلى العناية والاهتمام. لن أتركك هنا وحدك.

سألته وهي تضحك:

- هل تقاعدتما مبكرًا أنت وأمي؟

كشر وهو يتظاهر بالغضب:

- ألا يروق لك ذلك؟!

ضحكت مجدّدًا فقال في شبه اعتذار:

- حسن، لم نتقاعد بعد.. لكنّنا سنفعل ما بوسعنا للبقاء في البيت معظم الوقت. ما رأيك؟

تنهدت في تسليم. لا يمكنها أن تعارضه. جمع كفيه معًا في إشارة حاسمة وهو يهتف:

- اجمعي أشياءك ريثما أرى الطبيب ونتمّ إجراءات الخروج.

قاطعته في اندفاع:

- لا، لا داعي لرؤية الطبيب.. كنت سأخرج لا محالة.

ثم تناولت الأوراق التي كانت على المنضدة وهي تقول في حماس مريب:

- انظر، هذه أوراق الخروج.. لا ينقصها إلا توقيعي. حتى أشيائي جمعتها. لا تتحرك، سألبس حذائي ومعطفي ونخرج معًا!

لم يكن بمقدورها المغامرة بتركه يغادر قبلها ويطرح الأسئلة هنا أو هناك عن حالتها الصّحية. قالت وهي تتأبّط ذراعه وتسير إلى جواره في دهاليز المستشفى:

- هل يمكننا تأجيل السّفر بعض الشيء؟ هناك قضيّة هامّة أعمل عليها و...

قاطعها في حزم:

- هل جننت؟ أي قضية هذه تنسيك صحتك؟ لقد أجريت عملية زرع كلى منذ فترة وجيزة يا عزيزتي. أنت في حاجة إلى الرّاحة التامّة!

- أحتاج يومين.. يومين فقط. ولن أرهق نفسي.

قال في امتعاض وهو يقرص خدّها:

- حسن. يومان فقط. ولا يوم إضافي. اتفقنا؟ بعدها تسافرين معي إلى مصر.

هزّت رأسها في تسليم وهي تخفي الألم الذي تسبّبه لها فكرة الرّحيل. لكن ما باليد حيلة. إمّا النقود وإمّا البقاء. لا يمكنها أن تضمن الاثنين معًا. لكنّه رحيل مؤقت. بالتأكيد، مؤقت.

حين وضعت رنيم مفتاحها في قفل باب شقتها ألفت الباب مفتوحًا. دفعته برفق وتطلعت إلى الدّاخل. كان والدها قد ودّعها أسفل البناية وقصد فندقه بعد أن وعدها بأن يزورها في الغد ومعه المبلغ المطلوب، حتى تعيده إلى صاحبه. انشغل بالها بين التفكير في كذبتها الجريئة على والدها وجلسة يوم غد، وحين وقعت نظراتها على ياسمين خلف منضدة المطبخ أحسّت بوخزة في صدرها حين تذكرت كذبة أخرى إضافيّة.

في تلك اللحظة رفعت ياسمين رأسها عن طبق السمك الذي كانت تعدّه وسارعت بمسح كفيها في مريلة المطبخ وهبّت لاستقبالها:

- أهلًا بعودتك إلى بيتك.

عانقتها في حذر وهي تبعد أصابعها التي تعبق برائحة السّمك المميّزة حتى لا تتسخ ملابسها ثمّ ضحكتا في مرح. سألتها رنيم حين عادت لتنهمك في تحضير أكلتها:

- متى وصلت؟ لم أعلم أنك ستأتين اليوم.

- علمت أنّك تغادرين المستشفى فأردت أن أرّحب بك كما يجب.

ابتسمت رنيم في امتنان ودمعت عيناها فجأة. قبل أن تستفسر ياسمين كانت تقول بسرعة:

- والدي وصل اليوم. سأسافر معه إلى مصر.

- تسافرين؟ متى؟ لماذا؟

- آه، والدي قلق على صحّتي. يريدني أن أكون تحت المراقبة لبعض الوقت. من المفترض أن أرحل بعد يومين.

كانت ترسم ابتسامة واسعة تحاول أن تداري بها ارتباكها.

- لكنك بخير، أليس كذلك؟

- نعم، بالتأكيد. لكن تعلمين كيف يتصرّف الأولياء! خصوصًا مع الأبناء الغائبين. لا تقلقي، لن أغيب أكثر من أسبوعين. لم أزر

عائلتي منذ أكثر من سنة. تبدو لي فرصة مناسبة لتغيير الجوّ.
هزّت كتفيها علامة اللا مبالاة وأخذت أصابعها تعبث ببعض المناشف المطوية أمامها.
- والقضيّة؟ ماذا عنها؟
- غدًا ستكون الجلسة النهائيّة. أملي أن ينتهي كل شيء على ما يرام فأسافر هانئة البال.
أضافت وهي تسترخي على المقعد وتمدّ ذراعيها فوق رأسها في تمط كسول:
- ستكون إجازة مستحقة للاحتفال بأهم انتصار مهنيّ لي.
تمتمت ياسمين في دعاء:
- إن شاء الله.
سألتها رنيم فجأة:
- هل تريدين المجيء؟
- إلى أين؟
- إلى المحكمة.
تردّدت ياسمين للحظة. لم تكن واثقة مما تريده بالضبط.
- ألن يكون ذلك مزعجًا؟ أقصد حضور فتاة محجبة لمحاكمة رجل متهم بالإرهاب، ألن يزيد ذلك الأمر سوءًا؟
- لا تكوني سخيفة!
أطلقت ياسمين ضحكة مرتبكة. ماذا دهاها؟ لا يمكنها أن تنكر أنها فكرت في الأمر منذ أيّام. خطر لها أن تذهب لمساندة عمر في محنته. لكن بدا لها فجأة أن وجودها سيحرجه. بشكل ما ستكون عبئًا عليه، وربّما على رنيم أيضًا.
وقفت رنيم وهي تتجنّب النّظر في عيني رفيقتها وقالت في نبرة خالية من التعابير:
- إن غيّرت رأيك أخبريني.
- شكرًا لك. سأفكر في الأمر.
مشت في اتجاه غرفتها وهي تخفي الرّجفة التي أوشكت أن تتملكها. إن لم تكن قادرة على مواجهة ياسمين وشرح الأمر لها، فلتأخذها إليه لتكتشف كل شيء بنفسها. لن تحتاج حينها إلى توضيح أو اعتذار. تتظاهر بأنها لم تكن يومًا على علم وترسم الدّهشة على وجهها بإتقان تحترفه. رغمًا عنها صارت تحترف الكذب. لكنّ ذلك سيكون مفاجأة سارة لعمر بالتأكيد. في يوم واحد يسترجع حريته ويلتقي من جديد بصديقته المجهولة.

****

تقلبت ياسمين في سريرها تلك الليلة بعد أن أطفأت النّور. كانت تحاول النوم لكنّ أفكارًا تمنعها. تذكّرت سؤاله الغريب في عربة المترو منذ شهور مضت. "هل سبق والتقيت إرهابيًّا؟". حين حدّثتها رنيم عن موكّلها "الإرهابيّ"، كانت تحسبه بريئًا من باب حسن الظنّ في المسلم أيًّا كان، تمامًا كما تستمرّ في الاعتقاد بأنّ اعتداءات الحادي عشر من سبتمبر هي تدبير صهيوأمريكي. أمّا الآن، فقد باتت تجزم ببراءته وهي تستعيد تفاصيل نقاشهما حول "الهويّات القاتلة" في حسرة وإشفاق.

تفكّرت في تلك الصّدفة الخارقة التي جعلت رنيم تترك عملها في مرسيليا وتأتي إلى باريس لتشاركها السّكن وتهتمّ بقضيّة عمر. كانت تؤمن أنّ الصّدف هي جزء من قدر مسطور، آليّات على الطّريق ومسبّبات لقضاء كتبه الله. لذلك تقاطعت طريقها مع طريقي رنيم وعمر، لتحقيق قدر ما، لا يعلمه إلا الله. تدرك الآن بأنّها لم تكن لتتمنّى لصديق المترو الغريب محامية خيرًا من رنيم. ربّما كانت خبرتها محدودة، لكنّها تتمتع بنصيب وافر من الذكاء، فضلًا عن صلابتها في الدّفاع عن الحق. وتلك العاطفة الرّقيقة التي تلمحها في مقلتيها كلّما جاءت على ذكره، ستكون حافزًا إضافيًا لا محالة.

غمرتها موجة من الاطمئنان أذهبت النّعاس عن جفونها تمامًا. تركت السّرير وجلست إلى مكتبها. فتحت دفترها وانبرت تكتب وصورة عمر خلف القضبان بين عينيها:

"مقدّمة. عزيزي الموظّف، هذه الدّراسة التي بين يديك لن تحلّ مشكلاتك الوظيفيّة بلمسة سحريّة، لكنّها ستضعك على طريق تشخيص الخلل وتحديد مقوّمات الحلّ. ولتعلم بداية وقبل كلّ شيء أنّ وضعك مهما بدا مأساويًّا فهو ليس أحلك من ليل بريء حُكِم بالسّجن المؤبّد! فعملك لا يقيّدك ولا يستعبدك، وإن فعل فارحل عنه أو استبدله، لأنّه لا يستحقّ العناء! والإرادة الحرّة -ولو في ظل حرمانك من العمل- تظلّ أثمن ما تملك، وحياتك في كنفها حتى لو بدت سقيمة فهي أهون من الأشغال الشّاقة الإجباريّة".

تزاحمت في رأسها كلمات هيثم في لقائهما الأوّل، فابتسمت وتابعت:

"لو ظننت أنّ الانتحار سيخلّصك من حياة تافهة ويمنحك تذكرة إلى جنّة الآخرة، فاعلم أنّ كلّ الأديان السّماويّة وأغلب الدّيانات الوضعيّة تحرّم قتل النّفس. ولو حدّثتك نفسك بإقدامك على عمل شجاع وتضحية جسيمة تمهّد طريق الحريّة لمن بعدك، فالشّجاعة الأكبر تكون بمواجهة ما يؤرقك ومحاولة تغييره بيديك ولسانك. فخسارة هي أن تقدم على تضحية (قد) لا تلقى من الاهتمام ما تتوقعه، فتذهب شجاعتك جزافًا. ولتتفكّر في الشكل القاطع والنّهائيّ للموت الذي اخترته، فإنّه قرار لا رجعة فيه، ولا يسدّ الباب أمام كلّ الفرص الممكنة".

استرسلت تكتب وتكتب، وقد تفتّقت قريحتها عن حكمة لم تعهدها في نفسها. كانت خلاصة تجربتها الحديثة غضّة طريّة، تنساب على الورق طواعية. واكتشفت في غمرة حماسها أنّ كلّ جزء من مغامرتها الفرنسيّة كان لبنة تضاف إلى لبنات تكوّن رؤيتها الجديدة لنفسها وللعالم من حولها.

توقّفت عن الكتابة حين سمعت رنّة هاتفها الخافتة. دون أن تترك القلم، مدّت ذراعها لتلتقط الجهاز وفتحت الرّسالة. قرأتها مرّة ثم دعكت عينيها في عدم تصديق. نحّت دفترها جانبًا وأعادت قراءتها من جديد.

"ياسمين، هل تتزوّجينني؟".

لم يكن حلمًا. لم تكن هلوسة مسائيّة. كانت تلك الكلمات الثلاث هي فحوى الرّسالة التي وصلتها على هاتفها. المرسل.. هيثم. حدّقت في شاشة الهاتف في شك. هل هو جادّ؟ لا شك أنّه كذلك. لم يكن الزّواج من المواضيع التي تقبل المزاح. كما أن الأوتار مشدودة بينهما.. منذ الأزل! لا مجال إلى أن يمازحها بهذا الصّدد.

"ياسمين، هل تتزوجينني؟".

أعادت قراءة الكلمات القليلة. لم يكن لها معانٍ كثيرة. ومع أن الطريقة لم تكن تشبه في شيء الصورة التي رسمتها في خيالها

لطلبات الزّواج المثاليّة، لكن للكلمات وقعها. رجل يطلب من امرأة أن تربط بقية حياتها به. ببساطة. هذا ما كانت عليه.

عادت أفكارها إلى ذلك الوجه المألوف الذي وضعت عليه اسمًا غريبًا منذ فترة وجيزة. إلى ذلك المحتجز في غياهب السجون. في أحلامها العميقة كانت تراه ينحني أمامها في عربة المترو على ركبة واحدة ويرفع إليها باقة حمراء ويهمس بتلك الكلمات الساحرة:

- ياسمين، هل تتزوّجينني؟

في عربة المترو؟ نعم! جلّ ما كان يجمعهما هو عربة المترو والكتب، فإن تخيلته في مكان غير عربة المترو فسيكون ذلك حتمًا في مكتبة. يبدو المشهد مختلفًا عن طلبات الزواج الرومانسية الكلاسيكية التي تكون حديقة الأسماك أو نافورة موسيقية مسرحًا لها. تلك الأحلام تبدو ساحقة البعد الآن. حتى أنّها لم تفكر فيه بتلك الطريقة منذ زمن. تدرك بشيء من العجب أنّه لم يحتلّ سوى جزء ضئيل من تفكيرها في الأسابيع الماضية. بشكل ما لم تنتبه إليه في حينه، أصبحت ذكراه جزءًا من الماضي. نوع من الذّكريات البعيدة التي تبعث على الابتسام والحنين. أما اهتمامها بقضيته فهو يشبه الاهتمام بأمر صديق قديم واقع في محنة.

كانت قد تساءلت مرّة وهي تتحدّث إلى رنيم إن كانت سترفض يومًا خاطبًا ما لأنها تنتظر فارسًا مجهولًا اختفى فجأة كما ظهر؟ لكن اليوم، الفارس لم يعد مجهولًا. كما أنه لم يعد قادرًا على الاختفاء. أصبح بإمكانها تتبع أخباره متى شاءت. ما الذي اختلف إذن؟ هي.. لم تعد تنتظره. ليس للأمر علاقة بمحنته وقضيّته التي قد تطول، وصحّته التي ستستهلك وقتًا وجهدًا حتى تتماثل لشفاء تام. لا. مشاعرها تجاهه بليت وتلاشت من قبل ذلك بزمن.

عادت بأفكارها إلى الرّسالة، وإلى مرسلها. هيثم؟ تتزوّج هيثم؟ حسن، ما الذي يعيبه؟ شابٌ مؤدّب وذو عقل راجح، وسيم، يحجب الشمس بطوله، مهندس ووظيفته ممتازة، أمّه صديقة والدتها وأخته صديقتها المقرّبة، عائلته تحبها وترحّب بها، وعائلتها كذلك. كما أنّه هذه المرّة يطلبها بنفسه. كأنّه يريد تأكيد اختياره الحرّ. ما الذي يضايقها هذه المرّة؟

لورا؟ عاد وجه لورا ليطفو على السّطح. هل يمكنها أن تتجاهل وجودها؟ كانت حاضرة طوال الوقت. منذ عرفت هيثم، عرفت أن هناك لورا في حياته. وجودها لفترة طويلة في قلب قصّته الغراميّة مع لورا كان يزعجها بشكل لا يطاق. ألم يكن يختلي بلورا في جلسات حميميّة في المطاعم والأماكن العامّة؟ ألم يكن يحادثها على الهاتف بشكل مستمرّ وربّما يسترسل الغزل بينهما؟ ربما كانت نيّته طيّبة. ربّما وجد لنفسه الأعذار حينها. لكنّها في تلك الآونة لم تجد له عذرًا واحدًا. هل يمكنها الارتباط برجل تعرف عنه كل هذا؟

هل تظلمه؟ هل تكون مجحفة في حقه إن حمّلته وزر تلك العلاقة وحده؟ ألم تكن لورا تطارده وتضيّق عليه ليكون معها في كل وقت؟ لكنّها الآن لا ترى إلا نصيبه من الخطأ. لم تشفع له مواقفه الشهمة معها. كان رجلا بحقّ حين احتاجت إلى من يخرجها من أزمتها. مهلًا! قفزت إلى ذاكرتها كلمات لورا في لقائهما الأخير. "إنّه مولع بنجدة الفتيات الواقعات في مأزق. هل تراه وجد فتاة أخرى يائسة استحوذت على انتباهه؟". تصاعدت الدّماء إلى رأسها. فجأة رأت نفسها هي تلك الفتاة اليائسة. التفت إليها لأنها وحيدة وغريبة ومنهارة؟ لكنّها لم تعد كذلك. إنّها أكثر قوّة ممّا يظنّ! هل يعتقد أنّها في حاجة مستمرّة إلى المراقبة والمواساة؟ هل وجد فيها ضالة تشبع غريزته بتقديم الحماية والتّوجيه، كما فعل مع لورا؟ أظلمت الدنيا في عينيها وتحوّل

تردّدها إلى غضب عارم. ذلك المغرور. من يظنّ نفسه؟ في حركة متسرّعة أمسكت بهاتفها وضغطت على الأزرار في عصبيّة:
"آسفة. طلبك مرفوض".
ثمّ "إرسال". حين استلقت على سريرها لم يكن غضبها قد هدأ، لكنّها شعرت بكآبة غريبة. هل كانت ردّة فعلها طفوليّة متهوّرة؟ ربّما كان الأجدر بها أن تعطي لنفسها مهلة للتفكير، فيبدو قرارها متروّيًا وجدّيًا. أمّا ردّها السّريع المستعجل فقد يحسبه مجرّد اندفاع وردّ اعتبار بعد أن رفضها منذ شهور. ولم يخب ظنّها، إذ وردت إليها رسالة جديدة بعد ثوانٍ قليلة.
"حسن، صفّينا الحسابات القديمة. والآن، هل يمكنك التفكير في طلبي بجدّيّة؟".
زمجرت في غيظ وهي تلقي بالهاتف بعيدًا عنها بحركة عصبيّة. سيطرت على نفسها بصعوبة وكتمت غيظها. لن تتسرع بالرّدّ مجدّدًا. ستضع أعصابها في ثلاجة وتحاول النّوم الآن. يجب أن تفعل. لكنّها ستحاول طويلًا قبل أن تنجح في إطفاء اللهيب المستعر داخلها، وتغالب النّعاس فتغلبه، قبل الفجر بقليل.

****

لم يستطع عمر النّوم تلك الليلة. في الغد ستكون الجلسة الأخيرة. طوال الأسابيع والشهور الماضية التي قضاها في غرفة المستشفى المريحة نسبيًا ثمّ في زنزانة السّجن الضّيّقة العفنة، كان يتساءل كلّ يوم إن كان يعيش كابوسًا مزعجًا. لكنّه كان يستيقظ في اليوم الموالي ليجد أنّ الكابوس ما يزال مستمرًا. كابوس هجر عالم الأحلام وسكن واقعه حتى طغى عليه. هل يستيقظ في الغد ليجد أن الكابوس قد انتهى بشكل قاطع وكليّ هذه المرّة؟
أراح جبينه على ركبتيه وهو مغمض العينين في ظلمة الزنزانة الرّهيبة. ما الذي سيحصل يوم غد؟ سيقف أمام تسعة أشخاص غرباء، ألف وجوههم وحفظها خلال الشهور المنصرمة. لم يتبادل كلمة واحدة مع أحدهم يومًا. سيجلسون بسحناتهم المغلقة الصّارمة ويقرّرون مصيره بكلّ برود، ثمّ يعود كلّ منهم إلى حياته الماضية، كأنّ شيئًا لم يكن. لن يتغيّر شيء في حياة أحدهم بعد ذلك. ربّما يتذكرون في المستقبل تلك القضية بابتسامة أو إيماءة. ربّما يصفونها بالمستعصية أو المرهقة، وربّما يفتخر بعضهم لأنّه كان جزءًا من حلها. لكن عليه هو وحده ستعود تبعاتها. إمّا حياة كريمة وبراءة ترفع الرأس، وإمّا موت بطيء في غياهب السجون. اقشعر جسده لتلك الفكرة. قاوم فورة الاستسلام التي أرادت أن تتمكن منه. سيظلّ ثابتًا. سيكون قويًا. هذا ما يجب أن يكون عليه. ظاهريًا على الأقلّ.
حين استيقظ على فراش المستشفى منذ شهور وجسده مشلول الحركة مشدود الأطراف ملفوف في البياض، تساءل في عجز عن الحكمة الإلهية ممّا يحصل معه. لأنّه واثق من وجود حكمة ما، وإن استعصى عليه إدراكها في حينها. سواء كانت ابتلاء يرقى به إلى مرتبة أعلى، أو اختبارًا يضع قوّة إيمانه على المحك، أو فرصة أخيرة للتّوبة والتّكفير عن ذنوب ماضية.. عاهد نفسه على أن ينجح، في الصبر على الابتلاء أو اجتياز الاختبار أو اغتنام الفرصة.
ومع ذلك فقد مرّت به أوقات بردت فيها عزيمته وفتر تصميمه. ولولا وجودها إلى جانبه، لكان اليأس تمكّن منه. رنيم. اقتحمت عالمه عنوة وفرضت نفسها. وجد صعوبة في تقبّلها، ثم سلّم مقاليد أمره إليها، وانتهى به المطاف إلى عدم الاستغناء عنها. لكنّها يومًا ما ستغادر حياته كما دخلتها، حين ينتهي دورها. وربما كان ذلك اليوم هو يوم غد. ولن يكون الأمر سهلًا. رغم عظم مصابه إلا أنّ قلبه لم يغفل عن التيّارات الغريبة التي تملأ الجو في حضورها. روحها المشعّة تركت بصمة داخله سيجد صعوبة

في محوها. لكنّه لم يحاول أن يخدع نفسه قط. يعلم أنّها لن تكون جزءًا من مستقبله. كلا، ستصنع مستقبله حتمًا بدورها في قضيته. لكنّها ستتوقّف عند ذلك الحدّ. لن تجتاز معه ذلك الخط الأحمر.

ليس الرّجل المناسب لها. حتّى بعد أن ينتهي كلّ شيء ويستعيد حرّيته، سيكون مدمّرًا. سيبدأ حياته من الصفر. بدون عمل أو مورد رزق، بجسد مشوّه وذاكرة مليئة بالنّدوب. فرانكشتاين آخر. هما مثل الجميلة والوحش. لكنّ عاطفتها وحدها لن تكفي لدرء بشاعته وإعادته بلمسة سحريّة إلى وسامته القديمة. سيتطلب وقتًا مهولًا حتى يقف على قدميه ويعيد التوازن إلى أركانه المتصدّعة.

وهي ليست المرأة المناسبة له. ربّما تقع في مرتبة وسطى، بين كارولين وفتاة المترو. لكنّها حتمًا مرتبة "دون المطلوب". منذ عرفها، كان من حين إلى آخر يقول في نفسه: "كم سيكون ذلك رائعًا لو تلتزم رنيم!". لم يكن يقصد الالتزام الأخلاقي أو الإنساني، فهي لطالما أدهشته بحسّها الرّاقي وحماستها للقضايا العادلة. لكنّ ما يطلبه هو الالتزام في بعده الدّيني. ليتها تقترب أكثر من صورة فتاة أحلامه. وكان يدرك كلّما راوده ذلك الخاطر أنّه لا يريدها كما هي، بل يتمنّى أن تطرأ على شخصيّتها تغييرات توافق هواه. وكان يعلم كم أنّ ذلك خطر! في الطّبيعة، وفي العلاقات الإنسانيّة خاصّة، من الخطر محاولة تغيير الآخرين. ذلك يسمّى "الحبّ المشروط"، وهو يؤذي صاحبه قبل أن يؤذي من يحبّ. كانت لتناسبه لو أنّها التزمت. لكن تلك الـ"لو" الشرطيّة كانت مكمن الخطأ. وكان عليه أن يعرض عن تلك المشاعر في وقت مبكر.

ابتسم في مرارة. انتبه إلى أنه يشغل نفسه بأعراض جانبيّة ليتناسى حركة عقارب الدّقائق والسّاعات التي تتحرّك في رأسه بنمط غير اعتيادي. لا معنى لكلّ ما يفكر فيه إن لم تشرق وجوه المحلفين وهم يغادرون قاعة المداولات، وإن لم ينطق القاضي بالكلمة السّحريّة "براءة". في تلك الآونة، لم يكن في حاجة إلى التفكير أو تجزية الوقت. كان يحتاج نشاطًا آخر هو كلّ ما تبقى بين يديه من أسلحة، وربما كان أكثرها فتكًا في عتمة الليل المبهمة.

الدّعاء.

(39)

الجولة الأخيرة

- لا زلتِ في السرير؟ ألا تأتين؟

كانت رنيم من اقتحم غرفتها في صخب لتطرد النوم عن جفونها. دعكت عينيها في تعب وهمست بصوت خافت مثقل بالنّعاس:

- آه، لم أنم جيّدًا البارحة.. لا أظنّني قادرة على النّهوض الآن.

تردّدت رنيم للحظات. لا تريد أن تكون لحوحة في دعوتها. لم تدعها من قبل لمرافقتها فلماذا تصرّ اليوم بشكل قد يثير شكوكها؟ مطت شفتيها قبل أن تدير كعبيها في اتجاه الباب وتقول بهدوء:

- طيّب. أنا ذاهبة. استريحي.

تابعتها ياسمين بعينين ناعستين ثمّ تنهدت وقد اختفت كل رغبة لديها في النوم. لن تذهب إلى قاعة المحكمة، لكنّها ستظل مشغولة البال طوال النهار. ستتخيّل ما يحصل هناك كل حين وتنتظر عودة رنيم بصبر نافد. لكنّ النهار سيكون أطول، على عمر.. وعلى رنيم أيضًا. دعت لهما بالتّوفيق وهي تزيح اللحاف وتضع قدميها على الأرض. وقعت عيناها على الهاتف المستقرّ على أرضية الغرفة قرب الحائط فعقدت حاجبيها في شك. انحنت تلتقطه وتعاين الأضرار التي لحقته من زوبعة غضب عبرت فضاء الغرفة منذ زمن غير بعيد. عدا بعض الكدمات السّطحية، لم يبد أن عاهة باطنيّة قد ألّمت به. فتحت قائمة الرسائل لتتأكد. حالما تراءت أمامها الرّسالتان الواردتان الأخيرتان زفرت في استياء. لم يكن حلمًا! عليها أن تواجه ذلك الواقع حين تلتقي ميساء وخالتها زهور. تساءلت في قلق عما ينتظرها منهما عندما يبلغهما رفضها. كان الله في عونك يا ياسمين على هذا اليوم الطويل!

****

لغط كثير يملأ فضاء قاعة المحكمة. تنبّؤات. توقّعات. ملاحظات متفرّقة. الكل يدلي بدلوه والكلّ يجزم بأنّ الحقيقة بحوزته دون غيره. علامات التوجّس والقلق ظهرت على وجوه قليلة. معظم الحاضرين لا يهمّهم المتّهم ولا يعبؤون بشركة الكيميائيّات. مجرّد متفرّجين على عرض شيّق يبهر الأنفاس. وقد اقترب مشهد النّهاية. لذلك احتشدت كل تلك الجموع التي تخشى أن تفوّت على نفسها المتعة العظمى بعد أن تابعت في اهتمام وترقّب مختلف الفصول السّابقة.

أعلن الحاجب عن دخول القاضي ومستشاريه فانقطع الصّوت فجأة وبترت الكلمات على الشفاه. سكون عميق سبق تلاوة القاضي للائحة الاتهام وإعلانه ابتداء الجلسة. وقف المدّعي العام أوّلًا. كانت مرافعته خفيفة لطيفة لم تتجاوز الدّقائق الخمس وهي في عُرف المرافعات تعتبر قصيرة مختزلة. لم يكن هناك الكثير ليقوله. التّهم واضحة والذّنب جليّ. "جميعنا هنا ندرك جيدًا تورّط المتّهم في التّهم سالفة الذكر"، وكأنّ الرجل يستبق الحكم ويقرّ بأشياء ما زالت في علم الغيب.

بعدها تهيّأ جورج لاستلام دوره، لكنّ رنيم شدّته من ذراعه فجأة وهمست في تصميم:

- دعني أفعل.
- هل أنت واثقة؟

وكيف لا تكون واثقة؟ لقد ساهمت في إعداد جميع بنود المرافعة وحفظتها عن ظهر قلب. رغم ابتعادها الجسديّ عن المكتب وقاعة المحكمة لكنّ أفكارها كانت تحوم حول القضيّة باستمرار. لذلك فهي على أتمّ الاستعداد لترافع. ستلوم نفسها بقيّة عمرها إن لم تفعل. من يمكنه الدّفاع عن عمر أفضل منها؟ من يؤمن ببراءته أكثر منها؟ تعلم أنّها قادرة على ترجمة طاقتها إلى كلمات توصل المعنى إلى قلوب المحلفين. أو هذا ما كانت ترجوه.

تقدّمت بخطى واثقة. توسّطت القاعة وواجهت بنظراتها منصّة المحلفين. ثمّ انطلقت. طفقت تتحدّث لساعة كاملة. عادت لتشريح كل الأدلة وتفصيل كل الشهادات لتقف على مواطن الضّعف فيها وتبدّد تأثير كلمات المدّعي العام القاطعة. راقبت تأثير عملها على وجوه المحلفين. لم تكن تحتاج إلى أكثر من الشك. يكفي أن يشك أحدهم أو بعضهم في صحّة الاتهامات فيؤثر في الآخرين. الشك معدٍ.

تذكر ذلك الشريط القديم الذي طالما كان مصدر إلهام لها. "اثنا عشر رجلًا غاضبًا" *. اثنا عشر محلفًا يدخلون قاعة المداولات وهم مقتنعون بمسؤولية المتّهم الشّابّ الكاملة في جريمة قتل والده. واحد منهم فقط كان "يشك". ومع استمرار الجدال تسرّب شكه إلى الأحد عشر الآخرين. مع كل تصويت جديد كان عدد "أصحاب الشكوك" يرتفع. وتوالى استخراج الثغرات في حجج الاتّهام ليعلنوا بعد ساعات المداولة الطويلة قرارهم المعجزة: "غير مذنب". لم تكن الأدلة كافية لإنزال العقوبة القصوى بالمتّهم. هذا ما يلزمها الآن. معجزة مماثلة.

- شكرًا لاستماعكم.

حين عادت إلى مكانها كانت تلهث. صافحها جورج في حرارة والبهجة تطل من عينيه:

- كنت مذهلة يا صغيرتي!
- أحتاج إلى شراب منعش.

كان ذلك ما قالته وهي تسبقه إلى خارج القاعة. حلقها الجافّ يشتعل نارًا ويطلب شيئًا باردًا ليطفئ لهيب جوفها. لقد انتهى كل شيء. كل شيء. لم يعد أمامها ما تفعله سوى الانتظار. هل كانت راضية عن أدائها؟ لن ترضى حتى تسمع الحكم الشافي بأذنيها.

كانت تنهي كأس العصير الثانية حين هتف جورج في تجهم:

- لقد عاد المحلفون.

أعادت الكأس ببطء إلى مائدة الكافيتيريا وهي تشعر ببرودة مفاجئة تجتاح جسدها. عادوا بهذه السرعة؟! كان ذلك يعني أحد أمرين: براءة واضحة أو إذناب واضح. لم يكن هناك شك مماثل لذلك الذي ظهر في شريطها المفضل. تحتاج إلى معجزة أكبر إذن.

في قاعة المحكمة عمّ الارتباك في صفوف الحاضرين. المداولات المختصرة كانت مصدر تأويلات متضاربة. حين دخل المحلفون متتابعين بوجوههم المغلقة التي لا تفتح بابًا لقراءة الأفكار عادت الأنفاس لتنحبس من جديد. للحظات، لم يكن يسمع في فضاء

القاعة غير حفيف الورق. ذلك الظرف المغلق الذي يحمل مصير الرّجل الشاحب كان يتنقل بين الأيدي، من ممثل المحلفين إلى الحاجب ليستقرّ بين كفي القاضي.

---

*Angry Men 12 : شريط درامي أمريكي عرض سنة 1957، تدور كل أحداثه تقريبا في قاعة تداول المحلفين.

فتحه ببطء وطالع القصاصة الوحيدة في جوفه بنظرات محترفة فارغة من أيّ انفعال. استدار يمينًا ثم يسارًا عارضًا القصاصة على مستشاريه الذين اكتفيا بهزّة رأس تحمل من المعاني ما تحمل. حين وضع نظاراته الطبية عن أنفه وواجه النّظرات المتوتّرة في القاعة كانت قدرة رنيم على التحمّل قد وصلت إلى أدنى مستوياتها.

- بخصوص تهمة سرقة الأبحاث، ما هو حكم المحلّفين؟
- غير مذنب.

شدّت قبضة رنيم على سترة جورج في انفعال وقد أنعشها الأمل. لقد كان أداء البروفيسور كلود مقنعًا في نهاية الأمر. أنصتت إلى القاضي الذي تابع استعراض التّهم:

- تهمة الانخراط في تنظيم إرهابيّ؟
- غير مذنب.

ممتاز. تبرئة نادر قادت إلى تبديد التّهمة. انحبست الأنفاس في انتظار التّهمة الأخيرة.

- تهمة تنفيذ تفجير إرهابيّ؟
- مذنب.

دوّت الكلمة في الجوّ مثل القنبلة. تجمّدت عينا عمر في الفراغ ولم ينطق بكلمة. ألم يئن لهذا الكابوس أن ينتهي؟ إلى متى يستمر هذا الابتلاء؟ كان الحكم أقوى من أن يتحمّله في جلد. أحسّ بالأرض تميد تحت قدميه وأعين كل الحاضرين بالقاعة موجهة نحوه بعد أن كانت معلقة بالقاضي، ترصّد كل حركة أو ردّة فعل تبدر عنه. لا يمكنه أن يمنحهم المشهد الذي ينتظرونه ويطمعون فيه. لن يروه منكسرًا مذبوحًا. رغم تنفسه المضطرب والفوضى التي تعمّ حواسّه والدّوار الذي يعصف برأسه، حاول رسم قناع الثقة على وجهه. لا بد أن هناك مخرجًا ما. لا بد أن الله سيهيئ له أمرًا. لن يستمرّ هذا الظلم إلى الأبد. فلتكن ثقته بالله كبيرة. توكل على الله فهو حسبك.

أخفت رنيم فمها بكفها في صدمة وترقرقت عبرات حارّة على وجنتيها في صمت. في حين انحنى جورج نحو عمر وهو يغمغم في اضطراب:

- سنستأنف. لا تقلق. سنستأنف.

في تلك اللحظة، دوّت صرخة عالية في آخر القاعة متزامنة مع تهاوي جسد كارولين على الأرض. تسرّبت همهمات مرتبكة من أشخاص مجهولين سارعوا بإحضار بعض الماء.

"لقد فقدت الوعي".

"المسكينة لم تتحمّل الصّدمة".

"لا شك أنّها مقرّبة من المتّهم".

****

لم يستطع هيثم التركيز في عمله وهو يجلس خلف الحاسوب طوال الفترة الصّباحيّة. كانت أفكار مضطربة تنهش خلايا دماغه دون توقف وتبعث أزيزاً متّصلًا يشغله عن كل عمل يستوجب حضورًا ذهنيًا، أي عن كل عمل يمكنه إنجازه في مكتبه. غادر القاعة التي أصبح هواؤها خانقًا بشكل مفاجئ وأخذ يذرع مساحة غرفة الاستراحة الضيّقة بخطوات مرتبكة.

ماذا الآن؟ ها قد نفذ ما برأسه وتقدّم إليها. فعل ذلك دون أن ينبئ أحدًا، مع أن والدته وميساء كانتا لتطيرا فرحًا لو أخطرهما بما اعتزم عليه. لكنّه اختار التحرّك خلسة. اغتنم فرصة غيابها عن البيت. مغادرتها المفاجئة ألهمته بعض الشجاعة. لم يكن بوسعه محادثتها وهي داخل جدران بيته وبين أفراد عائلته. لم تكن لتتصرّف على سجيّتها وهو قريب. وهو لم يكن ليتحمّل رؤيتها في الصباح الموالي تتناول فطورها على بعد أمتار منه وهو يتعرّق حرجًا، ولا أحد حولهما يدري بأمر الرّسائل التي تبادلاها في هدأة الليل.

ومع ذلك فهي لم تتأخر في الرّدّ. فاجأته. صدمته. لكنّه فضّل التقليل من أمر ردّها المتسرّع ورجّح كفّة الثأر للكرامة والعناد. آثر أن يمنح نفسه بعض الأمل، وأن يمنحها فرصة تفكير أطول وأعمق. فربّما تغيّر رأيها. هل تفعل؟ غادرته ثقة الأمس التي ألهمته الرّسالة الثانية. تناقص مستواها تدريجيًّا، كأنّ قطراتها تسرّبت ببطء من كيس مثقوب. ماذا لو كانت لا تريده أساسًا؟ وماذا لو كان هناك شخص آخر في حياتها؟ ماذا لو... ماذا لو... على امتداد الساعات التي استهلكها الفطور والجلوس في المكتب والحركة اللا شعوريّة بين مختلف غرف القسم، استمرّت التساؤلات القاتمة في الإلحاح عليه.

عاد بخط الزّمن إلى الوراء وتوقف مرارًا أمام كل حادث وكل موقف جمعه بها على امتداد الشهور الماضية، وحاول تقييم النظرة التي قد يولدها كل موقف لديها عنه. لأوّل مرّة، راوده بعض الندم لأنّه جعلها تتعرّف إلى لورا. ندم غير منطقيّ، لأنّه لولا وجود لورا في حياته –سابقًا– لما انبثقت الفرصة ليتعرّف أكثر على ياسمين! يذهله الارتباط الوثيق بين التجربتين على اختلافهما. لورا كانت فورة شهامة. وربّما بوادر ضعف أمام شقراء جذابة. هل كان يخدع نفسه حين فكر في الاقتران بها؟ الآن يعلم أنّه لم يكن صادقًا مع نفسه بشكل كافٍ. أما ياسمين، فكيف يصفها؟ بشكل لا يدركه، كانت مرآة عاكسة جعلته يواجه حقيقته للمرّة الأولى. مخاوفها وتحدّياتها، لحظات ضعفها وتمرّدها، ومبادئها التي تتشبّث بها ورؤيتها الآخذة في الاتّضاح.. كلها كانت تخاطبه بشكل مباشر، حتى أحسّ يومًا برغبة مفاجئة بالمضيّ إلى جوارها على نفس الطريق.

فكر فجأة في الاتصال بميساء. الفتاتان تبدوان مقرّبتين مؤخرًا. لا يمرّ يوم واحد دون أن تتّصل إحداهما بالأخرى. إن كانت ياسمين قد تحدّثت إلى ميساء بما جرى ليلة أمس، فسيظهر ذلك في صوتها. ضغط على زرّ الاتصال، ولم ينتظر كثيرا قبل أن يجيئه ردّ ميساء مستعجلًا:

- هيثم، هلا اتصلت لاحقًا؟

ارتبك. لم يكن ذلك الجواب المتوقع. سألها في ضيق:

- أنت مشغولة؟

- ياسمين على الخط الآخر، وهي لا تبدو في حالة جيّدة.

ازدرد ريقه الذي جفّ على حين غرّة وتساءل بصوت مبحوح:

- هل هي بخير؟
- لم أفهم منها بشكل جيد. لم تتوقف عن البكاء. سأحاول أن أتحدّث إليها ثم أعود إليك.

هتف بسرعة:

- لا تغلقي الخط. سأكون في انتظارك حالما تنهين اتصالك معها.
- حسن.

زفرت ميساء قبل أن تضغط على الزرّ لتعود إلى المكالمة الأولى. وصلتها شهقات ياسمين ضعيفة متقطعة معلنة انتهاء نوبة البكاء السّابقة. قالت في هدوء متودّد:

- والآن هلا أخبرتني، ما الذي يبكيك؟

أخذت ياسمين نفسًا عميقًا لتسيطر على ارتعاش صوتها. تحاول أن تتمالك نفسها. لكنّ الصّور التي تملأ رأسها وتأبى أن تفارق عينيها كانت تدفعها دفعًا إلى الاسترسال في البكاء. كانت تنتظر اتصالاً تأخر وصوله من رنيم، كأنّ الجلسة تمدّدت بقدر غير متوقع. فتحت التليفزيون محاولة الانشغال عن ضيقها وضجرها بتسلية خفيفة. أخذت تتنقل بين القنوات دون تركيز، لكنّ أصابعها تجمدت على جهاز التّحكم حين ظهر أمام عينيها ذلك المشهد المفجع. حدّقت في الشاشة في ذهول لتميّز ملامحه المتصلبة وومضات آلات التصوير المحتشدة تضيئه بقسوة ليظهر جانب وجهه المشوّه عاريًا بدون حماية. كان مقيّد المعصمين، مشدود الذراعين، وحراسة لصيقة تحيطه وتمنع التحامه بكوكبة الصحفيين التي كانت في انتظاره خارج قاعة المحكمة. هل انتهى كل شيء؟ لم يظهر وجهه في وسائل الإعلام من قبل. لا يظهر وجه المتّهم للجماهير العريضة قبل أن يتمّ الحكم في قضيته. لكنّ ما رأته أضاف طبقة أخرى إلى مخاوفها. إذا كان بريئًا، فلماذا القيود؟

حين انتهى مفعول الصّدمة الأولى، حاولت قراءة العبارات التي كانت تظهر تباعًا أسفل الشاشة تعليقًا على المشهد الذي يُبثّ مباشرة. وهنا كانت الصّاعقة الكبرى: "الحكم بالسجن عشرين عامًا على المتهم في قضية التفجير الإرهابي بشركة الكيميائيات بليون". أفلت جهاز التحكم من يدها وتناثرت العبرات على وجنتيها. أحسّت بحمم تتدفق داخلها في فوران محتدم. صور ضبابية كثيرة تحجب رؤيتها. ساقان تتدليان من السقف. أصابع اتهام تشير إليها في سخرية وأبواب تغلق في وجهها بصفاقة. "لا للحجاب".. "الموت للمسلمين".. "الإرهابيّة". لافتات صامتة مشفرة تفك رموزها وحدها على الوجوه التي تحاصرها من كل جانب حتى تقطعت أنفاسها في فضاء حرّيتها المختزل. أغمضت عينيها بقوّة في حين أخذ جسدها في الاهتزاز في نشيج مرتفع. انحدرت فجأة إلى حيث كانت منذ أسبوعين. ضعيفة، كئيبة، مستسلمة. ليست تبكي من أجل عمر وحده. تبكي نفسها. تبكي خوفها من مستقبل مجهول بداية طريقه مظلمة. لا مكان لأمثالها في هذه البلاد العنصريّة الظالمة!

لم تدر كم مضى عليها من الوقت وهي تحدّق في الفراغ والدّموع تفرّ من عينيها فرارًا في نسق متسارع، حتى أيقظها اتصال ميساء.

- حكموا عليه بالسجن عشرين عامًا.. لكنّه بريء! أنا أعلم أنّه بريء!
- عمّن تتحدثين؟ من الذي سجن؟
- إنّه شاب عرفته في ليون.. إنسان هادئ ومستقيم.. لا يمكن أن يكون إرهابيًا! لكنّهم ألصقوا التّهمة به لأنه مسلم.. ألا يكفيه

ما أصابه؟ لقد تأذى كثيرًا في الانفجار.. ويريدون له أن يقضي بقيّة حياته وراء القضبان؟ هذا ظلم! والله ظلم!

لم يكن هناك الكثير ليقال. إنّه ظلم جارف لا يملك أحد أمامه شيئًا. أنهت ميساء الاتّصال ثمّ تذكرت هيثم الذي كان ينتظرها بصبر نافد على الخط الثاني. دون مقدّمات، اندفعت تحدّثه عن ذلك الشّابّ التي تبكي من أجله ياسمين. تدفّقت الكلمات من شفتيها بغزارة وتأثر. نقلت إليه القصّة كما سمعتها منذ حين مع بعض الإضافات الدّراميّة التي جعلتها أشبه بمسلسل عربيّ تعيس، يموت البطل في نهايته. لم تكن تدري بالأثر الذي تتركه قصّتها في نفس أخيها الذي استمع في صمت مطبق، قبل أن يقول بصوت جافّ خالٍ من التّعابير:

- طيّب.

ثم يغلق الخط دون كلمة إضافيّة.

****

دخلت رنيم مكتبها الذي هجرته منذ أسابيع بخطوات مرتبكة كئيبة. كانت مشوّشة التّفكير. لا تدري ما عليها فعله. ألقت بنفسها على المقعد الوثير في استسلام، ثمّ عادت لتعتدل في جلستها زاجرة نفسها. ليس وقت الاستسلام. فتحت الملفات ونشرت الأوراق فوق المكتب في اضطراب. لا تدري من أين تبدأ. لكنّها يجب أن تبدأ. الوقت ضيّق جدًّا. يجب عليها أن ترحل إلى مصر في الغد. حين وعدت والدها بذلك كانت تظنّ القضية منتهية. كانت موقنة بنجاحها. كان الأمل متفوّقًا في نفسها على الخوف.. قبل أن تنهار آمالها جميعًا دفعة واحدة.

عشرون سنة سجنًا؟ هل كانت تتوقع ذلك الحكم الفظيع؟ وعمر المسكين، ماذا كان يتوقّع؟ تنهّدت وهي تمسح عينيها بأطراف أصابعها لتتخلص من الدّموع التي أوشكت أن تتسرّب مخالفة لإرادتها. ما نفع المال الآن إن لم تتوفر الحرّية؟! عليها طلب الاستئناف. لكن كيف يقتنع القاضي بطلبها دون معطيات جديدة في القضية؟ قد يتطلب البحث عن دليل جديد ومقبول شهورًا وربّما سنوات. يا للهول! صار كل شيء يدفعها إلى الغرق في اليأس.

- آنسة رنيم؟

رفعت رأسها مبغوتة على صوت طرقات خفيفة على بابها.

- هل يمكن أن أتحدّث إليك للحظة؟

هل غفت على مقعدها؟ أم سرح عقلها فغاب إدراكها؟ لم تدر كيف وصل ذلك الرّجل أمامها! أين السكريتيرة؟ كم السّاعة؟ نظرت إليه في تشوّش قبل أن تتذكر من يكون. ما الذي يريده منها الآن؟ ليس لديها وقت تضيّعه معه.

- بماذا يمكنني أن أخدمك؟

كانت لهجتها جافة وملامحها المجهدة تشي بضيقها. لكنّ هيثم جذب مقعدًا وجلس قبالتها قبل أن يقول في جدّيّة بالغة:

- أريد أن أعرف. ما علاقة ياسمين بذلك الرّجل المتّهم بالإرهاب؟

عقدت رنيم حاجبيها لبرهة وهي لا تستوعب ما يقوله. يتحدّث عن علاقة بين ياسمين وعمر؟ مهلًا، كيف عرف؟ تمتمت في حذر محاولة استدراجه حتى يفصح عمّا بحوزته:

- معذرة. ما الذي تتحدّث عنه؟

- لقد حكم عليه بالسجن لفترة طويلة، أليس كذلك؟ ياسمين كانت منهارة اليوم بعد أن عرفت بالحكم الصّادر في القضية.. كأنّ المتّهم يهمّها شخصيًّا. لذلك يجب أن أفهم منك.. هل هناك علاقة ما بينها وبين ذلك الشخص؟

سألته في حدّة:

- بأيّ صفة تسمح لنفسك بطرح هذا السؤال؟

- آه.. محاولة يائسة لأفهم سبب رفضها لي.. هل تراها فعلت ذلك من أجله؟ أبدو مثيرًا للشفقة، أليس كذلك؟

قال ذلك ببساطة لم تخف المرارة في طيّاتها، فغاص قلب رنيم بين ضلوعها وانكمش. ازدردت ريقها بصعوبة وهي تقاوم البرودة التي لفت أطرافها بقسوة. إذن ياسمين تعرف. يا للهول! منذ متى؟ كيف حصل ذلك؟ دوّامة من الأسئلة تعصف برأسها.

واصل هيثم في حرارة وصدق:

- ذلك الرجل هل هو جادّ معها؟ أعني هل هناك شيء حقيقيّ بينهما؟ ربّما لا يحق لي أن أمنعها من انتظاره عشرين عامًا، مع أن ذلك ضرب من الجنون! لكنّني أريد أن أتأكد من أنها لا تضيّع وقتها وعمرها سدى. هل تعلمين شيئًا تفيدينني به؟

تمالكت رنيم نفسها قليلًا وتمتمت بصوت مرتجف:

- الدكتور عمر بريء.. سنستأنف القضية ونثبت براءته إن شاء الله.

هل كان ذلك هو الجواب الذي انتظره هيثم؟ لم يظهر على ملامحه أنه اكتفى، فأردفت ببرود:

- علاقته بياسمين أمر لا يخصّني ولا يمكنني إفادتك بصدده. أنا هنا محامية ومعاملاتي معه مهنيّة بحتة. لا أملك الجزم في هذا الموضوع الذي يمسّ حياة موكلي الخاصّة جدًّا.

ابتسم هيثم في عدم اقتناع وقال:

- لكنّ ياسمين صديقتك وزميلتك في السّكن. ألا يجعل ذلك منك مطلعة بعض الشيء؟

- لماذا لا تطرح عليها السؤال بنفسك؟

لم ترمش وهي تطالعه بوجه خالٍ من أي تعابير، فوقف في تسليم وهو يلوح بكفه:

- كان الأمر يستحق عناء المحاولة. لا بأس.

سرحت في الفراغ للحظات بعد أن خلا المكتب من صوت هيثم الأجش وقامته الفارعة. ربما كان ذلك أفضل. كانت تحمل همّ مصارحة ياسمين بحقيقة شخصيّة عمر قبل رحيلها. لم يعد هناك حاجة لذلك. أحدهم قام بذلك عنها. من؟ لا علم لها. لم يعد ذلك مهمًّا. هل كان عليها أن تصارح هيثم بما تعرفه؟ هل تصرّفت بأنانية مرّة أخرى؟ وما الجدوى الآن. لقد رفضته. ومع ذلك فهو ما يزال جادًّا في طلبها. فلتتركه يحاول من جديد. ربّما كان ليستسلم إن علم باعترافات ياسمين السّابقة؟

ما هي نسبة الأمل بأن يبتسم لك القدر يا رنيم؟ أن تثبت براءة عمر، ويقبل منك خمسين ألف يورو، وتنجح جراحته التجميلية، وتتزوّج ياسمين هيثم ويبادلك عمر المشاعر؟ دمعت عيناها هذه المرّة، فلم تقاوم دموعها. تركتها تنساب على وجنتيها في هدوء. ليست طمّاعة كبيرة. ستكتفي بالنّصف الأوّل من الأمنية. حرّية عمر وشفاؤه. هل تكتفي بها حقًّا؟ يجب أن تكون بعيدة، بعيدة جدًا، حتى لا تتألم. أو حتى لا يشعر أحد بألمها.

كيف انتهى بها المطاف على تلك الحالة؟ تذكّرت في تشوّش أمنياتها التي تخلّت عنها بزوج أوروبيّ وسيم. هل كانت تتصوّر

في أسوأ كوابيسها أن تقع في حبّ رجل مغربيّ، إذا ما خاطبها بلهجته الصلفة الجافّة فقد لا تميّزها عن اللغات الإفريقيّة العميقة؟ ثمّ ماذا كانت تتوقّع؟ أن تنقذه من السّجن فيتزوّجها ويعيشان في سعادة أبد الدّهر؟ لست في شريط أجنبيّ مدبلج يا عزيزتي، بل في واقع الحياة. والنّهايات في الواقع تختلف عنها في حكايات الجنّيات والأفلام العربيّة والمكسيكيّة والتركيّة.

- آنسة رنيم؟

مسحت وجهها بسرعة قبل أن تلتفت باتجاه الباب.

- نعم؟

حدّقت في وجه الرجل المألوف في استغراب. وجه آخر لم تتوقّع رؤيته اليوم.

- أنا حارس شركة الكيميائيات، هل تذكرتني؟ هل يمكن أن أتحدّث إليك للحظة؟

أومأت برأسها على الفور وأشارت إلى المقعد طالبة منه الجلوس وعيناها لا تفارقان وجهه في ترقّب وفضول. هل يحمل إليها ما يمكنه أن يحقق الأمنية الأولى؟

- لست أدري إن كان ما سأذكره ذا أهميّة، لكنّني لن أكون مرتاح الضمير إن لم أخبرك بذلك. هناك تفصيلة صغيرة لم أذكرها في شهادتي في المحكمة.. لكنّني أخبرت بها المحقق ليلة الحادثة. فيما بعد نسيت الأمر ولم يطلب منّي أحد أن أراجع تفاصيل شهادتي. في الحقيقة لم يكن هناك الكثير لأقوله لأنّني لم أكن واثقًا، لكن اليوم في قاعة المحكمة تجلى الأمر أمام عيني.

لم تكن رنيم تفهم شيئًا. استعجلته في نفاد صبر:

- بماذا يتعلق الأمر بالضّبط؟

- آه، نعم. سأختصر. ليلة الحادثة، رأيت شخصًا يغادر الشركة مسرعًا وسط الظلام بعد الانفجار الأوّل. لكنّني لم أتبيّن ملامحه بشكل كافٍ لأتعرّف عليه. كانت امرأة في الحقيقة. لكنّني اليوم تذكرت كلّ شيء.. حين رأيتها تسقط مغشيًّا عليها في المحكمة بعد أن تمّ الإعلان عن قرار المحلفين.

- كارولين!

لم تسمع رنيم شيئًا من ثرثرة الرّجل بعد ذلك. هرعت إلى حقيبتها وانهمكت تبحث عن القصاصة التي سجلت عليها عنوانها. حين وجدتها اتّسعت ابتسامتها في ظفر. قاطعت الرجل الذي كان ما زال يبرّر ويعتذر وهتفت وهي تلتقط معطفها وحاجيّاتها:

- شكرًا لك سيدي.

ثمّ هرولت في اتّجاه الباب مخلفة إيّاه وراءها.

****

وقفت أمام المبنى الذي أشار إليه العنوان على القصاصة بين أصابعها. أخذت نفسًا عميقًا قبل أن تتجاوز المدخل وتبحث في جهاز الاستقبال عن اسم صاحب الشقة. كانت تعلم أنّها قد تحتاج يومًا عنوان أصدقاء كارولين في باريس، ولم يخب حدسها. لكنّها تعلم أيضًا أنّ مهمّتها اليوم لن تكون بسيطة. لم تنجح في جعلها تتكلم سابقًا. لكنّ الأمر لم يعد يقبل المساومة. يجب أن تحصل منها على اعتراف اليوم أيًّا كان محتواه. إنّها بحاجة إلى شهادة عيان جديدة لتقنع المحكمة بالاستئناف، والوقت المتاح

أمامها ضيّق. ضيّق جدًا. كارولين بدت متأثّرة بالحكم اليوم في قاعة المحكمة، وهل يمكن تفسير إغمائها بطريقة أخرى؟ ربّما بعقدة ذنب أيضًا؟ وذلك يعني أنّها قد تتكلم بسهولة إذا وجّهت إليها الأسئلة المناسبة. رغم اضطرابها، كانت رنيم واثقة من أنّها تقوم بعملها بشكل جيّد. ضغطت على الزرّ وانتظرت للحظات حتّى جاءها صوت أنثويّ عبر جهاز الاستقبال.

- آنسة ماريان؟ هل يمكنني التّحدّث إلى كارولين؟

بدا التردّد على صاحبة الشقة التي حتمًا تلقت تعليمات بتمرير عدد محدود من الأشخاص.

- كارولين ليست هنا. هل تريدين ترك رسالة؟

- أنا صديقتها. كنّا معًا اليوم في المحكمة وقد بدت لي في حال سيّئة. أردت الاطمئنان عليها. هل تحسّنت منذ الصباح؟

لم تنخدع ماريان بمحاولة رنيم اليائسة. قالت في تصميم جاف:

- إنّها بخير. لكنها ليست هنا الآن.

تركت رنيم جهاز الاستقبال وزفرت في ضيق. ماذا تفعل الآن؟ هل ترابط أمام المبنى تنتظر قدومها أو خروجها؟ مشت ببطء في اتجاه المقهى الواقع على الجانب الآخر من الشارع. تخطت المدخل الضيّق وجالت بعينيها على الطاولات الصغيرة المتناثرة في الشرفة المغطاة وفي القاعة الدّاخلية التي عكست مصابيح صفراء خافتة بقع ضوء متناثرة خلالها، وقد أرخى المساء ستائر شفافة لم تحلك عتمتها بعد في الخارج. لم تكن قد تخيّرت موقعًا بعد حين ارتفع رنين هاتفها. طالعت الرقم الغريب الذي ظهر على الشاشة في شرود ثمّ ضغطت على زرّ الإجابة.

- أستاذة رنيم.

كان صوتًا أنثويًا مفعمًا بالألم. سألت في شكّ:

- كارولين؟ هذه أنت؟

ردّت مخاطبتها بسرعة متهرّبة:

- لا يهمّ من أكون. استمعي إليّ جيّدا.. الدّكتور عمر بريء. أعلم ذلك يقينًا. لقد ألصقوا التّهمة به ليتخلّصوا منه ويسطوا على أبحاثه عن "الاندماج البارد".

- من هم؟ من يكونون؟

- إنّهم أكبر منك ومنّي. لا يمكننا الوقوف في وجوههم. لقد خطّطوا لكلّ شيء بإحكام، بما في ذلك التضحية ببعض النفوس البشريّة البريئة.. لقد قتلوا من قبل ولن يتردّدوا في الضرب مرّة أخرى إذا مسّت مصالحهم من قريب أو بعيد. "الاندماج البارد" سيدرّ عليهم أرباحًا لا تقدّر بثمن، لذلك لا يمكن لشيء أن يردعهم. البروفيسور كريستوف كان عينهم السّاهرة في الشركة، وأنا.. أنا كنت أداتهم في التنفيذ عن جهل وسذاجة.

لم تستطع أن تقول أكثر. ازدردت ريقها بصعوبة وهي تشعر بغصّة في حلقها. كانت في حال يرثى لها منذ الصباح. يتقاذفها ضمير استفاق من غيبوبته متأخرًا، وتمسّك غريزي بأمان واهٍ انتصر حتى تلك اللحظة. وزيارة رنيم كانت لحظة فاصلة جعلت توازنها الهش الذي يشدّ كريستوف خيوطه بحزم ودقة منذ البداية يتهاوى دفعة واحدة.

كلّ شيء بدأ حين عرض عليها أستاذها السابق كريستوف أن تنضمّ إليه في الشركة التي يحتلّ مركزًا مرموقًا فيها. حين طلب

منها مراقبة عمل الدكتور عمر، ظنته يريدها أن تتعلم منه. ولأنّ عمر كان كتومًا، كان عليها أن تزور مكتبه ومختبره في أوقات متفرّقة من النهار، تتحدّث إليه عن أيّ شيء، وتسجل كل ما يفعله.. المستحضرات، الآلات، التجارب. تفتّش في سلة مهملاته وتقتنص الأوراق المتناثرة.. وتكتب عنها تقارير. عمر كان يتجاهل وجودها معظم الأحيان ويتركها تتنقل في المكان على حرّيتها. وهي كانت طالبة بليدة. كريستوف كان يعلم هذا، لأنها عملت معه لوقت طويل. في البداية ظنته أسلوبًا جديدًا في التعليم. ثمّ مع الوقت أدركت أن كريستوف جعلها جاسوسة على عمر! هل يمكنها أن تلومه على استغلالها؟ تدرك أنّها لم تكن تنفع لأيّ شيء آخر، وعملها في الكيميائات كان مضيعة للوقت. لولا التّوصيات لما وجدت عملًا. كانت تجسيدًا لكل الحماقات التي تُروى عن الشقراوات. لكنّها الآن تحاول أن تصلح شيئًا من أخطائها الماضية.

- كارولين. أخبريني ماذا فعلت؟

لم تحاول أن تنفي هويّتها مرّة أخرى. لكنّها لا تستطيع الاعتراف أيضًا. لم تكن تفهم التقارير التي تكتبها، لكن كريستوف كان يجدها رائعة. كان قادرًا من خلالها على الإحاطة بما يجري في مختبر عمر. ثمّ جاء الوقت الحاسم الذي طلب فيه منها أن تضيف مادّة ما إلى اختبار عمر. كيف أقنعها بذلك؟ قال إن عمر سيرفض تدخله بالتأكيد، وإنّ تلك التجربة ذات أهميّة وقد تعطي للمشروع أبعادًا جديدة لا يدركها عمر. قال إن ذلك سيعود بالفائدة على الجميع. هل صدّقته؟ كانت تشعر بالذّنب لأنّها كشفت أسرار بحث عمر دون وعي منها، لذلك فإنّ فكرة القيام بتجربة تساعده في التقدّم أوحت إليها بأنّها قد تعوّض عن سوء تصرفها السابق! لم تكن تعلم أن الأسوأ سيحصل؛ حين دوّى الانفجار الأول انتابها الهلع. اشتعلت النار في المحرّك وانقطع التيار الكهربائي. أيقنت أن في الأمر خطأ ما. خافت. هرولت في اتجاه المخرج وهي تلوم نفسها على حماقتها. في تلك اللحظة، لم تفكر إلا في الفرار قبل عودة عمر واكتشافه فعلتها. لم تكن تدرك أن زمرة المحتفلين كانت ما تزال في غرفة الاستراحة. لم تكن تعلم أنّ عمر سيرجع إلى مختبره قريبًا.. لتنفجر البناية كلها وهم بداخلها.

- لا يهمّ الآن ما الذي فعلته أنا أو غيري. أستاذة رنيم، لقد حسموا الأمر لصالحهم منذ زمن. ولن يتردّدوا في جعلي الضحيّة الموالية إن أنا تكلّمت.. لن أكون إلا رقمًا إضافيًّا في حساباتهم. حياتي ليست لها قيمة، وكذلك حياة الدكتور عمر.. كان من المفترض أن نقضي جميعًا في الانفجار وتختفي كلّ آثار الجريمة في الحريق الهائل.. لذلك تأكدي من أنّ الاستئناف مضيعة للوقت. لن يتغيّر من الأمر شيء. ما عدا سقوط ضحايا جديدة.

هتفت رنيم في غضب:

- لماذا تتصلين إذن؟

- هناك حلّ وحيد، أظنّه ينفع. أن يتدخل ملك المغرب من أجله! لقد تمكّن من إطلاق سراح البستانيّ "عمر الرّداد" في قضيّة القتل في بداية التسعينيات.. هؤلاء الأشخاص متنفذون وسيفعلون شيئًا من أجل ابن بلدهم، مع أن السيّدة مارشال كتبت بدمها "عمر قتلني"، فقد أطلقوا سراح البستانيّ.

لم يكن هناك أحد في فرنسا يجهل قصّة عمر الرّدّاد. ذلك المغربي المهاجر الذي اتهم سنة 1991 بقتل السّيدة مارشال التي كان يعمل عندها بستانيًا بعد أن عثر على جملة كتبت بدم الضحية قرب الجثة "عمر قتلني". صدر حكم بالسّجن ثمانية عشر سنة بحق المتهم، ثمّ تمّ الإفراج عنه سنة 1996 بعد تدخل ملك المغرب حسن الثاني لدى الرئيس الفرنسي جاك شيراك. لكنّ

المتّهم ما يزال يحاول إثبات براءته حتى اليوم. القضية شغلت الرأي العام الفرنسي والمغربي، كما أنتجت أشرطة وثائقية وسينمائية، وصدرت كتب تتناول تفاصيل القضيّة.
قاطعتها رنيم في مرارة:
- هذه ليست مجرّد جريمة قتل. إنّه اتّهام بعمل إرهابيّ! هل تفهمين معنى ذلك؟
سمعت بكاءها عبر أسلاك الهاتف. كانت تشعر بالذّنب. ما زالت هناك فرصة للتأثير عليها؛ همست في رجاء:
- كارولين، يجب أن نلتقي. يجب أن تخبريني بشكوكك، بكلّ ما تعرفينه. تأكدي أنّني سأحميك. ستتمتعين بنظام حماية الشهود.
- لا.. لا.. سيجعلونني أدفع الثمن.. سأكون البيدق التالي.
- أرجوك، ثقي بي.. غدًا صباحًا، الساعة الثامنة. نذهب أنا وأنت إلى مكتب النائب العام.. تعترفين بكلّ ما عندك، والقانون سيحميك منهم.. اتّفقنا؟
لم تسمع سوى نشيج كارولين بعد ذلك، قبل أن ينقطع الخط.

****

ألقت ياسمين نظرة على ساعة الحائط من جديد قبل أن تغيّر وضعيتها على الأريكة وتلفّ اللحاف على جسدها مرّة أخرى. السّاعة تشير إلى الواحدة والرّبع بعد منتصف الليل. لقد تأخّرت رنيم. تأخّرت كثيرًا. حاولت الاتّصال على هاتفها مرّات عدّة، لكنّه كان يرنّ حتّى يبحّ صوته ولا مجيب. فكرت أنّها قد تكون بصحبة والدها. ستسافر معه في الغد إلى مصر. تسافر؟ هل يمكنها أن تسافر بعد النّازلة التي حلت ذلك الصباح؟ تعلم أنّ عمر ليس مجرّد موكل بالنّسبة إليها، وقضيّته ليس تسلية تستقيل منها حين تشعر بالتّعب. لذلك رجّحت أنّ رنيم تعمل حتى ذلك الوقت لتجد مخرجًا لعمر من ورطته المعقدة. لكن لماذا لا تردّ على هاتفها؟
كان يومًا مرهقًا. أمضته بين العناوين الضخمة التي ملأت شاشات القنوات الفضائية والأفكار السّوداويّة التي بدأت ضئيلة في الصّباح ثمّ تعاظم شأنها بعد أن امتصّت كلّ طاقتها، تستمدّ العون من وحدتها وتعيش ذكرياتها. حين حل المساء، كانت قد غدت جسدًا نحيلًا بروح معذبة. تركن في استسلام إلى الجزء الأكثر دفئًا من شقتها، وتنتظر رنيم كأنّها ستحمل بين يديها معجزة تنثر الضوء وتنفض القتامة عن كئيب هواجسها.
انتفضت في ذعر حين قاطع رنين هاتفها سرب الخفافيش السّوداء التي ملأ حفيف أجنحتها مساحات إدراكها. التقطت الجهاز في لهفة وتطلعت إلى الشاشة التي حملت رمز رسالة قد وصلت للتوّ.
- "أنت نائمة؟".
عقدت حاجبيها في استغراب وعادت لتطالع اسم المرسل. لم تكن رنيم. لم تتوقع أن يظهر ذلك الاسم على جهازها مجدّدًا بعد الحوار المقتضب الذي دار بينهما مساء أمس. هيثم؟ ما الذي يريده الآن؟ فكرت في تجاهله، فهي من المفترض أن تكون نائمة بالفعل في مثل ذلك الوقت، لولا تأخر رنيم. وضعت الهاتف جانبًا واستلقت من جديد. حاولت أن تشغل نفسها بأيّ شيء، لكنّ أفكارها كانت تعود إلى الرّسالة وعيناها تحومان حول الهاتف دون أن تقدر على صرفهما بعيدًا. حسمت أمرها. اعتدلت في

جلستها والتقطت الهاتف مجدّدًا ثم كتبت كلمة واحدة جافّة.
- "لا".
على الطرف الآخر، كان هيثم ينتظر على أحرّ من الجمر. انتظر دقيقة ثم اثنتين. حين لم يصله ردّها أيقن أنّها بالتأكيد نائمة. ما الذي يتوقعه والسّاعة قد تجاوزت الواحدة والنّصف؟ ما الذي يفكر فيه بالتّحديد؟ ستتضحك منه حتمًا حين تستيقظ صباحًا وتجد رسالته الليلية السّخيفة. لكن ماذا بوسعه أن يفعل والنوم يجافي جفونه وأفكاره تأبى أن تمنحه قسطًا من الرّاحة؟ حين غادر مكتب صديقتها المحامية لم يكن أفضل حالًا مما كان عليه بعد اتصاله بميساء. بعد العمليّة المخابراتيّة المضنيّة التي شغلته لبضع ساعات حتّى وجد عنوان مكتب رنيم، لم يعد هناك الكثير ليفعله. ومع مرور الوقت كان ضيقه وتوتره يتزايدان. غدا عصبيًا مضطربًا. أساء الأدب مع والدته على العشاء وتسبّب مزاجه المتعكر في مشادّة كلامية مع ميساء، كان يدرك أنّه لا ذنب لها فيها. إلى متى سيستمر على تلك الحال؟ إنه بحاجة إلى إجابات. إجابات سريعة تنهي كل شيء.. أو تبدأ كل شيء. ثلاث أسئلة ملحة. ولا أحد يملك إجابتها غيرها. بعد ساعات من التفكير بدت له نصيحة المحامية معقولة. إن كان يريد أن يعرف، فليسأل المعنيّة بالأمر.
كادت أنفاسه تنقطع حين اهتزّ هاتفه بصمت معلنًا وصول رسالة أبت إلا أن تعتصر قطرات صبره الأخيرة قبل أن تأتي. تألقت عيناه في تحفز وهو يقرأ ردّها المقتضب. كانت تفكر، وقررت الحديث إليه؟ إذن كانت مستيقظة في نهاية الأمر. ربّما أصابها الأرق.. من التفكير في ذلك السجين المتهم بالإرهاب؟ كبح جماح أفكاره المؤلمة بسرعة. سيعرف كل شيء بعد قليل، حين تجيب عن أسئلته. لا داعي لاستعجال النتائج.
فكر، كيف يبدأ الحديث؟ أصابه الارتباك فجأة وتجمّدت أصابعه على لوحة المفاتيح. هل يسأل عن حالها؟ أم يدخل مباشرة في صلب الموضوع؟ لا هذا ولا ذاك. كتب في ألم:
- "لم أستطع النوم. كان يومًا سيئًا".
ترقبت ياسمين الرّسالة التالية في حيرة وتوتر. بالتأكيد هناك رسالة تالية. لا يمكن أن يكون قد أرسل الأولى لمجرّد العلم بنومها من يقظتها. يريد شيئًا ما حتمًا. تذكرت كلمات ميساء الأخيرة قبل أن تنهي اتصالها منذ ساعات. هيثم كان ينتظر على الخط الثاني ليطمئن على حالها. ارتفع نسق نبضاتها فجأة. ليس مجدّدًا. إن تجرأ وأظهر شفقته فستلقنه درسًا لن ينساه. انحبست أنفاسها وعيناها تتجمّدان في الفراغ. أليست مثيرة للرّثاء حقًا؟ إنّها كذلك. إنّها كذلك. يا إلهي! لقد عادت إلى نقطة الصّفر بل غاصت تحتها في يوم واحد. وهذا الرّجل وصل في الوقت المناسب ليهيل على جثمانها حفنات التراب الأخيرة فترقد روحها إلى الأبد. ما عادت بداخلها طاقة لتلقن أحدًا درسًا في أيّ أمر كان.
كانت على وشك الغياب في نوبة بكاء جديدة، حين وصلت الرّسالة المنتظرة.
- "لم أستطع النوم. كان يومًا سيئًا".
أعادت قراءتها لمرّات في شك. هل هو من يشكو سوء يومه الآن؟ ومن العجيب أن التفكير في مغزى الرّسالة شغلها عن رغبتها المستعجلة في العويل. لوهلة فكرت في أن تكتب "يومي كان سّيئًا أيضًا". نوع من المساندة المعنويّة التي كانت هي أحوج الناس إليها. ورغم تساؤلها الفضولي عمّا عكر صفو يومه، فإن إحساسًا غريبًا بتدرّج الحديث نحو ألفة غير متوقعة أزعجها.

ألم ترفض طلبه بالزّواج بالأمس؟ كتبت في عصبيّة فجائية أصبحت تلازمها في الأوقات الأخيرة. بل كلما كان الأمر يتعلق بهيثم.

- "هل تريد الدّردشة؟ لا أظنّ الوقت مناسبًا".

كان هيثم قد غادر سريره وأخذ يذرع الغرفة بخطوات واسعة مضطربة. ما الذي دهاه حتى يشكو أمره إليها؟ كان يومًا سيّئًا؟ ماذا لو كان ردّها من قبيل "هذا أمر لا يعنيني" أو "لست مسؤولة عن أحوال الطقس" أو "اذهب وابكِ في حضن أمك"؟ ستكون ضربة موجعة لكبريائه ورجولته. لا، لن تفعلها. فهو يثق في أخلاقها. لن تُقدِم على جرحه بهذا الشكل وهو يشكو إليها جراح هواه. هل تفعلها؟ سرت في جسده قشعريرة باردة وهو يفتح رسالتها التي وصلت للتوّ. دردشة؟ يا إلهي، هذا أفظع! الآن أصبحت تحسبه من الشباب الضّائع الذي يضايق الفتيات في ظلمة الليل لمجرّد التّسلية والدّردشة الفارغة! احسم أمرك يا هيثم وإلا انتهت الليلة بما لا تحمد عقباه. بوجه متجهم وأنفاس مضطربة أخذ يرقن رسالته الجديدة. سيكون حازمًا هذه المرّة.

- "لا أريد الدّردشة أبدًا. هي أسئلة بسيطة أحتاج أجوبتها منك ولن أزعجك بعد ذلك".

إن كانت الإجابات كلها بـ"لا" فسيشرق فجر اليوم الجديد على حياة أكثر بهجة، أما إن كانت إجابة واحدة بـ"نعم" فسيتمنّى أن يدخل قمقم علاء الدين ولا يخرج منه إلا في بلاد بعيدة. بسم الله، كتب:

- "السؤال الأول: هل هناك رجل آخر في حياتك؟".

بدأ بالسؤال الأهمّ والأكثر حسمًا. لم يعد يستطيع الانتظار ليفصل الحق عن الباطل في هذا الموضوع. والآن فلتبدأ دقائق الانتظار المميتة.

لم تستطع ياسمين أن تمنع الابتسامة من التّسلل إلى شفتيها وهي تقرأ السؤال الأوّل. رجل في حياتها؟ هل فسّر حزنها على عمر بهذا الشكل؟ لا يلام إن اختلطت عليه الأمور. رفضها القاطع بالأمس والحزن الشديد الذي كانت ميساء شاهدة عليه اليوم، وبالتأكيد نقلت تفاصيله إليه، كفيلان بإحكام الالتباس. لم يكن بالعجرفة التي حسبتها فيه في نهاية الأمر. كانت مغتاظة من ردّه المتعالي على رفضها. "صفينا الحسابات القديمة". لكن وراء تلك الكلمات الباردة شديدة الثقة، كان هناك ارتباك وتوتر. قضى يومًا سيئًا؟ لم يستطع النوم؟ لأنّ الوساوس تراوده بخصوص أسباب رفضها؟ اندفعت دفقة دماء غير متوقعة نحو وجنتيها وصبغتهما بلونها القاني وشعرت بمغص مفاجئ. لا تذهب أفكارك بعيدًا يا ياسمين. تتبّعي الخيط إلى نهايته.

- "لا".

اكتفت بتلك الكلمة الواحدة ثم أراحت رأسها على مسند الأريكة وقد تبخرت كل رغبة لديها في البكاء. صار لديها موضوع شيّق يشغلها.. لبعض الوقت.

على الجانب الآخر، قفز هيثم في الهواء وهو يشدّ على قبضته ويطلق هتافات نصر مكتومة بين أسنانه حتّى لا يوقظ سكان الدّار الغارقين في النّوم. سيطر بسرعة على اندفاعه وقد تذكر أنه لم يحصل إلا على ثلث الإجابة. كتب السؤال الثاني وأرسل:

- "السؤال الثاني: هل أبدو شريكًا غير مناسب في نظرك؟".

كلمة "شريك" بدت له أخف وطئًا من "زوج" وأقلّ إحراجًا. كان بودّه أن يكون أكثر دقة وإسهابًا في هذا السّؤال بالذات. يريدها أن تصارحه بالعيوب التي تزعجها فيه، فربّما كان بإمكانه توضيح بعض الأمور أو الدّفاع عن نفسه، ويا حبذا لو استفاضت في تعديد مميزاته التي تجعل منه عريسا لا يفوّت! لكنه في هذا الظرف يحتاج إلى إجابة واضحة وقاطعة: هل رفضها متعلق بشيء في شخصه أو في سلوكه؟

توقفت ياسمين عند السّؤال الثاني في تردّد. عاد وجه لورا ليظهر أمامها في إلحاح. هل كانت علاقته بلورا سبب رفضها؟ ليس بالضبط. تلك النقطة في ماضيه تزعجها، لكنها تقدّر له تراجعه في الوقت المناسب. لقد أصلح خطأه في نهاية الأمر، ويمكنها أن تعطيه فرصة ليبرهن على التغيير الذي عزم عليه. إنّه يستحق تلك الفرصة.. لأسباب كثيرة. لأنّه شابّ طيّب من عائلة طيّبة، لأنّه وقف معها في محنتها، لأنه ما يزال يطلب ودّها رغم صدّها.

- "لا".

كتبت الرّدّ دون تفكير ثم تساءلت في شك: ما الذي جعلها تتسرّع برفضه بالأمس؟ الشفقة؟ تلك الفكرة الحمقاء التي دسّتها لورا في رأسها قبل أن ترفع أشرعتها وترحل في اتجاه جديد.. تبدو سخيفة الآن. لو كان دافعه الأول هو الشفقة لكان نسي أمرها مع طلوع الشمس. شفقة الرّجل تتحلل بسرعة حين تجرح كبرياؤه. لكن حبّه قد يتحمّل ضربات موجعة قبل أن يقرّر الاستسلام. ماذا قالت؟ حبّ؟ فغرت فاها في عدم تصديق. هل ذهب خيالها بعيدًا؟

من حسن حظ هيثم، لم تكن ياسمين هناك لتشهد رقصته الانفراديّة الصبيانية التي كان إيقاعها الوحيد ترنيمة مرتجلة دندنها بصوت منخفض حتى لا تتجاوز فضاء غرفته الضيق. فلم تكن لتتعرف على الشابّ الرّصين الذي تعوّدت رؤيته. لكنّه عاد بعد برهة وسيطر على فرحته السابقة لأوانها. فرفضها ما زال قائمًا حتى لو كانت تنفي تعلق الأمر بشخصه أو بشخص آخر يشغل فكرها.

- "السؤال الثالث: هل تمانعين في التفكير في طلبي مجدّدًا؟".

ضحكت ياسمين في استمتاع وهي تقرأ السّؤال الجديد. ها هو يخطبها مرّة ثانية خلال يومين، مستغنيًا عن لهجة الأمر المتعالية. إن لم يكن هذا تعويضًا عن الإهانة القديمة! بأنامل مرتعشة رقنت حرفي الكلمة الأخيرة وأرسلت:

- "لا".

الـــ"لا" الثالثة التي تعني تعليق أعلام الفرحة وإضاءة الفوانيس الملوّنة في غرفة هيثم وفي ثنايا قلبه. كان يومًا مجهدًا، لكنه انتهى على نوطة سعيدة. ارتمى على سريره وهو يتنهد في ارتياح. أطفأ الأنوار وأغمض عينيه للحظة ليملأ رئتيه بهواء سعيد، ثم على ضوء الشاشة الخافت كتب رسالته الأخيرة لتلك الليلة:

- "الآن يمكنني أن أنام. وربما تزورني بعض الأحلام السعيدة".

****

وضعت ياسمين الجهاز جانبًا وعادت لتستلقي في استرخاء وعلى شفتيها ابتسامة حالمة. كم من المدهش أن تنتهي سهرتها الكئيبة بهذا الشكل المتفائل. وكم من الغريب أن تتضاءل الهموم وتتقلص حين يشاركها أحد ما في حملها. لم تكن بحاجة إلى سماع الكلمات واضحة على لسانه، اهتمامه كان كافيًا. كما أنّ ذكرى خطابه السّابق عادت قويّة وحاضرة في ذهنها.

بإمكانها أن تمسك بزمام أمورها مجدّدًا. ورنيم ستهتمّ بمشكلة عمر بالتأكيد. هناك بصيص أمل وليد عاد ليدغدغ أحلامها ويمسح زجاج عدساتها المتسخ.

انتفضت في مكانها حين دار مفتاح في قفل باب الشقة. لقد غفت. هبّت واقفة لاستقبال رنيم التي ظهرت عند الباب وقد ظللت هالات سوداء عميقة عينيها. كان يبدو عليها الإرهاق الشديد. ألقت ياسمين نظرة سريعة على السّاعة التي تجاوزت عقاربها الرابعة صباحًا بقليل ثم هتفت في قلق:

- أين كنت حتّى هذه السّاعة؟

تهالكت رنيم على المقعد. أسندت رأسها إلى الخلف ومدّت أطرافها في استسلام وهي تغمغم بصوت مبحوح يكاد النعاس يودي به:

- في المكتب.

- كلّ هذا الوقت؟

سألتها ياسمين في ذهول وهي تجلس إلى جوارها. ابتسمت رنيم في وهن وهي ترنو إليها بنظرة جانبية من جفنيها المتثاقلين.

- كان يومًا طويلًا.

كان يومًا طويلًا بحق. حين أنهت مكالمتها مع كارولين توجّهت مباشرة إلى مكتبها. كتبت مذكرة مفصلة عن حوارها معها وتركتها على مكتب جورج. لن يكون لديها الوقت الكافي لتشرح كل شيء مشافهة في الغد. تمنّت حينها لو أنّها أخذت معها جهاز التّسجيل. فضلًا عن توثيق اعترافات كارولين المبهمة كانت لتختصر وقتًا ثمينًا لاستكمال بحثها. كريستوف وعلاقاته الغامضة بأطراف نافذة في عالم الطاقة، كانت تلك علامة الاستفهام الكبيرة التي ستقودها إلى حلّ إشكالات القضيّة كلّها. لم تغادر المكتب إلا بعد أن اطمأنت لترك بين يدي رئيسها ما يكفي من المعطيات حتى يواصل إجراءات الاستئناف في غيابها. لكنّها ستشرف على الخطوة الأولى بنفسها قبل رحيلها. صباح الغد سترافق كارولين إلى مكتب المدّعي العام حتى تطمئن إلى عدم تراجعها عن اعترافات ذلك المساء.

استمعت إليها ياسمين في انتباه وهي تلخص بكلمات مقتضبة مستجدّات يومها الحافل. بدأت بزيارة الحارس في مكتبها متحفظة على تفاصيل لقائها بهيثم. كانت مرهقة، وكانت تفضل إنهاء اليوم بأفكار مريحة تمكنها من الاستغراق في النوم بعد قليل. لكنّ ياسمين التي أثارت الأخبار السّارة حماستها، هتفت في ابتهاج:

- لا تتصوّرين كم كان نهار اليوم شاقًّا عليّ أيضًا.. حين رأيت الصور على الفضائيات وعلمت بالحكم الجائر الذي صدر بحق الدكتور عمر.. كدت أجنّ! لكن الحمد لله، هناك مخرج للأزمة.. أليس كذلك؟

هزّت رنيم رأسها موافقة وهي تبتلع غصّة. ها هو الحديث الذي حاولت تلافيه يسعى إليها هرولة. واصلت ياسمين وهي تستمتع بتحرّرها من الهواجس القاتمة التي لازمتها طوال النهار:

- من الجميل أن ينتهي هذا اليوم الذي حسبته أسوأ أيامي على خير.. هل تعلمين؟ هناك المزيد من الأخبار السّارة.

احتبست أنفاس رنيم في ارتياع. هل ستزفّ إليها خبر اكتشافها لحقيقة شخصية عمر؟ هل تكون قد حاولت زيارته أو تعريفه بنفسها؟ بل ربما أسوأ.. قد يكون كل منهما قد اعترف للآخر بمشاعره وتعاهدا على الوفاء والصبر والجهاد... إلخ.

- لقد خطبني هيثم.
- حقًّا؟

لم يكن الخبر جديدًا على رنيم. لكنّها رفضته. هكذا قال. أين الخبر السّعيد إذن؟ ثأرت لنفسها؟ تابعت ياسمين وابتسامة حييّة تزين وجهها:

- أظنه.. مناسبًا.. أليس كذلك؟
- مناسبًا؟

ضحكت ياسمين مدارية خجلها لكنّ نظرة عينيها كانت تشع بريقًا وشى بالسّعادة التي تخجل من إبدائها. ولم تفهم رنيم شيئًا! كان هناك بون شاسع بين ما فهمته من هيثم ظهر ذلك اليوم وما تقرؤه في عيني ياسمين، وقد قارب الفجر على البلوج.

- تعلمين.. لم أكن أفكر في زواج تقليديّ. لكنّه قد لا يكون سيّئًا في نهاية الأمر.
- أنت.. متأكّدة؟ ماذا عن الحبّ؟
- الحبّ قد يأتي بعد الزّواج..
- وقد لا يأتي!

صوت بداخلها كان يزجرها. يا غبيّة! ألم تكن تلك المعجزة التي تتمنّينها؟ لكنّ عاطفة صادقة تجاه ياسمين كانت تأبى عليها أن تدفعها في اتّجاه هيثم كأنّها تستعجل الخلاص.

- رويدك يا عزيزتي، إنها مجرّد خطبة.. سأصلي الاستخارة بطبيعة الحال.. لكنني أشعر بـــ... نوع من الارتياح المبدئي.
- آه.. تهانينا إذن.

دقّ قلب رنيم بشدّة وهي تبادل ياسمين ابتسامتها. كل شيء يبدو خياليًا في تلك السّاعة وهي التي تعاني من إرهاق شديد يمنعها من التفكير المتزن. تذكرت شيئًا هامًّا. أمر آخر عليها الانتهاء منه قبل رحيلها. انحنت لتفتح حقيبة يدها التي استقرت على الأرض في إهمال وأخرجت منها لفافة ورقية مكتنزة.

- لديّ طلب أخير.. هل يمكنني أن أعتمد عليك في حفظ سرّ صغير؟
- سرّ؟

طالعتها ياسمين في فضول ثمّ توقفت نظراتها على اللفافة التي مدّتها رنيم تجاهها.

- هذه خمسون ألف يورو.. كنت أريد تسليمها إلى عمر حال مغادرته السّجن.. من أجل عمليّة التّجميل لحروقه.. لكن يبدو أن ذلك سيتأخر قليلًا.. لذلك.. أرجو منك الاحتفاظ بها لبعض الوقت. يمكنك إيداعها في حسابك.. وإن حصل وأطلق سراحه في غيابي سلميها إلى جورج حتى يوصلها إليه.. بصفتك ممثلة لجمعية خيريّة تعنى بحقوق الإنسان أو ما شابهها.

قاطعتها ياسمين في حيرة:

- خمسون ألف يورو؟ من جمعية خيرية؟ ما الذي يجري رنيم؟

زفرت رنيم في ضيق وهي تتمتم:

- لا أريده أن يعرف أن المبلغ من طرفي.. لن يقبله. أمّا إذا كان من طرف مجهول أو من منظمة ما فسيبدو مثل ردّ اعتبار أو

تعويض من المجتمع المدنيّ. هل فهمت؟

رنت إليها ياسمين في صمت. لم تكن هناك كلمات تعبّر عن إكبارها لما تفعله رنيم. روح العطاء بداخلها أكبر من كلّ كنوز الدّنيا. كانت تتندّر بشأنها في سرّها وتقول: رنيم وهبت حبيبها الأوّل كلية، ولعلّها لن تتردّد في إهداء الثاني كليتها الثانية، لو أمكن لبشر أن يعيش بدون كلى!

- هذا مبلغ مبدئي. لا أدري كم ستكون تكلفة العمليّة، أو العمليّات. لكنّ هذا المبلغ سيمكنه من استرجاع ثقته بنفسه والإقبال على الحياة. سأتدبّر أمري لاحقًا إن كانت الكلفة أكبر من ذلك.

احتضنتها ياسمين بشكل مفاجئ جعلها تتسمّر مكانها.

- ياسمين، أنت بخير؟

دون أن ترفع رأسها، همست ياسمين في أذنها:

- فك الله أسره قريبًا.. وجمع بينكما في خير.

لم تدر رنيم أيّ الأحاسيس غلبت في تلك اللحظة. الدّهشة أم الغبطة أم الحياء.. لكنّه كان أجمل دعاء طرق مسامعها حتى ذلك اليوم، ومن آخر شخص ظنّت أنه قد يرد على لسانه. لوهلة، صدّقت بأن المعجزات قد تغدو حقيقة.

****

وصلت إلى رصيف المترو قبل الموعد بنصف ساعة. كانت مستعجلة. لم يكن هناك شك في ذلك. لكنّ مُواعِدتها لم تكن على نفس القدر من الحماسة. أيقنت بذلك بعد أن مرّت ساعة كاملة وهي تقف عاقدة ذراعيها أمام صدرها في صمت خاشع، ترقب عربات المترو التي تتوقّف الواحدة تلو الأخرى، فتلفظ أعدادًا لا حصر لها من المسافرين من أبوابها المشرعة ثمّ تبتلع غيرهم وتغلق الدّفتين المعدنتين في صكة حاسمة قبل أن تصفر وتزمجر مبتعدة، مبدّدة في كل مرّة قسمًا إضافيًّا من آمال رنيم.

دون أن تتحرّك من مكانها، كانت تتصفّح الوجوه المتخلفة على الرّصيف في اهتمام في البداية، ثمّ في فتور آخذ في التنامي، حتّى يتفرّق جميعهم عبر منافذ الخروج، ثم يأتي غيرهم ليتكرّر المشهد. حين أصبح مقدار التأخير ساعة إلا ربع، استعملت هاتفها. أصغت إلى المجيب الآلي في كلّ مرّة وهو يعلن تغيّب صاحبة الخط. طوال السّاعتين التاليتين دأبت على معاودة الاتصال كلّ خمس دقائق، دون أن تحصل على أيّ ردّ.

تساءلت مقاومة اليأس، كم من الوقت عليها أن تنتظر قبل أن تقرّر بأنّ كارولين لن تأتي أبدًا؟ إن كان التّأخير المقبول في معظم دول أوروبا يقدّر بربع ساعة فقط، ففي بعض بلدان أمريكيا اللاتينيّة، يمكنك انتظار شخص ارتبطت معه بموعد لمدّة ثلاث ساعات دون أن يعتبر مجحفًا في التأخير. حين أوشكت ساعة الانتظار الثالثة على الانتهاء أدركت أنّ أكثر اللاتينيين رحمة لن يكون متسامحًا لتضييع كل ذلك القدر من وقته في عاصمة السّرعة والحركيّة. لن تأتي كارولين.

في هدوء، تهالكت رنيم على مقعد بلاستيكي شاغر ملتصق بجدار الرّصيف تحت الأرضي وفي عينيها خواء وشرود. كانت الأشياء تتداعى من حولها في صمت، رغم صخب المكان وكثرة مرتاديه، فلم يعد هناك حضور يشدّها إلى الواقع غير أفكارها. وغاصت في قمقمها.

ارتفع رنين هاتف فجأة، قريبًا جدًّا منها. كان هاتفها. تسلل صوته على استحياء متخللًا الفراغ الذي يلفّ ذهنها. ثمّ توقّف،

قبل أن يعود من جديد في إلحاح أكبر يشدّها من الأعماق، حتى انتفضت ورفعته إلى أذنها، دون أن تتكلم.

- رنيم، أين أنت؟ الطائرة ستقلع بعد ساعتين. يجب أن تكوني في المطار الآن!

الطائرة. المطار. الرّحيل. لقد سبحت في الفراغ لوقت طويل وأصبح عليها أن تعود إلى الواقع. بصعوبة حاولت استرجاع مداركها التي تعطلت لبضع دقائق. هناك تذكرة باسمها إلى مصر، وشخص ينتظرها في المطار هو والدها. حقيبة حاجيات جمعتها على عجل قبل الفجر مستقرّة عند عتبة غرفتها تذكرها بالموعد الثاني لهذا اليوم الحاسم. وكان السؤال الملحّ الذي ينتظر الردّ عليه الرّجل المتوتر على الهاتف: هل تخلف موعدها الثاني لأنّ شخصًا ما أخلف الموعد الأول معها؟

استمرّ والدها في الصراخ واستمعت هي بذهن غائب. إذا رحلت الآن فلن تتمكن من الحصول على اعترافات كارولين. مهما تركت من توصيات لجورج فهو لن يستعمل العنف أبدًا، وقد لا يتوصّل إلى شيء معها. وقد لا يعثر عليها أصلًا.. هل ستكون هي أكثر حظًا منه؟ غياب كارولين اليوم قد يعني أنها فكّرت مليًّا واختارت ركوب أوّل طائرة تغادر فرنسا إلى وجهة غير معلومة، وفي أهون الحالات، تكون قد قرّرت الاختفاء والتّواري عن الأعين حتّى تنسى رنيم أمرها، ولن يكون من السهل العثور عليها بعد ذلك.

إذا رحلت الآن، سيحصل عمر على خمسين ألف يورو مهما حصل، وإن لم تفعل فقد يعاقبها والدها باستردادها وربّما أفظع.. يقطع عنها المساعدات ويسدّ أمامها الطرق حتى تستسلم. معاداة والدها ليست بالأمر الهيّن وهي أعلم الناس بطول ذراعه.

إذا رحلت الآن فيمكنها العودة بعد فترة قصيرة بعد أن يطمئن والدها إلى استرجاعها صحّتها. سيتحمّل عمر أسبوعين إضافيين أو ثلاثة من الأسر حتى تعود لاستلام زمام الأمور. وجورج سيقوم بالإجراءات الممكنة في غيابها.. طلب عفو أو محاولة استئناف مبنية على شهادة مهزوزة.

- أنا آتية.. حالًا.

تمتمت بصوت خفيض مختنق، ثم أغلقت الخط. حثّت الخطى وسط الزّحام بخطوات متعثرة، يضرب كعبها في قلبها مباشرة كلما لامس الأرض، وفي العين دموع حبيسة تطلب حرّيتها. سترحل الآن، لكنها ستعود. ستعود قريبًا.. قريبًا جدًا.

تمّت بحمد الله